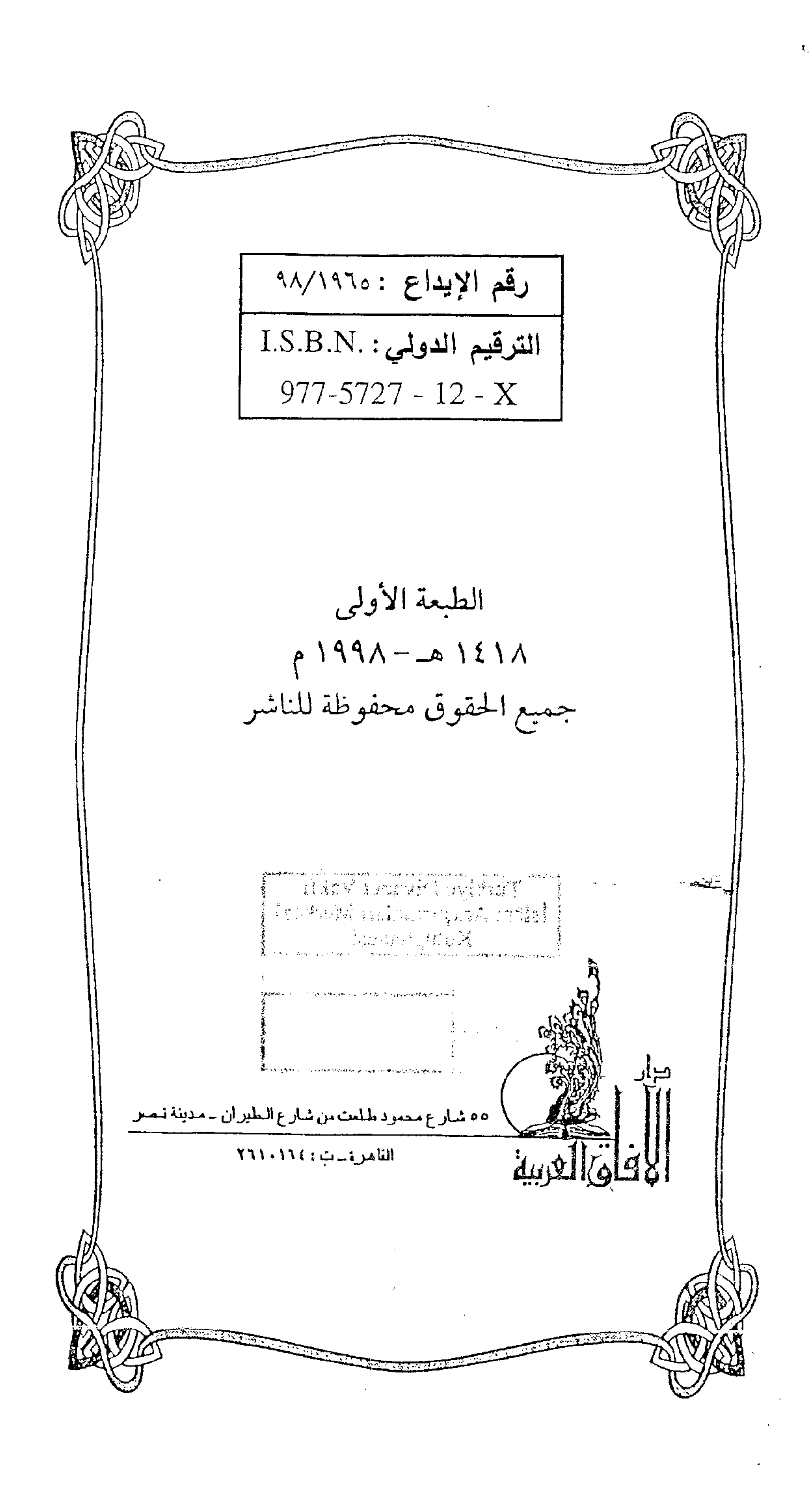


جمال الحسيني أبو فرحه





رقم الإيداع : ٩٨/١٩٦٥

الترقيم الدولي : I.S.B.N.
977-5727 - 12 - X

الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

دار الآفاق العربية

٥٥ شارع محمود طلعت من شارع الطيران - مدينة نصر
القاهرة - ت : ٢٦١٠١٦٤



ميــزان النبوة

« المعجــزة »



جمال الحسينى أبو فرحة

تقديم

فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون ﴾

(الأنبياء : ٣٧)

شكر وتقدير

« لا يشكر الله من لا يشكر الناس »

حديث شريف

اتقدم بخالص شكري وامتناني العميق

لوالدي الأستاذ الدكتور : الحسيني أبو فرحة

ولوالدتي المرحومة الدكتورة : كاملة الأنوار حجاب

اللذين كان لهما كل الفضل على مشوار حياتي العلمي

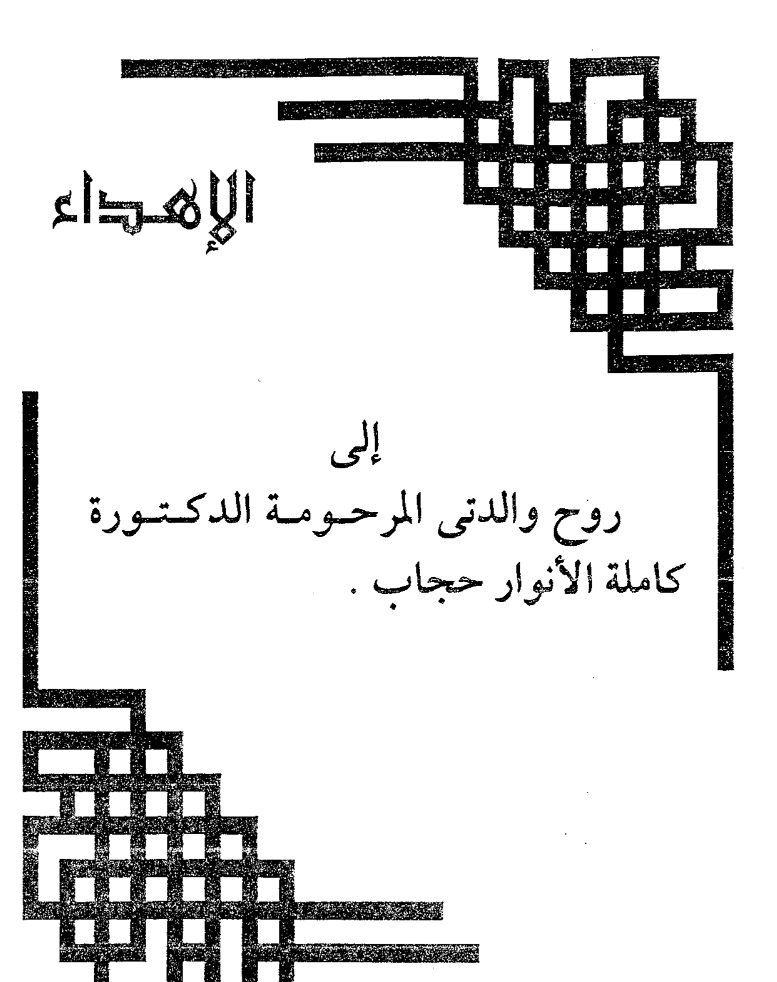
كما اتقدم بكل الامتنان والشكر والعرفان لأبي الروحى فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي الذي لم يبخل على بوقته وعلمه والذي شرفني بتقديمه لكتابى هذا .

وأخص بالذكر والشكر أيضاً أستاذى الجليل الأستاذ الدكتور : عبد الفتاح أحمد الفاوي

الذي كان لغزير علمه ودقة ملاحظته الفضل الأكبر في مساعدتي لإتمام هذا العمل

كما اتقدم بخالص شكري وامتناني وعرفاني لشريكة حياتي الأستاذة : أميرة فتح الله التي كان لها الفضل الكبير الذى لا ينسى في مساعدتي في الضبط والتدقيق والعمل على تهيئة ظروف الكتابة .

الإهداء



إلى

روح والدتى المرحومة الدكتورة

كاملة الأنوار حجاب .

تقديم

بقلم فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر
الأستاذ الدكتور : محمد سيد طنطاوى

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فقد اطلعت على الكتاب القيم الذى موضوعه «ميزان النبوة» لابننا الفاضل الأستاذ: جمال الحسينى أبو فرحة وقد سرنى ما أشتمل عليه هذا الكتاب لجهوده الطيبة فيه حيث كتبه بروح إسلامية خالصة وبتحقيق علمى عميق يدل على صدق الإيمان، وإخلاص النية وتحرى الحق ، ورجاحة العقل .

أسأل الله تعالى أن ينفع به عباده ، وأن يجعله فى ميزان كاتبه وأن يكتب لنا وله التوفيق والسداد فى القول والعمل .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

تحريراً فى ٢٢ من ذو الحجة ١٤١٧ هـ
٢٩ من إبريل ١٩٩٧م

شيخ الأزهر
محمد سيد طنطاوى

مقدمة المؤلف

لا شك أن الإنسان - بما هو إنسان - إنما يقاد بفكره، فالفكر هو أساس السلوك الإنسانى .

وإذا كان هناك نسقان رئيسان للفكر الإنسانى هما النسق الإيمانى والنسق الإلحادى فبالطبع يتأدى ذلك إلى نسقين سلوكيين متباينين وإذا كان للعقل دور فى اختيار أحد هذين النسقين فأزعم أن للمعجزة أيضاً دوراً فى ذلك .

بل يتعدى دورها من مجرد اختيار أحد هذين النسقين الرئيسين إلى اختيار نمط إيمانى معين متفرع عنهما يعد ركيزة لكل ما يصدر منا من أفعال .

ولا شك أنه في هذه المرحلة التاريخية التى كادت أن تتلاشى فيها الحدود والفواصل المكانية. أصبحت المواجهة محتومة بين هذين النسقين الفكريين الرئيسين، بل وبين ما يتفرع عن كل نسق منهما من أنماط .

وأصبحت هذه المواجهة تعنى: إما انصهار الجميع فى بوتقة واحدة لا لون لها، وإن شاب لونها ظلال من لون ذلك النمط الأقوى أو من لون ذلك النمط الذى يعتنقه الأقوى .

وإما أن تعنى هذه المواجهة اكتساح أحد هذه الأنماط للأنماط الأخرى، إما لكفاءته، وإما لكفاءة أنصاره .

ولكن لابد في مثل هذه الأمور المصيرية[1] ألا تترك للظروف ومقتضياتها. أو للأقوياء وتدبيراتهم.

ومن ثم فلابد من مساهمة واعية [2] من أنصار هذه الأنماط المختلفة في البحث عن الحقيقة وجلائها .

لأن فاعلية الحقيقة لا تظهر إلا إن أدلى في البحث عنها بدلوه كل من له صلة بها .

---

(١) يقول تعالى:«وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين» سبإ (٢٤) .

(٢) لا شك أن الإيمان خارجا عن أصول العقل والحكمة ينتهي إلي الحماس الذي يسلم الإنسان إلى العاصفة ويفقده حس الاتجاه.ومن ثم كان إعمال العقل والتجرد من الأهواء هو حقا ما تحث عليه الرسالات السماوية الكبرى وتلح«ليهلك من هلك عن بينه ويحى من حى عن بينه» الأنفال ٤٢ .
ففي القرآن يقول تعالي :« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .
النساء ٨٢ =

وتتبدى أهمية هذه الدراسة من ناحية أخرى.

من أن المكتبة العربية، يصعب أن نجد بها دراسة مستقلة مستفيضة لطبيعة المعجزة وحجيتها .

ففي البحوث القديمة يندر أن نجد كتابا يخلص للحديث عن المعجزات كرسالة ابن تيمية «قاعده شريفة في المعجزات والكرامات»، ورسالة ابن كمال باشا «في حقيقة المعجزة ودلالتها على صدق من ادعى النبوة»، وكتاب الباقلاني «البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات» على صغر هذه البحوث .

وفي الدراسات الحديثة كذلك، يندر أن نجد كتابا يخلص للحديث عن المعجزة وطبيعتها وحجيتها تقول مرسيا إليد في عبارة جريئة : « ليس هناك كتاب شامل يبحث في موضوع المعجزات في تاريخ الأديان العام » [1] .

وإن كنت أنوه هنا بذلك الكتاب الذي شارك في وضعه عدد من الباحثين الغربيين، وترجمه إلى العربية الأب صبحي حموي اليسوعي، بعنوان« المعجزات في الإنجيل» وهو وإن كان يمثل دراسة جادة في موضوع المعجزات، إلا أنه يحصر موضوع بحثه في المعجزات في الإنجيل فقط. وهو وإن نحا منحى عقليا في الدراسة إلا أن منطلقاته في كثير من الأحيان كانت تنبع من العقيدة المسيحية، هذا بالإضافة إلى صغر حجمه حيث لا يتجاوز السبعين صفحة .

وإن كانت توجد كثير من الدراسات العربية الحديثة خالصة للحديث عن المعجزات - إلا أن هدفها يختلف عن هدفنا هنا، فهدفها سرد تلك المعجزات وتوثيقها من حيث الرواية[2] أما هدفنا هنا فهو فهم طبيعتها، ومدى حجيتها.

= ويقول تعالى : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد» سبإ (٤٦) وفي العهد الجديد ورد على لسان المسيح عليه السلام: «فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية » . يوحنا ٥ / ٣٩ .

ويقول بولس الرسول :« لا تحتقروا النبوات.امتحنوا كل شيء تمسكوا بالحسن» رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل تسالونيكي ٥ / ٢٠ - ٢١ .

(١) انظر . Mircea Eliade: The Encyclopedia of Religion Vol . 9 . p . 548.

(٢) في تخريجي للأحاديث النبوية الشريفة حرصت على توثيقها من حيث المعنى أكثر من حرصي على =

واقتصرت دراسة المعجزة في معظم الأحيان على الدراسة الموجزة بالنظر إلى زاوية واحدة منهـا أوعدة زوايا وغالبا مـا كان ذلك فى إطار موضوع يتـحدث عن النبوات إما بوجه عام، وإما من زاوية معينة أيضاً .

ومن ثم فـقد رأيت أن المكـتبـة العربـية في حـاجة مـاسـة إلى بحث هذا الموضوع، واستكناه جوانبـه في بحث يضم أشتاته المتفرقة، ملقـيا مزيد ضوء على كثير من الجزئيات التي أغفلت، أو كـادت أن تغفل في الدراسات السابقة، أو كانت مثار خلاف بينها .

جمال الحسينى أبو فرحة

القاهرة ، مدينة نصر في ٢٩ / ٤ / ١٩٩٧ م

= توثيق اللفظ لأنا هنا فى مجال البحث الفلسفي لا في مجال البحث الحديثي واهتمامنا منصب على المعاني والأفكار دون الألفاظ فإذا كان الحديث من البخاري أو مسلم فقد ارتضينا رأي الجمهور القائل بصحته صحة مطلقة،وإن لم يكن منهما فقد حرصت على ذكر درجته ما لم أذكر حديثا آخر صحيحاً يحمل نفس المعنى.وربما أغفلت ذكر درجة الحديث إذا كان الهدف منه مجرد الاستئناس.وإذا كانت صحته لا ينبنى عليها أمر ذو بال في هذا البحث.وذلك حين نسلم بصحته جدلا ولا ينبني على ذلك طعن في ما ذهبنا إليه من آراء والمقصود بصحة الحديث هنا بالطبع صحته في تمثيل الإسلام لا في بناء ميزان النبوة فهذا الميزان لا يمكن أن يكون لبناته بالطبع إلا العقل الصريح الذي قد يستأنس بالشرع،لأنه لا يمكن الاستشهاد على صحة النبوة بالسمع لأن السمع لم يثبت بعد وهو دور .

الباب الأول

المعجزة

- تعريفها
- شروطها
- حكمتها

الفصل الأول
تعريف المعجزة

ـ المعجزة في اللغة

المعجزة اسم فاعل مأخوذ من الإعجاز مصدر أعجز، وهي عبارة شائعة على التوسع والاستعارة والتجوز، فإن المعجـز على التحقيق خالق العجز في غيره، وهو الله تعالى، كما أنه هو المقـدر لأنه فاعل القدرة في غيره فالإعـجاز وصف المتحدى أسند إلى ما تحدي به مجازا من قبيل إسناد الشيء إلى سببه .

وقيل إن الـتاء للنقل من الوصـفيـة إلى الإسميـة كمـا في الحقـيقـة، وقيل للمبالغة، كما في العلامة والنسابة والراوية .

وقيل إن في إطلاق لفظ «معجزة» مجازا وتوسعا من وجه أخر .

فيرى بعض العلماء ومنهم البـاقلاني والجويني أنه لا يصح وصف الأمر بأنه معجز إلا إن صـحت القدرة عليه [1] لأن العجز عن العـجز غير متصور فـالعجز يفترض منطقيا قدرة سابقة عليه ومن ثم فإن معجزة النبي: «مما لا يدخل تحت قدر العباد لامتناع كونها مقدورة لهم ...... لا لعجزهم عنها ومنعهم منها» .

ومن ثم فإطلاق لفظ معجزة على خوارق الأنبياء المؤيدة لهم إنما هو من باب المجاز .

ويستـدل الباقلاني على ذلك بأنه لوجـاز وجود العجـز عن ما يستـحيل أن يكون مقدوراً لـهم لصح وصفهم بالعجـز عن ذات القديم سبحـانه، وذات صفاته

(١) من المحال «أن يقال في هذا الفصل إن العاجز يعجز عن ما يقدر عليه غيره على التحقيق من الخلق،لأن المقدور الواحد لا يصح أن يكون مقدورا لقادرين محدثين حتى يصح أن يقدر عليه أحدهما ويعجز عنه الآخر ..... ومتى قيل (إن زيداً يعجز عما يقدر عليه عمرو) و(أنا عاجز عما أنت عليه قادر) فالمراد به على التحقيق أن زيداً يعجز عن مثل ما يقدر عليه عمرو لا عن نفس مقدور عمرو لأن قدرته عليه وعجزه عنه محال فوجب أن يعلم أن هذا معنى وصف العباد بأنهم يعجزون عن آيات الرسل وعن مثلها

الباقلانى البيان ص ١٢

الذاتية ووصفهم بالعجز عن إبداع الأجسام واختراع الأنام وغير ذلك من الأجناس التي لا يصح أن يقدر عليها إلا رب العالمين .

ويؤكد الباقلاني على ذلك بأن القديم سبحانه إذا قدر على خلق الشيء وجب كونه قادرا على خلق ضده ونقيضه، وإذا ثبت ذلك، وثبت أنه سبحانه قادر على أن يعجز الخلق عن إظهار المعجزات وفعل الآيات، وجب أن يكون إيضا قادرا على أن يقدرهم على ذلك بدلا من العجز عنه لأن ما قدر على أن يعجز عنه قدر على الإقدار عليه بدلا من العجز[1].

وبالطبع فإنه لا يخفى ما في كلام الباقلاني هنا من مخالفة للواقع المشاهد، فمن المعجزات ما كان منع [2] من قدرة كانت من قبل كعصمة الله تعالى نبيه ﷺ من القتل كما أن منها مالا قدرة عليه أبداً كالقرآن الكريم .

بل إن الباقلاني يناقض نفسه في موضع آخر من كتاب البيان حين يذهب إلى أنه لا فرق بين المعجزة والسحر على الإطلاق إلا بالدعوى والتحدى[3]

وأما قول الباقلاني السابق الذكر: «إن القديم إذا قدر على خلق شيء قدر على خلق ضده ونقيضه» فلا يصح الاستدلال به على أن المعجز هو «ما لا يدخل تحت قدر العباد» فلسنا في حاجة إلى العلم بأنه تعالى قد خلق شيئا حتى نعلم أنه قادر على خلق ضده ونقيضه، بل قدرته تعالى مطلقة، ولا يحدها شيء. ، لكنه تعالى يقدر ولا يفعل لحكمة، فهو يقدر على خلق المعجزة على يد الكاذب، ويقدر على إقدارنا على معارضة النبي الصادق ولكنه لا يفعل لحكمة .

---

(١) انظر الباقلانى : البيان ص ٨ : ١٣

(٢) لقد اختلف العلماء حول ما إذا كان العجز صفة عدمية أو وجودية ويجيب الطوسي على هذا الخلاف إجابة موفقة حين يقول «إن كانت القدرة عبارة عن سلامة الأعضاء فالعجز عبارة عن آفة تعرض للأعضاء ويكون حينئذ وجودياً والقدرة أولى بأن لا تكون وجودية، لأن السلامة عدم الآفة... أما إن كانت القدرة هيئة تعرض عند سلامة الأعضاء يعبر عنها بالتمكن أو بما هو علة له، فالعجز عدم تلك الهيئة فالقدرة وجودية والعجز عدمي». الطوسى : تلخيص المحصل ص ١٠٧ وفى ذلك أيضا يقول الآمدى: إن المعجز إن كان عدميا فالمعجز عدم خلق القدرة فلا يكون فعلا، وإن كان وجوديا فالمعجز هو خلق العجز فيهم فيكون فعلا. انظر ابن كمال باشا: مجموعة الرسائل: رسالة فى المعجزة جـ١ ص١٣٩ . والجوينى: الإرشاد ٢٦٠ : ٢٦١ فالأمر إذن نسبى، ويعتمد على الزاوية التى ينظر منها إلى الموضوع، والخلاف شكلى ولا أهمية له، والمهم أن المخاطبين بالمعجزة لا يأتون بمثلها ويشعرون فى قرارة أنفسهم باستحالة ذلك منهم .

(٣) انظر الباقلانى: البيان ص ٤٧ ، ٩٤ : ٩٧
وانظر شروط المعجزة الشرط (١٩) اشتراط الادعاء والتحدى .

مصطلح معجزة :

إذا كنا قد أوضحنا أن في استخدام مصطلح«معجزة»توسعاً ومجازاً وإذا كانت صيغة «عجز» قد وردت في القرآن الكريم ستا وعشرين مرة بتصاريفها المختلفة [1] ولم تحمل في أي مرة من هذه المرات أية دلالة اصطلاحية .

بل ان المعنى الاصطلاحى عبر عنه القرآن بصيغ أخرى مثل«الحق» «البينات» «الآية» «السلطان» «البرهان» «الفرقان» .

قال تعالى [2] ﴿**فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين،قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا**﴾ .وقال [3] ﴿**ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات**﴾ وقال [4] ﴿**ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات**﴾ وقال [5] ﴿**وآتينا عيسى بن مريم البينات**﴾وقال [6] ﴿**وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون**﴾ وقال [7] ﴿**فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه**﴾وقال [8] ﴿ **فأراه الآية الكبرى** ﴾ .وقال [9] ﴿**وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين**﴾ .

وعبرت الترجمة العربية للعهد الجديد من الكتاب المقدس عن المعنى الاصطلاحي بصيغ مثل «آية» و«عجيبة» و«قوة» و«عمل» .

مثال ذلك: ما ورد في إنجيل متى على لسان الكتبة والفريسيين [10] عندما قالوا: «يا معلم نريد أن نرى منك آية،فأجاب وقال لهم: جيل شرير وفاسق يطلب آية ولا تعطى له آية إلا آية يونان النبي» [11]

وورد كذلك في إنجيل «متى» على لسان المسيح عليه السلام: «كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم، يارب يارب أليس باسمك تنبأنا، وباسمك أخرجنا

---

(١) انظر[المائدة:٣١][الجن ١٢]- [فاطر:٤٤] [الأنفال:٥٩] [هود:٧٢] الذاريات:٢٩] [الشعراء:١٧١] [الصافات:١٣٥] [القمر:٢٠] [الحاقة:٧] [الحج:٥١] [سبأ:٥، ٣٨] [الأحقاف:٣٢] [التوبة:٢ ، ٣] [الأنعام:١٣٤] [يونس:٥٣] [هود:٢٠،٣٣] [النحل، ٤٦] [النور:٥٧] [العنكبوت:٢٢] [الزمر:٥١] [الشورى:٣١] .

(٢) يونس : ٧٦ ، ٧٧. (٣) الروم : ٤٧ . (٤) الإسراء : ١٠١ . (٥) البقرة : ٨٧ ، ٢٥٣ .

(٦) البقرة : ٥٣ . (٧) القصص : ٣٢ . (٨) النازعات : ٢٠ .

(٩) الذاريات : ٣٨ . (١٠) الكتبة والفريسيين: هما فئتان من رجال الدين اليهودى .

(١١) متى الأصحاح(١٢) آية (٣٩).

شياطين، وباسمك صنعنا قوات كثيرة ؟» [1].

أما الصيغة الثالثة والأكثر شيوعاً فـهي كلمة«عجيبة»ونجد هذه الاستعمالات الثلاثة معـا في سفر أعمال الرسل، فـفيه « .... يسوع الناصـري رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقـوات وعجائب وآيات صنعـها الله بيده في وسطكم كـما أنتم أيضاً تعلمون» [2].

والصيغة الرابعة وهي كلمة «عـمل»فنجدها على سبيل المثال في إنجيل يوحنا على لسان المسيح عليه السلام في قوله [3]: «من يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضا ويعمل أعظم منها ».

فيتبين لنا من ثم مدى القصور في استخدام لفظة «معجزة» للتعبير عن المعنى الاصطلاحي المطلوب .

إلا أنه لا يخفى ما في مصطلحات مثل «خـارق للعادة»، «عجيبة» ، «عمل» ، «قوة»، «آية»[4] «حق»، «بينة»، «سلطان»، «برهان»، «فرقان»، من قصور.

فكل هذه المصطلحات تتمـيز بالعموم، وخوارق الأنبيـاء الدالة على صدقهم إذا وصفت بذلك فينبغي أن تقيد بما يختص بها.

ثم إنه «وإن كان اسم«المعجزة» يعم كل خارق للعادة في اللغة وعرف الأئمة

---

(١) متى الأصحاح السابع آية (٢١ ، ٢٢) . (٢) أعمال الرسل : الأصحاح الثانى آيه (٢٢) .

(٣) يوحنا الأصحاح الرابع عشر آية (١٢) .

(٤) ويفرق بعض العلماء بين الآية والمعجزة بأن «الآية تدل على صحة ما جاء به [النبى] وإن لم يتحد بها والمعجزة مشروطة مع ذلك بالتحدى » .

السنوسى : شرح الكبرى ص ٤٧٥

ويرى بعض آخر أن الآية هى ما اصطلحنا على تسميته بالمعجزة المعنوية وأن المعجزة هى ما اصطلحنا على تسميته بالمعجزة الحسية

انظر حسن حنفى :من العقيدة إلى الثورة حـ٤ ص٧٣ و انظر تعريفنا للمعجزة المعنوية فى الفصل الأول من الباب الثالث

المتقدمين كالإمام أحمد بن حنبل وغيره» [١] إلا أنه قد تطور لغويا حتى أصبح يدل على آيات الأنبياء وبراهينهم دلالة لا لبث فيها، وذلك شأن اللغة التطور.

يقول ابن تيمية [٢] «لكن كثيراً من المتأخرين . . . يجعل المعجزة للنبي. . .» ومن ثم فلا مشاحة في الاصطلاح .

وإذا كان القرآن الكريم بل والكتاب المقدس لم يطلقا على المعجزة اسما واحداً ولكنهما أطلقا عدة إطلاقات كما سبق بيانه، وكل منها يرى المعجزة من منظور معين، بملاحظة صفة من صفاتها فلا مانع إذا من تجاور كل هذه الإطلاقات معا .

وخاصة أن «مصطلح آية الذي أكثر القرآن من ذكره قد يكون الهدف منه الإشارة إلى أن الغرض الأصلي من هذه الخوارق هو الدلالة على صدق الأنبياء لا إعجاز البشر فهي آية وعلامة صدقهم أولاً وعجز الناس عن الإتيان بمثلها غرض ثان لا أول جاء عن طريق التبع لا عن الأصل.

ثم إنها معجزة بالنسبة للبشر لا لله سبحانه وتعالى فهي بالنسبة لله سبحانه وتعالى آيته على صدق أنبيائه ومن ثم ذكرها باسم الآية، وهي بالنسبة للبشر معجزة عجزوا عن الإتيان بمثلها لذا ذكروها باسم المعجزة .

على أن الفلاسفة يذكرونها أكثر ما يذكرون باسم الخوارق لأنها الكلمة التي تطرد عندهم مع السبب أو العلة » [٣] .

المعجزة في الاصطلاح :

يعرف السنوسي المعجزة بقوله «هي فعل الله سبحانه الخارق للعادة المقارن لدعوى الرسالة متحدى به قبل وقوعه غير مكذب يعجز من يبغي معارضته عن الإتيان بمثله » [٤] .

---

(١) ابن تيمية :قاعدة شريفة ص ٥ .

(٢) السابق ص ٥ .

(٣) عبد الفتاح الفاوى:النبوة بين الفلسفة والتصوف (رسالة دكتوراه) ص ١٩٣ .

(٤) السنوسى : شرح الكبرى ص ٤٣٨ .

ويعرفها القاضي عبد الجبار بأنها الفعل الذي يدل على صدق المدعي للنبوة وهو على أوصاف وشرائط، أحدها: أن يكون من جهة الله تعالى أو في الحكم كأنه من جهته، والثاني: أن يكون واقعا عقب دعوى المدعي للنبوة والثالث: أن يكون مطابقاً لدعواه، والرابع: أن يكون ناقضا لعادة من بين ظهرانيه، ثم إنه لا بد من اعتبار أن يكون من جهة فاعل عدل حكيم أوفي الحكم كأنه من جهته [١].

ويعرف الإيجي المعجزة بأنها ما قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول الله ولا بد لها من شروط سبعة: أن تكون من فعل الله أو ما يقوم مقامه، أن تكون خارقة للعادة، أن تتعذر معارضتها. أن تكون ظاهرة على مدعى النبوة أن تكون موافقة للدعوى، ألا تكون مكذبة للنبي، ألا تتقدم على الدعوى [٢].

ويجعل الجويني المعجزة أنها: فعل لله، خارقة للعادة متحدى بها، تظهر على وفق الدعوى، لا تتقدم على الدعوى، لا تظهر مكذبة للنبي [٣].

ومن ثم يتبين لنا أن المعجزة في الاصطلاح لها تعريفات كثيرة مختلفة، ويرجع هذا الاختلاف إلى الاختلاف حول شروطها وفروقها عن غيرها من أشباه الخوارق.

وبعض هذا الخلاف شكلي فكثير من الشروط التي ذكروها يؤول بعضها إلى بعض [٤] بل إن ذلك قد نجده في التعريف الواحد فيذكر عدة شروط وهي في الحقيقة شرط واحد.

كما يرجع هذا الخلاف أيضا إلى عدم فهم طبيعة شرائط المعجزة «فشرائط المعجزة على نوعين أحدهما ما لابد منه في تحقيق ركنها وثانيهما ما لابد منه فى دلالتها على صدق من يدعي النبوة [٥].

---

(١) انظر القاضى عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة ص ٥٦٨ : ٥٧١.

(٢) انظر الإيجى: المواقف ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠. (٣) انظر الجوينى: الإرشاد ص ٢٦١ ـ ٢٦٦.

(٤) يقول ابن كمال:[إن اشتراط تعذر المعارضة يغنى عن اشتراط كون المعجز خارقاً للعادة لاستلزام أحدهما الآخر،فلاوجه لعد كل منهما شرطا على حده

(انظر ابن كمال :رسالة فى حقيقة المعجزة ودلالتها على صدق مدعى النبوة)،ضمن مجموعة الرسائل جـ١ ص١٤٠. (٥) ابن كمال: السابق نفس الموضع. فمطابقة الدعوى مثلا معتبرة فى طريق معرفة صدق مدعي النبوة لا فى حد المعجزة كما توهم بعض الناظرين فى هذا المقام السابق جـ١ ص ١٤٨.

ويرجع هذا الخلاف أيضـا إلى الخلط بين الشرائط والقرائن فمن الـقرائن ما قد يتخلف أحيانا ولا يفقد ذلك المعجزة معناها ومن القرائن ما لا يتخلف أبداً عن المعجزة وإن لم يدل عليها دلالة قطعية لكونها قرائن مشتركة بين المعجزة وغيرها .

ومن ثم فيمكننا تصنيف كل ما ذكره العلماء من ذلك إلى أقسام:

١ ـ ما لا بد منه في تحقيق ركنها :

وهذا القسم يشمل :

(أ) أن تكون المعجزة أمرا خارقا للعادة خرقا حقيقياً

وهذا هو نفس اشتراطهم:

- أن تكون مما ينفرد الله بالقدرة عليه
- أن لا تكون من الصناعات المكتسبة.
- أن تكون لغير حذق في الصناعة.
- أن لا تعارض.
- ألا تظهر على يد مدعي النبوة كذباً .

(ب) أن تحدث على يد مدعي النبوة .

٢ ـ ما لابد منه في دلالتها على الصدق :

وهذا القسم يشمل :

أ ـ أن تكون المعجزة مطابقة للدعوى.

ب ـ ألا تظهر مكذبة للنبي.

ج ـ ألا تتقدم المعجزة على الدعوى.

د ـ ألا يتعارض الإعجاز الحسي مع الإعجاز المعنوي.

هـ ـ أن تكون من حسن ورجحان.

و ـ عدم الاعتماد على مساعدة المخاطبين في تقديم ما يصعب تقديمه.

٣ ـ قرائن قد تتخلف عن المعجزة :

وهذا القسم يشمل :

أ ـ عدم معرفة النبي السحر.

ب ـ أن تكون المعجزة جهرة أمام الجميع.

٤ ـ قرائن مشتركة بين المعجزة وبين غيرها :

وهذا القسم يشمل :

أ ـ أن تقع على يد فاضل خير.

ب ـ ألا تكون من الصناعات المكتسبة بالتعلم.

٥ ـ اشتراطات نرفضها :

ويشمل ذلك اشتراطهم :

أ ـ ألا تتأخر المعجزة الحسية على الدعوى.

ب ـ ألا يكون الخارق في زمن نقض العادات.

ج ـ اشتراط التصريح بالتحدي.

د ـ ألا تفتقر إلى آلة.

هـ ـ أن يكون الرسول حاضرا.

وأرى أن التعريف الصحيح للمعجـزة هو أنها :أمر خارق لعادة عامة الخلق أجمعين يجريه الله على يد مدعي النبوة تصديقاً له .

ـ وقولنا «أمراً» تجنبا لذلك الخـلاف الشكلي الذي وقع فيه المتكلمون من أنه هل المعجز كما يكون بالفعل يكون بعدم الفعل ؟ أم أن المعجز إنما يكون في الفعل فقط ويؤول غيره إليه ؟

ـ وكونها خارقا لعادة عامـة الخلق أجمعين أى دون خاصتهم وهـم: الملائكة والأنبياء والأولياء فقد تكون خارقة لعادتهم وقد لا تكون .

ـ واستثناء الملائكة لأن الله تعالى قد جعلهم الأسباب في كثير من المعجزات

إلا أنه لم يثبت أنهم كذلك فيها كلهـا فقد يكون هناك من المعجزات ما هو خارق لعادتهم.

ـ واستثناء الأنبياء لأن المعجـزات إنما تحدث على أيديهم. وقد يشارك بعضهم البعض في بعضهـا إلا أن ذلك لم يكن دائما فقد تكون معجـزة النبي خارقة لعادة غيره من الأنبياء .

ـ واستثناء الأوليـاء لأن كراماتهم كالمعـجزات في خرقها للعـادة وقد يشارك الأولياء الأنبياء في بعض الخوارق ثم إن كرامة كـل ولي هي معجزة لنبيه لأنها لم تحدث له إلا بفضل اتباعه للنبي وإن لم تكن كل مـعجزة لنبي كرامة لولي ومن ثم فقد تكون معجزة النبي خارقة لعادة الولي وقد لا تكون.

ـ وكونها «أمـراً خارقا لعادة عامـة الخلق أجمعين» المقصـود به أيضاً عادتهم «في أنفســهم أو في غيرهم» لأن الإسراء مـثلا وإن لم يكن خارقـا لعادة الجن في أنفســهم، وإن لم يكن خارقا لعـادة الإنس في غيرهم، إلا أنه خـارق لعادة الإنس والجن في الإنس .

ـ وكونها تجـري على يد النبي، يخرج الخوارق العـامة التي لا تكون على يد أحد من الخلق كخـلق السموات والأرض مثلا. . ويخـرج الكرامة التي تكون على يد الولي. . .

ـ وكونهـا تصديقاً له يخرج الخـارق غير المطابق للدعوى أو السـابق لدعوى النبوة ويخرج الخارق المكذب للنبي .

وبيان ذلك فيما يلي :

الفصل الثاني
شروط المعجزة

وضع العلماء للمعجزة شروطا من أهمها :

١ - أن تكون المعجزة خارقة للعادة :

والعادات على ضروب فمنها عادة يستوي فيها جميع الناس في جميع الأزمان والأمصار، ومنها ما ينفرد به بعض الناس دون بعض، فيكون عادة لهم دون غيرهم، ومنها ما يكون عادة لأهل عصر دون غيرهم. أو لأهل مصر دون غيرهم، ومنها ما يكون عادة للملائكة دون غيرهم، أو عادة للجن دون غيرهم أو عادة للإنس دون غيرهم، فلا يجب أن يكون ما خرق عادة قبيل أو طائفة خارقا لعادة غيره.

ومن ثم فيرى الباقلاني بناء على هذا الأصل أن يكون خرق العادة بالشيء الذي يفعله الله تعالى إنما هو خرق لعادة جميع القبيل الذي يتحداهم الرسول بمثله، ويحتج به على نبوته، فإن أرسل ملكا إلى الملائكة أظهر على يده ما هو خرق لعادتهم، وإن أرسل بشرا أرسله بما يخرق عادة البشر، وإن أرسل جنيا أظهر على يده ما هو خارق لعادة الجن[١] .

ويقول الباقلاني في موضع آخر[٢]: «إن المعجز لا يكون عندنا معجزا حتى يكون مما ينفرد الله عز وجل بالقدرة عليه ولا يصح دخوله تحت قدر الخلق من الملائكة والبشر والجن»

وأرى الصواب أن يكون المعجز خارقا لعادة الإنس والجن أي خارجا عن قدرتهم أبداً، ولا يشترط كونه خارقا لعادة الملائكة .

وذلك لأن قدرة الجن معلومة للإنس وقد سخر بعض الإنس الجن فأمكن التفريق بين ما هو من فعل الجن وما يخرج عن قدرتهم، ثم إنه إذا لم تخرج المعجزة عن قدرة الجن فسيحدث اللبس بين ما هو معجز وما هو من فعل الجن

---

(١) انظر الباقلانى : البيان ص ٥٥ .　　(٢) السابق ص ٨ .

ثم إن الجن من أمة الدعوة، قال تعالى[1] ﴿**يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا**﴾. وقال[2] ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**﴾ .

وإذا كان الجن من أمة الدعوة فلا بد أن تكون المعجزة معجزة بالنسبة لهم حتى تقوم عليهم الحجة .

وأحب أن أضيف هنا أنه إذا كان خرق العادة خارجاً عن قدرة الإنس والجن، فلا يشترط أن يكون خارجا عن قدرتهم في أنفسهم فقط .

ولكن يشترط أن يكون خارجا عن قدرتهم إما في أنفسهم وإما في غيرهم .

فلو أن بقرة تكلمت فهذا خارج عن قدرة الإنس والجن في غيرهم، وإن لم يكن خارجا عن قدرتهم في أنفسهم بمعنى أنهم هم أنفسهم يستطيعون الكلام ، ولكنهم لا يستطيعون جعله في بقرة على الحقيقة، فهذا خارق لعادتهم في غيرهم لا عادتهم في أنفسهم

أما الملائكة فنحن لا نعرف قدرتهم، بل لا نعرف وجودهم لا بالحس ولا بالعقل فلا يمكننا الحكم عليهم بأن خارقا معينا خارج عن قدرتهم أم غير خارج .

وإنما عرفنا وجودهم وقدرتهم بالسمع الذي وصفهم بالعصمة فبطل احتمال إضلالهم للخلق [3] .

والملائكة ليست من أمة الدعوة والأنبياء لا تدعو الملائكة إلى الإيمان بهم، بل إن الملائكة تتنزل بالوحي على الأنبياء وتعينهم وتؤيدهم .

والملائكة إنما هي سبب من الأسباب والله تعالى خالق الأسباب والمسببات، وإنما جعل الأسباب لحكمة .

فجبريل مثلا إنما كان مقدوره النفخ في مريم، وهذا لا يوجب الخلق بل هو بمنزلة الإنزال في حق غير المسيح وكذلك النصر فمقدور الملائكة القتال كالإنس

---

(١) الأنعام : ١٣٠ . (٢) الإسراء : ٨٨

(٣) انظر ملحق رقم (٣) .

والنصر هو من عند الله كما قال تعالى[1] ﴿**وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم. وما النصر إلا من عند الله**﴾ والقرآن إنما يقدرون على النزول به لا على إحداثه ابتداء. ولما قال عفريت من الجن لسليمان ـ عليه السلام ـ ﴿**أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين. قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك**﴾[2] أتته به الملائكة، كذلك ذكره المفسرون عن ابن عباس وغيره، وقد أخبر الله تعالى أنه أيد محمداً ﷺ بالملائكة قال تعالى[3] ﴿**فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها، وكان الله بما تعملون بصيرا**﴾. وقال تعالى[4] ﴿**ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها**﴾ وقال تعالى[5] ﴿ **فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها** ﴾ وقال تعالى[6] ﴿**إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب** ﴾.

وقد ثبت في الصحيح أن الإنسان يصوره ملك في الرحم بإذن الله.

يقول ـ ﷺ: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكا ويؤمر بأربع كلمات: فيكتب رزقه وأجله وعمله ثم يكتب شقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح»[7].

وإذا كان المعجز خارقا لعادة الإنس والجن. وإذا كان النبي إنسيا فقد شرط قوم ألا يكون المعجز مقدورا للنبي وهذا شرط باطل، لأن قدرته مع عدم قدرة غيره هو المعجز إلا إن كانوا يقصدون المقدورية كسبا فكلامهم مقبول.

---

(١) الأنفال: ١٠. يفهم بعض العلماء من هذه الآية أن نزول الملائكة لم يكن نزولا حسيا وإنما كان على قلوب المؤمنين وهو فهم باطل بدليل قوله تعالى ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ (الأنفال:٩) لأن الكم المنفصل لا يكون إلا فيما له وجود حسي

(٢) النمل: ٣٩، ٤٠. (٣) الأحزاب: ٩. (٤) التوبة: ٢٦. (٥) التوبة: ٤٠.

(٦) الأنفال: ١٢.

(٧) رواه أبو داود في سننه جـ ٢ ص ٥٣٠ في كتاب السنة. والبخاري في صحيحه في الباب (١) من كتاب الأنبياء، ومسلم في صحيحه برقم (٢) من كتاب القدر، والترمذي في سننه في الباب (٤) من كتاب القدر وأحمد في المسند جـ ٤ ص ٧.

ويلاحظ أن لفظ «أربعين» يراد به أحيانا مجرد التعبير عن فترة زمنية غير محددة.

وإذا كانت المعجزة معتادة للأنبياء لم يقدح هذا فيها فإن نفس النبوة معتادة للأنبياء خارقة للعادة بالنسبة إلى من سواهم .

فخوارق العادات معتاد جميعه للأنبياء بل هو من لوازم نبوتهم.

فلا يتصور أن نبيا يبطل معجزة آخر وإن أتى بنظيرها فهو يصدقه، ومعجزة كل منهم آية له وللآخر أيضا، كما أن معجزات أتباعهم آيات لهم .

لأن كل نبي يصدق من سبقه ويبشر بمن بعده، ولأن كرامات الأولياء لم تحدث إلا بفضل متابعتهم للأنبياء، وبالتالي تكون المعجزة هي الخارق لعادة غير الأنبياء والأولياء من الإنس والجن في أنفسهم أو في غيرهم .

والمعجزة لما أراد الله تعالى لها أن تكون خارقة للعادة حتى تقوم بها الحجة، ففي قصة إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار مثلا كان من الممكن أن يطفئ الله النار بالريح أو المطر أو أن يسلط على أعدائه من يهلكهم ويستنقذ إبراهيم عليه السلام منهم أو غير ذلك من الأسباب المعتادة، ولكن لما كانت المعجزة خارقة للعادة لم يطفئ الله النار ولم يستنقذ إبراهيم عليه السلام منها، وإنما جعل النار برداً وسلاماً، عليه يقول تعالى[1] ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ .

وفي قصة موسى والسحرة كذلك؛ لم يشأ الحق تبارك وتعالى أن ينتصر لموسى بأن يصرف السحرة عن سحرهم أو أن يحول دون اجتماعهم وإنما أراد أن ينتصر لموسى بأمر معجز فقلب عصاه حية عظيمة تلقف عصي السحرة، وقلب الأجناس أمر معجزة تقوم به الحجة على المخالفين .

٢ - أن تكون مما ينفرد الله بالقدرة عليه :

قد يقال إنه لا معنى لهذا الشرط، لأن كل ما في الوجود لا يقدر عليه إلا الله، فإن الله خالق كل شيء. ولا يستقل غيره بإحداث شيء.

وجواب ذلك .

ان المقصود من انفراده تعالى بالقدرة على المعجزة أنها ليست من ذلك القسم

(١) الأنبياء : ٦٩ .

من مقدوراته تعالى التى جرت سنته تعالى أن يفعله بواسطة خلقه من الإنس والجن وغيرهم، دون الملائكة، لأن المعجزة قد تحدث بواسطتهم ودون الرسل لأن المعجزة تحدث على أيديهم. ودون الأولياء الذين يشاركون الأنبياء في بعض الخوارق .

وبالطبع فإنه ليس المقصود بذلك أيضا تأكيد ما ذهب إليه بعض النصارى من ادعاء الألوهية لعيسى عليه السلام بحجة ماله من المعجزات .

فهذا يناقض العقل لأن من كانت حاله النقص لا تجوز عليه دعوى الكمال والمسيح عليه السلام كان يأكل ويشرب ويحتاج إلى ما يحتاج إليه الناس. وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿**ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون**﴾[1] ومن ثم فلا تصح له دعوى الكمال.

وكلامهم هذا إن احتجوا له بما ورد فى العهد الجديد على لسان عيسى عليه السلام أنه قال[2] «فالذي قدسه الآب وأرسله إلى العالم أتقولون له إنك تجدف لأني قلت إني ابن الله: إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي ولكن إن كنت أعمل فإن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيّ وأنا فيه» .

فهناك نصوص أخرى كثيرة تنص صراحة على أن الله هو الذي يجري المعجزات على يد عيسى عليه السلام .

فقد ورد في أعمال الرسل: «أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال: يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم أيضا تعلمون» [3] .

وفي قصة إحيائه عليه السلام للعازر نجده يدعو الله قائلا: «ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتني» [4] .

بل يعترف المسيح عليه السلام ببشريته وعجزه عن فعل المعجزات وأنه لا

---

(١) المائدة:٧٥. (٢) يوحنا ٣٦/١٠ ـ ٣٨ وانظر ٣٠/٢٠ ومرقص ٢٣/١ ـ ٢٥ .

(٣) ٢٢/٢ (٤) يوحنا ١١ / ٤٢

يعدو أن يكون بشرا رسولا وأن الله هو فاعل المعجزات فيقول عليه السلام:[1] «لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئا إلا ما ينظر الآب يعمل»

ويقول:[2] «أنا لا أقدر أن افعل من نفسي شيئاً كما أسمع أدين ودينونتي عادلة لأني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني»

ويقول:[3] «الأعمال التي أعطاني أبي لأكملها هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني»

أما تعبير «ابن الله» فهو إنما يدل على محبة الله ورعايته ولا يسمح بشيء أكثر من ذلك.

ولم يختص المسيح عليه السلام بهذا اللقب في العهدين القديم والجديد ففي سفر التثنيه: «أنتم أولاد الرب إآلهكم لأنك شعب مقدس للرب إآلهك» [4].

وفي المزامير « وبنو العلي كلكم» [5].

ويقول يوحنا في إنجيله[6]«أولاد الله أي المؤمنون به» ولذلك يقول المسيح[7]«أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم». وعندما اتهمه اليهود بالتجديف قائلين له«فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إآلها. أجابهم يسوع أليس مكتوبا فى ناموسكم أنا قلت إنكم آلهة إن قال آلهة لأولئك الذين صارت إليهم كلمة الله ولا يمكن أن ينقض المكتوب. فالذى قدسه الآب وأرسله إلى العالم أتقولون له إنك تجدف لأنى قلت إنى ابن الله» [8].

ثم إن عيسى عليه السلام نفسه يصرح بأنه لم يختص بعمل المعجزات فهو القائل[9] «من يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضا. ويعمل أعظم منها» .

كما أن العهد الجديد مليئ بالمعجزات المنسوبة إلى تلاميذ المسيح وخاصة بطرس وبولس كإقامة الموتى [10]وشفاء المرضى [11] وطرد الجن والشياطين [12].

وبنفس هذا المنطق الذي يربط بين المعجزة والألوهية ورد في أعمال الرسل

(١) السابق ٥ / ١٩ . (٢) السابق ٥ /٣٠ (٣) السابق ٥ /٣٦.
(٤) ١٤ / ١ _ ٢ . (٥) ٨٢ /٦ . (٦) ١ / ١٢
(٧) السابق ٢٠ / ١٧. (٨) السابق : ١٠ :٣٣ _ ٣٦ . (٩) السابق ١٤ / ١٢ .
(١٠) أعمال الرسل ٩ / ٤٠، ٢٠ / ١٠ _ ١٢. (١١) السابق ٣ /٢ _٧ ، ١٩ / ١١ _ ١٢ .
(١٢) السابق ١٦ / ١٨ ، ١٦ / ١٢ .

أنه بسبب سلطان المعجزة الممنوح للتلاميذ أقر معاينو معجزاتهم بألوهيتهم (١) .

وفي العهد الجديد هناك كثير من النصوص التي تشير إلى نبوته عليه السلام كما ورد في انجيل لوقا «يسوع الناصري الذي كان إنسانا نبيا مقتدرا في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب » (٢) .

وفي إنجيل يوحنا «قالت له المرأة يا سيد أرى أنك نبي» (٣) وفيه أيضا «فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم» (٤) .

بل إن عيسى عليه السلام نفسه يصرح قائلا(٥) «أنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله» ويقول(٦) «والكلام الذى تسمعونه ليس لى بل للآب الذى أرسلنى» .

ثم إن العهد الجديد يعترف بالعهد القديم المليئ بالمعجزات المنسوبة إلى الأنبياء كدليل على نبوتهم لا على ألوهيتهم (٧).

ولو كانت المعجزات تدل على الألوهية لتعددت الألوهية بتعدد هؤلاء الأنبياء الذين تواترت في حقهم المعجزات وهذا مما لم يقل به أحد حتى هؤلاء الأنبياء أنفسهم.

هذا بالإضافة إلى أنه يتعارض مع التوحيد الذي أتت به الشرائع ودل عليه العقل.

وإمعانا في إثبات أن المعجز مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ينتقد الباقلاني هؤلاء الذين يرون أن المعجز على ضربين، ضرب منه مما ينفرد الله تعالى بالقدرة عليه نحو اختراع الأجسام وإبداع الجوارح والأسماع والأبصار وما جرى مجرى ذلك، والضرب الآخر شيء يدخل مثله وما هو من جنسه تحت قدرة العباد غير أنه يقع منه سبحانه على وجه يتعذر على العباد مثله، فيجري في الحكم كأنه من جهته تعالى .

---

(١) السابق ١٠ / ٢٥ ـ ٢٦ ، ١٤ / ١١، ٢٨ : ١ ـ ٦. (٢) ٢٤ / ١٩ وانظر ١٣ / ٣٢ ـ ٣٤ .
(٣) ٤ / ١٩ وانظر ٧ / ٥٢. (٤) السابق ٦ / ١٤ وانظر متى ٢١ / ٩ ـ ١١ .
(٥) يوحنا ٨ : ٤٠ . (٦) السابق ١٤ : ٢٤ . (٧) انظر علي سبيل المثال ـ سفر الملوك الأول الاصحاح السابع عشر كله ـ وسفر الملوك الثانى ٤ :٣٢ ـ ٣٧ ، ١٣ :٢٠ ـ ٢١ ـ حزقيال ٣٧ :١ـ١٠ فقد أحى النبى حزقيال جيشا كبيرا من الموتى وهم عظام .

وذلك نحو تفريق أجزاء الجبال الصم الصلاب ورفعها إلى ملكوت السماوات وتغييض ماء البحار، ونظم القرآن، وتأليفه على ما هو عليه من البلاغة التي يقدر العباد على اليسير منها (١) وإن تعذر عليهم الكثير مع تجانس قليله وكثيره (٢) .

وكذلك أيضا ما لو تحدى النبي مخالفه ومكذبه بأن يحرك يده أو يقوم من مكانه فتعذر عليه فعل ما تحدي به، لدلت حركات أعضاء النبي وقيامه وتصرفه على صدقه فهذا أيضاً، زعموا أنه دال على أن من المعجزات ما يدخل مثله تحت قدر العباد .

ويجيب الباقلاني على ذلك: بأن ما قالوه من هذا ليس ببعيد، وإن كان الأولى والأشبه من وجهة نظره أن يكون الإعجاز إنما هو فى خرق العادة بخلق القدرة على ما لم تجر العادة بخلق القدرة على مثله، أو برفع القدرة على ما اعتيد خلقها عليه .

ويعلل الباقلاني اختياره لهذا المسلك بأنه في هذه الحالة يعود الأمر إلى أن المعجز هو الجنس الذي ينفرد الله سبحانه بالقدرة عليه، دون ما يدخل تحت قدر العباد، أو ما هو من جنسه .

لأن ما يدخل تحت قدر العباد أو مثله ربما عرضت فيه الشبهة وحصلت الشكوك للمكلفين في أنه مما يتم بحيلة من الحيل وسبب من الأسباب (٣) .

ولا أرى فرقا بين الرأيين على الإطلاق ولا أدرى ما الذي جعله الباقلاني «أولى بالصواب» في زعمه وفي الرأي الأول الاحتراز بقولهم: «يقع منه تعالى على وجه يتعذر على العباد مثله» فلا معنى لاشتراط الباقلاني كون الإعجاز في القدرة لا في الفعل .

---

(١) انظر: الماوردى: أعلام النبوة ص ٢٦.   البغدادى: أصول الدين ص ١٧٦ .
القاضى عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة ص ٥٦٩: ٥٧١ .

(٢) «واختلف المتكلمون فى المعجز منه، فعند بعضهم أن ما خرج عن القدرة منه يكون هو المعجز خاصة لاختصاصه بالمعجز، وعند آخرين منهم أن جميعه يكون معجزا لاتصاله بما لا يتميز منه» (الماوردى: أعلام النبوة ص ٢٦ ـ ٢٧).   والخلاف شكلى ولا أهمية له طالما أن الإعجاز موجود فى الحالتين .

(٣) انظر الباقلانى: البيان ص ١٤ ـ ٢٠ .

وما هرب منه وقع فيه لأنه إذا كان يهرب من القول بأن الإعجاز في الأفعال لأن جنس الحمل والطفر وسائر الحركات داخل تحت قدر العباد، فكذلك جنس القدرة موجود للعباد، ولا فرق بين التفاضل في الفعل والتفاضل في القدرة، والخلاف شكلي ولا معنى له .

يقول ابن تيميه: (١) «وليس هذا بفرق طائل فانه لا فرق بين تخصيصهم بالفعل أو بالقدرة عليه .

فإذا كان إقدارهم على الكثير الذي لم تجر به العادة معجزة كان نفس الكثير الذي لم تجر به العادة معجزة ».

«وجنس القدرة معتاد مثل جنس المقدور، وإنما خرقت العادة بقدرة خارجة عن العادة كما خرقت بفعل خارج عن القدرة » (٢) .

وعند الباقلاني أن خلق القدرة خلق لمقدورها والقدرة عنده مع الفعل (٣) فلا فرق .

ثم كيف يكون الصعود إلى السماء غير معجز، وإنما المعجز هو القدرة على ذلك .

مع أننا لا نرى القدرة، وإنما نرى الفعل، فالقدرة أمر غير محسوس، وغير مرئي لنا، وإنما المرئى والمحسوس هو الفعل .

وكيف يزيل الإعجاز في القدرة من الشبهات ما لا يزيله الإعجاز في الفعل، فهل هناك فارق بينهما بالنسبة للمشاهد وحواسه .

وإذا كان الباقلاني ممن اشترطوا الدعوى والتحدى في المعجزة فإذا وقع التحدي بنفس الحركة الخارقة للعادة فلا يمكن أن تكون القدرة معجزة، لأن شرط ثبوت كون الخارق معجزة أن يكون مسبوقا بدعواه آية فينبغي أن لا تكون القدرة معجزة إلا أن يتحدى بها النبي .

---

(١) ابن تيمية : النبوات ص ١٣٩ : ١٤٠ .

(٢) السابق ص ٢٩ .

(٣) انظر الباقلانى : البيان ص ٦١ ــ ٦٢ .

وبالتالي يتضح لنا مدى الاضطراب في آراء الباقلاني الذي اشترط التحدي واشترط كون الإعجاز في القدرة مع أن التحدي إنما يكون بنفس الحركة الخارقة للعادة لا بالقدرة .

ويستدل الباقلاني وأصحابه على أنه لا يجوز أن تقدر العباد على مثل إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، ونحو ذلك مما يمتنع أن يكون مقدوراً لغير الله، بأن الدلالة قد قامت عندهم على أن الفاعل المكتسب من الخلق لا يصح أن توجد أفعاله إلا في محل قدرته غير متعدية عنه فلو قدر القادر منا على فعل الأجسام لوجب لا محالة وجودها في نفسه وحيزه، وهذا يوجب اجتماع الجسمين والأجسام الكثيرة في حيز واحد وذلك محال، ومعلوم فساده بأول في العقل وكذلك فمحال أن يقدر القادر منا على فعل عرض في غيره لأن ذلك يوجب أن يكون ذلك العرض في غيره فيه، وأن يوجد العرض الواحد في محلين، ومحال وجود الذات الواحدة التي ليست بمنقسمة في محلين، لأن ذلك يوجب أن تكون في نفسها ذاتين منقسمتين على محلين، وفي حيزين أو أن تكون الذات الواحدة التي لا تنقسم في حيزين .

واستدلوا على ذلك أيضا بأن ما يصح دخوله تحت قدر العباد فإنه واجب وقوعه متى قدروا عليه لقيام الدلالة عندهم على أن القدرة مع الفعل، ولا يحتاج الفعل مع حصول القدرة عليه إلى آلة سواها ولا إلى حيلة يتعذر وقوع الفعل المقدور مع عدمها .

وبناء على كلامهم هذا فإنا لو كنا قادرين على فعل هذه الآيات والأجناس لوجب وقوعها منا لا محالة لما ثبت من وجود القدرة مع الفعل .

وفي عدم ذلك من جهتنا وتعذره علينا دلالة على أنا غير قادرين على شيء من ذلك .

واستدلوا كذلك على أنه لا يصح أن نقدر على شيء من المعجزات أبداً بأن ما يصح أن يقدر القادر عليه فلابد متى عدمت قدرته عليه من وجود ضد لها يعاقبها من عجز عن مقدورها أو قدرة على تركه .

ولو كان فينا عجز عن فعل الأجسام والأسماع والأبصار والألوان لوجب لا محالة أن نحس ذلك العجز في أنفسنا ونجده وجودا لا شك فيه، كما يجد العاجز نفسه عاجزا عن الحركة والبطش والتصرف عند خلق العجز فيه عن ذلك ويجد نفسه الطالبة لفعله ممنوعة منه، وكذلك لوكان فينا قدرة على فعل الترك لوجب أن نجد أنفسنا خالية من فعل هذه الأمور، ومن القدرة عليها على سبيل الترك لذلك والاختيار للانصراف عنه وإيثار ضده عليه، كما نجد اختيارنا للسكون على الحركة، والصمت على النطق، وأمثال ذلك مما نختار تركة على فعله ونؤثره على ضده، ونحس القدرة عليه، والتمكن منه في أنفسنا ولما كنا إذا رجعنا إلى أنفسنا لم نجد فيها عجزاً عن هذه الأمور، ومنعا منها، ولا قدرة عليها وتمكينا من تروكها، علم بهذه الجملة استحالة وجود قدرة الخلق على شيء من هذه الأجناس [١].

وهذا كلام أراه في غاية التكلف والتعقيد، فكيف يكون مثل هذا الكلام المتنازع فيه هو الفرق بين المعجزة وغيرها ؟

والذي إن فرض صحيحا لم يفهم إلا بكلفة ولا يفهمه إلا قليل من الناس، والذين آمنوا بالرسل لما رأوا الآيات آمنوا ولم يتكلموا بمثل هذا الفرق .

ثم إن إشتراطهم أن تكون المعجزة خارقة للعادة يغني عن اشتراطهم أن تكون مما ينفرد الله بالقدرة عليه، والعكس صحيح أيضاً .

٣ - ألا تكون من الصناعات المكتسبة :

وهو شرط باطل، لأن للسحر أنواعاً عديدة ذكر الرازي عشرة أنواع منها في كتابه النبوات [٢] ومن هذه الأنواع ما لا يحتاج إلى تعلم البتة .

وهذا ما يقرره الطوسي كذلك في شرحه على الإشارات والتنبيهات حين يقول: [٣] إن «هذه القوة ربما كانت للنفس بحسب المزاج الأصلي منسوبة إلى الهيئة النفسانية المستفادة من ذلك المزاج، التي هي بعينها التشخص الذي تصير النفس معه

---

(١) انظر السابق ص ٦١ ـ ٦٤ .

(٢) انظر الرازى : النبوات ص ٢٠٠ ـ ٢٠٣ وانظر أنواع السحر فى الفصل الأول من الباب الثانى من دراستنا هذه .

(٣) الطوسى : شرح الإشارات والتنبيهات ص ٨٩٧ .

نفسا شخصية، وربما تحصل بمزاج طارئ، وربما تحصل بالكسب كما للأولياء» .

وابن خلدون في المقدمة يذكر لنا أن الفرق عند أصحاب الطلسمات والسحرة بين السحر والطلسمات: أن السحر لا يحتاج الساحر فيه إلى معين، وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد، وخواص الموجودات، وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر، لأنهم يقولون إن السحر اتحاد روح بروح والطلسم اتحاد روح بجسم، ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية السماوية بالطبائع السفلية، والطبائع العلوية هي روحانيات الكواكب ولذلك يستعين صاحبة في غالب الأمر بالنجامة .

فالساحر عندهم غير مكتسب لسحره، بل هو مفطور عندهم على تلك الجبلة المختصة بذلك النوع من التأثير (١) .

ويرفض ابن خلدون كذلك القول بأن معرفة الغيب تدرك بالصناعة فهو يقول(٢): «والتحقيق الذي ينبغي أن يكون نصب فكرك أن الغيوب لا تدرك بصناعة البتة ولا سبيل إلى تعرفها إلا للخواص من البشر المفطورين على الرجوع من عالم الحس إلى عالم الروح».

ويستدل على ذلك بما هو واقع مشاهد لا يسع أحداً إنكاره من أنا نجد في النوع الإنساني أشخاصا يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس، ولا يرجعون في ذلك إلى صناعة، ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم، ولامن غيرها، وإنما نجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها (٣) .

ويؤكد على كلامه بأن المنجمين يسمون هذا الصنف بالزهريين نسبة إلى ما تقتضيه دلالة الزهرة بزعمهم في أصل مواليدهم على إدراك الغيب .

ومن ثم فهو يرى أن الخط وغيره من هذه العلوم إن كان الناظر فيه من أهل هذه الخاصية، وقصد بهذه الأمور التي ينظر فيها من النقط أو العظام أو غيرها

---

(١) انظر ابن خلدون : المقدمة ص ٥٠١ .

(٢) السابق ص ١١٣ .　　　(٣) انظر السابق ص ٥ .

إشغال الحس لترجع النفس إلى عالم الروحانيات لحظة ما فهو أمر مقبول. وإن لم يكن كذلك وإنما قصد معرفة الغيب بهذه الصناعة وأنها تفيد ذلك، فيرى ابن خلدون أن ذلك هذر من القول والعمل [١].

ويؤكد ما سبق من عدم اعتبار كون الخارق ناتجا عن التعلم أو غير ناتج عنه فارقا ذو دلالة: ما يذكره ابن خلدون[٢] وابن سينا[٣] والغزالي[٤] وغيرهم من أن هذه الخاصية وهي النطق بالغيب موجودة أيضا في حالة الجنون، وهذا أمر واقع مشاهد لا يسع أحداً إنكاره، وسيأتي تفصيل الكلام عن ذلك في مبحث التأويل.

ويؤكد ذلك أيضا أن ابن صياد لم يكن قد بلغ الحلم وهو ما يزال طفلا يلعب مع الصبيان حتى لفت الأنظار إليه كمتنبئ بالغيب لدرجة أن ذهب إليه الرسول ﷺ خصيصاً في رهط من أصحابه، ليكشف لهم عن حاله ولدرجة أن همّ عمر رضي الله عنه بقتله [٥] ولم يرو أنه تعلم من معلم ولو وجد هذا المعلم لاشتهر أمره كما اشتهر أمر ابن صياد حتى أفرد له مسلم في صحيحه بابا خاصا به، ولم يشر فيه إلى مثل هذا المعلم البتة .

وإذا كان للحسد تأثير مادي في عالم الحس، وإذا كان الحسد لا يحتاج إلى تعلم فكذا السحر، فما الحسد إلا نوع من أنواع السحر وهو السحر بالهمة .

ويؤكد على ذلك أيضا ما يذكره د. رءوف عبيد في كتابه الإنسان روح لا

---

(١) انظر السابق ص ١١٣ .

(٢) انظر السابق ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

(٣) انظر ابن سينا :الإشارات والتنبيهات ص ٨٨٠ ـ ٨٨١ .

(٤) انظر الغزالي : معارج القدس ص ١٥٦ ـ ١٥٨ .

(٥) روى البخاري في صحيحه أن عمر بن الخطاب انطلق مع النبي ﷺ في رهط قبل ابن صياد،حتى وجدوه يلعب مع الصبيان عند أطم بني مغاله(الأطم:الحصن أو البيت المرتفع) وقد قارب ابن صياد الحلم.فلم يشعر حتى ضرب النبي ﷺ بيده ثم قال لابن صياد تشهد أني رسول الله ،فنظر اليه ابن صياد فقال أشهد أنك رسول الأميين.فقال ابن صياد للنبي ﷺ أتشهد أني رسول الله فرفضه،وقال آمنت بالله وبرسله،فقال له ماذا ترى قال ابن صياد يأتيني صادق وكاذب فقال النبي ﷺ خلط عليك الأمر،ثم قال له النبي ﷺإني قد خبئت لك خبيئا فقال ابن صياد هو الدخ فقال اخسأ فلن تعدو قدرك،فقال عمر رضي الله عنه دعني يا رسول الله اضرب عنقه،فقال النبي ﷺ إن يكنه (أي المسيخ الدجال) فلن تسلط عليه وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله ». رواه البخاري في صحيحه جـ ٢ ص١١٧ .

جسد من أمثله كثيرة لهذا النوع من الإدراك المتميز والذي لا يتعلق بمبدأ التعليم [1] إلا أن المقام لا يتسع لسردها هنا ونكتفي بما سبق أن ذكرناه من أمثله لذلك .

ويؤكد محمـد بن إبراهيم الوزير على ما سبق من عدم اعتبـار كون المعجزة من الصناعات غير المكتسبة بالتعلم شرطا ذو قيمة بأن العلم بالتـفرقة بين المعجزة والسحـر لا يتم إلا لمن علم مـاهية السحـر، وذلك لأن هذا الفرق الذي يـفرق به بينهما ليس إلا وصفا ثابتا لأحدهما وغير ثابت للآخر .

فإن كان ثابتا للسحر منتفيـا عن المعجز، مثل قولهم: إن السحر يدرك بالتعلم والمعجـز لا يدرك به، فلا كلام أن مـن لم يعرف السحـر لا يمكنه العلم بأنه يدرك بالتعلم بل يجوز أنه لو تعلـمه ما علمه، وأنه إنما يحصل بفعل الله مـباشرة، ثم إذا سلمنا جدلا بأن السحر إنما يدرك بالتعلم فمن رأى المعجز فمن أين له انه ليس من السحر الذي يمكن تعلمه، لا يقال يطلب تعلمـه فإن لم يحسن علم أنه معجز، لأنا نقول هو لا يحسن تعلمه إلا من ناصح له فى التعليم محب لإفادته، وقل ما يوجد من السـحرة من يعلم السـحر أحـداً إلا أن يكون ولداً له أو من منزلتـه عنده في المحبة منزلة الولد، وإن كان الوصف الفارق بين المعجزة والسحر ثابتا للمعجز منفيا عن السحـر فذلك أجلى في أن العاقل لا يمكنه أن ينفي وصـفا عن شيء وهو لا يعرف ذلك الشيء [2].

وأما قوله تعالى: **﴿وما كنت تـتلو من قبله من كـتاب ولا تخطه بيـمينك إذا لارتاب المبطلون﴾** [3] فهذه الآية لا تنفي جـميع الاحتمالات، فهناك احـتمال أنه أمي ولكنه تعلـم من معلم أو أن هذا الخارق انما كـان بدون تعلم والاحتمال الأول فينفيه قوله تعالى **﴿فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون﴾** [4] لأن هذا المعلم إما أن يعلمه في زمـن طويل، فلا بد أن يفتضح أمر النبي، وإمـا أن يعلمه في زمن قصير بحيث لا يشعر به أحد، ولا يـعقل أن يصل متعلم في علمه الذي لم يتعلمه سـوى في زمن قـصير إلى درجـة التـحـدي لمن أرسل اليـهم أو ادعى الرسـالة

---

(١) انظر د. رءوف عبيد :الإنسان روح لاجسد جـ ١ ص ٢١٧ ـ ٢٢٢ ـ ٢٤٠ .
(٢) انظر ابن إبراهيم الوزير :البرهان القاطع ص ٢٢ .
(٣) العنكبوت : (٤٨) .
(٤) يونس : (١٦) .

إليهم، خاصة إذا كانوا الإنس والجن وإلى قيام الساعة.

أما احتمال أن ذلك الخارق إنما كان بدون تعلم فيكون الجواب هنا بإبراز أن الفارق إنما يعود إلى نفس طبيعة الخارق، وإلى قرائن أخرى كثيرة ترجع إلى حال الداعي وقيمة الدعوة.

وقرائن الصدق العائدة إلى حال الداعي هي المشار إليها بالآية السابقة (فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون) ويشير إلى قرائن الصدق العائدة إلي قيمة الدعوة قوله تعالى ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً**﴾ [1].

ثم إن الله تعالى إنما جعل المعجز من الجنس الذي يبرع فيه أهل زمان ومكان ذلك المعجز حتى تقوم الحجة بعجزهم.

ولذلك كانت معجزة موسى عليه السلام مما يشبه السحر، لأن قومه نبغوا في السحر، وكانت معجزة عيسى عليه السلام إحياء الموتى وشفاء الأمراض التي لا يقدر عليها طبيب لأن قومه نبغوا في الطب وكانت معجزة الرسول الخاتم ﷺ متعددة الجوانب لتناسب الناس جميعاً في كل مكان وزمان وإلى قيام الساعه.

وأود هنا إضافة: أن إيمان المتخصصين في جنس المعجزة قائم على الفهم، وأما إيمان العوام فقائم على الانبهار واتخاذ القدوة، وأما إيمان تلك الطبقة الوسطى بين العوام والمتخصصين فقائم أساسا على القرائن من حال الداعية وقيمة الدعوة والقدوة وإن كانت قرائن صدق الداعي والدعوة من مقومات إيمان العوام والمتخصصين أيضاً.

٤ - أن تكون لغير حذق في الصناعة:

فإذا كانت المعجزة هي الخارق لعادة الإنس والجن كما سبق إيضاحه، فمن الطبعي أن لا يكون الحذق في الصناعة معجزا طالما كان في حدود الأمر العادي.

فليس يخرج الحذق في الصنعة إلى أن يأتي بغير جنسها، وما ليس منها في شيء وما لا يعرفه أهلها.

---

(١) النساء: (٨٢).

ثم إن الحذق فى الصناعة لا يعتبر معجزا طالما أنه لم يختص بالأنبياء فالطب والنحو والفقه مثلا وإن أتى العالم في أحد هذه العلوم بما لا يقدر غيره على نظيره فليس ذلك بمعجز له لأن ذلك لم يختص بالأنبياء فإن ما يقوله الواحد من هؤلاء قد علمه بسماع أو تجربة أو قياس وهى طرق معروفة لغير الأنبياء والنبي قد علمه الله من الغيب الذى عصمه فيه عن الخطأ ما لم يعلمه إلا نبي مثله، فإقليدس مثلا لم يخترع الحقائق التي أوردها في كتابه وليس في طاقته هو نفسه أن يبتدع كتابا آخر أو يزيد قضية واحدة على تلك القضايا فالعجز هنا يشمله كما يشمل الآخرين، والدعوى لا تظهر فضلا له غير فضل الاهتداء والإشارة إلى الحقائق الموجودة قبله والتي لا يد له هو في إيجادها بأي معنى من معاني الإيجاد [١].

ومن ثم فإنه يعرف أن الآية مختصة بالأنبياء حين تعرف النبوة أولاً وتعرف خصائصها ولهذا يبين تعالى نبوة محمد ﷺ باعتبارها بنبوة من قبله كقوله تعالى ﴿ **وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾ [٢] وقوله ﴿**قل ما كنت بدعا من الرسل**﴾ [٣].

«ولهذا لما سمع ورقة بن نوفل والنجاشي وغيرهما القرآن، قال ابن نوفل: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى، وقال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة فكان عندهم علم بما جاء به موسى اعتبروا به » [٤].

وكذلك الجن لما سمعت القرآن ﴿**ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم**﴾ [٥].

فبين تعالى أن هذا الجنس من الناس وهم الأنبياء معتاد معروف للبشر وإن كان قليلا فيهم فقد تقدم له نظراء وأمثال.

وكذلك ورد على لسان المسيح عليه السلام فى الإنجيل: «لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونى» [٦]

أما ما يقوله ابن تيمية من أن «من جاءهم رسول ما يعرفون قبله رسولا كقوم

(١) انظر: ابن تيمية: النبوات ص ١٤ . وانظر كذلك العقاد: ساعات بين الكتب ص ٢٩ .
(٢) الأنبياء : (٧) . (٣) الأحقاف : (٩) . (٤) ابن تيمية: النبوات ص ٢٣ : ٢٤ .
(٥) الأحقاف : ٢٩، ٣٠ . (٦) يوحنا ٥ / ٤٦ .

نوح، فهذا بمنزله ما يبتديه الله من الأمور، وحينئذ فهو يأتي بما يختص به مما يعرفون(به) أن الله صدقه في إرساله، فهذا يدل على النوع والشخص، وإن كانت آيات غيره تدل على الشخص إذ النوع قد عرف قبل هذا» (١).

فابن تيمية لم يوضح هذا الفرق بين المعجز الذي يدل على الشخص والذي يدل على الشخص والنوع، أي بين معجزة نوح، ومعجزة غيره من الأنبياء عليهم السلام.

وبصرف النظر عن الخلاف فى من هو أول الأنبياء. فكلام ابن تيمية هنا قد يكون صحيحاً وتكون هناك آيات خاصة بأول الأنبياء لتبين الشخص والنوع. وإن خفيت هذه الآيات على كثير منا، ولا إشكال في ذلك فدلالة المعجزة نسبية .

إلا أنا لسنا فى حاجة ملحة لهذه المعرفة لأنا كما يقول الرازى (٢) «نعرف بظهور المعجزة عليه (أى النبى) كونه مشرفا عند الله على سبيل الإجمال من غير أن نعرف كيفية ذلك الشرف» وبالطبع من يشرفه الله تعالى لا يكذب عليه، وكما يقول ابن رشد(٣) «إن من اقدره الله تعالى على هذا الفعل الغريب وخصه به من سائر أهل وقته فليس يبعد عليه ما يدعيه من أنه قد آثره الله بوحيه» لأن «من ظهرت عليه أمثال هذه الأشياء فهو فاضل والفاضل لا يكذب» (٤) .

أما إن قلنا إن آدم عليه السلام هو أول الأنبياء فقد كان له عليه السلام من الآيات الظاهرة ما يدل على الشخص والنوع وهو أنه عليه السلام أصل البشرية ولم يكن معه من يحتال عليه ويكذب في ادعاء النبوة إلا من هو فرعه وتابعه، ولم تنقطع النبوة من بني آدم لقوله تعالى ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ (٥) فعلم من هنا معنى النبوة ومعنى الرسالة وخصائصهما.

٥ - أن يكون الرسول حاضرا:

يقول الرازي: (٦) «إن عند ظهور المعجزة لبعض الأنبياء لابد أن يكون الرسول حاضراً»

---

(١) ابن تيمية :النبوات ص ١٩ .
(٢) الرازي: النبوات ص ١٨٤ .
(٣) ابن رشد :مناهج الأدلة ص ١٢٠ .
(٤) السابق ص ١١٢ .
(٥) فاطر : ٢٤ .
(٦) الرازى : الأربعين جـ ٢ ص ٢٠٢ .

وأنا لا أفهم، مراد الرازي من قوله (لبعض الأنبياء) ولا أوافقه على ما ذهب إليه من اشتراط كون الرسول حاضراً .

فلا يشترط الحضور ولكن يشترط وجود علاقة رابطة تربط بين الرسول وبين المعجز، وهي المعبر عنها بقولهم: (تحدث على يديه) .

وليس المقصود باليد الجارحة، ولكن المقصود بها الرابطة التي تبين أن ذلك المعجز لذلك النبي. فأخبار النبي بالغيب منها مالا يتحقق إلا بعد وفاته إلا أنها معجزة له لوجود رابطة بينه وبينها هي الإخبار بها.

٦ - أن تكون المعجزة مطابقة للدعوى:

فلا بد أن يكون المعجز مطابقا للدعوى، فإنه لو لم يكن كذلك لم يتعلق المعجز بالدعوى ولم يدل على الصدق.

فإذا ادعى أحد معجزا وحدث ذلك المعجز كما قال كان ذلك دليلا على صدقه وإذا لم يحدث دل ذلك على كذبه، وإذا حدث عكسه كما يحكي عن مسيلمه من أنه لما ادعى النبوة ادعى أن معجزته انه إذا بزق في هذه البئر وأشار إلى بئر معينة فار ماؤها والله تعالى أمرحتى غاض ماء ذلك البئر، صار ذلك تكذيبا له

وإن كان القاضي عبد الجبار يرى أن تغييض الله تعالى لماء البئر التي ادعى مسيلمه أنه إذا بزق فيها فار ماؤها أنه مما لا يجوز على الله تعالى. وأن ذلك عبث لا فائدة فيه لأن الله تعالى كان يمكنه ألا يظهر المعجز عقب الدعوى فيظهر كذب المدعي(١) .

وذلك مما لا يسلم له به لأن أقسام حكم الله تعالى لا يحيط بها أحد، وذلك ليس بمستحيل عقلا ولا يتعارض مع تنزيه الباري، فلا مانع له من شرع أو من عقل إن ثبت تواترا

٧ - ألا تظهر المعجزة مكذبة للنبي:

فمن وجوه تعلق المعجزة بالتصديق ألا تظهر مكذبة للنبي، فإذا ادعى مدع النبوة، وقال آية صدقي أن ينطق الله يدي، فإذا أنطقها الله تعالى بتكذيبه وقالت: اعلموا أن هذا مفتر كذاب، فلا يكون ذلك آية له ولو قال: آيتي أن يحي الله

---

(١) انظر القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ص ٥٧٠ .

هذا الميت فأحياه الله تعالى، فقام وله لسان زلق، فقال: صاحبكم هذا متخرص، وقد بعثني الله تعالى لأفضحه ثم خر صعقا فهذه آية مكذبة لا تدل على الصدق، ولو كذبه وعاش طويلا لما كان لتكذيبه دلالة، ولكان ذلك آية للنبي لأنه أحياه.

ويرى الجويني: «أن التكذيب إن كان خارقا للعادة فهو الذي يقدح في المعجزة وذلك بمثابة نطق اليد بالتكذيب فأما الميت الذي أحيى وكذب فتكذيبه ليس بخارق للعادة، وللنبي أن يقول: إنما الآية إحياؤه وتكذيبه إياى كتكذيب سائر الكفرة (١) .

وحجة الجويني في ذلك أن التحدي إنما وقع بالإحياء وقد حصل، وهذا حي مختار اختار الكفر والفرق بين تكذيب الميت وتكذيب اليد والجماد ونحوهما أن نفس النطق في اليد والجماد، وهو نفس الآية هو المكذب بينما النطق في إحياء الميت هو المكذب، وليس هو نفس الآية، وإنما الآية في إحيائه فافترقا من جهة أن المكذب هو المدعى آية الصدق في إحدى الصورتين دون الأخرى .

وابن دهاق في شرح الإرشاد يرى أن تكذيب اليد ونحوها لا يقدح في المعجزة، لأن التحدي إنما وقع فيه أيضا بمجرد النطق، وقد وقع، والتصديق لم يقع التحدي به حتى يضر تخلفه (٢) .

ولكني أتساءل: كيف يؤيد الله إنسانا بخارق ثم يخذله بتكذيبه ؟

وأرى أن تكذيب الجماد والحيوان، وكذلك الميت المتحدي بإحيائه إذا خرصعقا بمجرد إحيائه وتكذيبه النبي أرى أن كل ذلك مكذب للنبي، لأنه يثير من الشبهات ما لا خلاص منه.

أما الميت المتحدى بإحيائه إذا قام وكذب وعاش طويلا فلا يطعن ذلك في المعجزة لأنه حيٌّ مختار كفر ومثله مثل سائر الكفرة، أما إذا خرصعقا بمجرد إحيائه وتكذيبه فهي آية مكذبة فهو كأنه لم يحيى إلا للتكذيب .

وإذا لم يكن ذلك كذلك ففي ذلك من الشبهات ما لا خلاص منه ، والشبهات لا تكون بمثل هذا اللبس وخاصة في المعجزات التي قال تعالى عنها **﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها﴾** (٣) .

---

(١) انظر الجوينى : الإرشاد ص ٢٦٥ : ٢٦٦ . انظر الإيجى : الموقف ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠

(٢) انظر السنوسى : شرح الكبرى ص ٤٥٤ .

(٣) النمل : ٩٣ .

٨ - ألا يتعارض الإعجاز الحسى مع الإعجاز المعنوى :

فلابد في المعجزة ألا يتعارض الإعجاز الحسى مع الإعجاز المعنوى لأن الإعجاز المعنوي أولى بالدلالة، لأنه إنما يدل على الصفة التي من أجلها كان النبي نبياً أما الإعجاز الحسي فهو معجز براني لا يستقل في الدلالة ولابد له من إعجاز معنوي يصاحبه ويؤكده (١).

٩ - ألا تعارض المعجزة :

فالمعجزة لا يمكن معارضتها ويرى السنوسي: (٢) «أن المعجزة إن ادعيت معينة فشرط المعارض مماثلته لها، وإن كانت غير معينة، فقال سيف الدين الآمدي أكبر أصحابنا اشترط المماثلة والذي اختاره. . . . أن المماثلة غير مشروطة، وهو الحق »

والقضية في تصوري هنا هي: هل المعارضة تكون بخارق حقيقي للعادة أم لا تكون بخارق حقيقي وإنما تكون بحيل وشبهات .

فإذا كانت المعارضة بخارق حقيقي فلا معنى لاشتراط المماثلة، وقد تبين أن في قدرة البشر الإتيان بالخوارق الحقيقية، وهنا تبطل المعجزة .

وإذا كانت المعارضة لا تتم بالخوارق الحقيقية وإنما تكون بالحيل والشبهات، فقد تكون هذه الحيل مماثلة للمعجزة مماثلة ظاهرية مثل عصا موسى وعصي السحرة فقد ظهرت كل منهم في صورة حية. وقد لا تكون مماثلة، فلا معنى لاشتراط المماثلة لأنها وإن وجدت المماثلة فهي ظاهرية وهي حيلة وشبهة كشأن سحرة فرعون، فالعبرة إذن هي بكون المعارضة بخارق حقيقي وليست بحيلة أو شبهة .

وإذا كانت معجزات الأنبياء عليهم السلام لم تعارض فالسبب الحقيقي في ذلك أنها خارقة للعادة وفوق قدرة عامة الخلق أجمعين .

على أن هناك من يزعم أن الإعجاز في القرآن الكريم إنما هو بالصرفة وأن العرب كانت قادرة قبل البعثة على الإتيان بمثله وهي الآن بعد انتهاء تبليغ الرسالة وقيام الحجة على صحتها تستطيع كذلك الإتيان بمثله .

وفاتهم أن ذلك لو كان كما زعموا لكان آية عظيمة وحجة باهرة لأن إعدام

---

(١) انظر مبحث عدم الاستقلال الدلالى للمعجزة الحسية في الفصل الأول من الباب الثالث .

(٢) السنوسى : شرح الكبرى ص ٤٤٩ .

القدرة على ما هو معتاد ثم خلقها عليه ثانيا ليس أمرا معتاداً ولكنه خارق للعادة، ثم إنه بفرض أن المانع عن المعارضة ليس إعدام القدرة ولكن صرف هممهم ودواعيهم فإن ذلك لو كان لكان آية عظيمة أيضا لأنه خارق للعادة وعلى غير المألوف (١)

إلا أن تحدي الرسول بالقرآن كان بالنسبة لكل العصور لا لعصر معين بدليل مقارنة القرآن بكلام العرب قبل الإسلام وكلامهم بعده من جميع الوجوه، وبالتالي فلا يمكن القول بالمنع من القدرة، وكذلك لا يمكن القول بالمنع من الهمة بدليل معارضات مسيلمة وغيره.

وأما ما رواه ابن حزم عن بعض العلماء ولم يسمهم من قولهم إن إعجاز القرآن قد ارتفع بتمام قيام الحجة به في حياة الرسول ﷺ وبالتالي فتمكن معارضته، واستدلوا على ذلك بأنه «لو عورض الآن لم تبطل بذلك الحجة التي قد صحت كما أن عصا موسى إذا قامت حجته بانقلابها حية لم يضره ولا أسقط حجته عودها عصا كما كانت، وكذلك خروج يده بيضاء من جيبه ثم عودها كما كانت، وكذلك سائر الآيات» (٢) .

فهذا القول مخالف لما عليه الجمهور من أن الإعجاز باق إلى يوم القيامة.

وهو قول باطل لأن عود العصا إلى طبيعتها لا يناقض الخارق وهو قلبها حية لأن الذي أعادها هو الذي قلبها وهو الله تعالى على يد نبيه موسى عليه السلام .

ثم إن في إعادتها إلى صورتها الأولى إعجاز كما كان في قلبها إعجاز وإنما تكون المعارضة هنا لو استطاع معارض أن يأتي بمثل المعجزة وهي قلب العصا حية وإعادتها، وكذلك القرآن إنما يناقضه لو استطاع أن يأتي معارض بمثله في أي وقت سواء قبل الدعوى أو بعدها .

وأما ما رواه ابن حزم عن الأشعري من أنه يرى: أن المعجز الذى يتحدى الناس بالجئ بمثله هو الأول الذي لم يزل مع الله تعالى ولم يفارقه قط ولا أنزل الينا ولا سمعناه فهو كلام باطل .

---

(١) انظر الباقلانى : التمهيد ص ١٢٩ . وانظر كذلك الغزالي : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٣٠ .

(٢) ابن حزم : الفصل جـ٣ ص ١٦ .

إذ من المحال أن يكلف الله تعالى أحداً أن يجئ بمثل ما لم يعرفه قط ولا سمعه، ثم إنه يلزم على ذلك أن المسموع المتلو عندنا ليس معجزاً بل مقدورا عليه أو على مثله، وهذا كفر لاخلاف فيه، وايضاً فإنه خلاف القرآن لأن الله تعالى ألزمهم بسورة أو بعشر سور منه.

وهذا الذي رواه ابن حزم عن الأشعري لم نجد له أي أثر في كتب الأشعري التي تحت أيدينا ولا نظن بالأشعري أن يخرج منه مثل هذا الكلام، ويؤكد ذلك قول ابن حزم في نهاية النص السابق : إن للأشعري قولا كقول المسلمين : أن المتلو هو المعجز (١) .

وأنكر قوم العجز عن المعارضة وزعموا أن في كون المعجزة من عجز الإنسان وقدرة الله عدم احترام للإنسان وتعظيم لله على حساب الإنسان وزعموا أن قدرة الله تعالى لا تثبت بإثبات عجز الإنسان لأنا لا نحتاج لإثبات قدرة الفيل إثبات عجز النملة أو لإثبات قدرة الأسد إثبات عجز الفأر .

وزعموا كذلك أن إثبات قدرة الله ليس تعظيما له ما دامت على حساب قدرة الإنسان وأن قدرة الله أعظم من أن تثبت بعجز الإنسان، فإذا كان هدف المعجزة إثبات قدرة مطلقة فوق قدرة الإنسان المحدود فهذا ليس غاية الوحي بل إن غاية الوحي كما يزعمون عكس ذلك تماما وهي إثبات أن لا قدرة فوق الإنسان وأن الإنسان قادر قدرة مطلقة، وإن غاية الوحي رفض قوى الطبيعة والسيطرة، وقوى الطغاة العاتية وقوى البخت والمصادفة، وكل قوى غير عاقلة .

ويزعمون كذلك أن إثبات عجز الإنسان حطة في شأنه وتجويز العبث والظلم على الله لأنه كيف يخلق إنسانا عاجزا ثم يطالبه بالتكاليف ؟

ثم إنه بزعمهم إذا كان الله قد خلق الإنسان على صورته ومثاله فالأولى أن يخلق الله القادر الإنسان قادراً ولو كان الإنسان عاجزاً لكان الله عاجزا مثله (٢) .

والجواب على ذلك:

إن في قولهم إن فى إثبات عجز الإنسان وقدرة الله «تعظيم لله على حساب

---

(١) انظر السابق : جـ ٣ ص ٢٥ . (٢) انظر حسن حنفي : من العقيدة إلى الثورة جـ ٤ ص٦٥ : ٦٦ .

الإنسان»مغالطة كبرى لأن الإنسان لا يضره ولا يحط من شأنه إثبات عجزه أمام خالقه،بل هذا هو منطق العقل لأن الإله لا يخلق إلها بل يخلق عبدا والنقص والعجز صفة العبيد المخلوقين بل إن أسمى ما يوصف به الإنسان أن يكون عبداً لله وأسمى ما يتقرب به الإنسان إلى الله أن يستشعر معنى العبودية والاحتياج لخالقه تعالى .

وكذلك في قولهم إن «قدرة الله أعظم من أن تثبت بعجز الإنسان» مغالطة أخرى .

لأنا نقول: نعم هي أعظم من ذلك حقا ولكن لابد للنبي من دليل على أنه مرسل من عند الله، وبالطبع لا يكون ذلك الدليل إلا شيئا خارجا عن قدرة الإنس والجن وعامة الخلائق

ثم انه هل يعني قولهم إن غاية الوحي«إثبات أن لا قدرة فوق الإنسان وأن الإنسان قادر قدرة مطلقة»هل يعني ذلك إنكار وجود الله ؟

إذا كان الأمر كذلك فليس هنا مجال الرد على ذلك .

ثم انه هل القائلون بذلك يرون أن لهم فعلا مثل هذه القدرة المطلقة على الفعل؟

لا أعتقد ذلك وهاهم أمامنا بشر يمرضون ولا يخلدون ويصيبهم ما يصيبنا من العجز.

وجواب قولهم«كيف يخلق الله إنسانا عاجزاً ثم يطالبه بالتكاليف؟»: أن العجز هنا لا يعني عدم القدرة على التكاليف .

لأن العجز نسبى وكون الإنسان عاجزا عن الإتيان بالخوارق الحقيقية لا يعني عجزه عن أداء الأوامر الشرعية واجتناب النواهي .

وهل يريد هؤلاء من قولهم«لو كان الإنسان عاجزاً لكان الله عاجزا مثله»أن يتساوى الله والإنسان في القدرة ؟

فما الفارق بين المخلوق والخالق إذاً ؟وهل في منطق العقل أن يخلق الله القادر إنساناً قادراً مثله؟أيريد هؤلاء أن يخلق الإآله آلهة؟وهل الإآله يكون

مخلوقاً؟وألا يطعن ذلك في ألوهيته؟

وإذا كان هؤلاء يرون أن النـاس غير عـاجزين عن معـارضة النبي فـما هي طبيعة التأييد الإآلـهي التي يرضاها هؤلاء إن كانت المعارضة ممكنة .

وزعم المنكرون للمعـجزات كذلك أنه ربما كان المانع عن المعـارضة هو عدم العلم بطريقة المعـارضة والحجاج،وزعـمهم باطل لأن كل نبي كانت معـجزته من جنس ما نبغ فيه قومه.

وكذلك لا يمكن أن يكون المانع كـما يزعمون هو عـدم العلم بأن أمر النبي يبطل بالمعارضة،لأنه لاشبهـة على أحد في أن من قال له قائل:إنك لن تقوم ولن تقدر على القيام كاذب إذا قام وقدر على القيام .

وكذلك لا يمكن أن يكون الصارف للقوم عن المعارضـة اعتقادهم أن السيف أنجح في أمره وأحـسم لمادة شبـهتـه لا للعجـز عن ذلك لأنه لو كان المعـجز في قـدرتهم لأتوا به مع نصـب الحرب ولـو قدروا عـلى المعـارضـة لكانت عليـهم أسهل،ولا يليق بالعـاقل البالغ الكامل العقل العدول عن الأمـر السهل إلى الأمر الصعب إلا إذا لم يرتفع غرضه بالأمر السهل .

فلما أبوا إلا المحاربة التي كان من الجائز أن لا يرتفع غرضهم بها بأن تكون الدائرة عليهم،وتركوا المعارضة تبينا عجزهم وقصورهم عن المعارضة.

وكـذلك لا يمكن أن يكون المانع لهم من المعـارضة هو خـوفهم من دخـول الشبهة على أوليائه وقوله لهم: إنه ليس بعروض لما أتيت به .

لأنا قلنا من قبل إن معـجزة كل نبي من جنس ما نبغ فيـه قومه ثم إنه بإزاء الخوف من ذلك الرجـاء لوضوح بطلان مـا أتى به لهم ووقوفهم علـيه،فكيف لم يبعثهم هذا على معارضته؟

وليس يجب في المعارضة أن تكون مثل ما تحـصل المعارضة معارضة له،ولا أن تكون فوقه بل إذا قاربته بحيث يلتبس الحال فيهما كفى .

ولا يقال بالطبع هنا إن التـحدي لم يبلغ من هو قادر على المعـارضة أو إنه تركها طمـعا لينال من دولته حظا،أو لعلهم اسـتهانوا به أولاً وخافـوه آخرا لشدة

شوكته أو شغلهم ما يحتاجون إليه في تقـوية معيشتهم عنه، أو لعل المعجز عورض ولم تظهر المعارضة لمانع، كـخوفهم، أو ظهرت ثم أخفاها أصحـابه عند استيلائهم وطمسوا آثارها .

لأن احتـمال المانع من المعـارضة أو النقل لهـا للبعض في بـعض الأوقات والأماكن لا يوجب احتـماله في الجميع لأنه كـان لابد من تحدثهم بينهم إذا خلوا وجالسوا من يأمنـون سيفه على وجه يجب أن يضطر إليـه كما يجب في مسـتقر العادة تحدث الناس بعيوب سلاطينهم وجبـابرتهم ومذموم الخصال التي فيهم ، وإن لم ينقل ذلك نقلا ظاهراً ويقع تفصيله والنص عليه والبيان له من كل رجل بعينه.

وإذا كنا لا نعلم وجود المعارضـة للمعجزة كعلمنا لظهـورها من جهة النبي وجب سقوط ما قالوا.

وأيضا فلو كان الخـوف مانعا من نقلهم المعارضـة لمنع ذلك أيضا من دعوى المعارضة.

ولو أنهم عارضوا المعجز لكان يجب أن تنقل إلينا مـعارضتهم فإنه لا يجوز في حادثتين عظيمتين تحدثان معا، وكان الداعى إلى نقل أحدهما كالداعى إلى نقل الأخرى أن تخص إحداهما بالنقل، بل الواجب أن ينقلا جميعاً أو لا ينقلا فأما أن تنقل أحدهما دون الأخرى فلا .

بل لو قيـل إن الداعي إلى نقل المعارضـة أقوى لكان أولى إذ المعـارضة مما ينقلها المخالف والموافق.

المخالف ينقلها ليرى الناس أن فيها إبطال الحجة، والموافق ينقلها ليتكلم عليها ويبين أن ذلك ليس من المعارضة في شيء.

ويزيد ما ذكـرناه وضوحـا أنهم قد نقلوا من المعـارضات كـثير كـمعـارضة مسيلمة لرسولنا ﷺ ومعارضات سحرة فرعون لموسى عليه السلام.

فدواعيهم كانت متوفرة إلى ذلك وإلا كان لا ينقل إلينا مثل هذه المعارضات على ركتها كما لم ينقل ما هو أقوى منها .

ولا يمكن أن يقال هنا أيضا: لعل المعارضة قد وقعت ونسيت وذهب ذكرها وضبطها عن كل فرقة لأن الله صرف دواعي الناس وهممهم عن حفظها والتوفر على نقلها لأن هذا أيضا غير جائز: لأنه بمنزلة ابتداء إظهار المعجزات على أيدي الكذابين: لأنه لا فرق بين خرق العادة بقلب العصا حية، وفلق البحر وغير ذلك، وبين خرقها بصرف دواعي الناس عن نقل الأمر العظيم والخطب الجسيم، وما قد جرت العادة بحفظه وغلبة إشهاره وإظهاره على طيّه وكتمانه: لأن ذلك أجمع خرق للعادة ولأنه أيضا إفساد للأدلة وسد لطريق العلم بإثبات النبوة لأنه لوجاز ذلك، لم نأمن أن يكون جميع الرسل قد عورضوا في آياتهم، وصرف الله سبحانه دواعي الناس عن نقل المعارضة وحفظها، فلا يكون لنا مع ذلك سبيل إلى العلم بصدق واحد منهم، وقيام حجة على أمته: لأننا إذ لم نأمن كون المعارضة وإن جهلناها لترك النقل لها، لم نأمن أن يكونوا كذبه غير صادقين وذلك يضاد اعتقاد نبوتهم، وهذا كلام ليس لبعض أهل الملل على بعض، وإنما هو للطاعن على سائر النبوات: وجوابه: ما ذكرناه من أنه إفساد للأعلام وإيجاب لعجز القديم سبحانه عن الأدلة على صدق الصادق والتفرقة بينه وبين الكاذب [١] .

وتفصيل الأجوبة عن ذلك سيأتي في الرد على الطعون في دلالة المعجزة .

١٠ - ألا يظهر الخارق على يد مدعي النبوة كذبا :

يرى بعض العلماء: أنه يجوز أن تظهر المعجزات على الكذابين الذين يدعون الربوبية، ولا يجوز أن تظهر على الكذابين الذين يدعون النبوة .

لأن من يدعي الربوبية ففي بنيته ما يكذبه في دعواه وليس من ادعى النبوة في بنيته ما يكذبه أنه نبي [٢] .

---

(١) انظر تفصيلات كل هذا المطاعن الباقلاني : التمهيد ص ١٢٢ :١٢٥ . وانظر كذلك القاضي عبد الجبار:شرح الأصول الخمسة ص ٥٨٨ :٥٩٣ وكذلك الإيجي:الموقف ص ٣٤٦ :٣٤٧ .

(٢) انظر الأشعرى :مقالات الإسلاميين جـ ٢ ص ١٢٥

: الماوردى :أعلام النبوة ص ٢٩ . : ابن حزم : الفصل جـ ١ ص ١٩١ .

فقد مكن المقنع من إطلاع قمر يرى من مسير ثلاثة أشهر أو شهر عند دعوى الربوبية، واستمر حتى قتله المسلمون، وكذلك مكن الله الدجال من خرق العادات عند دعوى الربوبية (١) .

والصحيح والذي عليه الجمهور أنه لا يجوز أن يظهر المعجز على مدعي الربوبية كما لا يجوز أن يظهر على مدعي النبوة لأن معصيته في ادعاء الربوبية أغلظ وإفكه فيها أعظم، فكان بأن لا تظهر عليه أجدر .

وإذا استوضح ما أظهره مدعي الربوبية من الآيات ظهر فسادها وبان بطلانها وخرجت عن الإعجاز إلى سحر أو شعبذة (٢) .

ويدل على ذلك حديث المغيرة بن شعبة إذ قال للنبي - ﷺ -«إنهم يقولون[عن الدجال إن] معه جبال من خبز ولحم ونهر من ماء قال هو أهون على الله من ذلك» (٣) .

وقوله ﷺ -«من سمع بالدجال فلينأ عنه فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات (٤) .

وبصرف النظر عن هذا الخلاف: وهو هل ما يظهره الكاذب والدجال هو خرق حقيقي للعادة ودعواه الربوبية أو النبوة كذبا تبين كذبه لأنه في حالة ادعاء الربوبية فهو بشر من صفاته النقص، وفي حالة ادعاء النبوة فهو غير مؤيد ولابد من فارق بين المؤيد وغير المؤيد، أم هو حيل وشبه لا حقيقة لها .

فجمهور الناس من العوام لا يعرفون مثل هذه الفروق بين الحيلة والخارق الحقيقي وخاصة إذا دقت الحيلة وخفيت ولذلك كان ما ذكره الرسول ﷺ عن الدجال من الفروق إنما كان في قوله«فإن التبس عليكم فاعلموا أنه أعور وأن ربكم ليس بأعور»(٥) فذلك فرق يفهمه العامة والخاصة وهو فرق يرجع لحال الداعية وقيمة الدعوة لأن من كانت حاله النقص لا يصح له دعوى الكمال، وحتى وإن لم

---

(١) انظر محمد بن إبراهيم الوزير : البرهان القاطع ص ٢٣ : ٢٤ .

(٢)انظر الماوردى : أعلام النبوة ص ٢٩ . وابن حزم : الفصل جـ ١ ص ١٩١ . (٣)رواه مسلم فى صحيحه جـ ١٨ ص ٧٤ . (٤)رواه أحمد: فى مسنده، وأبو داود فى سننه والحاكم فى المستدرك عن عمران بن الحصين ، (٥) رواه مسلم فى صحيحه جـ ١٨ ص ٥٩ .

يكن أعور ففي بشريته من النقص ما يدل على كذبه في ادعاء الربوبية .

وإخبار الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - عنه ووصفهم له من أقوى دلائل كذبه وصدقهم .

ومن ثم فإن المعجزة وإن كانت خارقا حقيقيا للعادة بعكس السحر وغيره من الخوارق غير الحقيقية إلا أن إدراك ذلك الفرق لا يستطيعه الجميع ومن ثم كان الفارق الذي يمكن للجميع فهمه وإدراكه هو حال الداعية وقيمة الدعوة سواء كان المدعي الكاذب مدعيا للربوبية أم مدعيا للنبوة .

ويضيف العقاد إلى المعجزة شرطا جديداً وهو:

١١ - أن تكون من حسن ورجحان :

فالعقاد يرى أن النبوة يجب أن يثبت لها أمران: أنها معجزة من حسن ورجحان وأنها معجزة من قدرة الله وحده لا من قدرة أحد سواه.

فالإعجاز وحده لا يكفي لأن يكون دليلاً على الرسالة الإلهية، لأن الإعجاز قد يكون لعمل من أعمال البشر التي لابد فيها من رجحان واحد على الآخرين، فقد يكون لغير براعة في الفعل المعجز أصلاً، ويمثل العقاد لذلك بخط الطفل الصغير الذي يعجز غيره عن محاكاته أتم المحاكاة ومع ذلك لا يصح له أن يدعيه معجزاً ويتحدى به وإن عجز الآخرون عن محاكاته [١] .

وهذا الشرط متضمن في اشتراطنا أن تكون المعجزة من قدرة الله وحده لا من قدرة أحد سواه واشتراطنا أن يكون المعجز ليس هو ما عجز غير الأنبياء عن الإتيان بمثله فقط ولكنه أيضا ما اختص بهم عليهم السلام [٢] .

١٢ - عدم الاعتماد على مساعدة المخاطبين في تقديم ما يصعب تقديمه .

فصاحب المعجزة لا يطلب المساعدة من المخاطبين بالمعجزة على المعجزة بتقديم ما يصعب تقديمه.

---

(١) انظر العقاد : ساعات بين الكتب ص ٢٥ : ٢٦ .

(٢) انظر :اشتراط أن تكون المعجزة لغير حذق في الصناعة .

كأن يطلب من أحدهم أن يقتل نفسه أو يمكنه من قتله ليحييه، أو أن يطلب من آخر أن يحضر إليه أمه أو أخته أو زوجته. . إلخ ليواقعها، فتحمل من ساعتها، وتأتي بغلام عظيم في التو واللحظه .

لأن في ذلك تهرب من إظهار دليل النبوة، وفيه كذلك دليل على الضعف والاحتياج إلى الآخرين مع أن المعجزة أساسا دليل على أن صاحبها مؤيد من السماء، وليس في حاجة إلى الخلق .

١٣ ـ عدم معرفة النبي السحر:

ويستدل على ذلك محمد بن إبراهيم الوزير: بأنه لو كان يعرفه لكان إما أن يعرفه بالنظر أو بالتعلم من علماء السحر، أو بالقراءة لكتبهم، ولا رابع لكن كلها باطل فبقي أنه ما كان يعرف السحر .

أما أن السحر لا يدرك بالنظر فيستدل عليه بأن السحر راجع إلى معرفة الخواص مثل العلم بأن المغناطيس يجتذب الحديد، وخواص الأشياء وطبائعها لا تدرك بالفكر وإلا وجب فيمن أطال فكره في الأشياء أن يعرف طبائعها .

ويستدل كذلك على أن النبي ما عرف السحر بالتعلم من السحرة بأنه إما أن يكون قد قرأ عليهم الأزمنة الطويلة حتى تيقن علومهم، وهذا القسم باطل لأنه لو كان لعلمه قومه، ولو علموه لقدحوا عليه بذلك، ولو قدحوا لنقل إلينا، لكنه لم ينقل عن أحد من حذاقهم، وأهل الجدل من فطنائهم قدح بذلك فعلمنا أن المخالطة للسحرة ما كانت من الأنبياء .

وإما أن يكون قد علمه السحر أحد من السحرة في ساعة أو يوم على وجه يجب ألا يعلمه قومه ولا غيرهم من المنكرين للنبوة .

فهذا القسم باطل لأنه يستحيل أن يأتي رجل فيتعلم في مدة قصيرة لا يشعر بها من السحر والخفة ما يبلغ به إلى مرتبة في خرق العادات لا يبلغ أقرب درجاتها من أهل الذكاء المفرط من قضى جميع عمره، وقطع كل دهره. واشتغل في عامة زمانه في تعلم هذا الفن، وتلقن هذا العلم .

وأما أنه لا يعرف السحر من قبيل قراءة الكتب فنبينا عليه السلام كان أميا لا

يقرأ ولا يكتب، وذلك متواتر [١] .

وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿**وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون**﴾ [٢] وقوله تعالى ﴿**قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون**﴾ [٣] وقد حكى القرآن إقرار الكفار بذلك في قوله تعالى﴿**وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه**﴾ [٤] فقالوا اكتتبها ولم يقولوا كتبها، وأشاروا إلى أنه لا يقرأ بقولهم فيما حكى الله عنهم (فهي تملى عليه) ولم يقولوا فهو يمليها.

وإذا كان رسولنا ﷺ قد جعله الله تعالى أمياً كي يقطع عنه الوهم ببعده عن أرباب هذه العلوم فموسى عليه السلام الذي ولد بأرض السحر والسحرة خرج إلى شعب شعيب وعاش فيه طويلا بحيث لا يتوهم فيه مخالطة السحرة .

ثم إن كل من له شأن عظيم فلابد له من أعداء ومنافسين وأحباء ومعجبين وأقرباء مقربين يعنون بمعرفة أمره ولا يخفى عليهم من أمره شيء .

والأنبياء عليهم السلام ليس هناك من البشر من هو أعظم منهم، ومن ثم فهم أصحاب النصيب الأكبر في المحبة والعداوة، ومن ثم العناية بمعرفة أخبارهم وأحوالهم وكل ما يكون منهم، والناظرون في أحوالهم يجدون ما يحيل نسبتهم إلى الكذب ويدل دلالة قاطعة على صدقهم.

إلا أنه إذا كان السحر أنواعاً كثيرة، وكان خط الرمل من هذه الأنواع[٥] وقد قال النبي ﷺ[٦] : «كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك» .

فقد يمكن أن يقال إن ذلك لا يطعن في اشتراط «عدم معرفة النبي السحر» لأن ذلك النبي قد يكون أول من خط الرمل، فيكون ذلك معجزاً له .

إلا أن ذلك يعارضه ما يقال من أن ستة من الأنبياء كانوا يخطون الرمل هم آدم، وإدريس، ولقمان، وإرميا، وإشعياء، ودانيال [٧] .

---

(١) انظر محمد بن إبراهيم الوزير: البرهان القاطع ص ٢٤ : ٢٦. (٢) العنكبوت : ٤٨ .(٣) يونس : ١٦ .
(٤) الفرقان : ٥ . (٥) انظر أنواع السحر فى الفصل الأول من الباب الثاني.
(٦) رواه مسلم: فى صحيحه جـ ١٤ ص ٢٢٤ .
(٧) انظر : . Thomas Patrick Hughes : A Dictionary of Islam p 202

فإن صح ذلك، وكـان الخط معجزاً للأول منهـم، فليس معجزاً للبـاقين وقد شاركهم في علمه من ليسوا بأنبياء .

ومن ثم يمكن أن يقال أيضاً إن النبى و إن كـان علم ذلك العلم بالتعلم، فإن ذلك لا يطعن في نبوته، فـقد تكون معجـزته من جنس بعيد كل البـعد عن جنس ذلك العلم.

ثم إنه إذا كان من السحـر ما لا يدرك بالتعلم [١] فإني أرى أن اشتراط عدم معرفة النبي السحر مجرد قرينة على الصدق قد تتخلف .

١٤ - أن تكون جهرة أمام الجميع :

قال تعالى على لسان قوم إبراهيم: [٢]**﴿قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون﴾** . وقال تعالى على لسان موسى عليه السلام: [٣]**﴿موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى﴾** .

وكان هذا من أكبر مـقاصد موسى عليه السلام: أن يظهـر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحـضرة الناس، ولهذا قال(موعدكم يوم الزينة) وكـان يوم عيد من أعيادهم ومجتمع لهم(وأن يحشر الناس ضحى)أي من أول النهار في وقت اشتداد ضـيـاء الشمس، فـيكون الحـق أظهر وأجلـى، ولم يطلب أن يكون ذلك ليـلا في ظلام، كيما يروج عليهم مـحالاً وباطلاً، بل طلب أن يكون نهاراً جهرة، لأنه على بصيرة من ربه ويقين بأن الله يظهر كلمته ودينه، وإن رغمت أنوف القبط .

وهذا هو منطق المعجـزة أما ما يروى في الكتاب المقـدس من فرض الصمت في كثير من الأحوال بعد انتصار المسيح على الموت أو المرض بإذن الله .

كما في إنجيل مرقس مثلا في مواطن كثيرة مثل :

- الممسوس في كفر ناحوم [٤] .
- أشفية وتعزيم عند المساء في كفر ناحوم [٥] .

---

(١) انظر اشتراط ألا تكون المعجزة من الصناعات المكتسبة بالتعلم . (٢) الأنبياء :٦١ .
(٣) طه:٥٩. (٤) انظر مرقس الأصحاح (١) آية (٤٠ ـ ٤٥) .
(٥) انظر السابق الأصحاح (١) آية (٣٢ ـ ٣٤) .

- الأبرص [1] .

- موجز لأعمال المسيح في شفاء المرضى [2] .

- المنزوفة وابنة يائيرس [3] .

- الأصم والأبكم [4] .

- أعمى بيت صيدا [5] .

ففي الكتاب المقدس نفسه انتقاد لذلك الموقف ففيه: «فقال له أخوته انتقل من هنا، واذهب إلى اليهودية لكي يرى تلاميذك أيضا أعمالك التي تعمل لأنه ليس أحد يعمل شيئا في الخفاء وهو يريد أن يكون علانية، إن كنت تعمل هذه الأشياء فأظهر نفسك للعالم [6].

إلا أنه قد تكون المعجزة سراً في بعض الأحوال لحكمة من الحكم ككونها في بداية الدعوة، خوفا من بطش المعارضين إلى أن يقوى شأن المؤمنين .

ولذلك كان رد المسيح على أخواته في(تتمة)النص السابق«إن وقتى لم يحضر بعد»[7]

وفي القرآن الكريم﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ [8] إلى أن قوى شأن المسلمين وأمكنهم الدفاع عن أنفسهم فكان قوله تعالى﴿**فاصدع**[9] **بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزءين**﴾ [10] .

بل قد لا يشاهد المعجزة أحد من المكلفين إلا شخص النبي فقط كمعجزة المعراج كما سيأتي بيانه [11].

وبالتالي فكون المعجزة سراً أو جهراً لا يعتبر شرطاً في كون الخارق الحقيقي

---

(١)انظر السابق الأصحاح (١) آية (٤٠ ـ ٤٥) .

(٢)انظر السابق الأصحاح (٣) آية(٧ ـ ١٢) .

(٣)انظر السابق الأصحاح (٥) آية(٢١ ـ ٤٣) .

(٤)انظر السابق الأصحاح (٧) آية(٣٢ ـ ٣٧).

(٥)انظر السابق الأصحاح (٨) آية(٢٢ ـ ٢٦) .

(٦) يوحنا الأصحاح (٧) آية (٣ ـ ٤) .

(٧) يوحنا: الأصحاح (٧) آية (٦) .

(٨) الشعراء : ٢١٤ . (٩) فاصدع:أي أعلن

(١٠) الحجر :٩٤: ٩٥ .

(١١) انظر الملحق رقم (١) .

حقيقياً، بل إن ذلك لا يعدو أن يكون قرينة على الصدق [١] وعلى أن هذا الخارق حقيقي وأن صاحبه لا يخاف المعارضة، ولكنها قد تتخلف .

١٥ - أن تقع على يد فاضل خير:

فهناك من يرى أن الفرق بين المعجزة والسحر لا يعود إلى نفس طبيعة الخارق، ولكن إلى أن السحر لا يحدث إلا على يد فاسق والمعجزة لا تحدث إلا على يد الصادق خير .

وهناك من يرى أن هناك فارق يعود إلى نفس طبيعة الخارق ولكن المعجزة لا تحدث إلا على يد الخير الصادق، والسحر لا يصدر إلا من الفاسق .

وما أراه هو أن هناك فارق يعود إلى نفس طبيعة الخارق وأن المعجزة لا تحدث إلا على يد الخير الصادق أما السحر فلا يشترط أن لا يحدث إلا على يد الفاسق، فقد يحدث على يد الخير الصالح .

- وتفصيل ما سبق:

يقول الجويني: [٢]«إن السحر لا يظهر إلا على يد فاسق» ويعرف الألوسي السحر بأنه أمر يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان بارتكاب القبائح [٣] .

ويرى الغزالي أن العلاقة بين النبي والساحر ليست هى علاقة تفاوت وتفاضل فقط، ولكنها أيضا علاقة تضاد .

يقول الغزالي في هذا الصدد: [٤] «إن التخيل في الحيوانات على تفاوت وتفاضل وتضاد» .

ويوضح ذلك بقوله [٥] أما التضاد فعقل النبي وعقل الكاهن وأما الترتب فكعقل النبي وعقل الصديق» .

---

(١) وإذا كانت كرامات الأولياء معجزات لأنبيائهم كما يقول ابن تيمية وإذا كان الولى غالبا ما يستر الكرامة، ولا يطلب لها العلانية، فلأن الكرامة إكرام للولى وبشرى له، بعد أن قامت الأدلة القاطعة على النبوة التى لولاها ما سلك الولى شريعة النبى ومن ثم تسقط الحاجة إلى كون الكرامة علانية، بعكس المعجزة، هذا بالإضافة إلى أن دلالة الكرامة على الولاية ليست قطعية، بعكس دلالة المعجزة على النبوة.

(٢) الجوينى : الإرشاد ص ٢٧١ . (٣) انظر الألوسى : روح المعانى جـ ١ ص ٣٣٨ .

(٤) الغزالى :معارج القدس ص ١٥٨ . (٥) السابق ص ١٦٣ .

ويقول[1] «والذي يقع له هذا الكمال في جبلة النفس ثم يكون خيراً متحلياً بالسير الفاضلة ومحامد الأخلاق وسير الروحانيين مجتنبا عن الرذائل ودنيات الأمور، فهو ذو معجزة من الأنبياء أي من يدعي النبوة ويتحدى بها وتكون هذه الأمور مقرونة بدعوى النبوة أو كرامة من الأولياء. . .ثم من يكون شريراً ويستعمله في الشر فهو الساحر الخبيث».

ويكاد يتطابق ذلك الكلام مع كلام ابن سينا[2]«فالذي يقع له هذا في جبلة النفس ثم يكون خيراً رشيداً، مزكيا لنفسه، فهو: ذو معجزة من الأنبياء أو كرامة من الأولياء وتزيده تزكيته لنفسه في هذا المعنى زيادة على مقتضى جبلته، فيبلغ المبلغ الأقصى

والذي يقع له هذا ثم يكون شريراً، ويستعمله في الشر فهو الساحر الخبيث، وقد يكسر قدر نفسه من غلوائه في هذا المعنى، فلا يلحق شيئا» .

فكل هذه النصوص السابقة تربط بين السحر والشر، والمعجزة والخير، وصحيح أن المعجزة لا تحدث إلا على يد الصادق الخير، لكن لا يشترط في السحر أن يكون على يد الفاسق الكاذب.

وربما كان سبب الخطأ في ذلك في رأيي هو الربط بين السحر، وتسخير الجن ثم الخلط بين الجن والشياطين مع أن استخدام الجن ليس من السحر في نظر بعض العلماء، وحتى من جعل استخدام الجن وتسخيرهم من السحر، فليس ذاك كل السحر فللسحر أنواع عديدة.

وحتى وإن كان استخدام الجن هو كل السحر فمن الجن من هو مسلم كما أن منه من هو كافر، وكما يسخر الإنسان الكافر من الجن يمكنه تسخير المؤمن قال تعالى في حق الجن وعلى لسانهم: ﴿**وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا**﴾ [3] بعكس الشياطين فكلهم كفرة كما سيأتي بيانه .

وإذا كنا نرجح الرأي القائل بأن السحر جنس يدخل تحته أنواع كثيرة [4]،

---

(١) السابق ص ١٦٤ .

(٢)ابن سينا :الإشارات والتنبيهات ص ٨٩٨ ـ ٨٩٩ .

(٣) الجن: (١١).

(٤) انظر أنواع السحر في الفصل الأول من الباب الثاني .

منها خط الرمل وقراءة الفنجان وغير ذلك .

فقد روي عن الـرسول ﷺ أنه قال[1]«كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك» فلا ارتباط بين السحر والشر .

بل إن الرازي يروي الإجماع على الارتباط بين السحر والخير يقول الرازي[2] «أجمـعوا على أن صاحب هذا العـمل(السحر) كلمـا كان إقبـاله على أبواب البر والخير أكثر كانت أعماله أكمل، لأن الغالب على طبيعة العالم هو الخير، وأما الشر فمغلوب فإذا اعتضد عمله بالجانب القاهر الغالب كان ذلك العمل أكمل وأفضل»

ويذكر الرازي في كتابه النبوات للسحر أنواعا عشرة[3] منها ما هو مبني على خواص الأدوية المعـدنية والنبـاتية والحيـوانية، ومنهـا ما هو مبني عـلى قوة الوهم وتصفيـة النفس ومنها السحر المجازي المبني على الحـيلة وخفة اليد، ومنها تسـخير الجن، وشرطه المشاكلة بين المسخِّر والمسخَّر في الفسق أو الصلاح

ولا أريد هنا حصـر أنواع السحـر وتقسيـمهـا بين ما يتطلب الصـلاح وما يتطلب الفـسق والفسـاد وإنما ما أعنيـه هنا هو أن من السـحر ما يشـترط الفـسق والفجور. كالحال عند تـسخير الجن الفاسق الفاجر ومنه ما يشـترط الخير والصلاح كالحال عند تسخير الجن الصالح الخير وكالحال في السحر المبني على تصفيه النفس وزيادة قوتها.

ومنه ما لا يشترط شـيئا ولا علاقة له لا بخيرية صاحبـه ولا بعدمها وذلك كالحال في السحر المبني على خواص الأدوية والسحر المجازي.

وقوله تعالى: ﴿**هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون**﴾[4] .

---

(١) رواه مسلم : فى صحيحه جـ ١٤ ص ٢٢٤ وقد ذكرنا من قبل ما يقال من أن ستة من الأنبياء كانوا يخطون الرمل .

(٢) الرازى : النبوات ص ٢٢٢.

وانظر كذلك ـ أحمد حسين الشاعر:أسرار الفنجان ص ٢٢ ـ أنيس منصور : القوى الخفية ص ٩٩ .

(٣)انظر الرازي : النبوات ص ٢٠٠ – ٢٠٣ .

(٤)الشعراء : (٢٢١ ، ٢٢٣) .

فالحديث هنا عن نوع واحد من أنواع السحر تستخدم فيه الشياطين، وليست كل أنواع السحر كذلك .

ويقول ابن خلدون:[1] «والساحر إنما يفعل ذلك من لدن نفسه وبقوته النفسانية، وبإمداد الشياطين في بعض الأحوال. . .[ويقول] والسحر إنما يوجد لصاحب الشر في أفعال الشر في الغالب» فليس ذلك دائما .

وأما قوله تعالى : **﴿قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون﴾**[2] فلا يقصد بالذم هنا السحر كعلم، ولكن المقصود ذم السحرة الكاذبين .

وأما قوله تعالى : **﴿فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾**[3] فالذم هنا إنما يعود على السحر إذا كان غرضه الإفساد .

«وقد أجاز بعض العلماء تعلم السحر لأحد أمرين: إما لتمييز ما فيه كفر من غيره، وإما لإزالته عمن وقع فيه، فأما الأول فلا محذور فيه إلا من جهة الاعتقاد فإذا سلم الاعتقاد فمعرفة الشيء بمجرده لا تستلزم منعا، كمن يعرف كيفية عبادة أهل الأوثان للأوثان لأن كيفية ما يعمله الساحر إنما هي حكاية قوله أو فعله بخلاف تعاطيه والعمل به .

وأما الثاني: فإن كان لا يتم كما زعم بعضهم إلا بنوع من أنواع الكفر أو الفسق، فلا يحل أصلا، وإلا جاز للمعنى المذكور [4].

«وعن قتادة عن سعيد بن المسيب: أنه كان لا يرى بأسا إذا كان بالرجل سحر أن يمشي إلى من يطلق عنه قال قتادة: وكان الحسن يكره ذلك، ويقول لا يعلم ذلك إلا ساحر، قال: فقال سعيد بن المسيب: إنما نهى الله عما يضر، ولم ينه عما

---

(١) ا بن خلدون :المقدمة ص ٥٠٢ .

(٢) يونس ٧٧ .

(٣) يونس : ٨١ .

(٤) ابن حجر العسقلاني : فتح البارى كتاب الطب،باب السحر جـ ١٢ ص ٣٣٥ .

ينفع، وقد أخرج أبو داود في المراسيل عن الحسن البصري رفعه (النشرة[1] من عمل الشيطان) ووصله أحمد وأبو داود بسند حسن عن جابر، وقد سئل أحمد عمن يطلق السحر عن المسحور فقال: لا بأس به، وهذا هو المعتمد .

ويجاب عن أن (النشرة من عمل الشيطان) أن ذلك إشارة إلى أصلها، ويختلف الحكم بالقصد، فمن قصد بها خيراً كان خيراً وإلا فهو شر، ثم إن الحصر المنقول عن الحسن ليس على ظاهره لأنه قد ينحل بالرقى والأدعية والتعويذ» [2] .

وفي حديث سحر الرسول ﷺ سألته السيدة عائشة - رضي الله عنها - «أفلا تنشرت» أي وكأنها تقول له تنشر، ورد عليها ردا لا اعتراض فيه بل إقرار «أما والله فقد شفاني وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً» [3] فهذا يدل على الجواز والجواز يدل على أنه لا ارتباط بين السحر وبين الشر .

١٦ - أن لا تتقدم المعجزة على الدعوى :

فلو ظهرت آية وانقضت، فقال قائل أنا نبي والذي مضى كان آيتي فلا يصدق إذ لا تعلق لما انقضى بدعواه فلا يكون بالدلالة على صدقه أحق منه بالدلالة على صدق غيره، ويطالب به بعد، فلو عجز كان كاذبا قطعا .

فإن قيل: إذا نظرنا إلى صندوق وألفيناه خلوا، وأقفلناه وتركناه بمرأى منا، فقال مدعي النبوة: آية نبوتي أنكم تصادفون في هذا الصندوق ثياباً، فإذا فتحنا الصندوق وألفينا المتاع كما وصف، فيرى الجويني والإيجي وغيرهما أن ذلك آية، وإن جاز تقدم اختراع ذلك المتاع على دعواه، لأن قوله المبني على الغيب آية وذلك مطابق لدعواه [4] .

ويعترض ابن كمال باشا على ذلك اعتراضا أراه مقبولا فيقول: [5] «إن

---

(١) قال ابن الجوزي: النُّشْرَة: حل السحر عن المسحور. ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر (السابق جـ٢ ص ٣٤٤).

(٢) السابق نفس الموضوع .

(٣) انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري جـ ١٢ ص ٣٤٥ ، ٣٤٧ .

(٤) انظر الجويني: الإرشاد ص ٢٦٥ . الإيجي : المواقف ص ٣٤٠ .

(٥) ابن كمال باشا : مجموعة الرسائل رسالة في حقيقة المعجزة ودلالتها جـ ١ ص ١٤٢ .

الصالح لأن يكون معجزاً الإخبار عن الغيب عن الثقلين، وأما الغيب عنا لا عن الجن فالإخبار عنه لا يصلح معجزاً لاحتمال أن يكون بإعلام الجن» إلا إذا انتفى ذلك الاحتمال لسبب من الأسباب.

وأما كلام عيسى عليه السلام في المهد وتساقط الرطب الجني عليه من النخلة اليابسة وما حدث لرسولنا ﷺ من شق بطنه، وغسل قلبه وإظلال الغمامة وتسليم الحجر والمدر عليه فيقول الإيجي:[1]«إنما هي كرامات وظهورها على الأولياء جائز والأنبياء قبل نبوتهم لا يقصرون عن درجة الأولياء» .

وأرى وجوب التفرقة بين كلام عيسى عليه السلام في المهد ودعواه النبوة وبين غير ذلك من إرهاصات النبوة فالإرهاصات من شق بطن رسولنا ﷺ وغسل قلبه وإظلال الغمامة له ﷺ وغير ذلك من الإرهاصات والكرامات، فلا تدل دلالة قطعية على النبوة .

أما كلام عيسى - عليه السلام - في المهد وادعاؤه النبوة فيدل في نفسه دلالة قطعية على نبوته، ومن ثم فهو معجزة له عليه السلام .

ولكن هل قامت نبوته عليه السلام بتلك المعجزة في ذلك الوقت، وهو ما زال طفلا رضيعاً؟ أم أن تلك الخارقة إنما أبرأت ساحة أمه إكراما لها ودلالة على أهليته للنبوة عليه السلام ؟فذلك أمر خلافي بين العلماء ولا يعنينا بحثه هنا .

وما يعنينا أن كلامه عليه السلام معجزة تدل في نفسها دلالة قطعية على نبوته أو على تأهيل الله تعالى له بالنبوة وهذا هو تعريفنا للمعجزة .

فمعجزة عيسى عليه السلام هنا لها خصوصية معينة وعدم التفرقة بينها وبين الإرهاصات إنما نتج من الإصرار على تعميم القواعد وإطلاقها ومحاولة ضم كل الجزئيات دائما تحت قاعدة واحدة والأشياء تختلف ولا تتشابه دائماً، وبالنظر في الجزئيات تعرف الكليات وليس العكس،

يقول القاضي عبد الجبار:[2] «فهذه الطريقة التي أوجبناها من أن يكون

---

(١) الإيجي : المواقف ص ٣٤٠ .

(٢) القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ص ٥٦٩ ؛ ٥٧٠ .

المعجز واقعا عقيب دعوى المدعي للنبوة إنما أوجبناها إذا لم يكن المعجز نفس المدعي للدعوة، فأما إذا كان كذلك، نحو كلام عيسى عليه السلام في المهد فادعاؤه النبوة فلا» أي فلا يشترط تقدم الدعوى على المعجزة، وهكذا ورد الكتاب بقوله ﴿**إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً**﴾[1] فقد قارنت المعجزة الدعوى لأنه لا فرق بين أن تكون نفسها على حد الأعجاز أو يتعقبها الإعجاز في هذا الباب [2] .

فكل ما دل دلالة قطعية على النبوة فهو معجزة ككلام عيسى عليه السلام في المهد وادعائه النبوة .

١٧ - أن لا تتأخر المعجزة عن الدعوى :

فإذا ثبت صدق المدعي للنبوة بمعجز وتراخى عن دعواه معجز آخر جاز لثبوت صدقه بدلالة أخرى غير هذه الدلالة المتأخرة [3] .

فإن كلف المدعي الناس التزام الشرع ناجزاً والآية موقوفة، فقد كلفهم شططا، وإن نص على الأحكام وعلى التزامها بوقت ظهور الآية صح ذلك [4] .

ويرد السنوسي في شرح الكبرى على المعتزلة لما صرحت بمنع ذلك وبنوا ذلك على القول بالتحسين والتقبيح فقالوا لو تأخرت حجته إلى بعد وفاته لكان في حال حياته لا يجب توقيرة وتعظيمه والوفاء بحرمته ورعاية حق النبوة والرسالة له، وذلك منع للخلق من الرتب السنية والمقامات العليةوهذا لا يحسن ممن وجب أن يكون حكيماً لطيفاً راعيا لصلاح البرية.

ويبطل السنوسي قولهم من وجهين:

- أحدهما : من جهة إبطال التحسين والتقبيح ومراعاة الصلاح والأصلح.
- الثاني :على تقدير تسليم هذا الأصل لهم، فقد يقال لا يمتنع أن يكون

---

(١) مريم : (٣٠) .
(٢) انظر القاضى عبد الجبار : المغني ١٥ / ٢١٥ ـ ٢١٦ .
(٣) انظر القاضى عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ص ٥٦٩ ـ ٥٧٠ .
(٤) انظر الجوينى : الإرشاد ص ٢٦٥ .
وانظر كذلك الإيجى : المواقف ص ٣٣٦ .

صلاح بعض الخلق في ذلك إذ قد يعلم الله من طائفة حسد الأحياء ومنافستهم واستحكام هذا الخلق فيهم ويزول عنهم هذا الخلق بموت محسودهم ويتلقون حينئذ ما يكون منه بالقبول، وأكثر الكفرة والفجرة إنما أتوا من حسد وحب رياسة وأنفة من التبعية فلا يمتنع في المعلوم على أصل التحسين والتقبيح أن يكون صلاح قوم في تأخير المعجزة .

ويرد السنوسي كذلك على القاضي أبو بكر الباقلاني حين يحتج بأن الرسالة مرجعها إلى تعلق الخطاب بالرسول، وذلك ممتنع بعد الموت، فكيف تكون الآية لاتتحقق إلا في وقت امتناع ما هى آية عليه؟: بأنها تبين بعد موته أنه كان مخاطبا بتبليغ ما بلغه، ولا يضر امتناع تعلق الخطاب به وجود الآية فإنها تدل على ما سبق من دعواه وإذا جاز تأخير الآية إلى زمن مضروب في حال الحياة فيجوز أن تتأخر إلى أجل مضروب بعد الوفاة، فيستبين بذلك صدقه في الدعوى السابقة .

ويذكر السنوسي أنه ربما يحتج القاضي بأن القول بذلك يؤدي إلى إبطال الكرامة إذ ما من كرامة إلا ويجوز على هذا أن تكون معجزة لنبي تأخرت بعد وفاته .

ويجيب عليه بأن غاية ذلك بطلان كون الكرامة دليلا قطعياً على ولاية من ظهرت على يده لتطرق هذا الاحتمال فيها، ولا ريب فى ذلك فإن دلالة الكرامة على الولاية ليست قطعية، ولو أمنا فيها من هذا الاحتمال الذي ذكر لاحتمال كونها استدراجا ويكون من ظهرت على يده من أهل عداوة الله تعالى [(١)] .

وأما احتمال كون الكرامة معجزة لنبي تأخرت بعد وفاته، فيقول عنه ابن تيمية: [(٢)]«وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسوله فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول» وهذا صحيح.

وأما احتمال كون الكرامة استدراجا فيقول عنه ابن تيمية [(٣)] «وكثير من هؤلاء لا يعرف أن ذلك من الجن . . .» .

---

(١) انظر السنوسى :شرح الكبرى ص ٤٥٠ ـ ٤٥٢ .

(٢) ابن تيمية :الفرقان ص ١٢٩ .

(٣) السابق ص ٢٥٩ .

ويقول ابن عربي[1] «ولا يصح كون ذلك كرامة إلا بتعريف إلـهي لا بمجرد خرق العادة» وهذا صحيح أيضاً .

وينتقد السنوسي ما ذهب إليه الباقلاني من أن تأخير ما يدل على الرسالة إلى الوفاة قد تضيع معه فائدة البعثة وهي العلم بأحكام الله تعالى،لعدم وجود الباعث لهم عادة على حفظ ذلك عنه،بأن ذلك قصاراه استبعاد وجود الحفظ منهم لشرعه،فلا يصح أن يكون دليلا على عدم الجواز،على أنه يمكن تدوينه على وجه يتأتى حفظه بعد موته،هذا إن قلنا بأن تكليف ما لا يطاق غير سائغ وأما إن سوغناه فالأمر في ذلك واضح [2] .

والصواب هو جواز تأخر المعجز الحسي وإن لم يثبت صدق المدعي بمعجز حسي آخر،وذلك اكتفاء بالإعجاز المعنوي أي بقرائن الصدق المتمثلة أساساً في حال الداعية وقيمة الدعوة .

وتتأكد صحة ذلك الجواز بما سيأتي بيانه من أن المعجزة الحسية ليست أصلاً شرطا للنبوة [3] .

١٨ - ألا يكون الخارق في زمن نقض العادات :

فقد اشترط بعض العلماء أن لا يكون الخارق للعادة الذي يقصد به التصديق في زمن انتقاض العادات وهو قرب قيام الساعة [4] .

وأرى أنه لا معنى لاشتراط مثل هذا الشرط،وذلك لأن «أشراط الساعة هي من آيات الأنبياء من جوه:منها أنهم أخبروا بها قبل وقوعها فإذا جاءت كما أخبروا كان ذلك من آياتهم.ومنها أنهم أخبروا بالساعة،فهذه الأشراط مصدقة لخبرهم بالساعةوكل من آمن بالساعة آمن بالأنبياء،وكل من كذب الأنبياء كذب بالساعة»[5]

(١) ابن عربي :الفتوحات المكية جـ ٢ ص ٣٦٩ .
(٢) انظر السنوسي : شرح الكبرى ص ٤٥٢ _ ٤٥٣ .
(٣) انظر حديثنا عن أن دلالة المعجزة المعنوية تغني عن المعجزة الحسية في الفصل الأول من الباب الثالث.
(٤) انظر البغدادي : أصول الدين ص ١٧٠ .
(٥) ابن تيمية : النبوات ص ٢١٤ .

وبعد إخبار الأنبياء بها لا يمكن أن يدعيها أحد أية له كذبا .

١٩ ـ اشتراط الادعاء والتحدي :

يشترط كثير من العلماء في المعجزة أن تكون مقرونة بدعوى النبوة والتحدي، وإن كان بعض هؤلاء العلماء يرى أن السحر لا يقارن المعجزة في شيء كمحمدعبده[1] إلا أن بعضا آخر منهم يرى أنه إن لم تكن دعوى نبوة وتحدي فقد يجوز ظهور ذلك على يد الفاسق لأنه مقدور في نفسه.

يقول الغزالي [2] «فإن كان مع التحدي فإنا نسميه معجزة، ويدل بالضرورة على صدق المتحدي، وإن لم تكن دعوى فقد يجوز ظهور ذلك على يد فاسق لأنه مقدور في نفسه» .

ويتفق الباقلاني والإيجي في أن الساحر إذا احتج بالسحر وادعى به النبوة أبطله الله تعالى عليه بوجهين: أنساه عمل السحر جملة، أولم يفعل سبحانه عند قوله وما يفعله في نفسه من الأفعال شيئا في السحور من موت أو سقم أو بغض.

والوجه الآخر: أن نجد خلقاً من السحرة يفعلون مثل فعله ويعارضونه بأدق وأبلغ مما أورده، فينتقض بذلك ما ادعاه، ويبطل.

ويرى الباقلاني أن الرسول إذا ظهر عليه مثل ذاك وادعاه آية له وتحدى بمثله وامتنع ظهور مثله على يد ساحر أو كاهن مع أنه قد كان يظهر من قبل، صار ذلك خرقا لعادة البشر، وعادة الكهنة والسحرة خاصة، ولم يبعد أن يقال: إن هذه الآية أعظم من غيرها وإن لها فضل مزية، ويرى أن المنع لهم عند هذا التحدي من النبي يكون من الله سبحانه بوجهين:

أحدهما: أنه ينسيهم السحر والكهانة ويذهب بحفظ ذلك وعلمه من قلوبهم وذلك آية عظيمة وخرق للعادة .

والوجه الآخر: أن يبطل الله تعالى السحر بأن لا يفعل سبحانه عند كلامهم وما يفعلون في أنفسهم سقم أحد ولا موته ولا تفرقة بينه وبين زوجته ولا القدرة

---

(١) انظر محمد عبده :رسالة التوحيد ص ٩٠ .

(٢) الغزالي : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢٥ .

فيهم على الصعود على خيط والتصرف في الجو فيكون هذا أيضاً آية للناس عظيمة[1] .

ويستدل الباقلاني على أن المعجز لا يكون معجزاً إلا إذا فعل عند احتجاج الرسول به لصدقه وتحديه بمثله بأنه قد ثبت عنده أنه ليس بمعجز لجنسه، لأن الله عز وجل لو ابتدأ بفعله نحو أن يحي ميتا ويطلع الشمس من مغربها، ويزلزل الأرض، ويظلنا بالسحاب، لا عند دعوى أحد للرسالة، وكون ذلك آية له لم يكن ما يفعله الله سبحانه من ذلك معجزاً وإن كان من جنس المعجز فلذلك لا يكون إحياء الأموات يوم القيامة وإطلاع الشمس من مغربها وطى السموات وأمثال ذلك من آيات الساعة آية لأحد، وإن كان مثله وما هو من جنسه لوفعل في وقتنا هذا عند تحدي الرسول لكان آية له، وحجة لنبوته، ويستدل على ذلك أيضا بحصول الكرامة على أيدي الصالحين. وبأنه لو كان المعجز معجزاً لجنسه، لم يصح أن يوجد من جنسه ما ليس بمعجز [2] .

وحاصل ما سبق :

- ليس هناك فارق بين المعجزة وغيرها من الخوارق يعود إلى نفس طبيعة الخارق، وإنما الفرق هو أن المعجزة شرطها الدعوى والتحدي ومنع الله غير النبي من معارضته وإن كان نفس المعجز غير خارق بالنسبة لهم وإن كانت لهم قدرة عليه قبل تحدي النبي به وادعائه آية له .

والساحر إذا ادعى النبوة كذبا إما أن ينسيه الله السحر عندئذ، وإما أن لا يفعل عند سحره شيئا في المسحور وإما أن يقيض له من يعارضه ويبين كذبه.

ودليل ذلك: أن ظهور الخارق على يد الكاذب مقدور في نفسه وأن الله تعالى قد يخرق العادات لا عند دعوى أحد للرسالة كعلامات الساعة، فلا تكون معجزة لأحد وإن كانت من جنس المعجز وأنه تعالى يخرق العادات على أيدي الأولياء والصالحين على جهة الكرامة ولو كان المعجز معجزا لجنسه لم يصح أن يوجد من جنسه ما ليس بمعجز .

---

(١) انظر الباقلانى :البيان ص ٩٤ :٩٧ وانظر كذلك الإيجي : المواقف ص ٣٤٦ .

(٢) انظر السابق ص ٤٧ .

وجواب ذلك :

أن المعجزة إنما تفترق عن السحر بالنظر إلى طبيعة الخارق نفسه.

فالمعجزة أمر خارق للعادة خرقا حقيقياً بينما السحر من الخوارق غير الحقيقية كما سيأتي بيانه .

والدليل لا يكون دليلا حتى يكون مستلزما للمدلول متى وجد وجد المدلول وإلا فإذا وجد تارة مع وجود المدلول وتارة مع عدمه فليس بدليل، صحيح أنه لا يمتنع أن يكون الشيء الواحد دليلا على أمور كثيرة لكن يمتنع أن يوجد مع انتفاء مدلوله فما دل على النبوة قد يدل على أمور أخرى من أمور الرب تبارك وتعالى لكن لا يمكن أن يوجد مع انتفاء النبوة [1] .

وإذا كانت المعجزة مثل السحر فلم كان أحدهما دليلا دون الآخر؟ ولم اقترن العلم بأحد المتماثلين دون الآخر؟ .

«والرب في الحقيقة لا ينقض عادته التي هي سنته التي قال فيها ﴿**سنه الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا**﴾[2] وقال ﴿**فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا**﴾ [3] وهي التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين، فهو سبحانه إذا ميز بعض المخلوقات بصفات يمتاز بها عن غيره ويختص بها قرن بذلك من الأمور ما يمتاز به عن غيره، ويختص به، ولا ريب أن النبوة يمتاز بها الأنبياء ويختصون بها فمن خصه الله بذلك كان له من الخصائص التي لا تكون لغيره ما يناسب ذلك [4] فيستدل بتلك الخصائص على أنه من أهل الاختصاص بالنبوة» [5] .

ثم إن قول الباقلاني الذى يرويه عنه ابن حزام من أن الله تعالى لا يقدر

---

(١) انظر ابن تيمية :النبوات ص ٥ ـ٢٥٥.
وانظر كذلك الرازى:الأربعين جـ ٢ ص ٢٠٤.

(٢) الفتح : ٢٣ .

(٣) فاطر : ٤٣ .

(٤) انظر اشتراطنا فى المعجزة أن تكون خارقا حقيقيا للعادة وكذا اشتراطنا أن تكون مما ينفرد الله بالقدرة عليه وانظر كذلك حديثنا عن الفروق بين المعجزة وغيرها فى الباب الثاني وكذا حديثنا عن نسبية الدلالة في الفصل الخامس من الباب الرابع .

(٥) ابن تيمية :النبوات ص ٢١٩.

على إظهار آية على يد كاذب ففي ذلك تعجيز للباري تعالى، وهو أيضا تعجيز داخل في جملة المحال ذلك أنه جعل الله تعالى قادراً على إظهار الآيات على كل ساحر، فإن علم أنه يقول إنه نبي لم يقدر على أن يظهرها عليه، وهذا قول في غاية البطلان، لأن من قدر على شيء لم يجز أن يبطل قوته عليه علمه بأن ذلك الذي يظهر فيه الفعل يقول أنا نبي[1].

ثم إن الباقلاني في موقفه هذا يتناقض مع ما ذهب إليه من قبل من أن معجزة النبي «مما لا يدخل تحت قدر العباد لامتناع كونها مقدورة لهم..... لا لعجزهم عنها ومنعهم منها كما سبق إيضاحه[2].

وإذا كانت المعارضة إنما تكون بالمثل وإذا كانت حجة النبي عندهم هي مجموع دعوى النبوة والإتيان بالخارق «فيلزم على هذا أن تكون المعارضة بأن يدعي غيره النبوة ويأتي بالخارق وعلى هذا فليست معارضة الرسول بأن يأتوا بالقرآن أو عشر سور أو سورة بل أن يدعي أحدهم النبوة ويفعل ذلك، وهذا خلاف العقل والنقل » [3].

و«الدليل الدال على المدلول عليه ليس من شرط دلالته استدلال أحد به، بل ما كان النظر الصحيح فيه موصلا إلى علم فهو دليل، وإن لم يستدل به أحد فالآيات أدلة وبراهين تدل سواء استدل بها النبي أو لم يستدل وما لا يدل إذا لم يستدل به لا يدل إذا استدل به، ولا ينقلب ما ليس بدليل دليلا إذا استدل به مدع لدلالته» [4].

«بل السكوت عن هذه الأمور أبلغ في الدلالة، والنطق بها لا يقوي الدليل والله تعالى لم يقل فليأتوا بحديث إلا حين قالوا افتراه ولم يجعل هذا القول شرطا في الدليل بل نفس عجزهم عن المعارضة هو من تمام الدليل»[5].

ولو كان ما قالوا من اشتراط التحدي صحيح لسقطت أكثر آيات الرسول ﷺ كنعبان الماء من بين أصابعه وإطعامه المئين والعشرات من صاع شعير، وعناق، ومرة أخرى من كسر ملفوفة في خمار وكتفله في العين فجاشت بماء غزير إلى اليوم، وحنين الجزع، وتكلم الذراع وشكوى البعير والذئب والإخبار بالغيوب، وتمر

---

(١) انظر ابن حزم جـ٥ ص ١٠٩ .

(٢) انظر الباقلاني : البيان ص ٨ : ١٣ .

(٣) ابن تيمية : النبوات ص ١٠٣ .

(٤) ابن تيمية : النبوات ص ١٠٦.

(٥) السابق ص ١٤٢ .

جابر وسائر معجزاته العظام، لأنه عليه السلام لم يتحد بشيء من ذلك كله أحداً ولا عمله إلا بحضرة أهل اليقين من أصحابه رضي الله عنهم ولم يبق له آية حاشى القرآن، ودعاء اليهود إلى تمني الموت، وشق القمر فقط، وكفى نحسا بقول أدى إلى مثل هذا.

فإن ادعوا أنه عليه السلام تحدى بها من حضر وغاب كذبوا واخترعوا هذه الدعوى لأنه لم يأت في شيء من تلك الأخبار أنه تحدى بها أحداً وإن تمادوا على أن كل هذه ليست معجزات ولا آيات أكذبهم رسول الله ﷺ بقوله إذ فعل بعض ذلك أشهد أني رسول الله [1] .

ولم ينقل «التحدي عن غيره من الأنبياء مثل موسى والمسيح وصالح ولكن السحرة لما عارضوا موسى أبطل معارضتهم» [2] .

ولو كان ما قالوا، وجاز ظهور معجزة من ساحر لا يتحدى بها لأمكن أن يتحدى له بعد موته من ضل فيه [3] .

وبناء على ما سبق ذهب بعض العلماء ممن اشترطوا التحدي إلى أن المقصود به التحدي الضمني .

يقول السنوسي: [4] «وليس من شرط المتحدي أن يقول لا يأتي أحد بمثلها، بل يكفي أن يقول آيتي أن يفعل الله كذا فيفعله له. ففي إجابة دعواه دليل على صدقه في مقالته، نعم تعذرصدورها عن مثله إذا كان يبغي معارضته لا بد منه لا لأجل التحدي، بل لأجل ثبوت الاختصاص، فإن المعجزة لابد أن تكون مختصة بنبي» .

- وأما قولهم إن الساحر إذا ادعى النبوة كذبا فإما أن ينسيه الله السحر عندئذ وإما أن لا يفعل عند سحره شيئا في المسحور، وإما أن يقيض له من يعارضه ويبين كذبه، فلا دليل عليه، بل هو أمر مخالف للواقع ومناقض للتاريخ .

فمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، والحارث الدمشقي، وبابا الرومي وغيرهم

---

(١) انظر ابن حزم : الفصل جـ٥ ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

(٢) ابن تيمية : النبوات ص ١٢١ .

(٣) انظر ابن حزم : الفصل جـ٥ ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

(٤) السنوسي :شرح الكبرى ص ٤٤٩ .

من المتنبئين الكذابين قد أتوا بأمور عجيبة خارقة لعادة أقوامهم، لكن ليست خارقة للعادة خرقا حقيقياً، فمن صدقهم ظن أن هذا مختص بالأنبياء، وكان تصديقه من جهله بوجود هذا لغير الأنبياء، كما أنهم كانوا يأتون بأمور تناقض النبوة .

وهؤلاء السحرة الكذابين ادعوا النبوة ولم ينسيهم الله السحر وفعل عند سحرهم في المسحور ولم يقيض لهم من يعارضهم حينئذ.

ـ وأما قول الغزالي «وإن لم تكن دعوى فقد يجوز ظهور ذلك على يد فاسق لأنه مقدور في نفسه» [1] .

فجوابه انه وإن كانت دعوى، فقد يجوز أيضا ظهور ذلك على يد الفاسق لأنه مقدور في نفسه ثم إن الغزالي ممن يجوزون على الله تعالى كل مقدور، إلا أن الحديث هنا يجب ألا يكون حديثا عن القدرة الإلهية، فهو تعالى قادر على كل شيء. ولكن يجب أن يكون حديثا عن الحكمة الإلهية والعدل والرحمة . . . .

ـ وأما قولهم إن الله تعالى قد يخرق العادات لا عند دعوى أحد للرسالة كخلق الكون وكعلامات الساعة فلا تكون معجزة لأحد وإن كانت من جنس المعجز فيكون الفرق بينها وبين المعجز الدعوى والتحدي.

فجواب ذلك :

أن المعجزة إنما تفترق عن الخوارق العامة كخلق السموات والأرض بأن الخوارق العامة هذه لا تكون على يد أحد من الخلق بعكس المعجزة التي تكون على يد النبي.

والدليل إما أن يكون مساويا للمدلول عليه وإما أن يكون أخص منه ولا يكون أعم. ولهذا لم يكن للأمور المعتادة هذه دلالة على ما هو أخص فلا تدل على صدق أحد ولا كذبه لا مدعي النبوة ولا غيرها فإنها توجد مع كذب الكاذب كما توجد مع صدق الصادق لكن تدل على ما هو أعم منها وهو وجود الرب وكمالاته تعالى فإن وجود ذاته وصفاته ثابت سواء كانت هذه المخلوقات موجودة أو لم تكن فيلزم من وجود المخلوق وجود خالقه ولا يلزم من عدمه عدم خالقه[2]

(١) الغزالي : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢٥ .
(٢) انظر ابن تيمية :النبوات ص ١٧٥ .

وأما علامات الساعة فهي من معجزات الأنبياء وذلك «أنهم أخبروا بها قبل وقوعها فإذا جاءت كما أخبروا كان ذلك من آياتهم ثم إنهم أخبروا بالساعة، فهذه الأشراط مصدقة لخبرهم بالساعة وكل من آمن بالساعة آمن بالأنبياء وكل من كذب الأنبياء كذب بالساعة» [1] .

ـ وأما قولهم إنه تعالى قد يخرق العادات على أيدى الأولياء والصالحين على جهة الكرامة، ولو كان المعجز معجزاً لجنسة لم يصح أن يوجد من جنسه ما ليس بمعجز.

فجوابه: هو أنه «قد ذكر غير واحد من العلماء أن كرامات الأولياء معجزات لنبيهم، وهي من آيات نبوته، وهذا هو الصواب» [2] .

لأنها إنما حصلت ببركة اتباع الرسل فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول [3] .

إلا أنه إذا كانت المعجزات منها كبرى ومنها صغرى والأولياء يشاركون الأنبياء في الصغرى منها [4] فلا يكون الفارق بين ما يحدث على يد النبي وما يحدث على يد الولي إلا دعوى النبوة في المعجزة وعدم دعواها في الكرامة، وما رفضناه من قبل هو اعتبار كون الدعوى شرطا في كون الخارق خارقاً دالاً على الصدق .

فاشتراط الدعوى إنما يكون في التفرقة بين خارق حقيقي وآخر حقيقي كالمعجزة والكرامة . لا في التفرقة بين الخارق الحقيقي وغير الحقيقي .

يقول ابن رشد: [5] «وليس في قوة العقل العجيب الخارق للعوائد الذي يري الجميع أنه إلهي أن يدل على وجود الرسالة دلالة قاطعة إلا من حيث ما يعتقد أن من ظهرت عليه أمثال هذه الأشياء فهو فاضل والفاضل لا يكذب» .

ومن ثم فلا يحتاج الخارق الحقيقي دعوى لتأكيد خارقيته، ولكن قد يحتاجها لبيان الفارق بينه وبين خارق حقيقي آخر .

---

(١) ابن تيمية : النبوات ص ٢١٤ . (٢) السابق : ص١٢١ .

(٣) ابن تيمية : الفرقان ص ١٢٩ . (بتصرف) . (٤) انظر ابن تيمية :النبوات ص ٤ ،ص ١٩٨ ـ ١٩٩ .

(٥) ابن رشد : الكشف عن مناهج الأدلة ص ١١٢ .

وإذا كنا قد رأينا أنه لا وجه لاشتراط التحدي للأسباب السابقة الذكر، فهناك أيضا من يعارض ذلك ولكن من منطلقات أخرى لا نوافقه عليها .

وذلك كزعم القائل: أنه لما كان التحدي يقتضي تكافؤ الفرص، فإن اعتبار القرآن من عند الله يجعل الفرص غير متكافئة.

وزعمه أنه لو كان القرآن من عند الرسول لكان التحدي أقرب إلى تكافؤ الفرص بالرغم أيضا من تأييد الرسول بالاتصال، في حين أن الشاعر المتحدى ليس مؤيداً إلا بقدرته الإبداعية الخاصة وأنه ليس تنزيها لله أن يقف الإنسان متحديا له في صنعه، وليس احتراما للرسول أن يقف الشاعر متحديا له فيما يبلغ به، ويعلنه للناس من عند الله وأنه كيف يكون التحدي ممكنا لو كانت نتائجه معروفة من قبل وإعلان النتيجة مسبقا بفشل الإنسان والحكم عليه بذلك إلى نهاية الزمان بحرف النفي للتأبيد «لن» وأنه كيف يكون التحدي ممكنا والتهديد بالعقاب قائم سواء في حالة النجاح أم في حالة الفشل؟

واستنكاره أن يكون جزاء قبول المتحدي العقاب لأن ذلك يفت في عضد المتحدي إذا علم النتيجة مسبقاً بأنه خاسر وبأنه سينال العقاب نتيجة على تجرؤه على قبول التحدي والقيام به .

وزعمه أن الشرط الأساسي للتحدي هو القدرة على المعارضة. وأنه لا يقال إن الله أعجزهم عن المعارضة فذلك ضد مبدأ التحدي وتكافؤ الفرص فكيف يطالب القاهر المقهور أن يكون حرا؟ وكيف يطالب المصارع المكتوف اليدين أن يكون نداً ؟ .

ولا يقال أيضاً بصرف الدواعي. فذلك أيضاً بزعمه نقص في شرط التحدي.

فصرف الدواعي بزعمه يعني تدخل إرادة خارجية تقضي على أساس التحدي المتكافئ الأطراف سواء كان صرف الدواعي للخلق أو للنقل .

وإذا كانت الصرفة تعني ارتفاع القوة ومنع المتحدي والحيلولة عن المعارضة، فذلك بزعمه إعلان للنتيجة مسبقا قبل بداية المبارة، لعدم وجود تعادل بين

الخصمين، ولغش في التحكيم، وبالتالي لا يستحق المتحدى وهو في هذا الوضع أي تبكيت ولا يكون عليه تثريب .

كما أن ذلك بزعمه ضد العدل، وقد ثبت من قبل أن العدل أصل من أصول العقيدة بعد التوحيد وكلاهما أصلان عقليان قطعيان لا يخرقان بزعمه بأحد الموضوعات السمعية مثل النبوة في أحد موضوعاتها [1] .

والجواب عن ذلك :

- إن قوله (بتكافؤ الفرص) فلا أفهمه، فنحن لا نتحدث عن منافسة ومبارة بين أناس عاديين، نحن نتحدث عن معجزة، ونريد أن نثبت أن هناك شخصا مؤيداً وآخر غير مؤيد ولابد من فرق بينهما.

- وأما قوله إن التحدي يتعارض مع تنزيه الله واحترام الرسول فمبني على المغالطة.

فالإنسان في «حالة التحدي» لا يقف متحديا لله ورسوله، ولكن يقف متحديا لموضوع الدعوى قبل ثبوت مصدره لديه، فإذا ثبت أنه من عند الله، وأن هذا المدعي رسول الله، وجب الإيمان والتسليم والكف عن التحدي .

- وأما قوله بأن إعلان (النتيجة) بالفشل منذ البداية يعارض التحدي فلا معنى له، فإن أي تحد يتضمن دعوى فشل الخصم، وهذا هو معنى التحدي (أنا أقدر وأنت لا تقدر)، ونجاح التحدي أو فشله هو الذي يحكم على النتيجة المعلنة منذ البداية بالصدق أو الكذب .

- وأما اعتراضه على (إمكان التحدي والتهديد بالعذاب الأخروى قائم سواء في حالة النجاح أو الفشل). فهذا الكلام أيضا مبني على المغالطة، ففي حالة نجاح من يقبل التحدي فلا معنى للتهديد بالعذاب الأخروى، وقد ثبت كذب مدعي النبوة.

وفي حالة فشله فهو إما أن يؤمن فينجو من العذاب وإما أن يكفر فيستحق العذاب .

---

(١) انظر حسن حنفي : من العقيدة إلى الثورة جـ٤ ص ١٨٤ ـ ١٨٧ .

ـ وقوله«إن العدل أصل من أصول العقيدة بعد التوحيد وكلاهما أصلان عقليان قطعيان لا يخرقان بأحد الموضوعات السمعية مثل النبوة في أحد موضوعاتها».

فهو طعن في السمعيات والسمع فيه من بيان الأدلة العقلية أضعاف ما يوجد في كلام النظار. وبالتالي فلا نسلم إمكان تعارض العقل والنقل القطعيين والمسائل التي يقال إنه قد تعارض فيها العقل والسمع ليست من المسائل البينة المعروفة بصريح العقل، ولا يوجد ذلك إلا في حديث مكذوب موضوع، أو في دلالة ضعيفة غلط المستدل بها على الشرع، وتقديم العقل ممتنع لأن العقل قد دل على صحة السمع[١] ووجوب قبول ما أخبر به الرسول فلو أبطلنا النقل لكنا قد أبطلنا دلالة العقل، ومن يعلم صدق الرسول امتنع مع هذا أن لا يعلم ثبوت ما أخبر به في نفس الأمر، وإذا كان كذلك فإذا قيل له في مثل هذا: لا تعتقد ثبوت ما علمت أنه أخبر به لأن هذا الاعتقاد ينافي ما علمت به أنه صادق كان حقيقة الكلام لا تصدقه لئلا يلزم أن لا تصدقه، فيكون واقعا في المنهي عنه سواء أطاع أو عصى، هذا بالإضافة إلى أن كون الشيء معلوما بالعقل أو غير معلوم بالعقل ليس هو صفة لازمة لشيء من الأشياء، بل هو من الأمور النسبية الإضافية، فإن زيداً قد يعلم بعقله ما لا يعلمه بكر بعقله وقد يعلم الإنسان في حال بعقله ما يجهله في وقت آخر، وأما الشرع فهو في نفسه قول الصادق، وهذه صفة لازمة لا تختلف باختلاف أحوال الناس فإذا تعارض الشرع والعقل وجب تقديم الشرع لأن العقل مصدق الشرع في كل ما أخبر به، والشرع لم يصدق العقل في كل ما أخبر به[٢].

وإذا كنا لا نتفق مع تلك الآراء السابقة لأنها تعارض العقل والدين فإنا لا نتفق معها أيضا لأنها تخالف المنهج العلمي السليم في البحث في أبسط أسسة وهو النقل الصحيح.

يقول صاحب تلك الآراء السابقة: «ويثبت الباقلاني قدرة الإنسان على التحدي وأنه لا توجد معجزات على الحقيقة مما أدى إلى عجب ابن حزم من ذلك

---

(١) فنحن مع العقل حتى يثبت الشرع فإن ثبت فالشرع مقدم على العقل.

(٢) انظر ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل ص ٦٧ : ١٢٦.

فالإنسان غير عاجز حتى على الصعود إلى السماء ولا على إحياء الموتى ولا على خلق الأجسام ولا اختراعها» [1] .

والباقلاني لم يقل هذا الكلام، ولم يثبت القدرة على التحدي ولكنه نفى العجز، ونفي العجز عنده لا يعني إثبات القدرة بل العكس، ففي مفهوم الباقلاني أن إثبات العجز إثبات للقدرة لأن العجز يفترض قدرة سابقة عليه فالعجز عن العجز غير متصور ومن ثم فهو لم ينف العجز إلا لكي ينفي القدرة.

يقول الباقلاني [2] «لو صح أن يعجزوا عنه لصح أن يقدروا عليه. . . وذلك أنه لا يصح عجز الخلق إلا عن ما تصح قدرتهم عليه» .

وإنما تعجب ابن حزم من ربط الباقلاني نفي القدرة بنفي العجز، يقول ابن حزم: [3] «وأطم من ذلك احتجاجه(أي الباقلاني) بأن العجز لا يتم إلا حيث تقع القدرة، ولا ندري في أي لغة وجدوا هذا الكذب أم في أي عقل وجدوا هذا السخف» .

٢٠ - ألا تفتقر إلى آلة :

يقول القاضي عبد الجبار: «إن الحيلة تفتقر إلى آلات وأدوات لو فقدت واحدة منها لم تنفذ، وليس كذلك المعجز» [4] .

وأرى أن القاضي عبد الجبار هنا جانب الصواب وفاته أن معجزة موسى عليه السلام كانت العصا وهي آلة .

وإن قيل ليس في قلب العصا حية افتقار إلى آلة لأن نفس العصا قلبت حية بدون وساطة آلة، فذلك وإن كان صحيحا إلا أن فلق البحر بالعصا معجز استخدم فيه آلة هي العصا، وكذلك تفجير العيون من الحجر معجز استخدم فيه آلة وهي العصا

يقول تعالى [5] **﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾** .

---

(١) حسن حنفى : من العقيدة إلى الثورة جـ٤ هامش ص ١٨٨ .

(٢) الباقلانى :البيان ص ٨ : ١٣ .

(٣) ابن حزم : الفصل جـ ٥ ص ١٠٩ .

(٤) القاضى عبد الجبار :شرح الأصول الخمسة ص ٥٧٢.

(٥) الشعراء :٦٣ .

ويقول تعالى: [1] ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ ، والله قادر على أن لا تكون المعجزة بآلة ولكن حكمته اقتضت ذلك .

واستخدام الآلة في المعجزة نجده كذلك في سورة البقرة في قصة إحياء موسى عليه السلام للميت بضربه بجزء من البقرة يقول تعالى [2] ﴿فقلنا اضربوه ببعضها، كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياتة لعلكم تعقلون﴾ .

ملاحظات على القسم المعنى من المعجزة

إن إظهار المعجز كما يكون بإتيان غير المعتاد كذلك يكون بمنع الغير عن المعتاد كما إذا قال من يدعي النبوة في مقام التحدي أنا أستطيع القيام وأنتم لا تقدرون عليه، ففعل وعجزوا وكما قال عليه الصلاة والسلام: [3] «قد عصمني ربي» وكما قال نوح عليه السلام: [4] «ثم اقضوا إلي ولا تنظرون» .

ويرى الغزالي أن الصرف عن المقدور من أعظم المعجزات. . . وإن فرض وجود القدرة ففقد داعيتهم وصرفهم عن المعارضة من أعظم المعجزات [5] .

بل إن ابن عربي يرى أن الإعجاز بالصرفة أرفع للبس من غيره، لأن المنع من المعتاد أمر يجربه كل شخص بنفسه، أما الإتيان بغير المعتاد ففيه من الشبهات واللبس كثير ويمثل ابن عربى لذلك بعصا موسى وعصى السحرة، ويقول إن العامة لم تفرق بين الحيات ويمثل لذلك أيضا بإحياء الموتى ويقول: إن الوصول إلى العلم أنه حي في نفس الأمر عزيز [6] .

فكل من الإتيان بغير المعتاد والمنع من المعتاد معجز، إلا أن مسألة التفضيل نسبية تختلف من إنسان لآخر، فقد يفهم دلالة أحد الأدلة من لا يفهم دلالة الآخر، وإن كان أوضح من وجهة نظر غيره .

ويتعلق بالقسم المنعى عدة قضايا:

---

(١) البقرة : ٦٠.   (٢) البقرة : ٧٣ .

(٣) رواه الترمذى فى سننه فى الباب (٤) من تفسير سورة المائدة   (٤) يونس : ٧١ .

(٥) انظر الغزالي :الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٣٠ . (٦) انظر ابن عربي: الفتوحات المكية جـ٢ ص٣٧٤ .

القضية الأولى : هل المعجز كـما يكون بالفعل يكون بعدم الفـعل؟ أو كما اصطلح على التعبير عن ذلك بقولهم: هي فعل الله أو ما يقوم مقامه .

أم أن المعجز إنما يكون في الفعل فقط، ويؤول غيره إليه؟وهناك اتجاهان:

«فرد ابن دهاق المعـجزة في القسم المنعى إلى العلم بذلك والإخـبار به على وفق الواقع»[1] .

وأجاب إمام الحرمين عن المثال السابق «بأن القعـود المستمر مع محاولة القيام هو المعجز فرجع المعجز إلى الفعل»[2]، وكذلك يقول إن الترك على خلاف المعتاد هو فعل، وهو معجز .

وانتقد ذلك السنوسي وعلل ذلك بأن التـحدي لم يقع بما ذكر في الجوابين، وإنما وقع في الفرض بعدم الفعل. . ثم قال وقد يجاب عنه بأن التحدى في المعجزة إما مطابقة وهو واضح أو لزوما كالعلم والخبر في المثل المذكور، وفيه نظر[3] .

وأنا أرى أن الخلاف شكـلي ولا أهمية له، وذلك أنه لاخـلاف على أن في قولـه ﷺ «قد عصـمني ربي» وفي قـوله تعالى على لسـان نوح عليه السـلام(ثم اقضـوا إلي ولا تنظرون) إعجازاً وهو المهم، وإنما كـان الخلاف في زواية النظر إلى المثالين السابقين .

واعتقد أن كلتا النظرتين صحيحة، ولا أرى تعارضا، بل أرى تكاملا .

ومن ثم فلا داعي لوصف المعجـزة بأنها فعل أو عدم فعل أو ما يـقوم مقام فعل، بل الأحرى والأدق، وصفها بأنها « أمر» .

والقضية الثانية : هل قيد ظهـور المعجزة على يد مدعي النبـوة موجود في القسم المنعي؟ .

فيـرى ابن كمال أن قـيد الظهور على يد مـدعي النبوة لا يوجـد في القسم

---

(١) السنوسى : شرح الكبرى ص ٤٤٢ .

(٢) الجوينى : الإرشاد ص ١٦٢ .

(٣) انظر السنوسي : شرح الكبرى ص ٤٤٢:٤٤٣ .

المنعي، لأن منع المنكر عن وضع يده على رأسه مثلا مـرجعه إلى عدم خلق القدرة عليه، فلا نسبة له إلى مدعـي النبوة لا بالصدور عنه ولا بالظهور على يده. فقط له نسبة إليه من حيث أنه ظهر على وفق دعواه مقرونا بتحديه [(١)] .

وأرى أن المقصود من قولهم إن المعجزة تظهر على يد مدعي النبوة، أى تظهر من جهته منسوبة إليـه مصدقة له: وبالتالي فيرد قيـد ظهور المعجزة على يد مدعي النبوة دائما .

والقضية الثالثة: هل القسم المنعى يعتبر خارق للعادة؟ أم أن وصف المعجزة بأنها خارق للعادة وصف غير دقيق لأنه غير موجود في القسم المنعى .

يقول ابن كمال: [(٢)] «القسم المنعى. . . المعـجز فيه إنما هو المنع لا مـا عجز المنكرون عن الإتيان بمثله، فإنه أمر عادي غير خارق للعادة» .

ويقول الجويني: [(٣)] فإن قيل: إن القـعود معتاد والمعجـز خارق للعادة، قلنا: القعود المستمر مع محاولة القيام في أقوام لا يعدون كثرة خارق للعادة» .

فالقسم المنعى من المعجزة كما يتبين مما سبق خارق للعادة .

والقضية الرابعة: هل يمكن أن يكون إعجاز القرآن من القسم المنعى؟

وهناك آراء في ذلك الرأي الأول أن وجـه إعـجازه كـونه في أعلى مـراتب البلاغـة والرأي الثاني أنه إنما وجب إعـجازه لأن الله تعالى منـع الخلق من القدرة على معارضته فقط، فأما الطائفة التي قالت إنما إعجازه لأنه في أعلى رتب البلاغة فإنهم شغبوا في ذلك، بأن ذكـروا آيات منه مثل قوله تعالى: ﴿**ولكم في القصاص حياة**﴾[(٤)] ونحو هذا، ومـوه بعضهم بأن قـال: لو كان ما تقـولون من أن الله تعالى منع من معـارضتـه فقط لوجب أن يكون أغث مـا يمكن من الكلام، فكانت تكون الحجة بذلك أبلغ .

---

(١) انظر ابن كمال : رساله فى حقيقة المعجزة ودلالتها على صدق مدعى النبوة، ضمن مجموعة الرسائل جـ ١ ص١٣٨ .

(٢) السابق جـ ١ ص ١٣٨ .

(٣) الجوينى : الإرشاد ص ٢٦٢ .

(٤) البقرة : ١٧٩ .

وينتقد ابن حزم هذا الرأي من وجوه :

أولها: أنه قول بلا برهان لأنه يعكس عليه قول نفسه فيقال، بل لو كان إعجازه لكونه في أعلى درج البلاغة لكان لا حجة فيه، لأن هكذا كان يكون كل من في أعلى طبقة وأما آيات الأنبياء فخارجة عن المعهود.

وثانيها: أنه لا يسأل الله تعالى عما يفعل، ولا يقال له لم عجزت بهذا النظم دون غيره، ولم أرسلت هذا الرسول دون غيره؟. ولم قلبت عصا موسى عليه السلام حية دون أن تقلبها أسداً ؟

وهذا كله لم يوجبه قط عقل وحسب الآية أن تكون خارجة عن المعهود فقط.

فالقرآن ليس من نوع كلام المخلوقين لا من أعلاه ولا من أدناه، ولا من وسطه[1]

ولكنه خارج نطاق قدرة الخلق، وليس ذلك بالصرفة ولكن بإعجازه الذي هو خارج نطاق قدرة الخلق، والصرفة إنما تكون عن المقدور، والخلق لا يقدرون على مثل القرآن سواء قبل البعثة أو أثناءها أو بعدها، فلم يرو أن أحداً جاء بمثله أبداً، ولا يمكن بالطبع أن يكون الصرف عن الهمة بدليل معارضات مسيلمة، وغيره ممن ادعوا النبوة .

---

(١) انظر ابن حزم : الفصل جـ ٣ ص ٢٨ .

الفصل الثالث
حكمة المعجزة

إن لآيات الأنبياء عليهم السلام ـ التي أيدهم الله تعالى بها حكما كثيرة.

فهي دليل على وجوده تعالى فلا يعقل الإرسال من غير مرسل وهى دليل حسي على رحمته. وعدله، وحكمته واختياره تعالى في جميع أفعاله وكون سنن النظام في الخلق خاضعة له، لا حاكمة عليه ولا مقيدة لإرادته وقدرته .

وهي دليل على صدق رسل الله تعالى فيما يخبرون عنه بوحيه تعالى .

وهي قد تهدف أساسا للهداية أو الرحمة أو الإكرام أو الإنذار أو الإهلاك[1]

وتهدي عقول البشر برؤيتها إلى الإيمان بالغيبيات[2] وسعة الممكنات وإلى أن كون الشيء بعيداً عن الأسباب المعتادة والسنن المعروفة لا يقتضي أن يكون محالاً يجزم العقل بعدم وقوعه فعدم العلم ليس علما بالعدم، فعدم علمنا بما وراء الطبيعة بحواسنا لا يعني عدم وجوده، فالمعجزة الحسية تؤكد للعقل حدوده قائلة له إن لك حدوداً لا تتجاوزها وأن هناك ما لا يمكنك إدراكه، فلا تنكره، وقد عرفت أن لك حدوداً فها هو زكريا عليه السلام لما رأى كرامة الله لمريم عليها السلام و﴿**كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب. هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء. فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحى مصدقا بكلمة من الله وسيداً وحصورا ونبيا من الصالحين. قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء**﴾[3]

والمعجزة توقظ الشعور الإنساني وتحرره من سيطرة القوى المادية والسياسية، وغيرها مؤكدة للإنسان قدرته على الفعل، وتخطي العقبات، طالما أن الله معه، يؤيده وينصره وأنه ينبغي له أن لا يخشى إلا الله، فكل ما عداه أسباب مخلوقة له تعالى

---

(١) انظر أقسام المعجزة في الفصل الثاني من الباب الثالث .

(٢) فإن صدق معجزة الإنباء بالغيب مثلاً لبرهان على صدق ما يخبر به الرسول من غيب عن الله والملائكة والرسل الأولين واليوم الآخر .

(٣) آل عمران : ٣٧ ، ٤٠ .

يمكنه التصرف فيها كيفما شاء فها هم سحرة فرعون لما رأوا المعجزة تحرروا من سيطرة المادة عليهم، وكانوا قد سألوا فرعون الأجر من قبل حين قالوا **﴿أن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين﴾**[1] .

وتحرروا من خوفهم من فرعون **﴿فألقى السحرة سجدا قالوا ءامنا برب هارون وموسى قال آمنتم له قبل أن ءاذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى .قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض. إنما تقضي هذه الحياة الدنيا.إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى.إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحى.ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى﴾**[2] فالمعجزات الحسية تتضمن الكثير من الإشارات الرمزية الدقيقة [3] .

ومعجزات الرحمة كالشفاء مثلا وعد وعلامة«أي أنها ليست نهائية لأنها خلاص عدد محدود من الناس(كان هناك مرضى كثيرون في أيام المسيح عليه السلام فشفى عددا قليلا منهم)، وهي خلاص فردي - في حين أن الله يشاء أن يشمل الخلاص العالم كله - وخلاص محدود النوعية أيضاً لأنه خلاص زمني يشفي جسدا فانيا، المعجزة وعد بالخلاص النهائي، وانتصار على الشر يشمل كياننا كله وللأبد [4]

هذا ما نراه بوضوح في حادثة البرص العشرة(المذكورة في الإنجيل)، فالعشرة نالوا الشفاء، لكن المسيح عليه السلام قال للذي عاد ليشكره«قم وامض إيمانك خلصك»[5] أي أن الشفاء لم يكن الخلاص الحقيقي بل علامة له، وأن الأبرص العاشر وحده وجد الخلاص لأن الإيمان مكنه من الاعتراف بعطية الله التي منحه إياها بواسطة المسيح عليه السلام[6] .

---

(١) الأعراف : ١١٣ .   (٢) طه : ٧٠، ٧٥ .   (٣) انظر مبحث التأويل الرمزى .

(٤) فى أوساط القرن الأول الشعبية كان الناس يعيشون فى خوف دائم من الشياطين أو الأرواح النجسة التى كانوا ينسبون إليها معظم الشرور التى يعانونها فالأمراض العقلية والعاهات،منذ الولادة والعيوب والخطايا المتنوعة كان لكل منها مسببها الشيطاني،وكانوا يضعون قوائم مفصلة بها مع نظام تسلسلى ورئيس يدعى بليعار أو مستيما أو شيطان » .   (انظر المعجزات فى الإنجيل ص ٣٨) .

(٥) إنجيل لوقا ، الإصحاح (١٧) آية (١٩) .

(٦) انظر إتيان شاربنتييه وآخرون :المعجزات فى الإنجيل ص ٤٦ .

فالآيات الإعجازية تظهر بأعمال واقعية الخلاص الذى يبشر به رجال الله .

والمعجـزة«دليل على سمـو شأن الشريعـة الأدبية وأهميـتهـا . فإننا نرى من المعجزات أن ثبـات الشرائع الطبعيـة أمر ثانوي عند الله بالنسبة إلى ثبـات الشريعة الأدبية، وأنه لا يتأخر عن خرق النواميس الطبعية لأجل غايات أدبية» [1] .

فالمعجزة تعلمنا أنه أمـام المبدأ أمام القيم الروحية لا أهمية ولا قـيمة لمادة ما من مواد الطبيـعة، ومن ثم فهى تهون علينا أمـر التضحيـة بالمال والجسد من أجل قيم الروح العليا .

---

(١) نخبة من علماء النصارى : علم اللاهوت النظامى ص ٥٠٧ .

الباب الثاني

الفرق بين المعجزات
وغيرها من خوارق العادات

ليهلك من هلك عن بينه
ويحى من يحى عن بينة

الأنفال : ٤٢ .

الفصل الأول
المعجزة والسحر

- تعريف السحر.

- أنواع السحر.

- حقيقة وجود السحر.

- تاثير السحر والفرق بينه وبين المعجزة.

١ - تعريف السحر

السحر في اللغة: كل ما لطف مأخذه ودق، والجمع أسحار وسحور[١] «والساحر العالم»[٢] وكذا من يمارس السحر .

وبالنظر في معاجم اللغة نلاحظ أن مادة(سحر) تكاد تدور حول معنى واحد تقريبا هو«تحويل الشيء عن وجهه أياً كان هذا التحويل سواء كان حقيقياً أو مجازياً»[٣] وعرفه القدماء والمحدثون تعريفات كثيرة كل منها يعبر عن رأي صاحبه في وجود السحر وفي تأثيره وقبل الحديث عن وجوده وتأثيره نتوقف قليلا عند أنواعه وأقسامه حتى تكون معرفتنا به أكثر وحتى يكون حديثنا عن وجوده وتأثيره عن علم .

٢ - أنواع السحر:

يفرق بعض القدماء والمحدثين بين السحر والطِّلَّسمات والشعبذة، والنِّيرَنْجات والكهانة، وتسخير الجان . . . . . الخ فيقولون :

إن (السحر) هو تأثير في عالم العناصر بالهمة فقط من غير آلة ولا معين، والساحر مفطور على تلك الجبلة المختصة بذلك النوع من التأثير[٤] .

«والطِّلَّسم عبارة عن تمزيج القوى الفعَّالة السماوية بالقوى المنفعلة الأرضية لأحداث ما يخالف العادة أو للمنع مما يوافق العادة» [٥] .

«وهو أضعف رتبة من الأول وصاحب الطِّلَّسمات يستعين بروحانيات الكواكب، وأسرار الأعداد، وخواص الموجودات، وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر، كما يقول المنجمون، ويقولون السحر اتحاد روح بروح والطِّلَّسم اتحاد روح بجسم، ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية السماوية بالطبائع السفلية والطبائع العلوية هي روحانيات الكواكب ولذلك يستعين صاحبه في غالب الأمر بالنجامة[٦]

---

(١) انظر الرازى:مختار الصحاح ص ٢٨٨ وانظر عبد السلام هارون وآخرون :المعجم الوسيط جـ١ ص ٤٣٥ .

(٢) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن جـ١ ص ٤٣٤ .

(٣) عبد السلام السكرى:السحر بين الحقيقة والوهم ص ٢٧ .

(٤) انظر ابن خلدون :المقدمة ٤٩٦، ٤٩٨، ٥٠١ .

(٥) الرازى : النبوات ص ٢٠٧ . (٦) انظر ابن خلدون :المقدمة ص ٤٩٨، ٥٠١ .

والشعوذة أو الشعبذة هي: «تأثير في القوى المتخيلة يعمد صاحب هذا التأثير إلى القوى المتخيلة، فيتصرف فيها بنوع من التصرف، ويلقي فيها أنواعا من الخيالات والمحاكـاة، وصوراً مما يقصد مـن ذلك ثم ينزلها إلى الحس من الرائين بقوة نفـسه المؤثرة فيه، فينظر الراؤون كأنها في الخارج، وليس هناك شيء من ذلك، كما يحكى عن بعضهم أنه يرى البساتين والأنهار والقصور، وليس هناك شيء من ذلك»[1].

وورد في المعجم الوسيط«شعبذ شعـبذة: مهر في الاحتيال وأرى الشيء على غير حقيقته معتمدا على خداع الحواس»[2]

والكهانة: هي الإخـبار بالغيب. فـفي المعجم الوسيط«كـهن له كهانة: أخـبره بالغيب» [3] .

وقال القاضـي عياض:[4] «الكهـانة: ادعـاء علم الغـيب» سـواء عن طريق تسخير الجن أو عن أي طريق آخر يقول ابن خلدون:[5] إن«علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم» .

وأما تسخير الجان: فيقـال إن للجن القدرة على الإخبار بالغيب وعلى التأثير في عالم العناصر، وسيأتي تفصيل الكلام عن ذلك في مبحث (تأثير السحر) .

وهناك أيضا الحيل القائمة على الخديعة، وخفة اليد.

وهناك النِّيرَنْج: وهو ما يكون من تأثير خواص الأجسام العنصرية .

وإذا كان أصحاب هذا الاتجاه يفرقون بين هذه الأنواع فهناك إتجاه آخر يجمع أصحابه هذه الأشياء كلها تحت مسمى واحد .

فالألوسي يجعل من مصطلح(السحر)مصطلحـا عاما يشمل ما هو حقيقي، وما هو مجازي .

يقول الألوسي:[6] «وأما ما يـتعجب منه كمـا يفعله أصحاب الحـيل بمعونة الآلات. . . وبمعونة الأدوية كالنِّيرَنْجـات أو يريه صاحب خفة اليد فتسمـيته سحرا على التجوز» .

(١) السابق ص ٤٩٨ .
(٢) عبد السلام هارون وآخرون:المعجم الوسيط جـ١ ص ٥٠٣ .
(٣) السابق جـ٢ ص ٥٣٨.
(٤) القرطبي:الجامع لأحكام القرآن جـ٣ ص ٢٤٣٩.
(٥) ابن خلدون:المقدمة ص ١٠١ .
(٦) الألوسي :روح المعاني جـ١ص ٣٣٨ .

والرازي كذلك يصرح بأن للسحر أنواعا عشرة

- النوع الأول: وهو أعظمها قوة، وأشدها تأثيراً، على ما يقال: السحر المبني على مقتضيات أحكام النجوم .

- النوع الثاني: من أنواع السحر: السحر المبني على قوة الوهم وتصفية النفس.

- النوع الثالث: السحر المبني على خواص الأدوية المعدنية والنباتية والحيوانية

- النواع الرابع: السحر المبني على العزائم والرقى، ويدخل في هذا الباب: السحر المرتب على الاستعانة بالأرواح السفلية المسماه بالجن والشياطين .

- النوع الخامس من السحر: السحر المبني على الاستعانة بالأرواح الفلكية .

- النواع السادس من السحر: ما يكون مبنيا على الشعوذة، والسعي في إراءة مالا وجود له في الخارج، ومنه نوع يقال له: الأخذ بالعيون.

- النوع السابع من السحر: ما يكون مبنيا على أعمال خفة اليد.

- النوع الثامن: السحر المبني على الفأل والزجر، وهذا النوع أيضا أقسام:

* فأحدها: وهو أجودها -: علم الفراسة

* وثانيها: علم الرمل

* وثالثها: علم اختلاج الأعضاء

* ورابعها: علم النظر في الأكتاف

* وخامسها: علم ضرب الأحجار

*وسادسها: علم النظر في الغضون، والأسرة الموجودة في كف اليدين، وأخمص القدمين وكذا علم النظر في الخيلان الموجودة على ظاهر البدن.

*وسابعها: العلم المأخوذ من كيفية طيران الطيور عند أوكارها، واعتبار السانح، والبارح منها، وكيفية أصواتها عند التوجه إلى الإنسان، وعند الانصراف عنه.

* وثامنها: علم التفاؤل بجميع أنواع الحوادث في معرفة العسر واليسر.

- النوع التاسع من السحر: المبني على إطعام الطعام الذي يوجب قلة العقل، وضعف الرأي، وبلادة الطبع، ثم إذا صار الإنسان كذلك فحينئذ يسهل تصريفه وتحريكه كيف أريد .

- النوع العاشر: السحر المبني على ترويج الأكاذيب، وأنواع المكر والخداع، وفيه الطرق التي توجب تسليط الخوف على القلوب وعند استيلاء الخوف. يسهل ترويج أي شيء أريد(١) .

ويصرح ابن حزم أيضا أن للسحر ضروبا، فمنه ما هو من قبل الكواكب، ومنه ما يكون بالرقى، ومنه ما يكون بالخاصة كالحجر الجاذب للحديد، وما أشبه ذلك، ومنه ما يكون لطف يد (٢) .

ويقول ابن خلدون(٣) «والشريعة فلم تفرق بين السحر والطِّلَّسمات وجعلته كله بابا واحدا محظورا» .

فنحن الآن بين اتجاهين: اتجاه يرى أن السحر جنس يدخل تحته عدة أنواع، واتجاه آخر يرى أن السحر ما هو إلا أحد هذه الأنواع فقط .

وأرى أن الراجح هو أن السحر جنس يدخل تحته عدة أنواع، ويتأكد ذلك ويتضح لنا بالنظر إلى الأصل اللغوي لكلمة(سحر)، فقد سبق أن قلنا إن السحر هو كل ما لطف مأخذه ودق، وقلنا إن مادة سحر تكاد تدور حول معنى واحد تقريبا هو تحويل الشيء عن وجهه أياً كان هذا التحويل سواء كان حقيقياً أو مجازياً وما فعله سحرة فرعون قيل إنه شعبذة وقيل إنه حيل خفية، وبالرغم من ذلك سماه القرآن سحراً.

كما أنه روي عنه ﷺ أنه قال: (٤)«من اقتبس علما من النجوم، اقتبس شعبة من سحر» فسمي ﷺ علم النجوم سحراً .

---

(١) انظر الرازى :النبوات ٢٠٠ ، ٢٠٣.
(٢) انظرابن حزم:الفصل جـ٥ ص ١٠١،١٠٢.
(٣) ابن خلدون : المقدمة ٥٠٢ .
(٤) رواه أحمد فى مسنده جـ١ ص٢٢٧،٣١١ ،وابن ماجه فى سننه فى باب(٢٨)من كتاب الأدب،وأبو داود فى الباب(٢٢)،(٥١) من كتاب الطب،وحسنه السيوطى فى الجامع الصغير.

وروى البخاري أن الرسول ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء، ولا يأتيهن، وكان السحر في مشط ومشاطة في جف طلعة ذكر، تحت راعوفة في بئر ذروان، وأنه ﷺ أتى البئر واستخرج السحر، وأمر به فدفن. فسمي الصحابة، والبخاري وغيره ذلك سحراً بالرغم من أن له جسما استخرج ودفن(١) وذلك يخالف الرأي القائل بأن السحر هو تأثير في عالم العناصر بالهمة فقط من غير آلة ولا معين(٢).

وهذا الخلاف حول تعريف السحر مرتبط بالخلاف حول وجود السحر، ومدى تأثيره، ومن ثم الفرق بينه وبين المعجزة وحكم الأديان فيه، لأن بعض القدماء والمحدثين لم يروا السحر إلا أحد هذه الأنواع فقط، وهو أنواع بعضها حقيقي وبعضها غير حقيقي وإنما يعتمد على الحيل والخدع، والحقيقي منها ليس له تأثير واحد، وإنما يتفاوت التأثير من نوع إلى آخر قوة وضعفا، كما أنه إذا كانت الأديان قد حرمت بعض هذه الأنواع لاقتضائها ما تحرمه فليس كذلك جميع الأنواع ثم إن هذه الأنواع التي حرمتها الأديان متفاوتة أيضا في درجة تحريمها

٣ - حقيقة وجود السحر:

نشير في بداية هذه الدراسة إلى أنه لا يعنينا في دراستنا هنا بالطبع إثبات وجود جميع هذه الأنواع بقدر ما يعنينا معرفة أقصى ما يمكن أن يقال في إثباتها عقلا ونصا و إثبات أنه بفرض وجود جميع أنواع السحر المدعاة فإن العقل المحض والواقع المشاهد واعتراف السحرة أنفسهم يضع المعجزة في مكانة لا ترقى إليها الشبهات .

والسحر من الأمور المتواترة وإذا كان كثير مما يحكيه العامة والخاصة في كل زمان ومكان عن خوارق السحرة لم يصل إلى حد التواتر، فالقدر المشترك بين هذه الروايات جميعها متواتر كشجاعة علي وسخاوة حاتم .

ويروي إمام الحرمين إجماع الفقهاء على وجود السحر حيث يقول: «واتفق الفقهاء على وجود السحر واختلفوا في حكمه، وهم أهل الحل والعقد، وبهم ينعقد

---

(١) انظر صحيح البخارى بشرح فتح البارى جـ١٢ ص ٣٤٥، ٣٤٧.

(٢) انظر ابن خلدون: المقدمة ٤٩٦، ٤٩٨، ٥٠١.

الإجماع، ولا عبرة مع اتفاقهم. . بالمعتزلة فقد ثبت السحر جوازا ووقوعا»[1] .

فالسحر ثابت وله حقيقة وإن ذهب عامة المعتزلة وأبو إسحاق الإستراباذى من أصحاب الشافعي إلى أن السحر لا حقيقة له، وإنما هو تمويه، وتخييل، وإيهام لكون الشيء على غير ما هو به، وأنه ضرب من الخفة، والشعوذة.

ويرد أهل السنة على استدلال المعتزلة على ذلك بقوله تعالى﴿**يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى**﴾[2] وقوله﴿**سحروا أعين الناس**﴾[3] بأنه لا ينكر أن يكون التخييل وغيره من جملة السحر، لكن ثبت وراء ذلك أمور جوزها العقل وورد بها السمع، فليس في الآية التي احتجوا بها دلالة على أنه لا سحر إلا ما ذكره الله سبحانه في قوله﴿**يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى**﴾بل هذا سحر، وهناك ضروب أخرى من السحر أيضا[4] .

وفي العصر الحديث أصبح السحر يدرس في معاهد وجامعات عريقة منها جامعتي اكسفورد وكمبردج بانجلترا، وجامعة بون بألمانيا، وجامعة هارفارد بأمريكا وغير ذلك من الجامعات كثير على مستوى العالم، كما أن بعض الجامعات خصصت كليات مستقلة لدراسة البحث الروحي ولكثرة الراغبين وعدم اتساع الكليات انشئت معاهد في بعض الدول لاستيعابهم، ففي فرنسا نجد المعهد الروحي الدولي، ومركزه باريس، ونجد بانجلترا المعهد الدولي للبحث الروحي، ومركزه لندن، كما نجد معهد ماجناجونسون للبحث الروحي، وهكذا فعلت معظم دول العالم، فيما عدا الدول العربية والإسلامية، ولما لم تتسع الكليات، والمعاهد لتلك الدراسة التي أقبل عليها الشباب في الدول الأوربية افتتحت في بعضها هيئات وجمعيات ففي أمريكا حوالي(٢٥٠٠) جمعية مسجلة قانونياً وهناك (٤٨٠) كنيسة تمارس النشاط الروحي، وفي بريطانيا (٣٥٠)صحيفة مسجلة، و (٢٥٠) كنيسة [5] .

والقرآن الكريم، والسنة النبوية يؤكدان على وجود السحر، وعلى حقيقته،

---

(١) الجويني : الإرشاد ٢٧١ . (٢) طه : ٦٦ . (٣) الأعراف : ١١٦ .

(٤) انظر القرطبى:الجامع لأحكام القرآن جـ١ ص ٤٣٥، ٤٣٦ وانظر الباقلانى : البيان ٩٢ .

(٥) انظر محمد أنور القونى :جمعية تحضير الأرواح ص ٣و انظر كذلك رءوف عبيد : الإنسان روح لا جسد جـ١ ص ٢٩٧ : ٣٠١ وانظر أنيس منصور : القوى الخفية ٢١٢ .

يقول تعالى:[1] **﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان،ولكن الشياطين كفروا،يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر،فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه،وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله،ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم،ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾** .

وجمهور العلماء على أن هذه الآية نص على إثبات السحر،وخالف في ذلك بعضهم وفسروها بقولهم :

أولا: قال تعالى: (وما كفر سليمان)و«ما» نافية أي أن ادعاء العلماء الشياطين بأن سليمان كان كافراً ادعاء منفي بما النافية،ولأن الجزاء من جنس العمل،ألصق الله تعالى بهم الكفر الذي ادعوه كذبا على سليمان عليه السلام،ووضح أنهم مستمرون في تعليم السحر للناس بواسطة الكتب التي يؤلفونها وينشرونها دون أن يكون لها أي أساس من الحقيقة،فالسحر بدعة ابتدعها وأشاعها علماء اليهود في بابل،ولا حقيقة له،ولا فائدة منه.

ثانيا: قال تعالى(وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) أي أن الله تعالى بما النافية نفى نزول هاروت وماروت في مدينة«بابل»،والمعنى: ما أنزلت من شيء على أثنين من ملائكة السماء زعم اليهود أن اسميهما هاروت وماروت.

ثالثا: ادعى العلماء الشياطين من اليهود أن هاروت وماروت - ١ - علما البعض - ٢ - قالا لمريد التعلم: (إنما نحن فتنة فلا تكفر) - ٣ - وأن البعض الذي تعلم،قد تعلم من الملكين ما يفرق به بين المرء وزوجه .

وقد رد الله تعالى على هذه الدعوى ونفاها بما النافية،وعطف النفي على ما قبله،فقال: (وما يعلمان من أحد،حتى يقولا: إنما نحن فتنة فلا تكفر، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه).

لقد نفى القرآن الكريم تعليم الملكين لأى أحد بقوله تعالى: (وما يعلمان من

---

(١) البقرة : ١٠٢ .

أحد)، وكل ما يترتب على دعوى أن الملكين علما، فهو منفي بنفي أن الملكين علما ومثل هذا التعبير ـ ولله المثل الأعلى ـ مثل قولك لصاحبك: (ما دخلت مكة، حتى تقول: إنني رأيت الكعبة، فتطلب مني أن أصفها لك). فإن نفي الدخول هو نفي للرؤية وهو نفي للوصف، أي أن صاحبك لا يحق له أن يطلب منك وصف الكعبة، لأنك لم تر الكعبة، وأنت لم تر الكعبة لأنك لم تدخل مكة .

رابعاً: ادعى العلماء الشياطين من اليهود أنهم يقدرون على الضرر بواسطة السحر، فرد الله هذه الدعوى بقوله: (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله)، لقد نفى أنهم قادرين على الضرر بواسطة السحر، لكن قد يحصل للإنسان وهم بأنهم يقدرون على ضرره، والوهم يضر بالإنسان، ويشوش عليه خواطره، كما يقول الشاعر: (إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه. . . وصدق ما يعتاده من توهم) ومن أجل ذلك بين أن ما يحدث من ضرر فإنه من الله نفسه، وقد ساق إليه الوهم ليتضرر الإنسان بالوهم لسوء فعله، وهذا المعنى مثل المعنى من قوله تعالى: (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه)(١) أي أن من كانت نيته إلى الخير، ييسر الله له كل سبل الخير والخير والشر في العالم لا يحدثان إلا بإذن الله(٢) .

وإذا كان هذا التفسير نص على نفي السحر، وسبق أن قلنا إن ذلك يخالف رأي الجمهور الذي نص على إثباته ورأى هذه الآية نصاً في إثباته على أساس تفسيرات كثيرة متعددة منها أن: «ما» في قوله تعالى (وما أنزل على الملكين) «موصولة في محل نصب عطفا على السحر. . . والمراد بما أنزل على الملكين نوع أقوى من السحر»(٣) .

«أو أن (ما) نافية، ولا ينفي ذلك السحر، لأن الشياطين هي التي تعلمه للناس»(٤) لا الملكين .

وقوله (حتى يقولا): «حتى حرف غاية. وهي. . . بمعنى إلى أن. . . وأجاز أبو

---

(١) التغابن : ١١ .   (٢) انظر أحمد حجازى السقا: فى مقدمته لكتاب النبوات للرازى ٥١ ـ ٥٤ .

(٣) الجمل : الفتوحات الإلهية جـ١ ص ٨٦ .

(٤) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن جـ١ ص ٤٤٠ .

البقاء أن تكون حتى بمعنى «إلا أن» قال: والمعنى: وما يعلمان من أحد إلا أن يقولا»[1] أي أنهما «لا يعلمان السحر إلا بعد التحذير الشديد من العمل به»[2] .

والمراد بالإذن في قوله (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله): «قيل: إنه هنا بمعنى العلم»[3] وقيل «أي بإرادته وقضائه لا بأمره»[4] .

وبفرض أن اللغة في النص تبيح التفسيرين بالنفي والإثبات، فرأي الجمهور هو الصواب لما يشهد له من النصوص القرآنية الأخرى، كالمعوذتين، وقصة سحرة فرعون وكذلك الأحاديث النبوية الكثيرة،[5] وما رواه الصحابة والتابعين، وتابعيهم، وما تناقله الناس في كافة الأمصار والأزمان مما يدخل بجملته في حيز المتواتر.

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه : «أن رسول الله ﷺ قال اجتنبوا الموبقات الشرك بالله والسحر»[6] وعنه إيضا أنه قال «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا يا رسول الله وما هن، قال: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا، وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف، وقذف المؤمنات الغافلات»[7] .

فقد جعل - ﷺ - السحر في جملة الموبقات وجعله في المرتبة الثانية بعد الشرك بالله، وقدمه على ما عداه من قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق... الخ، وهذا إنما يدل على أن للسحر وجوداً وتأثيراً يستأهل مثل هذا التحريم .

ويؤكد ذلك أيضا قوله - ﷺ «اقتلوا كل ساحر وساحرة»[8] وقوله «حد الساحر ضربة بالسيف»[9] .

---

(١) الجمل : الفتوحات الإلهية جـ ١ ص ٨٨ . (٢) الرازى : التفسير الكبير جـ٣ ٢٢٠ .

(٣) الألوسى : روح المعانى جـ١ ص ٣٤٥ . (٤) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن جـ١ ص ٤٤٥ .

(٥) ومنها حديث سحرا الرسول - ﷺ - الذى رواه البخارى وغيره وقد أفردنا له ملحقا خاصا به فى نهاية هذ الدراسة برقم(٢) وذلك لما حوله من الشبهات. (٦) صحيح البخارى بشرح فتح البارى جـ١٢ ص ٣٤٣ .

(٧) السابق كتاب الوصايا باب النساء جـ٥ ص ٣٩٣.

(٨) رواه أحمد فى مسنده جـ١١ ص ١٩٠ - ١٩١ وأبو داود فى سننه فى الباب (٣١) من كتاب الإمارة.

(٩) رواه الترمذى فى سننه فى الباب (٢٧) من كتاب الحدود وصححه السيوطى فى الجامع الصغير .

وتؤكد التوراة على ذلك أيضا ففي سفر الخروج: «لا تدع ساحرة تعيش»[1] وفي سفر التثنية: «لا يوجد فيك من يجيز ابنه أو ابنته في النار، ولا من يعرف عرافة ولا عائف ولا متفائل، ولا ساحر، ولا من يرقي رقية، ولا من يسأل جانا.. الخ»[2].

ومن ثم فليس غريبا أن نجد كثيرا من الفقهاء يرون أن الساحر كافر ويجب قتله «قال مالك: الساحر كافر يقتل بالسحر، ولا يستتاب، ولا تقبل توبته بل يتحتم قتله...

وقال القاضي عياض، وبقول مالك قال أحمد بن حنبل وهو مروي عن جماعة من الصحابة والتابعين»[3].

وأما ما رواه أحمد عن أبي سعيد الخدري «أن النبي - ﷺ - قال: لا يدخل الجنة، صاحب خمس، مدمن الخمر، ولا مؤمن بسحر، ولا قاطع رحم ولا كاهن ولا منان»[4] فالمراد بالتصديق بالسحر هنا. والذي ينسجم مع ما سبق وما سيأتي من النصوص - والذي انكره الرسول - ﷺ - هو التصديق بأن للسحر تأثيراً بذاته لا بإرادة الله تعالى، فهو سبب والله خالق الأسباب والمسببات لقوله تعالى (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله).

أ- حقيقة وجود السحر بالهمة:

يرى أهل السحر أنه إذا كان البخار أخف من الماء ولكن البخار يستطيع أن يدفع قاطرة، وباخرة وإذا كانت الكهرباء غير منظورة، ولكنها قادرة على أن تضيء مدينة.. فكذلك إرادة الإنسان لا هي ملموسة ولا هي مرئية، ولكن هذه الإرادة إذا أحسن استخدامها فإنها تغير الكثير[5].

---

(١) سفر الخروج ٢٢ :٨/ .   (٢) سفر التثنية ، الإصحاح (١٨) الآيات ١٠ ـ ١١

(٣) الشوكانى :نيل الأوطار جـ٧ ص ٣٦٣ وانظر كذلك ابن حجر فتح البارى جـ١٢ ص ٣٤٨.

(٤) رواه أحمد فى مسنده جـ٣ ص ١٤ .

(٥)انظر أنيس منصور:القوى الخفية ٩٤ :٩٥ والكلام لـ« اليستركرولى » أحد علماء الروحانيات فى العصر الحديث.

«فإذا أردنا وبعمق فإننا نفتح على أنفسنا وفي أنفسنا ينابيع القوى الهائلة. في كل إنسان قـوة السمع عن بعـد والرؤية عن بعد. . والإحـساس بالحـوادث قبل أن تقع . . ونقل الأفكار إلى الآخرين والتأثير فيهم»[١] .

واستدل الفلاسفة على وجـود الأثر للنفس الإنسانسة بأن لها آثاراً في بدنها على غيـر المجرى الطبعى، وأسـبابه الجسـمانية، بل آثار عارضـة تارة من كيفـيات الأرواح كالسخونة الحادثة عن الفرح والسرور وتارة من جهة التصورات النفسانية، كالذي يقع من قبل التوهم، فإن الماشي على حرف حائط أو على حبل منتصب إذا قـوى عنده توهم السقـوط سقط بلا شـك، ولهذا فـإن كثـيراً من الناس يعـودون أنفسهم ذلك حـتى يذهب عنهم هذا الوهم، فتجدهم يمشـون على حرف الحائط، والحبل المـنتصب ولا يخـافون السقـوط، فثـبت أن ذلك من أثار النفس الإنسـانية ، وتصورها للسـقوط من أجل الوهم، وإذا كان ذلك أثراً للنفس في بدنهـا من غير الأسباب الجـسمانية الطبعيـة، فجائز أن يكون لها مثل هذا الأثر في غـير بدنها إذ نسبتهـا إلى الأبدان في ذلك النوع من التأثير واحدة لأنها غـير حالة في البدن ولا منطبعة فيه [٢].

وهذا ما يؤكده جوزيف .ب. راين J.B.Rhin عالم النفس المعاصرفي بحوثه بجامعة ديوك الأمريكية حيث أثبت هذا التـأثير وأجمل نتائج بحوثه في مؤلفه عن الوصول إلى العقل «The Reach of The Mind» أو امتداد أثره وقـد ورد فيه ما معناه أن القوى العقلية يمكنها أن تؤثر فى المادة تأثيـرا عمليا وأن هذا التأثير العقلى فى المادة لا ينشأ عن قوة فيزيقية [٣] .

وهذا ما يؤكـده أيضا الأسـتاذ شـو. دزموند Shaw.Desmond مدير المعـهد الدولي للبـحث الروحي من أن للفكر حـقيـقة (مـادية) نادت بها بعض مـدارس السيكولوجيا وكبرهان مادي على صـحة ذلك استطاع العلامة فيوكوراي Fukurai منذ بضع سنين أن يصور ما يرسل به المخ من إشارات أثناء التـفكير بكاميرا شديدة الحساسية وليس ذلك بمستغرب في ظل عصر العلم [٤] .

---

(١) السابق ١١٧ وانظر رءرف عبيد : مفصل الإنسان روح لا جسد جـ١ ص ١٦٦ وما بعدها .
(٢) انظر ابن خلدون :المقدمة ص ٥٠١ وانظر مبحث تأويل المعجزة في الفصل الرابع من الباب الرابع .
(٣) انظر رءوف عبيد: مـفصل الإنسـان روح لا جسد جـ ٢ ص ١٢٩ . . (٤) انظر السابق جـ ٢ ص ٣١٥

والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يثبتان هذا الأثر للنفس البشرية في جانبه الهدمي ففي القرآن الكريم يقول تعالى[1] ﴿**ومن شر حاسد إذا حسد**﴾، وفي السنة النبوية يقول ﷺ « العين الحق [2] ».

ب ـ حقيقة وجود الطلسمات :

نشير هنا إلى أن مسألة اعتبار أن للكواكب والأفلاك تأثيراً في هذا العالم، وتدبيراً مسألة خلافية سواء بين الفلاسفة أو المتكلمين، ولا نريد أن ندخل في متاهات الجدل العقلي فيها، ونشير لمن يحب الاستزاده في ذلك إلى ما كتبه الرازي ممثلا للمثبتين في كتابه النبوات[3] وإلى ما كتبه الباقلاني في التمهيد[4]، وكذلك القاضي عبد الجبار في شرح الأصول الخمسة [5] وابن تيمية في الفرقان[6] ممثلين للمنكرين.

ونكتفي هنا ببعض ما سهل ووضح وابتعد عن الغموض والتكلف من هذه الأدلة كاستدلال الرازي على ذلك بأن أحوال هذا العالم مرتبطة بأحوال الشمس في كيفية حركتها فإنه بهذا السبب تصير الشمس تارة شمالية، وتارة جنوبية ولأجل هذا الاختلاف، تحصل الفصول الأربعة، وبسببها تختلف أحوال هذا العالم، وأيضا بسبب طلوع الشمس وغروبها في اليوم تختلف أحوال هذا العالم، واستدلاله كذلك بأن الناس منذ كانوا في قديم الدهر كانوا مستمسكين بعلم النجوم، ومعولين عليها، فإنك ترى لكل علم: أولاً وإنساناً هو أول الناس خوضا فيه، إلا العلم الإلهي، وعلم النجوم فإنك لا تصل إلى تاريخ إلا وترى أن هذين العلمين كانا موجودين قبله، ولو كان باطلا، لامتنع إطباق أهل الدنيا من الدهر الداهر إلى هذا اليوم ، على التمسك به، والرجوع إليه ؟؟ [7].

---

(١) الفلق : ٥ .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه فى الباب (٣٦) من كتاب الطب والباب (٨٦) من كتاب اللباس ومسلم فى صحيحه برقم (٤١ ، ٤٢) من كتاب السلام وأبو داود فى سننه فى الباب (١٥) من كتاب الطب ومالك فى الموطأ برقم (١) من كتاب العين وأحمد فى المسند جـ ١ ص ٢٧٤ :٢٩٤ جـ٢ ص ٢٢٢.٢٨٩، ٣١٩، ٤٢٠، ٤٣٩، ٤٨٧، جـ ٤ ص٦٧ جـ٥ ص ٧٠، ٣٧٩ .

(٣) انظر الرازى : النبوات ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩ . (٤) انظر الباقلانى : التمهيد ص ٦١ : ٦٨ .

(٥) انظر القاضى عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ١٢١ ـ ١٢٢ .

(٦) انظر ابن تيمية : الفرقان ٩٠ ـ ٩٢ . (٧) انظر الرازي : النبوات ٢١٠ .

ومن الغريب أن نجد شخصية إسلامية كبيرة كحجة الإسلام الغزالي يقول[1] «وأما المحركات للأجرام السماوية فيحضرها جميع الأحوال المتقدمة معا فيلزم جميع الأحوال المتأخرة معا، فتكون الهيئة للعالم بما يريد أن يكون فيه يرتسم هناك»

بل إن ابن حزم الظاهري نجده أيضا يقول[2]«وأما السحر فإنه ضروب، منه ما هو من قبل الكواكب كالطابع المنقوش فيه صورة عقرب، في وقت كون القمر في العقرب، فينفع إمساكه من لدغة العقرب، ومن هذا الباب كانت الطلسمات، وليست إحالة طبيعة، ولا قلب عين، ولكنها قوى ركبها الله عز وجل مدافعة لقوى أخرى كدفع الحر للبرد، ودفع البرد للحر. . . ولا يمكن دفع الطلسمات لأننا قد شاهدنا آنفا آثارها ظاهرة إلى الآن، من قرى لا تدخلها جرادة، ولا يقع فيها برد كسرقسطة التي لا يدخلها جيش إلا أن يدخلها كرها، وغير ذلك كثير جداً لا ينكره إلا معاند وهي أعمال قد ذهب من كان يحسنها جملة، وانقطع من العالم، ولم يبق إلا آثار صناعتهم فقط».

وابن عربي أيضا يؤمن بنظرية أرواح الكواكب وأن لكل كوكب روحا خاصا به، وعلما لا يشاركه فيه غيره[3].

وفي الفتوحات المكية بعد أن أثبت ابن عربي أن الله وحدة هو المؤثر على الحقيقة يقول:[4] «فإن الله تعالى لما رفع السماء، وضع الميزان فى سباحة الكواكب فى أفلاكها التى هى طرق فى السماوات لتجري بالمقادير الكائنة في العالم على قدر معلوم لا تتعداه وذلك هو التسخير الذي ورد في القرآن في النجوم أنها مسخرات بأمره» .

وكذلك الكرماني فيقول[5] «الأجسام العالية لها أحوال، وأفعال بها يتعلق وجود الموجودات الطبيعية» .

---

(١) الغزالى : معارج القدس ١٥٣ ـ ١٥٤ .

(٢) ابن حزم : الفصل جـ٥ ص ١٠١ ـ١٠٢ .

(٣) انظر أبو العلا عفيفى :التعليقات على فصوص الحكم لابن عربى جـ ٢ ص٤٣ .

(٤) ابن عربى : الفتوحات المكية جـ ٤ ص ٣٣:٣٤ .

(٥) الكرماني : راحة العقل ص ٣١١ وانظر ص ٣١٣:٣١٦ .

ويحاول كثير من العلماء كالفارابي، وابن سينا وغيرهم تأكيد هذه النظرية ونظرية الفيض قائمة على هذا التصور.

وملخص هذه النظرية أن واجب الوجود لذاته(الله) فكر فنشأ عنه عقل أول هذا العقل له جانبان أو اعتباران فهو من جهة واجب بغيره، ومن جهة أخرى ممكن بذاته، وهذا العقل فكرفي مصدره، فنشأ عنه عقل ثان، وفكر في نفسه باعتباره واجبا بغيره فنشأ عنه نفس الفلك الأول، وفكر مرة ثالثة فى نفسه باعتباره ممكنا بذاته فنشأ عنه جسم الفلك الأول .

وهذا العقل الثاني قام بما قام العقل الأول به، ففكر ثلاث مرات مرة في مصدره، فنشأ عنه عقل ثالث، ومرة في نفسه باعتباره واجبا بغيره فنشأ عنه نفس الفلك الثاني، ومرة في نفسه باعتباره ممكنا بذاته فنشأ عنه جسم الفلك الثاني وهكذا حتى العقل العاشر، ويسمونه العقل الفعال، وهو المشرف على مادون فلك القمر، ويقابل من الملائكة جبريل عليه السلام أو هو هو .

وكذلك الحال عند إخوان الصفا، فالكواكب، والملائكة عندهم حقيقة واحدة.

يقول إخوان الصفا[1] «إن الكواكب ملائكة الله وملوك سمواته خلقهم لعمارة عالمه، وتدبير خلائقه وسياسة بريته».

وفي القرآن الكريم نجد المولى عز وجل يخاطب السموات والأرض ونجدها تجيبه، يقول تعالى **﴿ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها، قالتا أتينا طائعين﴾**[2] ونجد قوله تعالى كذلك **﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾**[3] ويقول تعالى كذلك[4] **﴿فالمقسمات أمرا﴾**، ويقول:[5] **﴿والمرسلات عرفا،فالعاصفات عصفا،والناشرات نشراً،فالفارقات فرقا،فالملقيات ذكرا﴾**، ويقول:[6] **﴿والصافات صفا،فالزاجرات زجراً،فالتاليات ذكراً﴾** ويقول:[7] **﴿والنازعات غرقا،والناشطات نشطا،والسابحات سبحا،فالسابقات سبقا،فالمدبرات أمرا﴾** .

---

(١) إخوان الصفا : الرسائل جـ ٤ ص ٢٨٥ . (٢) فصلت : ١١ .
(٣) الإسراء : ٤٤ . (٤) الزاريات : ٤ . (٥) المرسلات : ١:٥ .
(٦) الصافات : ١ :٣ . (٧) النازعات : ١ : ٥ .

وكثيـر من العلماء والمفسريـن على أن هذه الآيات حديث عن الملائكة، التي هي الكوكب عند بعضـهم حال قيـامها بتدبيـر شئون السمـوات والأرض، وصرح بعضهم بأنها خاصة بالحديث عن الكواكب، وتدبيرها في العالم .

وأرى أن اعـتبـار أن الكواكب قد تكون مـلائكة أو أسـبابا على الجـملة لا يعارضـة شرع أو عقل، بدليل قـوله تعالى ﴿**ومـا يعلـم جنود ربك إلا هو**﴾[1] أما اعتبـار أن الملائكة هي الكواكب فقول لا دليل عليه لا مـن شرع ولا من عقل بل يعارضة قوله تعالى ﴿**وما يعلم جنود ربك إلا هو**﴾ .

يقـول الـقـرطبي في تفـسـيـر قـولـه تعـالى(فـالمـدبرات أمـرا)[2]: «قال القـشيـري: أجمـعوا على أن المراد المـلائكة، وقال الماوردي فـيه قـولان: أحدهمـا الملائكة، قـاله الجمـهـور، والقول الثـاني هي الكواكب السـبـعة، حكاه خـالد بن معـدان، عن معاذ بن جبل وفي تدبيـرها الأمر وجهـان: أحدهما تدبير طلوعـها. وأفولهـا، والثاني تدبير مـا قضاه الله تعـالى فيها مـن تقلب الأحوال، وحكى هذا القول أيضا عن القشيري في تفسيره، وأن الله تعالى علق كثيرا من تدبير أمر العالم بحركات النجوم فأضيف التدبير إليها، وإن كان من الله، كما يسمي الشيء باسم ما يجـاوره، وعلى أن المراد بالمدبرات الملائكة فـتـدبيـرها نزولهـا بالحلال، والحـرام، وتفصيله: قـاله ابن عباس وقتادة وغيـرهما، وهو إلى الله جل ثناؤه ولكن لما نزلت الملائكة به سميت بذلك: كما قال عز وجل: [3]﴿**نزل به الروح الأمين**﴾ وكما قال تعالى: [4] ﴿**فإنه نزله على قلبك**﴾يعني جبريل نزله على قلب مـحمد ـ ﷺ ـ والله عز وجـل هو الذي أنزله، وروى عطاء عن ابن عبـاس :(فالمدبرات أمـرا) الملائكة وكلت بتدبير أحوال الأرض في الرياح والأمطار وغير ذلك»[5].

ونخلص من ذلك بالآتي :

ـ إن إضافة التـدبير الى الملائكة أو الكواكب إضافة مجازية لأنـها الأسباب التي يتم بها مراد الله .

---

(١) المدثر : ٣١ . (٢) النازعات : ٥ .
(٣) الشعراء : ١٩٣ . (٤) البقرة : ٩٧ .
(٥) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن جـ ٨ ص ٦٩٨٥ .

ـ إن الله وحده هو خـالق الأسبـاب والمسببـات، ومن ثم فهـو قادر على أن يخلق المسببات بلا أسباب وخلق الأسباب إنما يكون لحكمة .

ـ إن اعـتبـار الملائكة أسبـابا لا يتعـارض مع الشـرع بل هو ما نص عليـه القرآن، وأكدته السنة النبوية .

ففي القرآن يقول تعالى:[1] **﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾** وفي الصحيحين في قصة الإسراء قال جبريل لخازن السماء الدنيا: افتح وأتى السماء الثانية فقال لخازنها: افتح . . . . الحديث [2] .

وفي الصحيحين كذلك من حديث عائشة في قصة عرضه ـ ﷺ ـ نفسه على عبد ياليل «فناداني ملك الجبال . . . إن شئت أطبق عليهم الأخشبين. . . . الحديث[3]، وغير ذلك من الأحاديث كثير .

ـ إن اعتبار الكواكب أسبابا، وإن لم يصرح الشرع به فبفرض صحته لا يتعارض ذلك مع الشرع، لقوله تعالى **﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾**[4] .

ويؤكد ابن حزم على ما سبق من أن اعتبار الكواكب أسبابا لا يتعارض مع الشرع، ويستشهد على ذلك بالحديث القدسي، قال الله تعالى:[5] **﴿أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال مطرنا بنوء[6] كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب﴾** . أ . هـ .

---

(١) الأنفال : ١٢ .

(٢) رواه البخارى : فى صحيحه فى الباب(١) من كتاب الصلاة،والباب(٧٦) من كتاب الطب،والباب (٥) من كتاب الأنبياء،ومسلم:فى صحيحه برقم(٢٦٣) من كتاب الإيمان،وأحمد فى مسنده جـ ٥ ص ١٤٣ .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم(١١١) من كتاب الجهاد،والبخارى:فى صحيحه فى الباب ـ(٧) من كتاب بدء الخلق.

(٤) المدثر : ٣١ .

(٥) رواه مسلم فى صحيحه فى كتاب الإيمان جـ ٢ ص٥٩ ـ ٦٠ ورواه البخارى:فى صحيحه فى الباب (١٥٦)من كتاب الآذان والباب(٣٥) من كتاب المغازى،وأبو داود فى سننه فى الباب(٢٢)من كتاب الطب ومالك فى الموطأ برقم (٤) من كتاب الاستسقاء .

(٦) النوء : النجم إذ مال للغروب، والمطر الشديد . (عبد السلام هارون وآخرون:المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٩٩٩) .

وأما من قال بأن الله عز وجل خلقها، وجعلها دلائل على الكوائن فهذا ليس كافرا ولا مبتدعا لأن قائل هذا إنما يحيل على التجارب فما كان من تلك التجارب ظاهراً إلى الحس كالمد والجزر الحادثين عند طلوع القمر واستوائه وأفوله، وامتلائه ونقصانه وكتأثير الشمس في عطش الحر وتصعيد الرطوبات وسائر ما يوجد حساً فهو حق لا يدفعه ذو حس سليم، فكل ذلك خلق الله عز وجل، فهو خلق القوى، وما يتولد منها. وما يوجد بها[1]، كما قال تعالى: [2]**﴿فأحيينا به الأرض بعد موتها﴾**، **﴿فأخرجنا به من كل الثمرات﴾**[3]**﴿فأنبتنا به جنات وحب الحصيد﴾** [4].

ويقول ابن عربي: أهل الشهود: «الذين يقولون مطرنا بفضل الله ورحمته بالوزن الذي جعله في سباحة كوكب من الكواكب، وما قدره الله من المنازل التي ينزل فيها، والمحجوب عن هذا المقام، يقول مطرنا بنوء كذا وكذا فيذكر الكوكب المجبور فى ذلك، ويضيف ما ظهر من المطر الصائب إليه كما يضيف أفعاله خلقا الى نفسه، فسمي عند ذلك بأنه كافر بالله»[5].

وابن سينا كذلك يؤكد على أن نفوس الأجرام السماوية وإن كان لها ضرب من التصرف في المعاني الجزئية[6] إلا أن ذلك لا يتعارض مع الشرع طالما أن الله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات.

يقول ابن سينا: [7] «إن السماء حيوان مطيع لله عز وجل»و«إن محرك جملة السماء واحد، ولا يجوز أن يكون عددا كثيرا... على ما يراه المعلم الأول، ومن بعده من محصلي الحكمة المشائية»[8].

ثم إن قوله - ﷺ -: «من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من سحر: زاد ما زاد»(٩) يمكن أن يفهم على أنه اعتراف بعلم التنجيم طالما جعله ﷺ من السحر

.(١) انظر ابن حزم :الفصل جـ ٥ ص ١٤٨ : ١٤٩ .   (٢) فاطر : ٩ .

(٣) الأعراف : ٥٧ .   (٤) ق : ٩ .

(٥) ابن عربى : الفتوحات المكية جـ ٤ ص ٣٤ .

(٦) انظر ابن سينا : النجاة ص ٣٣٥.   (٧) السابق ص ٢٩٥ .   (٨) السابق ص ٣٠٣ .

(٩) رواه أحمد فى مسنده جـ١ ص ٣١١:٢٢٧ ،وابن ماجة فى سننه فى الباب (٢٨) من كتاب الأدب، .وأبو داود فى سننه فى الباب (٢٢) ، (٥١) من كتاب الطب،وحسنه السيوطى فى الجامع الصغير .

وطالما اعترف الإسلام بالسحر وبتأثيره .

وأخيراً فنحن نتفق مع الغزالي فيما ذهب إليه في التهافت من أن الله تعالى قادرعلى أن يخلق الحياة في كل جسم فلا كبر الجسم يمنع من كونه حيا، ولا كونه مستديرا، فإن الشكل المخصوص، ليس شرطا للحياة إذ الحيوانات مع اختلاف أشكالها مشتركة في قبول الحياة، وهو تعالى قادر على أن يجعل الكواكب أسبابا في تدبير السموات والأرض، كما جعل غيرها أسبابا ولكنا ندعي عجز الفلاسفة عن معرفة ذلك بدليل العقل، فإن هذا إن كان صحيحا، فلا يطلع عليه إلا الأنبياء - صلوات الله عليهم - بإلهام من الله تعالى، أو بوحي وقياس العقل ليس يدل عليه، نعم لا يبعد أن يعرف مثل ذلك بدليل، إن وجد الدليل وساعد، ولكنا نقول: ما أوردوه دليلا لا يصلح إلا لإفادة الظن، فأما أن يفيد قطعا فلا (1).

ومن ثم يتبين لنا أن أقصى ما يمكن أن يقال في هذا الباب: أن وجود علم التنجيم لا يعارضه شرع أو عقل وإنما يدخل في حيز الممكن الذي لا يفصل فيه إلا التجربة الحسية .

على أننا يجب أن نفرق بين نوعين من أنواع السحر كثيرا ما يحدث الخلط بينهما، ويظن أنهما شيء واحد فكلاهما متعلق بالأفلاك والكواكب.

الأول منهما: هو السحر المبني على مقتضيات أحكام النجوم وهو النوع الذي قلنا عنه إنه لا يعارض وجوده شرع أو عقل.

والثاني منهما: هو السحر المبني على الاستعانة بالأرواح الفلكية، ويكون ذلك بأدعية مخصوصة وصلوات معينة وهو نوع من عبادة الكواكب التي حرمها الشرع وأنكرها العقل.

جـ - حقيقة وجود السحر بالعزائم والرقى:

والسحر بالعزائم والرقى ثابت عند بعض العلماء مثل ابن حزم الذي يقص علينا كثيراً من الشواهد التي رآها بنفسه أو التي أخبره بها الثقات والتي تؤيد ذلك في كتابه الفصل (2).

---

(1) انظر الغزالي : تهافت الفلاسفة ص ٢٠٢ . (2) انظر ابن حزم : الفصل جـ٥ ص ١٠١ - ١٠٢ .

٤ـ حقيقة وجود الكهانة :

مفهوم الغيب :

الغيب في كلام العرب: كل ما غاب عنك واختلف المفسرون في تأويل الغيب هنا في قوله تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾(١) فقالت فرقة: الغيب في هذه الآية: الله سبحانه، وضعفه ابن العربي وقال آخرون: القضاء والقدر، وقال آخرون: القرآن وما فيه من الغيوب وقال آخرون الغيب: كل ما أخبر به الرسول عليه السلام مما لا تهتدي إليه العقول من أشراط الساعة، وعذاب القبر، والحشر، والنشر والصراط، والميزان، والجنة والنار، قال ابن عطية: وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها(٢) وهذا هو الإيمان الشرعي المشار إليه في حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبي فأخبرني عن الإيمان قال«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» (٣) .

حقيقة معرفة الناس للغيب :

فمن الغيب ما يستأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه من أراد من خلقه، وقد يقصره على طائفة من خلقة، كبعض ملائكته، أو بعض رسله، بل إن منه ما جعل له أسبابا في تحصيله.

كغيب الماضي: فهذا قد تتناقله الأمم، ويحصله من طلب علمه بوسيلة أو بأخرى .

وكذلك غيب الحاضر: فهو غيب مكاني فيمكن كذلك معرفته بطريق أو بآخر(٤) كتسخير الجان مثلا أو عن طريق وسائل الاتصالات الحديثة.

وحتى غيب المستقبل فلم يختص الله تعالى بعلمه كله بل جعل منه ما

---

(١) البقرة: ٣. (٢) انظر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن جـ ١ ص ١٤٢ .

(٣) رواه أبو داود فى سننه فى كتاب السنة باب القدر جـ٢ ص٥٢٦ وكذلك البخارى فى صحيحه بلفظ مختلف ،كتاب الإيمان جـ١ ص٢٠ ،وأحمد فى مسنده بلفظ مختلف جـ١ ص٢٧ .

(٤) وقد حكمت محكمة باب الشعرية منذ سنوات ببراءة متهم فتح المندل أمام المحكمة. انظر جريدة الأهرام المصرية عدد٢٣/٤/١٩٨٠ .
والمندل ضرب من الكهانة يستدل به على الضائع أو المسروق .

يشاركه في علمه به بعض ملائكته أو بعض رسله ـ يقول تعالى[1] ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول**﴾ ـ أو بعض خلقه ممن ليسوا بأنبياء سواء كان ذلك عن طريق الكرامة، وسيأتي تفصيل الكلام عنها في موضعه ـ أو عن طريق الرؤيا الصادقة التي قال عنها الرسول ـ ﷺ ـ «الرؤيا الصالحة جزء من ست وأربعين جزء من النبوة»[2] والتي ذكرها القرآن في مواطن كثيرة مثبتا إياها مشيرا إلى أن من الغيب المستقبل ما يمكن معرفته عن طريقها لغير الأنبياء بل ولغير الصالحين.

ومثال ذلك ما رآه الملك في قصة يوسف عليه السلام في نومه، وما رآه رفيقا يوسف في السجن، وما رآه يوسف نفسه من قبل وقصه على أبيه ، والرؤيا الصادقة ليس في وسع إنسان إنكارها ومن لم يجربها بنفسه فلابد له وأن تتواتر لديه ممن خبره عنده كالمشاهدة.

وأيضا يمكن أن يعرف بعض غيب المستقبل لغير الأنبياء بدلالة العادة كمعرفتنا أن هذه النار محرقة قبل ملامستها .

ومن ثم فإنا نفهم أن المراد بقوله تعالى على لسان رسوله ـ ﷺ ـ ﴿**ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي**﴾[3]. وكذلك قوله تعالى ﴿**قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله**﴾[4] .

أن المراد من نفي الغيب عنه ـ ﷺ ـ هو :

ـ إما ما اختص الله تعالى بعلمه دون سائر خلقه .

ـ أو أنه ﷺ ـ لا يعلم الغيب من لدن نفسه ولا يعلمه إلا بإعلام الله تعالى له لقوله تعالى ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول**﴾[5] وكذلك قوله تعالى ﴿**أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه على حكيم**﴾[6] وقوله على لسان عيسى عليه السلام ﴿**وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم**﴾ [7] .

---

(١) الجن : ٢٦ – ٢٧.   (٢) رواه البخاري : في صحيحه جـ ٩ ص ٣٩ .   (٣) الأنعام: ٥٠ .
(٤) النمل :٦٥ .   (٥) الجن: ٢٦ – ٢٧ .   (٦) الشورى : ٥١ .   (٧) آل عمران : ٤٩ .

والإسلام وإن حارب الكهانة إلا أنه لم ينف وجودها ولم ينكر أن لها وجودا حقيقيا ـ بصرف النظر عن مدى دقة الكهانة في معرفة الغيب وطبيعة هذا الغيب الذي يمكن معرفته عن طريق الكهانة .

فقد روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال[1] «من أتى كاهنا فصدقه بما يقول. . .فقد برئ مما أنزل على محمد ـ ﷺ» .

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ـ ﷺ ـ «ليس منا من تَطَير أو تُطير له أو تَكهن أو تُكهن له أو سَحر أو سُحر له، ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ـ ﷺ ـ»[2].

وروى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ـ ﷺ ـ أنه قال:[3] «من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوما» .

وعن أنس رضي الله عنه مرفوعا: «أخاف على أمتي بعدي خصلتين تكذيبا بالقدر، وإيمانا بالنجوم»[4].

وعن جابر بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال «ثلاث أخاف على أمتي الاستسقاء بالأنواء وحيف السلطان، وتكذيباً بالقدر»[5].

إلا أن هذه النصوص لا تنكر الكهانة ولكن تحذر منها فالكهانة كما قلنا نوع من السحر، واعترف الإسلام بوجود السحر، ولكنه حرمه، وحذر منه، فكذلك الأمر في الكهانة، بل إن «أحمد نص على أن الكاهن يقتل كالساحر»[6] ولا يكون القتل إلا فيما له وجود وتأثير بالضرر خطير.

وذلك الضرر هو سبب خوف الرسول ـ ﷺ ـ من الإيمان بالنجوم، والإيمان هنا إذا كان يعني عبادتها فليس ذلك إنكاراً لإمكان معرفة الغيب عن طريق التنجيم وإن كان المقصود بالإيمان بالنجوم أي الإيمان بأن للنجوم دلالة على الغيب فليس

---

(١) رواه أبو داود فى سننه فى كتاب الطب باب الكهانة جـ ٢ ص ٣٤١ وحسنه السيوطى فى الجامع الصغير.

(٢) رواه البزار بإسناد جيد وحسنه السيوطى فى الجامع الصغير .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه جـ١٤ ص٢٢٧ .

(٤) رواه أبو يعلى، وابن عدى، والخطيب فى كتابه النجوم وحسنه السيوطى أيضا .

(٥) رواه أحمد فى مسنده جـ٥ص٩٠ وضعفه السيوطى .

(٦) ابن تيمية : النبوات ص٢٧٠:٢٧١ .

في ذلك إنكار واضح لوجود هذا العلم، ولكن فيه تحذير من ضرره .

وذلك لأن الكهانة، وإن أمكن عن طريقها معرفة ما للغيب فهي معرفة قاصره مشوشة يختلط الصحيح القليل فيها بالباطل الكثير [١].

فإذا آمن الإنسان بها وبنى حياته عليها هلك وفاته من الخير الكثير، لأنه يبني حياته على أسس باطلة [٢].

وقد سجل التاريخ إيمان كثير من الشخصيات الهامة بالتنجيم إيمانا مطلقا ومنهم ادولف هتلر زعيم ألمانيا، ونهرو وغيرهما[٣] ولا شك أن إيمان مثل هؤلاء الساسة بذلك لابد أن يكون له أثر كبير في سياستهم، وبالتالى يتعدى الأثر إلى حياة الملايين من البشر .

ثم إن الإنسان بإلحاحه في معرفة الغيب يسعى لمعرفه ما يكره يقول تعالى[٤] ﴿يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ .

والمستقبل لأي إنسان به من الأحداث ما يفرحه كما أن به ما يحزنه، ولابد من ذلك لأي إنسان ـ ثم إن المشاهد أن خبراً واحداً محزنا يمكنه أن يطغى على ألف خبر سار، فيعيش الإنسان مهموما محزونا متوجسا من شر أن يقع له، وقد لا

---

(١) انظر (قدرة السحر على التنبؤ بالغيب) في الفصل الأول من الباب الثاني .

(٢) وقد حذر مؤتمر عقد فى جامعة(ستانفورد) الأمريكية من أن عدداً كبيرا من الناس يؤمنون بما يتنبأ به المنجمون فى الصحف والمجلات إيمانا يجعلهم يسوون حياتهم بموجب هذه التنبؤات وقد لا يكون فى ذلك الكثير من المضره إلا أن بعض الناس يتأثرون كثيرا بالطالع والبروج السماوية إلي حد يجعلهم لا يقدمون على عمل شيء إلا إذا حبذته الأبراج حتى فى اختيار وظائفهم أو مستخدميهم أو أزواجهم! وهناك من الأطباء من يعتمدون فى تشخيص الأمراض على النجوم بدل اللجوء إلى الأساليب العلمية القوية ولعل عدداً من حوادث الانتحار أتت نتيجة لتنبؤات لم ترض أصحابها فآثروا الانتحار .

انظر مجدى الشهاوى :قراءة النجوم والحظ والطالع ص٨٠ وانظر كذلك جريدة الأهرام المصرية عدد ١٩٩٣/٥/٢٠ بعنوان سموم العرافين .

(٣) مجدى الشهاوى : السابق ص ٧٧. وانظر ما نشرته جريدة الأهرام المصرية فى صفحتها الأولى بتاريخ ٦/٧ ١٩٩٣ بعنوان«المنجمون يقررون إبقاء كمبوديا بلا حكومة حتى عيد ميلاد«سيهانوك» فترى أن المنجمين هم الذين يقررون ما يتعلق بمصير الملايين.

(٤) المائدة : ١٠١.

يقع، وإن وقع فقد خزن له قبل أن يوجد، وبعد أن وجد والحزن على ما وقع به من اللطف ما لايوجد في الخوف مما لم يقع، فالأول قد يمكن نسيانه، والثاني يزكيه الوهم، والشيطان.

ومن ذلك كان عداء الإسلام ومحاربته للكهانة، أما عن وجودها فاعترف بها، وبأن لها وجودا حقيقياً، فهي لا تتعارض مع العقل بل هي حقيقة واقعة.

وليس أدل على ذلك من الواقع المشاهد الذي لا يسع أحداً إنكاره ومن لم يشاهده بنفسه فلابد له من سماع حكايات كثيرة في ذلك قد تدخل بمجملها حيز المتواتر إن لم يتواتر كل منها على حدة.

حقيقية معرفة الناس للغيب عن طريق قراءة الرمل :

«عن معاوية بن الحكم السلمي قال: يا رسول الله إني حديث عهد بجاهلية وقد جاء الله بالإسلام . . . ومنا رجال يخطون، قال: كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك»(١).

ففي هذا الحديث يعترف السائل بأن هناك رجال يخطون بالفعل في ذلك الوقت، وليس أقل من أن يكون خطهم يصيب حينا ويخطئ أخرى، أما إن كان الخط باطلا كله لما سأل السائل مثل هذا السؤال ولما كانت إجابة الرسول ﷺ مثل هذه الإجابة .

«وفي شرح السنن لابن رسلان قال: وهذا علم معروف فيه للناس تصانيف كثيرة وهو معمول به إلى الآن ويستخرجون به الضمير»(٢).

حقيقة معرفة الناس للغيب عن طريق قراءة الفنجان والكف وما شابه ذلك:

يقول الرسول ﷺ «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكاً ويؤمر

---

(١) رواه مسلم في صحيحه جـ١٤ص٢٢٤.

ويقال إن ستة من الأنبياء كانوا يخطون الرمل هم آدم، وإدريس، ولقمان، وإرمياء ، وإشَعْيَاء ، ودانيال .

Thomas Patrick Hughes : A Dictionary of Islam p 202 .

(٢) الشوكاني : نيل الأوطار جـ ٧ ص ٣٧٨ .

بأربع كلمات: فيكتب رزقة وأجله وعمله، ثم يكتب شقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح»[1] .

وبالطبع فالكتابة هنا في بطن الأم غير الكتابة في اللوح المحفوظ السابقة لذلك بكثير من الزمان لقوله ـ ﷺ ـ «أول ما خلق الله تبارك وتعالى القلم ثم قال له اكتب قال وما أكتب قال فاكتب ما يكون وما هو كائن إلى أن تقوم الساعة»[2] وقوله تعالى[3] ﴿يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ .

وإذا كنا هنا أمام نوع جديد من الكتابة يتم في بطن الأم أفلا يدخل ذلك قراءة الكف وأخمص القدمين والشفاة والخيلان الموجودة على ظاهر البدن، والفنجان وما أشبه ذلك في حيز الإمكان؟ باعتبار أن الكتابة في رحم الأم قد تكون على ظاهر البدن أو في العقل الباطن الذي يترك بصمته على كل ما يقترب منه كفنجان القهوة مثلا، أو أي مشروب آخر له نفس قوام القهوة، على شكل رموز على السطح الداخلي للفنجان[4] .

---

(١) رواه أبو داود في سننه جـ٢ ص٥٣٠ في كتاب السنة،والبخاري في صحيحه في الباب الأول من كتاب الأنبياء ومسلم في صحيحه برقم ـ(٢) من كتاب القدر والترمذي في سننه في الباب(٤) من كتاب القدر وأحمد في مسنده جـ ٤ ص ٧.

(٢) رواه أحمد في مسنده جـ٥ص٣١٧ وأبو داود في سننه في الباب(١٦) من كتاب السنة،والترمذي في الباب (١٧) من كتاب القدر .

(٣) الرعد : ٣٩ .

(٤) يقول أحد الكتاب المعاصرين: وكما يحاول الإنسان بعلمه الذي سخره الله له أن يعرف كل الدقائق المحيطة«بالشريط الخلقي» المودع في الجينات أو حاملات الخصائص الوراثية دون أن يتهمه أحد بأنه يريد أن يعرف غيب أحد فإنه يحاول أيضا أن يعرف جانبا على الأقل من«الشريط الحياتي»المودع في برنامج العقل الباطن دون أن يدعي لنفسه أية قدرة على النفاذ إلى غيب شخص معين(انظر أحمد حسين الشاعر :أسرار الفنجان ص١٧ ،١٨) أي أنه يعرف من الغيب عن طريق الفنجان أو الكف أو الرمل مثل ما يعرفه عن طريق الرؤيا الصادقة أي غير ما يختص الله تعالى بعلمه وحده وكذا غير ما يشاركه في علمه بعض ملائكته أو بعض رسله دون سائر خلقه .

وإذا كان«الشريط الحياتي»كله مودع في برنامج العقل الباطن فهل يمكن القول أنه أيضاً سبب الرؤى الصادقة؟ ولا يتعارض ذلك بالطبع مع كونها من عند الله لأن الله هو الخالق لكل الأسباب و المسببات فهو الخالق للعقل الباطن وما به من العلوم ولا يحدث في الكون شيء إلا بأمره وإرادته تعالى.

وهل يمكن تأكيد ذلك بوحدة الرمز في الرؤيا وفي الفنجان في كثير من الأحيان؟انظر على سبيل المثال رمز الطبلة ورمز الطير عند:(أحمد حسين الشاعر:أسرار الفنجان ص٧٠،٧١ ،النابلسي:تعطير الأنام في تفسير الأحلام جـ٢ ص٢٩ ،٦٧ ،ابن سيرين:منتخب الكلام في تفسير الأحلام جـ ٢ ص ٢٧٠ =

وهل يمكن كذلك الاستدلال على إمكان قراءة الكف والشفاة وأخمص القدمين والخيلان وغير ذلك بقوله تعالى ﴿**حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون**﴾[1] وقوله تعالى﴿**يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون**﴾[2] وقوله﴿**اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون**﴾[3] .

اعتقد أن كل ما سبق لا يثبت على وجه قطعي وجود هذه المعرفة الغيبية عن طريق هذه الطرق من قراءة الفنجان والكف وما إلى ذلك.

وأقصى ما هنالك إن هذه المعارف ممكنة ولم يقم دليل عقلي أو شرعي على صحة وجودها أو عدمه، ويبقى الحكم النهائي في ذلك للتجربة الواقعية التي يدعيها الكثيرون.

وبفرض وجودها فلا يطعن ذلك في المعجزة لأن هناك من الفروق بينهما الكثير والذي سيأتي بسطه في موضوع لاحق.

تسخير الجان في معرفة الغيب :

ـ حقيقة الجن :

روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال«خلقت الملائكة من نور»[4]وخلق آدم﴿**من صلصال من حمإ مسنون**﴾[5] ﴿**وخلق الجان من مارج من نار**﴾[6]وخلق إبليس﴿**من نار**﴾[7] فإبليس ليس من

=وهل يمكن تأكيد ذلك أيضا بما أكد عليه أفلاطون فى أكثر من محاورة من أن الطابع الأساسى للمعرفة هو تذكر النفس لمعارفها التى اكتسبتها حين كانت فى عالم المثل،وأن هذا الطابع أولى سابق على التجربة ومستقل عنها والتجربة تنبه النفس من غفوتها أو غشاوتها التى نتجت عن اتصالها بالبدن؟

وهل يمكن الاستدلال على وجود ذلك العلم فى العقل الباطن بقوله تعالى﴿فذكر إن نفعت الذكرى﴾ الأعلى:٩. وقوله ﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾الغاشية:٢١. وقوله﴿لعلكم تذكرون﴾الأعراف:٥٧، النور : ٢٧ ، الذاريات:٤٩ ،وقوله ﴿لعلهم يتذكرون﴾البقرة:٢٢١، إبراهيم:٢٥ ،القصص٤٣، ٤٦،٥١، الزمر:٢٧. الدخان:٥٨ . وقوله ﴿أفلا تذكرون﴾يونس :٣. هود:٢٤، ٣٠ .النحل:١٧ .المؤمنون:٨٥. الجاثية:٢٣ .وقوله﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ الزمر :٩ وقوله﴿قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون﴾الأنعام : ١٢٦ ؟

(١) فصلت : ٢٠ . (٢) النور : ٢٤ . (٣) يس : ٦٥ . (٤) رواه مسلم فى صحيحه وأحمد فى المسند عن عائشة . (٥) الحجر :٢٦ . (٦) الرحمن : ١٥ . (٧) الأعراف : ١٢ .

الملائكة على الراجح فقد خلق من نار وخلقت الملائكة من نور.

ثم إنه عصى الله تعالى، قال تعالى[1] **﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى﴾**، والملائكة **﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾**[2].

ولكن لما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس في خطابهم لأنه وإن لم يكن من عنصرهم إلا أنه كان قد تشبه بهم وتوسم بأفعالهم، فلهذا دخل في الخطاب لهم وذم في مخالفة الأمر [3].

وإذا كان إبليس والجان خلقا من نار فليس معنى ذلك أنهما شيء واحد فالإنسان والحيوان خلقا من طين وهما خلقان مختلفان.

وإبليس ليس من الجن على الراجح لأن الله أثبت عداوته وذريته للإنس قال تعالى **﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو﴾**[4].

والجن منهم الطائع والعاصي قال تعالى على لسانهم **﴿وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون﴾**[5] وبالطبع فمسلموهم أخواننا وليسوا أعداءنا وهم من أمة الدعوى وتحدي القرآن يشملهم. **﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله﴾**[6].

وقال ابن عباس إن الله تعالى قال **﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾**[7] وقال للنبي ﷺ **﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾**[8] فأرسله تعالى إلى الإنس والجن[9].

وفي قوله تعالى **﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾**[10] يجوز أن يعم لفظ الناس بني آدم والجن، ويكون الجن قد دخلوا في لفظ الناس تغليبا، قال ابن جرير: وقد استعمل فيهم **﴿رجال من الجن﴾**[11] فلا بدع في إطلاق الناس عليهم،

---

(١) البقرة: ٣٤. (٢) التحريم: ٦. (٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم جـ١ ص٧٧.
(٤) الكهف: ٥٠. (٥) الجن: ١٤. (٦) الإسراء: ٨٨.
(٧) إبراهيم: ٤. (٨) سبأ: ٢٨. (٩) انظر ابن كثير: تفسير القرآن العظيم جـ٣ ص٥٣٩.
(١٠) الناس: ٥. (١١) الجن: ٦.

فالشـيطان يوسوس لهم كما يوسـوس لنا ويكون قوله: ﴿من الجنة والناس﴾ بيان للفظ الناس في قوله تعالى﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾ [1] .

وأما وصف إبليـس بأنه كان من الجن في قولـه تعالى ﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾[2] فمعناه على الراجح كما قال ابن عباس وغيره أنه كان من خزان الجنان [3] أو أنه ذو طبيعة مختلفة عن طبيعة الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم فكانت طبيعته طبيعة جنية أى مستترة تضمر الشر فقادته إلى الفسق .

ثم إنه يجب أن نلاحظ أن لفظ الشيطان يطلق مجـازاً على كل عات متمرد من الإنس والجن ووجه الشبه هو الرغبة في الإفساد والشر والإيذاء .

قال تعالى[4] ﴿شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا﴾ وقال[5] ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم﴾ .

ولفظ جن يطلق على كل مسـتتر غير ظاهر، ولذلك سـمي حمل المرأة جنيناً ومن ذهب عقله مجنونا .

والجن مخلوقات غير مرئية لهـا أن تتشكل في أي صورة جسمانية[6] والعقل لا يحيل سلوكهم في الإنس إذا كانت أجسامهم رقيقة بسيطة ولو كانوا كثافاً لصح ذلك أيضا منهم، كما يصح دخول الطعـام والشراب في الفراغ من الجسم، وكذلك الديدان قد تكون في الإنسان وهي أحياء .

حقيقة وجود الجن :

والإقرار بالجن عـام في بني آدم وليس في الأمم أمة تنكر ذلك إنكاراً عـاما وإنما يوجد إنكار ذلك في بعـضهم مثل من قـد يتفلسف فينـكرهم لعدم العلم لا للعلم بالعدم فوجودهم متواتر.

وأنكر معظم المعـتزلة الجن[7] وليس في إثباتهم مـستحيل عـقلي، وقد دلت

---

(١) انظر ابن كثير :تفسير القرآن العظيم جـ٤ ص ٥٧٥ .

(٢) الكهف : ٥٠ . (٣) انظر ابن كثير :تفسير القرآن العظيم جـ ٣ ص ٨٩ .

(٤) الأنعام : ١١٢ . (٥) البقرة : ١٤ .

(٦) انظر الشبلى:غرائب وعجائب الجن ص٢٨ :٣٦ وانظر السيوطى : لقط المرجان فى أحكام الجان ص٢٢.

(٧) انظر القرطبى: الجامع لأحكام القرآن جـ ١ ص ٤٤٠ .

نصوص القرآن والسنة على إثباتهم وسورة الجن تقضي بذلك [1] .

وأنكرت الفلاسفة وجود الجن لأنها إن كانت أجساماً لطيفة فيلزم أن لا تقدر على الأفعال الشاقة، وتتلاشى بأدنى قوة، وإن لم تكن لطيفة وجب أن ترى لأنا لوجوزنا أجساما كثيفة لا نراها لجاز أن يكون بحضرتنا جبال وبلاد لا نراها وبوقات وطبول لا نسمعها وهو سفسطة [2] .

وجواب ذلك :أنه بعد أن عرف الإنسان الكهرباء - ولم يرها - ورأى بنفسه آثارها لا يمكنه أن ينكر كل ما لم تره عينه أو يشترط الكثافة للقوة ومن منا رأى الروح الحيواني وبالرغم من ذلك لا ينكره عاقل، ومثل الطاقة الكهربية الجاذبية الأرضية، والطاقة الذرية والنووية، وإذا كانت المادة قد تتحول إلى طاقة والعكس مقبول ولكن المادة كثيفة وترى والطاقة لطيفة ولا ترى فكذلك الحال في الجن يتحولون من صورة إلى أخرى مرئية وغير مرئية وعدم رؤيتهم لا يطعن في وجودهم .

وقد توصل العلم الحديث إلى كشف عالم غير مرئي تسكنه مخلوقات غير مرئية، تتكون من مادة ذات حرارة رهيبة لم يمكن بعد معرفة درجة حرارتها، وهذه المخلوقات غير المرئية لعلها هي ما وصفها القرآن الكريم في قوله **﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾**[3] وغيرها من الآيات[4] .

والعلم الحديث قد أثبت كذلك أن العالم لا يحتوى على ثلاثة أبعاد فقط هي الطول والعرض والارتفاع ولا حتى على أربعة أبعاد بإضافة الزمن كما يقول أينشتاين ولا على خمسة أبعاد كما يقول مكسويل بل أثبت أن العالم يحتوي على أبعاد أخرى أكثر من ذلك ولكنها غير منظورة وهذه الأبعاد وإن اختلف العلماء في

---

(١) أما تفسير د. محمد البهى لسورة الجن فى كتابه تفسير سورة الجن، وإنكاره لوجود الجن فيكفى أن يقرأه أى إنسان وإن لم يكن متخصصا ليعلم بطلانه وتكلفه .

(٢) انظر الإيجى: المواقف ص ٢٦٥ . و الرازى : المحصل ص ١٤٢ و ابن سينا : الإشارات والتنبيهات جـ٣ ص ٤٣٥، ٤٣٩ .

(٣) الحجر : ٢٧ .

(٤) انظر عبد الرازق نوفل : عالم الجن والملائكة ص ١٣ ـ ١٦ .

تحديد عددها حتى إن الحاسبات الآلية العملاقة قد أوصلتها إلى ستة عشر بعداً إلا أن العلماء قد اتفقوا على وجودها وعلى أن وجودها ضرورة حسابية لا تصح المعادلات إلا بافتراضه، وهذه الأبعاد غير المنظورة إن شغلتها أي كائنات تصبح غير مدركة لنا لأنها في أبعاد غير مدركة بحواسنا(١) .

وهكذا يدخل العلم الحديث مسألة وجود الجن والكائنات غير المنظورة إلى حيز الممكن الوجود إن لم يكن إلى حيز الموجود فعلا .

حقيقة إمكان تسخير الجان في معرفة الغيب :

«واختلفوا في الجن: هل يخبرون الناس بشىء أو يخدمونهم؟على مقالتين:

- فقال«النظام»وأكثر المعتزلة وأصحاب الكلام: لا يجوز ذلك، لأن في ذلك فساد دلائل الأنبياء، لأن من دلالتهم أن ينبئوا بما نأكل وندخر .

- وقال قائلون: جائز أن يخدم الجن الناس، وأن يخبرونهم مالا يعلمون»(٢) وهو الصواب ويشهد لذلك قوله تعالى﴿**هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون**﴾(٣) .

وحديث البخاري وغيره«إن النبي - ﷺ - قال: إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضى في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة من عنده أنفسهم»(٤) وهذا غيب المستقبل .

وأما قوله تعالى﴿**فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين**﴾(٥) .

فهذا رغم أنه غيب حاضر إلا أن الجن لم تعلمه لأنهم كانوا في قيد سليمان عليه السلام بحكم الملك والنبوة، فتقيدت حركتهم، ولا خلاف أن الجن قد تعلم غيب الحاضر بل بعض غيب المستقبل كما سبق بيانه، وإنما كان النفي هنا لمعرفتهم

---

(١) عن د. مصطفى محمود:برنامج العلم والإيمان.حلقة مزاعة من التلفزيون المصرى بتاريخ ١٩٩٣/٦/٢١ (١٠) مساء .

(٢) الأشعرى : مقالات الإسلاميين جـ ٢ ص ١٢٤ .   (٣) الشعراء : ٢٢١:٢٢٣ .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه فى كتاب بدء الخلق جـ ٤ ص١٣٥ .   (٥) سبإ : ١٤ .

غيب الحاضر حالة خاصة، وهي وقوعهم تحت حكم سليمان .

وما تؤكد عليه الآية أن الجن خلق من خلق الله يخضعون كسائر الخلق لقانون الأسباب والمسببات، ولا يعلمون من الغيب سواء الماضي أو الحاضر أو المستقبل إلا ما يأخذون بأسبابه، فإذا منعوا السبب منعوا النتيجة .

ومن أهداف ذكر ذلك دحض دعاوى المشركين فيهم ومبالغتهم .

حقيقة انقطاع الكهانة :

وقد زعم بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدي البعثة، وأن ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع في القرآن والكهان إنما يتعرفون أخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ .

ـ ولا يقوم لذلك دليل لأن:

«علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضاً»[(١)] .

ثم إن قوله تعالى: ﴿**وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا**﴾[(٢)]. يحتمل أن المنع إنما كان مما يتعلق بخبر البعثة فقط لئلا يسرقون شيئا من القرآن فيلقوه على ألسنة الكهنة، فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق ثم إن قول الجن(فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا)يعنى أنهم لا يعرفون المستقبل الآن، فلا يمكنهم الحكم عليه سواء بأن وضع السماء سيظل هكذا، وأنهم سيمنعون أبدا من خبر السماء أو بأن الوضع سيتغير وسيمكنهم استراق السمع فيما بعد .

ومن ثم فلا دلالة هنا لاعلى المنع ولاعلى الإمكان ويبقى الحكم هنا للواقع والتجربة. .

ثم إن قوله تعالى في الآية السابقة لهذه الآية ﴿**وأنا لمسنا السماء فوجدناها**

(١) ابن خلدون:المقدمة ص ١٠١ ـ ١٠٢ وانظر شروط المعجزة ـ اشتراط ألا تكون من الصناعات الكتسبة بالتعلم (الشرط ٣) .

(٢) الجن : ٩ .

ملئت حرسا شديدا وشهبا﴾[1] وقوله تعالى ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين﴾[2] وقوله﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا﴾[3] .

يدل على أن الشهب كان يرمى بها قبل ذلك ولكن ليس بمثل هذه الشدة بل في الأحيان بعد الأحيان كما في حديث العباس، قال أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله رمي بنجم فاستنار. فقال لهم رسول الله ﷺ ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا قالوا الله ورسوله أعلم كنا نقول ولد الليلة رجل عظيم ومات رجل عظيم فقال رسول الله ﷺ فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا. . . فيستخبر بعض أهل السماوات بعضا حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا فتخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم ويرمون به. فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون»[4] .

ولكن الفرق بين فترة البعثة وغيرها هو في كثرة الحرس وأن من يحاول الاستماع يجد له شهابا رصداً لا يتخطاه ولا يتعداه.

هـ- حقيقة وجود الشعوذة أو الشعبذة :

قد قلنا فيما سبق إن الشعبذة أو الشعوذة هي: الاحتيال وإراءة الشيء على غير حقيقته اعتمادا على خداع الحواس [5] .

وكما يعرفها ابن خلدون فهي تأثير في القوى المتخيلة يري به صاحب هذا التأثير غيره ما لا وجود له في الحقيقة [6] .

ويجب أن نلاحظ هنا أن الشعوذة شيء وخفة اليد والحيل والخداع شيء آخر، وهو ما اصطلحنا على تسميته بالسحر المجازي .

---

(١) الجن : ٨ .　　(٢) الملك : ٥ .　　(٣) فصلت : ١٢ .

(٤) رواه مسلم في صحيحه في كتاب السلام في باب تحريم الكهانة جـ ١٤ ص ٢٢٥ :٢٢٦ وأحمد جـ ١ ص ٢١٨ .

(٥) عبد السلام هارون وآخرون :المعجم الوسيط جـ ١ ص ٥٠٣ (بتصرف) .

(٦) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٩٨ (بتصرف) .

ولعل قوله تعالى ﴿فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾[1] يشير إلى هذا النوع من السحر، لأن السحر ليس فيه إحالة طبع ولا قلب عين.

فما حدث هو إما حيلة من الحيل (السحر المجازي) كوضع زئبق فى العصي فيولد فيها مثل تلك الحركات، أو هو تأثير في القوى المتخيلة يري به صاحب هذا التأثير غيره ما لا وجود له في الحقيقة.

٤ ـ تأثير السحر والفرق بينه وبين المعجزة

أ ـ قدرة السحر على التنبؤ بالغيب:

مما سبق يتبين لنا أن للسحر القدرة على المعرفة الغيبية ونتحدث الآن عن طبيعة هذه المعرفة الغيبية، والفرق بينها وبين المعجزة.

فقد نشرت مجلة National Inquire الأمريكية): «أن ضمن ٣٦٤ تنبؤاً تم رصده من قبل المجلة لم يقارب الحقيقة سوى أربعة تنبؤات فقط، وهذا احتمال ضئيل جداً صادف أن حصل، ولا يمكن تثبيته كمنهج علمي أو اعتماده كأسلوب للتعامل» [2].

وكأن قوله ﷺ في الحديث: «إن الملائكة تنزل في العنان ـ وهو السحاب ـ فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»[3] ليس المراد من المائة كذبة الكناية عن الكثرة، ولكن إعطاء نسبة تكاد تكون حقيقية في كثير من الأحيان.

وإذا أردنا أن نتعرف على سبب الخطأ ومن أين يأتي ؟

بالإضافة إلى ما سبق بيانه فى الحديث من كذب الشياطين

فيرى ابن خلدون: أن سبب الخطأ هو الاستعانة بالأمور الأجنبية عن الذات المدركة والمباينة لها والغير ملائمة كالأجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام وما سنح من طير أو حيوان أو غير ذلك.

---

(١) طه: ٦٦.

(٢) مجدى الشهاوى: قراءة النجوم ص ٦٤.

(٣) البخارى: فى صحيحه عن عائشة جـ ٤ ص ١٣٥.

لأنه لما استعان بها كانت داخلة في إدراكة والتبست بالإدراك الذي توجه إليه فصار مختلطا بها وطرقه الكذب من هذه الجهة [1] .

ففي قراءة الفنجان مثلا كما يزعمون نجد أن للرمز الواحد أكثر من معنى وبعضها قد يكون متناقضا ثم إن بعض هذه الرموز قد تكون غير واضحة وقد تشتبه على القارئ كوجه القط ووجه النمر مثلا، ومن ثم تعتمد القراءة هنا على مهارة القارئ وقدرته على المواءمة بين ما يراه من أشكال حتى يخرج النسق واحدا[2] ومن ثم يعرض الخطأ .

هذا بالإضافة إلى أن المعرفة قد تكون ناقصة. وقد يغري ذلك القارئ فيزيد من عند نفسه، كما يقول ابن خلدون: [3]

«وربما يفزع إلى الظنون والتخمينات حرصا على الظفر بالإدراك بزعمه وتمويها على السائلين».

فمثلا يزعم أرباب قراءة الفنجان أنه «إذا ظهر حرف قرب رمز البجعة، فيمكن أن يكون دلالة على اسم الحبيب»[4] .

«وإذا ظهر حرف بجوار رمز الثعبان فهو دليل على اسم العدو»[5] .

ومن ثم فقد يزيد القارئ ويذكر الاسم كاملا اعتمادا على شهرة اسم معين في ذلك المجتمع أو اعتمادا على معرفة القارئ بصاحب الفنجان وأقاربه، وأصدقائه وأعدائه فتكون المعرفة هنا مبنية على التخمين الذي قد يصدق أو يكذب .

«والتنجيم مبناه على أن الحركات العلوية هي السبب في الحوادث والعلم بالسبب يوجب العلم بالمسبب وهذا إنما يكون إذا علم السبب التام الذي لا يتخلف عنه حكمه، وهؤلاء أكثر ما يعلمون ـ إن علموا ـ جزءاً يسيراً من جملة الأسباب الكثيرة ولا يعلمون بقية الأسباب ولا الشروط ولا الموانع»[6] .

---

(١) انظر ابن خلدون : المقدمة ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

(٢) انظر أحمد حسين الشاعر : أسرار الفنجان ص ٢٠، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٣٥ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ١٠٠ .

(٤) أحمد حسين الشاعر : أسرار الفنجان ص ٤٣ .

(٥) السابق ص ٤٨ .

(٦) مجدى الشهاوى : قراءة النجوم ص ١٠٧ .

ويعقد الرازي في كتابه النبوات فصلا عن بيان أن الوقوف على أصول هذا العلم عسر المنال[1] ويقسمه إلى ثلاثة أصول:

- الأصل الأول :أنه يعسر علينا معرفة جميع النيرات
- الأصل الثاني :أنه يعسر الوقوف على معرفة مواضعها من الفلك
- الأصل الثالث :أن الوقوف على طبيعة كل كوكب بحسب تأثيره صعب عسير.

ويؤكد ذلك الغموض والتشويش في مثل هذه العلوم اختلافات العلماء الكثيرة في أصولها والتي قد تصل أحيانا إلى حد التناقض.

هذا بالإضافة إلى أنه **﴿يمحوا الله ما يشاء ويثبت و عنده أم الكتاب﴾**[2] قال عكرمة عن ابن عباس: الكتاب كتابان فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وروى ابن جرير أن كعبا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوك القيامة، قال وما هى؟ قال قول الله تعالى **﴿يمحوا الله ما يشاء﴾** الآية [3] .

ويؤكد صعوبة تلك المعرفة الغيبية قوله ﷺ «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ولا يرد القدر الا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر»[4] .

إلا أننا من آن إلى آخر نسمع عن عرافين كما يدعي بعض الجهلاء : لا يكادون يخطئون تنبؤاً.

فقد نشرت جريدة المقطم المصرية عن عرافة تدعى(مدام ترفران ليلى) أنباء قالتها للوزراء والملوك والرؤساء في أوربا ثم وقعت كما أنبأت [5] .

---

(١) الرازى : النبوات ص ٢١١ :٢١٦. (٢) الرعد : ٣٩ .

(٣) انظر ابن كثير :تفسير القرآن العظيم جـ٢ ص ٥١٩ : ٥٢٠ .

(٤) رواه أحمد فى مسنده والنسائى فى سننه وابن ماجة فى سننه وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى المستدرك وحسنه السيوطى فى الجامع الصغير .

(٥) انظر جريدة المقطم المصرية عدد غرة صفر ١٣٥٤هـ مايو سنة ١٩٣٥ وانظر كذلك محمد رشيد رضا : الوحى المحمدى هامش ص ١٣٧ .

ونشرت جريدة الأهرام المصرية كذلك أن الطبيب والفلكي الإيطالي الشهير نوستراداموس الذي عاش في القرن السادس عشر تنبأ بسقوط ميخائيل جوربا تشوف من قمة السلطة السوفيتية خلال [صيف ١٩٩١] وقالت وكالة الأنباء الإيطالية إن الكاتب الإيطالي«ريناتشيوبوسكولو»أبلغ مؤتمراً صحفياً في شهر إبريل من نفس العام بأن نوستراداموس توصل إلي هذه النبوءة ما بين عامي ١٥٥٥،١٥٥٨ ميلادية وأوضح الكاتب في ذلك المؤتمر الصحفي أن تفسيره لنبوءة نوستراداموس يقرر أن جوربا تشوف ستتم إزاحته عن السلطة ما بين شهري مايو وأغسطس من عام ١٩٩١ وبعد ٧٣ عاما من انتهاء الحرب العالمية الأولى(١) .

وللكاتب الصحفي«أنيس منصور»في عموده مواقف في جريدة الأهرام المصرية أثناء حرب الخليج عدة مقالات عن نوستراداموس وكتابه القرون والذي ترجم في هذه الفترة إلى اللغة العربية باسم تنبؤات نوستراداموس» .

وإذا أردنا أن نتعرف على سر هذه الشهره العالمية لنوستراداموس وغيره من المتنبئين،والتي تدعي لهم الإصابة التي لا تخطئ .

فسنجد من أسباب ذلك:

١ ـ الدعاية السياسية،وخاصة في أوقات الحروب،والتي كثيراً ما زورت تلك التنبؤات لصالحها (٢) .

يقول مترجم«تنبؤات نوستراداموس»(٣): لقد كان نوستراداموس بالذات ضحية التزوير على مر القرون. . واستخدم نوستراداموس على أنه ماكينة دعاية» .

٢ ـ «طرافة ذلك منهم،لأنهم لو قالوا فأخطئوا أبداً لما كان عجبا لأنه ليس بعجب أن يكون الناس لا يعلمون ما يكون قبل أن يكون ومن أعجب العجب أن يوافق قولهم بعض ما يكون . . .

---

(١) انظر جريدة الأهرام المصرية بتاريخ ٢١ / ٨ / ١٩٩١ م .

(٢) فمن الملاحظات الجديرة بالاعتبار أن مترجم تنبؤات نوستراداموس إلى العربية مجهول .
وأن الترجمة العربية التى بأيدينا طبعة عام ١٩٩١م أى أنها طبعت فى غضون حرب الخليج واشتعال الصراعات الإقليمية فى العالم وسقوط الشوعية، وتفكك روسيا وغيرها من التكتلات السياسية الكبرى .

(٣) تنبؤات نوستراداموس ص ١٤ ، من المقدمة .

٣ ـ والمنجم عند العوام كالطبيب الذي إن قتل المريض علاجه كان عندهم أن القضـاء هو الذي قتله، وإن برأ كـان هو أبرأه. على أن صواب [الأطبـاء] ودليلهم أظهر .

٤ ـ وقد صار الناس لا يقتصرون للمنجمين على قدر ما يسمعون منهم دون أن يولدوا لهم ويضعوا الأعاجيب على ألسنتهم»[١] .

ونتحـدث الآن عن الفرق بين معـجزة الأنبيـاء في معرفة الغـيب ومعرفـته لغيرهم من المتنبئين والكهان :

١ ـ فنقول: إن مـا يخبـر به الكهان من الغـيب هو مما يعلم بالمنامات، وغـير المنامات، فهو من جنس المعتاد للناس وما يخبر به الأنبياء خارج عن المعتاد.

فخطأ الكهان كثير، وصوابهم قليل، بل أقل من القليل فنجد الكهان يختلفون في القضـية الواحدة، ويـخطئون في أكثـرها، ونجد الرسول يخـبرهم عـما يأكلون ويشـربون، ويدخـرون، ويضـمـرون، في الأمور الكـثيـرة المعـاني، والمخـتلفـة في الوجوه، حتى لا يخطئ في شيء من ذلك.

ولذلك قال تعالى مفرقا بين النبي الصادق والمدعي الكاذب﴿**هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون**﴾[٢] .

وفي الحديث«إن الملائكة تنزل في العنان ـ وهو السحاب ـ فتذكر الأمر قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»[٣] .

وعن عائشة«قالت سأل أناس رسول الله ﷺ عن الكهان فقال لهم رسول الله ﷺ ليسـوا بشيء قالوا يا رسول الله فإنهم يحـدثون أحيانا الشيء يكون حـقا قال رسـول الله ﷺ تلك الكلمـة من الحق يخطفـها الجني فـيقرهـا فى أذن وليه قـر الدجاجة فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة» [٤] .

---

(١) الجاحظ : حجج النبوة ضمن مجموعة الرسائل جـ ٣ ص ٢٦١:٢٦٣ .

(٢) الشعراء : ٢٢١:٢٢٣ .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه عن عائشة جـ ٤ ص ١٣٥ .

(٤) رواه مسلم فى صحيحه جـ ١٤ ص ٢٢٥.

وهذا ما اعترف به ابن صياد كاشفا عن حاله عندما سأله النبي ﷺ «ماذا ترى قال ابن صياد يأتيني صادق وكاذب» [١] .

واعترف به المحدثون، فقد اعتادت كثير من الصحف والمجلات ومنها جريدة الأهرام المصرية نشر بيان من رئاسة الاتحاد العالمي للفلكيين الروحانيين - قرب حلول العام الميلادي الجديد تعلن فيه الرئاسة عن ثلاث جوائز تقديرية لهؤلاء الذين تكون نسبة تنبؤاتهم على درجة كبيرة من الدقة والصدق .

٢ - وليس الفارق بين أخبار الأنبياء بالغيب وأخبار الكهان هو من حيث الصدق والكذب فقط بل يمكن التفرقة بين كلام هذا وكلام هذا وحتى قبل أن يصدق الواقع النبوءة أو يكذبها.

فكلام الكهان يتميز بالغموض والتعميم واحتمال المعاني الكثيرة والتفسيرات المتعددة، بل والمتناقضة حتى يمكنهم المراوغة ولا يتبين كذبهم .

مثل قول نوستراداموس: «من خلال شق في البطن، سيولد مخلوق برأسين وأربعة أذرع وسيعيش بضع سنين، وفي اليوم الذي تحتفل فيه الكويلوا بأعياده سيتبعها في ذلك كل من فوسانا وتورين وحاكم فيرارا [يقول شارح التنبؤات]: إنها رباعية معقدة تتناول كلا من نابليون وآل بوربون. يستحيل تفسير البيت الأول تفسيراً حرفيا بأنه وصف لعملية ولادة قيصرية إلا أنه يشير - وهذا الأكثر احتمالا إلى لويس السادس عشر على أنه البطن وتعد هذه إحدى الرباعيات التى قلب فيها نوستراداموس السياق الزمني»[٢] .

فنلاحظ هنا مدى الغموض والتعقيد واحتمال التفسيرات المتعددة المتكلفة، والتي لا تخلوا من الخطأ كقلب السياق الزمني كما يقول الشارح.

وفي رباعية أخرى يقول: «سيندم الملك بعد فوات الأوان على أنه لم يعدم خصمه، ولكن سرعان ما سيوافق على أشياء أعظم، ستؤدي إلى انقراض سلسلة نسبه بكاملها .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه جـ ٢ ص ١١٧ .

(٢) نوستراداموس : التنبؤات ص ٥٣ وكل من الكويلوا وفوسانا وتورين . اسماء مدن .

[ويعلق الشارح على ذلك بقـوله]: «يبدو أن هذه الرباعيـة تتناسب وحدثين تاريخيين بدرجة متساوية من الانطباق. . . »[1] وأنا أقول إنها تتناسب مع عشرات الأحداث التاريخية بدرجة متسـاوية أما النبى حين يذكر حادثه، أو شيئا لم يحدث ويحدد أنه سوف يحدث في المستقـبل فإنه يحدد ملامح الحدث كاملة وربما يتطرق إلى التفاصـيل تطرق المشاهد، ويحدد الألفاظ تحديد المخبـر عن عيان، والراوي عن شهود وإحساس وإدراك .

وهذا النوع من الأخـبار فـيه شيء مـن المجازفـة لأنه لا يستـخدم ألفـاظا عامـة، أو عبارت غـامضة الفـهم، أو بعيدة عن الإدراك، أو حـمالة للوقوع، وغـير الوقوع، فلو أن هذا الحدث المحدد لم يحدث فعلا فإن النبي الذي أخبر به لا يملك أن يعتذر عنه أو يأوله بأي طريقة ممكنة .

فحين يخبـر النبي عن غيب بهذه الدقة يكون قد أخبـر عن شيء فوق طاقة الإنس والجن مادام هذا الذي قد أخبر به لا يخضع لقانون علمي، أو نظرية مفهومة الأسباب والنتائج .

كقوله تعالى: ﴿**الم.غلبت الروم.في أدنى الأرض وهم مـن بعـد غلبـهم سيغلبون. في بضع سنين**﴾[2] وقوله﴿**والله يعصمك من الناس**﴾[3] .

وكقـوله عليه الصلاة والسـلام: «تخرج نار من حضـرموت أو بحضـرموت فتسـوق الناس قلنا يا رسول الله ما تأمرنا قـال عليكم بالشام»[4] . وكتحديده ﷺ مصارع المشركين في بدر قبل المعركة[5] وغير ذلك كثير[6] .

٣ ـ وكمـا يفتـرق كلام الكـهان عن كلام الأنـبياء بـكثرة كـذبة وغمـوضه وعموميته يفترق كذلك «بنقصه» .

وقد سـبق أن ذكرنا أن معرفـة اسم المحب أو العدو من قراءة الفنجان كـما يزعمون مقتصرة على معرفة الحرف الأول من اسمه فقط [7] .

---

(١) السابق ص ٤٢ .   (٢) الروم : ١:٤ .   (٣) المائدة : ٦٧ .

(٤) رواه أحمد فى المسند جـ٢ ص٨ ،جـ٤ ص٦ ،٧ وأبو داود فى سننه فى الباب(١٢) من كتاب الملاحم، والترمذي فى سننه فى الباب (٤٢) من كتاب الفتن .   (٥) رواه مسلم فى صحيحه جـ٢ ص٨٤ طـ الحلبى .

(٦) انظر:أحمد عبده حسين عبد الموجود:معجزات خاتم النبيين فى ضوء القرآن والسنة(رسالة ماجستير) وانظر كذلك:محمد ولى الله عبد الرحمن:إزالة اللثام عما تنبأ به سيد الأنام ﷺ(رسالة ماجستير) .

(٧) انظر أحمد حسين الشاعر : قراءة الفنجان ص ٤٣ : ٤٨ .

ولما أراد الرسول ﷺ أن يمتحن ابن صياد ليعلم حقيقة حاله ويظهر إبطال حاله للصحابة امتحنه بإضمار قول الله تعالى ﴿**فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين**﴾ [(١)] وقال«إني قد خبأت لك خبيئا فقال ابن صياد هو الدخ[أي الدخان، وهي لغة فيه]فقال له [النبي ﷺ] اخسأ فلن تعدو قدرك»[(٢)] أي لا تجاوز قدرك وقدر أمثالك من الكهان الذين يحفظون من إلقاء الشيطان كلمة واحدة من جملة كثيرة، بخلاف الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فإنهم يوحى الله تعالى إليهم من علم الغيب ما يوحي فيكون واضحا كاملا .

٤ ـ ويفرق أيضا بين إخبار النبي بالغيب وإخبار الكاهن بثقة النبي بخبره وعدم ثقة الكاهن بذلك .

ففي قراءة الفنجان مثلا يزعم أهل القراءة أنه لو ظهر«وجه اشتبه على القارئ فوجده يمكن أن يكون وجه أسد أو وجه قط، هنا يختار التفسير الذي يراه أقرب إلى الحالة التي هو بصددها، ومن ثم فإن القارئ لابد أن يتمتع بحكمة التمييز بين الأشياء، وبالقدرة على المواءمة بين ما يراه من أشكال حتى يخرج النسق واحدا . وقد يضطره الأمر ليرجح بين رمز وآخر إذا كان الشكل مبهما إلى الدوران في الفنجان كله بحثا عن دلالات هنا وهناك، تؤكد هذا الرمز أو ذاك حتى يستطيع أن يركن إلى اختيار معين، فإذا لم يجد فإنه يصبح في حل من إسقاط هذا الرمز المشتبه فيه من الحساب» [(٣)] .

ـ وهذا اعتراف صريح من أهل القراءة بنقصان معرفتهم وعدم الوثوق التام بها .

ويؤكد ذلك أيضا أن الأسود العنسي بالرغم من أنه كما يروى كان له شيطانان يبلغانه بأمور الناس ـ كما قال الإمام الحافظ بن حجر العسقلاني في فتح الباري :

«روى يعقوب بن سفيان، والبيهقي في دلائل النبوة من طريقه من حديث

---

(١) الدخان : ١٠ .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه جـ٢ ص١١٧ .كتاب الجمعة باب الجنائز وكذلك مسلم فى صحيحه فى باب ذكر ابن صياد من كتاب الفتن جـ١٨ ص ٤٨ .

(٣) أحمد حسين الشاعر : أسرار الفنجان ص ٢٤ : ٢٥ .

النعمان بن بُزْرج قال: خرج الأسود الكذاب وهو من بني عنس، وكان له شيطانان يقال لأحدهما «سحيق» وللآخر «شقيق» وكانا يخبرانه بكل شيء يحدث من أمور الناس» [1] .

إلا أنهما لم يستطيعا تبليغه بكل ما يحدث من مؤامرات على قتله، ومن ثم فإني اعترض على عبارة (وكانا يخبرانه بكل شيء يحدث من أمور الناس) في النص السابق .

- بدليل عدم إخباره عن اشتراك إمرأته في مؤامرة قتله وعدم شكه فيها.

- وبالرغم من إخبار الشياطين له عن تآمر قيس بن مكشوح وفيروز الديلمي وغيرهما، وبالرغم من شكه فيهما إلا أنه لم يقتلهما واستطاعا أن يخدعاه بكلامهما وما ذلك إلا لعدم ثقته بوحي شيطانه [2] .

٥ - ويضيف ابن تيمية فرقا آخر في قوله: «والإخبار ببعض الأمور الغائبة مع الكذب في بعض الأخبار فهذا تفعله الجن كثيرا مع الكهان. وهو معتاد لهم مقدور بخلاف إخبارهم بما يأكلون وما يدخرون مع تسمية الله على ذلك، فهذا لا تظهر عليه الشياطين، وبنو إسرائيل كانوا مسلمين يسمون الله» [3] .

وكلام ابن تيمية هنا إن كان يعنى أن تسمية الله تحول دون الكهان ومعرفة الغيب فهو باطل لأن ابن صياد عندما امتحنه الرسول، عرف غيب الحاضر، وإن كانت معرفته به ناقصة، والرسول والمسلمون مثل بني إسرائيل يسمون .

وإنما كان الفرق بين إنباء عيسى عليه السلام. وغيره من الأنبياء بالغيب وبين أخبار الكهان أن أخبار الكهان بها من الكذب والغموض والإجمال والنقص، وعدم الثقة بالخبر مالا يوجد في أخبارالأنبياء .

وأما قول ابن خلدون «إن السحر لا يثبت مع اسم الله وذكره» [4] واستدلاله

---

(١) ابن حجر العسقلاني : فتح البارى جـ ٩ ص ١٥٦ .

(٢) انظر ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٦ ص ٣١١ : ٣١٤ .

(٣) ابن تيمية : النبوات ص ٧:٥ .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٠٢ .

على ذلك بأنه «لما أنزل على النبي ﷺ في المعوذتين ﴿**ومن شر النفاثات في العقد**﴾[1] . قالت عائشة رضي الله عنها فكان لا يقرأها على عقدة من العقد التي سحر فيها إلا انحلت» .

فاستدلاله باطل لأنه ـ ﷺ ـ لم يترك ذكر الله تعالى أبداً، وبالرغم من ذلك سحر، وأثر السحر فيه[2] ولم يمنع ذكره الدائم لله من تأثير السحر فيه، وإنما بطل السحر لما أخرجه ﷺ من البئر وأبطله وقرأ عليه المعوذتين .

فإبطال السحر كان بإخراجه، وإبطاله وقراءة المعوذتين عليه لا بمجرد ذكر الله تعالى .

وكذلك استدلاله بما نقله المؤرخون من أن «راية كسرى كان فيها الوفق المئيني العددي منسوجا بالذهب في أوضاع فلكية رصدت لذلك الوفق ووجدت الراية يوم قتل رستم بالقادسية واقعة على الأرض بعد انهزام أهل فارس وشتاتهم، وهو فيما يزعم أهل الطلسمات والأوفاق مخصوص بالغلب في الحروب، وأن الراية التي يكون فيها أو معها لا تنهزم أصلا إلا أن هذه عارضها المدد الإآهى من إيمان أصحاب رسول الله ﷺ وتمسكهم بكلمة الله فانحل معها كل عقد سحري، ولم يثبت »[3] .

وليس ذلك بدليل مقنع بدليل هزيمة الفرس من قبل على أيدى الروم وغير المسلمين بالرغم من وجود هذه الراية معهم .

٦ ـ ويفرق أيضا بين أخبار النبي وأخبار الكاهن . قول ابن خلدون عن الكهان : «لكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان إدراكها في الجزئيات أكثر من الكليات، ولا يقوى الكاهن على الكمال في إدراك المعقولات لأن وحيه من وحي الشيطان»[4] .

---

(١) الفلق : ٤ .

(٢) انظر ملحق رقم (٢) .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٠٢ .

(٤) السابق : ص ١٠٠ .

ب ـ حقيقة قدرة السحر على قلب الأعيان والأجناس :

ونعني بقلب الأعيان هنا : الأمور التي ليست في مقدور البشر أما قلب المواد كما هو معلوم لدى المشتغلين بصناعة الكيمياء ونحوها فذلك أمر وارد لأن الله تعالى سخر كل ما في الكون لخدمة الإنسان وهداه إليه وأمره بالتفاعل معه .

واختلف في السحر، هل يستطيع الساحر بسحره أن يقلب الأعيان أم لا ؟

فقالت إخوان الصفا [1] «ومن السحر قلب الأعيان وخرق العادات» .

وقال القرطبي : [2] «ومن السحر ما يكون كفرا من فاعله مثل ما يدعون من تغيير صور الناس، وإخراجهم في هيئة بهيمة، وقطع مسافة شهر في ليلة، والطيران في الهواء فكل من فعل هذا ليوهم الناس أنه محق فذلك كفر منه» .

وفي الكتاب المقدس : «طرح هارون عصاه أمام فرعون وأمام العبيد فصارت ثعبانا، فدعا فرعون أيضا الحكماء والسحرة ففعل عرافو مصر أيضا بسحرهم كذلك، طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصي ثعابين، ولكن عصا هارون ابتلعت عصيهم»(٣) .

ففي التوارة كما يتبين لنا من النص السابق أن هارون هو الذي ألقى العصا، وأن عصي سحرة فرعون قلبت إلى ثعابين حقيقية إلا أن الفارق بين سحرهم، والمعجزة أن عصا هارون ابتلعت عصي السحرة .

وفي الكتاب المقدس كذلك : «ثم قال الرب لموسى قل لهارون خذ عصاك، ومد يدك على مياه المصريين، على أنهارهم وعلى سواقيهم، وعلى آجامهم، وعلى كل مجتمعات مياههم لتصير دماء، فيكون دم في كل أرض مصر في الأخشاب وفي الأحجار ففعل هكذا موسى وهرون كما أمر الرب رفع العصا وضرب الماء الذي في النهر أمام عيني فرعون، وأمام عيون عبيده فتحول كل الماء الذي في النهر دما، ومات السمك الذي في النهر وأنتن، فلم يقدر المصريون أن يشربوا ماء من النهر، وكان الدم في كل أرض مصر . وفعل عرافوا مصر كذلك بسحرهم فاشتد

---

(١) إخوان الصفا : الرسائل جـ ٤ ص ٣١٣ .

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن جـ ١ ص ٤٣٥ .

(٣) سفر الخروج الأصحاح السابع آية ١٠ :١٢ .

قلب فرعون، فلم يسمع لهما كما تكلم الرب»[1] .

فالكتاب المقدس يثبت للسحر القدرة على قلب الأعيان كما يتبين مما سبق وهذا ما ينتقده ابن حزم قائلاً [2] «إن في نص الكلام الذي يزعمونه التوراة: « . . . وصار الماء في جميع أرض مصر دما ففعل مثل ذلك سحرة مصر برقاهم . . . » فأي ماء بقي حتى تقلبه السحرة دما كما فعل موسى وهارون؟ . . . فإن قالوا قلبوا ماء الآبار التي حفرها المصريون حول النهر قلنا لهم: كيف عاش الناس بلا ماء أصلا؟» .

ولو صح هذا لبطلت نبوة موسى عليه السلام، بل نبوة كل نبي ولو قدر السحرة على شيء من جنس ما يأتي به النبى لكان باب السحرة، وباب مدعي النبوة واحداً ولما كان لموسى عليه السلام عليهم بنبوته أكثر من أنه أعلم بذلك منهم فقط ولو كان الأمر كما قال هؤلاء لكان فرعون صادقا في قوله: ﴿**إنه لكبيركم الذي علمكم السحر**﴾ [3] .

ولو كان للسحرة القدرة على قلب الأعيان :

١ ـ لقلبوا الحجارة وغيرها ذهبا، ولصاروا أغنى الناس ولما عاشوا كما هو واقعهم المشاهد ـ غالبا ـ في ضيق من الحياة حفاة عراة متحايلين على الناس بالباطل لابتزاز أموالهم، ولما طلبوا من فرعون أول ما طلبوا الأجر﴿**أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين**﴾[4] .

٢ ـ ولدفعوا عن أنفسهم كيد فرعون وقد قال لهم﴿**لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف. ولأصلبنكم أجمعين**﴾[5] وكيد غيره، وقد عاشوا في أغلب الأمصار والأزمان مطاردين، وما مس أعداءهم منهم قلب ولا مسخ .

٣ ـ بل ولأصبحوا المتربعين على عروش الدنيا بأسرها لا ينازعهم في ذلك منازع .

---

(١) سفر الخروج الأصحاح السابع آية ١٩ :٢٢ .

(٢) ابن حزم : الفصل جـ ١ ص ٢٥٠ .

(٣) طه :٧١ .

(٤) الشعراء : ٤١ . (٥) الشعراء : ٤٩ .

٤ ـ ولردوا أنفسهم إلى الشباب، ولدفعوا عن أنفسهم المرض والموت .

وكل ذلك بالطبع مخالف للحقيقة الواقعة المشاهدة .

وأقصى ما قد يقال في هذا الباب عن قلب الأجناس أن الجن قد تخفي شيئاً، وتأتي بآخر، فيظن أن ذلك قلبا وما هو بالقلب[١] .

وبفرض أن ذلك هو ما حدث لعصي سحرة فرعون فقد ظهرت المعجزة بابتلاع حية موسى لجميع حيات السحرة .

وأما معجزة قلب الماء دما فإن استطاع الجني أن يخفي بعض الماء ويحضر بدلاً منه بعضا من الدم، فلا يستطيع أن يفعل الجن مثلما فعل موسى فيقلبوا كل ماء في مصر إلى دم. وإلا فأين يضعون كل هذا الماء. ومن أين لهم بكل هذا الدم؟

جـ ـ حقيقة قدرة السحر على قلب الطبائع :

يرى كثير من العلماء أن للسحر القدرة على قلب الطبائع فللساحر أن يطير في الهواء ويمشي على الماء ويتشكل بأشكال مختلفة في شكله وصورته، ويسترق جسمه[٢] كما روى سفيان عن عمار الذهبي أن ساحراً كان عند الوليد بن عقبة كان يدخل في إست الحمار، ويخرج من فيه فاشتمل له جندب على السيف فقتله، وقيل أن هذا هو جندب بن كعب الأزدى ويقال له الجبلي ـ وهو الذي يقال إن النبي ﷺ قال في حقه «يكون في أمتي رجل يقال له جندب يضرب ضربة بالسيف يفرق بين الحق والباطل»[٣] .

ويرى الرازي أن ذلك «في غاية البعد إلا إذا حمل ذلك على الاستعانة بالجن أو سائر الأرواح، وهو في غاية البعد»[٤] أيضا، فالطيران في الهواء والقفز من بلد إلى بلد أمر مستبعد وإن حدث فلعله بحمل الجني له وطيرانه به كما هو الشأن في عرش بلقيس حين عرض عفريت من الجن على سليمان عليه السلام نقله إليه أما

---

(١) انظر :حقيقة قدرة السحر على نقل الأشياء في الفصل الأول من الباب الثاني .

(٢) انظر ابن سينا: رسالة فى الفعل والانفعال ص ٦ . ، الجوينى:الإرشاد ص ٢٧٠ ، والقرطبي :الجامع لأحكام القرآن جـ ١ ص ٤٣٧ .

(٣) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن جـ١ ص٤٣٧ . (٤) الرازى : النبوات ص ٢٠٣ .

قولهم إن جسم الساحر يستدق حتى يتولج في الكوات والخوخات فهو في غاية البعد ولعله الجني يخفي صاحبه ويظهر في صورته ويفعل هو مثل هذه الأفعال، فللجن القدرة على التشكل في أي صورة شاءوا كما أكد على ذلك الرسول ﷺ في قوله«إن بالمدينة جنا قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئا[أى شيئا ظاهرا في صورة مرئية كصورة حيوان أو طير أو غير ذلك] فآذنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان[1] .

ونفس الشيء يمكن أن يقال عما يروى عن«د. الفرد رسل والاس الذي اكتشف مع تشارلز داروين نظرية التطور أو البقاء للأصلح من أنه سافر إلى المناطق الاستوائية، ورأى هناك ساحراً يمسك بالأرنب الأبيض وينفخ فيه فإذا هو أسود ثم ينفخ فيه مرة أخرى فإذا هو يرتد إلى لونه الأصلي وساحر القبيلة واقف عريان أمام الجميع، فليس في الإمكان أن يخفي شيئا فى ملابسه.. وتقدم والاس لأحد السحرة بعصا وطلب إليه أن يغير لونها.. وكان ذلك مستحيلا لأن العصا من المعدن وأمسكها ساحر القبيلة فجعلها في لون الفضة، ثم في لون الذهب.. ثم جعلها من زجاج.. كل ذلك في لحظات»[2] .

فالجن لها القدرة على أن تذهب بالأرنب الأبيض وتحضر الأسود دون أن يشعر بذلك أحد من البشر، وكذلك الأمر بالنسبة لعصا والاس[3] .

ويقرب هذه المسألة إلى أفهامنا العلم الحديث عندما يقرر أن المادة يمكنها أن تتحول إلى طاقة غير مرئية تنفذ عبر الإجسام الصلبة ثم تعود مرة أخرى لحالتها الأولى، ويشير د. رءوف عبيد إلى أنه «قد لوحظ في بعض المجلوبات الروحية أنها تجئ إلى غرف الجلسات ساخنة ثم تبرد تدريجياً[4] .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى جـ ١٤ ص ٢٣٥ .

(٢) أنيس منصور : القوى الخفية ص ١٩٨ ـ ١٩٩ .

(٣) انظر رءوف عبيد: مفصل الإنسان روح لا جسد جـ١ ص٩٦٧ ـ ٩٨٦ حيث يتحدث عن الانتقال بالجسد الفيزيقى ويذكر أن ذلك ممكن ومشاهد بكثرة عبر الجدران والسقوف والصناديق المغلقة فى جلسات تحضير الأرواح ويذكر أمثله على ذلك وتحقيقات كثيرة لا يعنينا هنا سردها لأنه حتى بفرض قبولها جدلا فلا يطعن ذلك فى المعجزة .

(٤) السابق جـ ١ ص ١٧٤ .

ومن ثم فلا يشتبه ذلك بفرض صحته مع معجزة موسى عليه السلام في اليد البيضاء لأن قدرة الجن على أخذ شيء وإخفـائه وإحضار غيره لا يمكن في مثل يد الإنسان إلا بقطعها .

ثم إن لون يد موسى عـليه السلام نفـسه معـجز ولا يمكن وجـود مثله لأي شيء سواء بقدرة الإنس أو الجن .

قال القرطبي: ﴿**تخرج بيضاء من غير سوء**﴾[1] أي«من غير برص نورا ساطعا يضئ بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر وأشد ضوءاً»[2] .

«قال ابن عباس: كان ليده نور ساطع يضئ ما بين السماء والأرض»[3] .

وكذلك المشي على الماء فهـو لغير الأنبياء ليس بخارق حقـيقي فلعله بمعونة الجن مثلا . أما ما كـان منه معجزة لنبي[4] أو كرامة لولي[5] فهو خارق حـقيقي لم يجعله الله تحت قدرة أحد من عامة خلقه .

وإنما يتبين الفـارق هنا بين ما كان معـجزة لنبي أو كرامة لولي وبـين ما كان بمعونة الجن أو بأي سـبب طبعى لمن علم ذلك كالجن أنفـسهم مثـلا وهم من أمة الدعوة فهم بالطبع يعرفون الفرق بين مـا يكون من فعلهم وما لا يكون وقد يجعل الله لبعض الإنس من الأسـباب ما يفـرق به بين المعجزة ومـا يكون بفعل الجن أو قوانين الطبيعة فدلالة المعجزة نسبية .

أما إذا كان المشى على الماء للنبي أو للولي بإعانة الجن المؤمن فلا يعتبر ذلك معجزاً للنبي أو كرامة للولي وإنما يعتبر ذلك معونة لهما من الله تعالى .

وأما ما يرويه أحد الكتاب المعاصـرين من أنه وجد في مدينة كولمبو في عام ١٩٥٩جماعة من الرهبان يمشون حفاة على النار وهي عبارة عن مساحة من الفحم

---

(١) طه : ٢٢ .

(٢) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن جـ ٥ ص٤٢٣١ .

(٣) السابق جـ ٣ ص ٢٦٩٣ .

(٤) وقد كان ذلك معجزة للمسيح عليه السلام،انظر إنجيل متى الأصحاح ١٤ آية ٢٦: ٣٢ .

(٥) كما جرى للعلاء بن الحضرمى،ولأبى مسلم الخولانى فى عبور الجيش انظر:ابن تيمية : النبوات ص ٢٦٠ ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٦ ص ١٦٣ .

الملتهب مساحتها أربعة أمتار وعمقها متران. ودرجة الحرارة تصل إلى ٥٠٠ مؤيه، دون أن يصيبهم أي شيء[١] .

فاحتمال الخديعة هنا قائم لأنهم هم الذين فعلوا ذلك بكامل رغبتهم، ولا يشتبه ذلك بمعجزة إبراهيم عليه السلام لأنه ألقي به في النار رغما عنه، ولم يذهب إليها بنفسه كهؤلاء .

ثم إن ناره ـ عليه السلام ـ ليست كنارهم، ومدة لبثه فيها ليست كمدة لبثهم.

يقول القرطبي:[٢]«وجاء في الخبر: أن نمرود بنى صرحاً طوله ثمانون ذراعاً، وعرضه أربعون ذراعا. قال ابن إسحق: وجمعوا الحطب شهراً ثم أوقدوها، واشتعلت واشتدت، حتى إن كان الطائر ليمر بجنباتها فيحترق من شدة وهجها، ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه في المنجنيق مغلولا» .

«وقال كعب وقتادة: لم تحرق النار من إبراهيم إلا وثاقه. فأقام في النار سبعة أيام لم يقدر أحد أن يقرب من النار» [٣] .

ويؤكد ابن حزم على أن السحر ليس فيه قلب للأعيان ولا إحالة للطبائع، ويستشهد على ذلك بقوله تعالى: **﴿وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته﴾**[٤] وبقوله: **﴿وعلم آدم الاسماء كلها﴾**[٥] وبقوله**﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾**[٦] فكل ما في العالم قد رتبه الله عز وجل الرتب التي لا تتبدل، وأوقع كل اسم على مسماه فلا يجوز أن يوقع اسم من تلك الاسماء على غير مسماه الذي أوقعه آلله تعالى عليه، لأنه يكون تبديلاً لكلمات الله تعالى التي

---

(١) انظر أنيس منصور:القوى الخفية ص ٥٩ .
(٢) القرطبي:الجامع لأحكام القرآن جـ٥ ص٤٣٤٣.
(٣) السابق جـ٥ ص ٤٣٤٤ .
(٤) الأنعام : ١١٥ .
(٥) البقرة : ٣١ .
(٦) يس : ٨٢ .

أبطل عز وجل أن تبدل، ومنع من أن يكون لها مبدل ولو جاز أن تحال صفات مسمى منه التي بوجودها فيه استحق وقوع ذلك الاسم عليه لوجب أن يسقط عنه ذلك الاسم الذي أوقعه الله تعالى عليه، ومن ثم فقد وجب أن كل ما في العالم لا يتبدل منه شيء إلا حيث قام البرهان على تبدله وليس ذلك إلا على أحد وجهين إما استحالة معهودة جارية على رتبة واحدة، وعلى ما بنى الله تعالى عليه العالم من استحالة المني حيوانا. والنوى والبذور شجرة ونباتا، وسائر الاستحالات المعهودة وإما استحالة لم تعهد قط، ولا بنى الله تعالى العالم عليها، وذلك قد صح للأنبياء عليهم السلام شواهد لهم على صحة نبوتهم، وجد ذلك بالمشاهدة ممن شهدهم، ونقل إلى من لم يشاهدهم بالتواتر الموجب للعلم الضروري فوجب الإقرار بذلك وبقي ما عدا أمر الأنبياء عليهم السلام على الامتناع لأنه لم يقم برهان بوجود ذلك ولا صح قط به نقل[1] .

وإنما يتضح الفرق بين ما يمكن تبدله وما لا يمكن تبدله لأهل العلم بحدود الاسماء والمسميات وبطبائع العالم وانقسامه من مبدئه من أجناس أجناسه إلى أنواعه إلى أشخاص أشخاصه، وما هو من أعراضه ذاتي وما هو منها غيري، وما تسرع الاستحالة والزوال من الغيري منها، وما يبطئ زواله منها، وما يثبت منها ثبات الذاتي وإن لم يكن ذاتيا، والفرق بين البرهان وبين ما يظن أنه برهان وليس برهانا[2] .

د- حقيقة قدرة السحر على إحياء الموتى:

وليس للسحر هذه المقدرة وخالف في ذلك بعض العلماء يقول محمد رشيد رضا[3]: «وما ينقل عن صوفية الهنود من إعادة الحياة إلى ميت مؤقتا فهو إن صح مكسوب بالرياضة، وقد ثبت عن بعض أطباء هذا العصر إعادة الحياة الحيوانية إلى فاقدها عقب فقدها بعملية جراحية أو بمعالجة للقلب» .

وأقول إن إحياء الأنبياء للموتى على سبيل المعجزة هو إحياء لميت قد مات موتا حقيقيا .

---

(١) انظر ابن حزم : الفصل جـ٥ ص ١٠٠ وانظر كذلك جـ ١ ص ١٤٥ .

(٢) انظر السابق جـ٥ ص ١٠٣ .

(٣) محمد رشيد رضا : الوحى المحمدى ص ١٤٦ .

وأما ما يروى عن اليوجيين وأصحاب الرياضات الروحية وغيرهم من إحياء للأموات فهو إن صح فمرده إلى الموت الظاهري كتوقف القلب مثلا، ولم يعد ذلك الآن في عصر العلم بالشيء العجيب الخارق، والأطباء يفعلون كل يوم .

ومن جوز إمكان إحياء ميت لهؤلاء الروحانيين لجوز الخلد لهؤلاء ولابنائهم وذويهم ولمن يبذل لهم المال، ولاشتهر ذلك الأمر . ونحن ما سمعنا عنه قط فدل ذلك على عدم وجوده .

ويقص علينا رشيد رضا كذلك ما روته إحدى الجرائد المصرية[1] عن حادثة لفقير من الفقراء اسمه(سارجو هارداس) وقعت سنة ١٨٣٧م في الهند خلاصتها أن هذا الفقير جاء قصر المهرجا(رانجيت سنجا) أمير بنجاب، وعرض عليه أن يريه بعض كراماته بأن يدفن أربعين يوما ثم يعود حيا، وكان ذلك بمشهد نفر من الأطباء الإنجليز والفرنسيين . وأمراء بنجاب ونجح في ذلك .

ويعلق رشيد رضا على هذه الحادثة بأنها من آيات الله التي أظهرتها الرياضة الكسبية، وهي أعجب من روايات الإنجيل لموت لعازر ثم حياته بدعاء المسيح بعد أربعة أيام . وأغرب من حادثة أصحاب الكهف أيضا من بعض الوجوه، فإن الفقير الهندي حيل بينه وبين الهواء الذي لا يعيش أحد بدونه عادة . وأهل الكهف ناموا في فجوة واسعة من كهف بابه إلى الشمال مهب الهواء اللطيف وكانت الشمس تصيب مدخله من جانبيه عند شروقها وعند غروبها مائلة متزاورة عنهم فتلطف هواءه من حيث لا تصيبهم، وإنما كان أكبر الغرابة في نومهم طول مدة لبثهم فيه [2]

وأقول إنه ليس هنا إحياء للموتى، لأن الفقير الهندي وإن لم يوجد له نبض كما قيل إلا أنه كانت هناك حرارة في منطقة الدماغ ـ كما صرح بذلك الطبيب الذى فحصه ـ تؤكد على حياته .

---

(١) انظر جريدة الاتحاد أوائل عام ١٣٥٢ هـ .

ـ وأمثال هذه القصة كثير انظر رءوف عبيد:الإنسان روح لا جسد جـ ١ ص ١٠٢٣ .

وانظر Desmond Dunne : Yoga For Everyone. p . 81

(٢) انظر محمد رشيد رضا : الوحى المحمدى ص ١٤٣ :١٤٤ .

وما حدث للفقير الهندي هو من جنس ما يحـدث لكثير من الحيوانات فيما يسمى بالبيات أو الكمون الشتوي أو الصيفي. فليس ذلك مما لم يجعله الله في مقدرو عامة الخلق بل هو في مقدور بعضهم وإذا كان شائعاً في بعض الحيوانات فقد يعرف سر ذلك إنسان أو جني ويعين بشرا عليه فما حدث ليس إلا تسخيراً لقانون معلوم غير مجهول .

وأما ما حدث لأصحاب الكهف فخارق لهم على جهة الكرامة، ووجه خارقيته طول مدة لبثهم في الكهف، ولا يعقل أن يحتفظ كائن حي بطاقة يستمد منها حياته، وتكفي طيلة هذه الفترة أبداً.

بعكس حالة الفقير الهندي هنا فمدة دفنه كانت أقل بكثير من المدة التي تقضيها بعض الحيوانات فيما يسمي بالبيات أو الكمون الصيفي أو الشتوي وهي مدة على أية حال يمكن للجسم فيها أن يحيا على مخزون طاقته

وإحياء عيسى عليه السلام للموتى معجزة خارقة. ولا تقاس بما فعله الهندي أو غيره ابداً .

وأنا أعجب من قول محمد رشيد رضا إن ما حدث للفقير الهندي أعجب من روايات الإنجيل لموت لعازر ثم حياته بدعاء المسيح بعد أربعة أيام، وأنه أغرب من حادثة أصحاب الكهف. وأرى أن العجيب والغريب هو هذا القول من محمد رشيد رضا .

فالقرآن الكريم ينص صراحة على أن ما فعله عيسى عليه السلام كان إحياء للموتى على سبيل المعجزة الدالة على صدقه، والتى يستحيل أن يشاركه فيها أحد بكسبه إلا ما يكون من بعض الأولياء الذين قد يمن الله عليهم بذلك يقول تعالى على لسان عيسى عليه السلام[1] ﴿**وأحي الموتى بإذن الله**﴾.

ونصوص الإنجيل كذلك ترفض ذلك التأويل الذي يحاوله بعض الدارسين .

ففي إنجيل متى: «وفيما هو يكلمهم بهذا إذا رئيس قد جاء فسجد له قائلا إن ابنتي الآن ماتت، لكن تعالى وضع يدك عليها فتحيى. فقام يسوع وتبعه هو

(١) آل عمران : ٤٩ .

وتلاميذه. . . ولما جـاء يسوع إلى بيت الرئيس ونظر المزمرين والجمع يضـجون، قال لهم تنحوا فإن الصبية لم تمت لكنها نائمـة فضحكوا عليه، فلما أخرج الجمع دخل وأمسك بيدها فقامت الصبية»[١] .

فعلى فرض صحة السند، يرى منكروا المعجزات أن الصبية لم تكن قد ماتت بالفعل .

يقول محمد رشيد رضا:[٢]«وللمؤمنين بالآيات أن يجزموا أيضـاً بأن الصبية لم تكن ميتة أخذا بظاهر قوله عليـه السلام«لم تمت ولكنها نائمة» يعنى أنها أغمى عليها فظنوا أنها ماتت وهي لم تمت» .

وأرى أن محمد رشيد رضا ومن نحا نحوه قد جانبوا الصواب في ذلك، لأن المسيح عليه السلام عندما جاء إلى البيت قال للجمع«تنحوا فإن الصبية لم تمت أي أنه حكم عليـها بأنهـا لم تمت قـبل أن يتنح الجمـع، وقبل أن يرى الصـبيـة رؤية فحص .

وإنما كان قولـه عليه السلام عن الصبـية(لم تمت لكنها نائمة) هو مـثل قوله عليه السلام عن لعازر«لعازر حبيبنا قد نام لكني أذهب لأوقظه، فقال تلاميذه ياسيد إن كان قد نام فهو يشفى، وكان يسوع يقول عن موته، وهم ظنوا أنه يقول عن رقاد النوم. فقال لهم يسوع حينئذ علانية لعازر مات»[٣] .

وفي إنجيل لوقا:«وفي اليوم التـالي ذهب إلى مدينة تدعى نايين، وذهب معه كثيرون من تلاميذه، وجمع كثيـر. فلما اقترب إلى باب المدينة إذا ميت محمول ابن وحيـد لأمه، وهي أرملة ومعهـا جمع كثـير من المدينة فلما رآها الرب تحنن عليـها وقال لها لا تبكي ثم تقدم ولمس النعش فوقف الحاملون. فقال أيها الشاب لك أقول قم فجلس الميت وابتدأ يتكلم فدفعه إلى أمه»[٤] .

وعلى فرض صـحة السند فيـرى منكروا المعجـزات أن هذا الشاب لم يكن ميتا موتا حقيقياً، فلعله كان مغشيا عليه فقط .

---

(١) إنجيل متى ، الأصحاح التاسع آية ١٨ : ٢٥ .
(٢) محمد رشيد رضا : الوحى المحمدية ص ٣٣ .
(٣) يوحنا: الأصحاح الحادى عشر_ آية ١١ : ١٤ .
(٤) لوقا : الأصحاح السابع آية ١١ : ١٦ .

وأرى الصواب جانبهم في ذلك لأن النص يدل دلالة قطعية على إحياء عيسى عليه السلام للموتى - بإذن الله - إحياء حقيقياً .

ففي العبارة(فلما اقترب إلى باب المدينة إذا ميت محمول) نجد (إذا) الفجائية. وفي العبارة (فلما رآها الرب تحنن عليها) نجد أن عيسى عليه السلام رأى المرأة، ولم ير الميت رؤية فحص ثم نجده عليه السلام يبادر بقوله لها (لا تبكي) ثم يتقدم فيلمس النعش، ويقول للشاب(لك أقول قم) فيقوم .

وإذا كان الأمر كما يراه منكروا المعجزات لكان على عيسى عليه السلام التريث، وفحص الميت أولاً كي يراه هل مات فعلا أم لا قبل التسرع وادعاء المقدرة على إحيائه .

وفي إنجيل يوحنا، وفي قصة إحياء المسيح عليه السلام لِلعَازَر: «فقالت مَرْثا ليسوع ياسيد لو كنت ها هنا لم يمت أخي. لكني الآن أيضا أعلَم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله إياه. فقال لها يسوع سيقوم أخوك. . . وجاء إلى القبر وكان مغارة وقد وضع عليها حجر. قال يسوع ارفعوا الحجر قالت له مرثا أخت الميت ياسيد قد أنتن لأن له أربعة أيام. قال لها يسوع ألم أقل لك إن آمنت ترين مجد الله فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوع. ورفع يسوع عينيه إلى فوق. وقال أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي. ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتني، ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم لِعَازَر هلم خارجا، فخرج الميت، ويداه مربوطتات بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل، فقال لهم يسوع حلوه ودعوه يذهب»[1] .

ففي هذا النص نجد المسيح عليه السلام يقول لمرثا:

سيقوم أخوك. ثم يطلب رفع الحجر عن المغارة، ويناديه أن هلم خارجا كل ذلك دون أن يفحصه ليعرف حقيقة موته وذلك بعد أربعة أيام من موته .

فكل هذه النصوص السابقة تؤكد على أن ما فعله المسيح عليه السلام كان إحياء حقيقيا للموتى على سبيل المعجزة التي ينفرد الله بالقدرة عليها - أي مما لم

(١) يوحنا : الأصحاح الحادى عشر آية ٢١ :٤٤ .

يجعله الله فى مقدور عامة الخلق للدلالة على صدقه.

وفي النص السابق يقول المسيح في دعائه الله لإحياء لعازر(لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتنى) .

وإذا كان ذلك كذلك فكيف يكون ما فعله الفقير الهندي أعجب مما فعله المسيح عليه السلام أي أعجب من المعجزة وقد بان الفرق بين فعل هذا وفعل هذا!! .

وإن صح ما يذكره الأطباء اليوم من أنه يمكن معالجة توقف القلب أوالعقل في خلال دقائق أو ساعات قليلة [١].

فمعلوم من روايات الإنجيل عن إحياء عيسى ـ عليه السلام ـ للموتى أنها كانت بعد فترات طويلة وصلت في حالة لعازر إلى أربعة أيام .

ونضيف هنا أنه قد يكون ذلك الإحياء المزعوم بحيلة من الحيل فقد يكون من فعل الجن بأن يحركوا جسم ميت، ويتكلموا على لسانه، ولا يكون ذلك إلا بضع دقائق فقط .

والقدرة على تحريك جسد الميت لا إحيائه أمر معروف لدى السحرة باسم زومبى Zombi or Zombie ولم يختص بفعله المؤيدون بل اختص بفعله بعض السحرة .

أما إحياء الأنبياء للموتى فهو إحياء حقيقي يعود بعده الميت إلى حياته الطبيعية بلا أدنى اختلاف .

ويظهر ذلك بوضوح فيما يرويه محمد رشيد رضا عن جريدة المقطم[٢] عن كتاب لطبيب اسمه الكسندر بعنوان(العالم غير المنظور)يقول فيه: «وكان اللاما الكبير على عرشه فدخل عليه جوق من الرهبان يحملون المشاعل فجلسوا في حلقة واسعة يتمتمون أغنية، فصلى اللاما، وفي تلك الدقيقة دخل ثمانية يحملون تابوتا من حجر، فأنزلوه، ورفعوا غطاءه فرأينا شخصا منظره منظر الميت، فسمح لي بفحصه. فلم أشعر بنبضه ولا بخفقان قلبه، وكان بارداً كالحجر، وعيناه عينا رجل

(١) انظر Hutchison 's Clinical Methods .p.304 .

(٢) جريدة المقطم عدد ٢١ / ١٢ / ١٩٣٣ .

انقضى عليه يوم كامل، وهو ميت، ووضعت مرآة على فمه وأنفه فلم يظهر عليها أثر تنفسه ثم لفظ اللاما كلمات فرأينا الميت يفتح عينيه، ثم جلس في تابوته، فساعده الرهبان على الوقوف، والمشي، فدنا من اللاما وانحنى وعاد إلى نعشه وهو لا يزحزح بصره عن (أعظم الحكماء)ثم لم تمضي دقائق قليلة حتى عاد ولا حياة فيه»[1] .

هـ- حقيقة قدرة السحر على إماتة الحي :

إذا كنا قد قلنا إن إحياء الموتى معجزة لا تكون إلا بتأييد إلهي، لأنه لو قدر عليها غير المؤيدين لدفعوا الموت عن أنفسهم وذويهم، ومن يبذل لهم المال حتى ينتشر ذلك، ويعلم في كل مكان ويفسد نظام العالم، ولكنا نجد أن نظام العالم لم يفسد بذلك ولم نعلم أن شخصا دفع عن نفسه الموت أبداً. فعلم بطلان ذلك.

فإن إماتة الحي غير إحياء الميت، فليست هي مما لم يجعله الله تعالى تحت قدر عامة الخلق بل هي في المقدور، ومن ثم فهي ليست من دلائل لنبوة في شيء.

وما يرويه الإنجيل من قول المسيح عليه السلام لشجرة التين«لا يأكل أحد منك ثمرا بعد إلى الأبد»[2] فيبست الطينة، فذلك لم يروه القرآن، ولم يذكر أنه من معجزاته عليه السلام، وبفرض صحة السند فيمكن ألا يكون ذلك معجزا .

ولم يقل أحد إن كل ما يفعله النبي يكون معجزة، إلا ما كان معجزاً حقا سواء تحدى به الرسول أو لم يتحد، فكما يأكل الرسول ويشرب وهو رسول، وليس ذلك بمعجز فقد يأمر التينة بأن تموت فتموت، وليس ذلك بمعجز طالما أن الرسول لم يدعه معجزة، وطالما أنه ليس معجزا على الحقيقة .

وبالتالي يبطل كلام الطاعنين في المعجزات على أساس أن(إماتة التينة) معجزة وأن للروحانيين القدرة على مثل ذلك[3] ولا يمارى في قدرتهم على مثل

(١) محمد رشيد رضا : الوحي المحمدى هامش ص ٣٥ .

(٢) مرقس ـ الأصحاح الحادى عشر آية ١٤ .

(٣) انظر محمد رشيد رضا:الوحي المحمدى هامش ص ٣٤:٣٥.

حيث يقرر أن للروحانيين القدرة على مثل ذلك،ويروى فى ذلك قصة أمات فيها أحد الروحانيين شجرة تين أيضاً .

ذلك، وما يفعلونه هدم وما أسهل الهدم .

ولا يقال هنا لو كان للسحرة القدرة على الهـدم والإماتة لدفعوا عن أنفسهم أذى فرعون، ولقتلوه مثلا .

لأنا نقول: قد يكون لذلك شروط كثيرة لم تتوافر للسحرة حينئذ .

وربما منعهم إيمانهم عن ذلك، وربما كـان لفرعون سحرة آخـرين يحمونه من مثل ذلك الأذى . . . الخ

والإسلام صرح بأن للسحر حقيقة وقدرة على التأثير في عالم العناصر، وأن الحسد حقيـقة وله كذلك قدرة على التأثير في عالم العناصـر بالهدم. قال تعالى[1] ﴿**ومن شر حاسد إذا حسد**﴾ وقال ـ ﷺ ـ (العين حق)[2] والحسد نوع من السحر.

إلا أنه يمكن أن يكون هناك فرق بين إماتة التينة بالنسبـة للمسيح عليه السلام وإماتتـها بالنسبة لغـيره، ويكون ذلك معجـزا له عليه السلام وإن لم يشتـهر ذلك الفرق، فدلالة المعجزة نسبية[3] وليس من المطلوب من كل إنسان أن يدرك الإعـجاز في كل المعجزات .

وهذا الاحتـمال الأخير أراه أفـضل وأقرب إلى منطق العقل فـعدم العلم لا يعني العلم بالعدم .

وهناك احتمال آخر أراه صحيحا أيضا يخرجنا من هذا الإشكال كله وهو ما ذهب إليه بعض الدارسين من أن المسيح عليه السلام هنا استخدم كلمة ذات معنيين للتورية، فكلمة«تين»تنطق بالآرامية«سوكو SUKO »وباليونانية«سيكا أو سيكه SIKA أو SIKAH» فالمعنى القريب لهذه الكلمة هو تين ولكن المعنى البعيد هو سكين أو خنجر أو حامل الخنجر وحملة الخناجر أو الغيورون طائفة يهودية متطرفة كانت في عصره عليه السلام.

---

(١) الفلق : ٥ .   (٢) رواه البخارى فى صحيحه فى الباب(٣٦) من كتاب الطب والباب(٨٦) من كـتـاب اللبـاس،ومسلم برقم(٤١، ٤٢) من كـتـاب السـلام وأبو داود فى سننه فى باب(١٥) من كـتـاب الطب،ومالك فى الموطأ برقم(١) من كـتاب العين،وأحـمـد فى المسند جـ١ ص٢٧٤، ٢٩٤، جـ٢ ص٢٢٢، ٢٨٩، ٣١٩، ٤٢٠، ٤٣٩، ٤٨٧، جـ٤ ص٦٧، جـ٥ ص٧٠، ٣٧٩.

(٣) كما سيأتي بيانه في الفصل الخامس من الباب الرابع .

فكلامه عليه السلام هنا موجه إلى هذه الطائفة وليس لشجرة التين ومما يؤكد ذلك عبارة مرقس: «لأنه لم يكن وقت التين»[١]. ومعلوم أن المسيح ليس بالشخص المتجبر أو الغير عالم بمواعيد الثمار حتى يطلب تينا من شجرة تين في الوقت الذى لا يثمر فيه التين، وما ذنب التينة طالما لم يكن وقت ثمرها حتى يلعنها المسيح، وكل ما في الأمر أن المسيح أراد أن ينذر جماعة الغيورين بقرب نهايتهم إن لم يسمعوا ويقبلوا دعوته لهم للتوبة[٢].

و- حقيقة قدرة السحر على شفاء المرضى:

وذلك أمر ممكن لا يخالف شرعا أو عقلا بل يؤيده الواقع المشاهد والمتواتر[٣] يقول ابن تيمية[٤] «جنس أيات الأنبياء خارجة عن مقدور البشر، بل وعن مقدور جنس الحيوان، وأما خوارق مخالفيهم كالسحرة والكهان، فإنها من جنس أفعال الحيوان من الإنس وغيره من الحيوان والجن مثل قتل الساحر، وتمريضه لغيره، فهذا أمر مقدور معروف للناس بالسحر وغير السحر».

وتؤكد على ذلك جريدة الأهرام المصرية حين تنشر خبراً عن أول عملية جراحية من نوعها في العالم تتم عن طريق استخدام السحر إذ كانت المفاجأة المذهلة التي افتتح بها مهرجان السحر الأول الذي أقيم في فرنسا هى العملية الجراحية التي قام بها الساحر الشهير(رانكلى)في بطن فتاة كانت تشكو من وجود ورم في بطنها وقد استخرج الساحر الورم دون استخدام البنج أو الأدوات الجراحية فتح الساحر بطن الفتاة بعد أن مرر فوقها أصابعه، ثم تولت مساعدته استئصال

---

(١) انظر مرقس : ١٣/١١

(٢) انظر القمص بولس عطيه بسليوس: الطوائف المسيحية فى التاريخ والعقيدة واللاهوت المقارن جـ١ ص٦٧، ٦٨.

(٣) انظر الشبلى:غرائب وعجائب الجن ص١٠٨:١١٢ . وانظر السيوطى:لقط المرجان فى أحكام الجان ص١٣١.

(٤) ابن تيمية : النبوات ص ٥:٦ .

الورم عن طريق ملقاط من الخشب، ثم أعاد الساحر إغلاق مكان الجرح(١).

وتنشر الأهرام خبرا عن شخص متهم بالدجل والشعوذة قال دفاعا عن نفسه في المحكمة إن معه واحدة من الجن تهمس بمرض من يضع يده على المصحف بعد أن يذكر اسمه واسم والدته، بل تملي عليه الدواء الذي يكتبه في روشتة نظير مبلغ (٢٥) قرشا يدفعها الراغب في هذا .

وقد أجريت في المحكمة تجربة على خمسة أشخاص اختارهم القاضي، وكان التشخيص جميعه سليما مائة في المائة مما جعل القاضي يحكم له بالبراءة بجلسة ٢٢/٤/١٩٨٠ (٢) .

بل إن هناك هيئات علمية معترف بها للعلاج الروحي مثل الاتحاد الوطني للمعالجين الروحيين بانجلترا علاوة على أكثر من ألف وخمسمائة مستشفى بين حكومي وغير حكومي تصرح بمزاولة العلاج الروحي بها في انجلترا وحدها(٣) .

ومعنى ذلك أن السحر قد يكون له القدرة على الشفاء ولعل ذلك عن طريق مساعدة أطباء الجان كما يعترف بذلك كثيرون من هؤلاء المعالجين: «كعبد العزيز أبو كف» الذي اعترف أن معه جنية تدعى «الحاجة» تساعده في ذلك كما ذكرت جريدة الأهرام(٤) .

إلا أنه يجب أن نلاحظ أن شفاء الأنبياء للأمراض إن لم يكن معجزا من حيث نوع المرض فهو معجز من حيث أسلوب العلاج .

وما روي عن عيسى عليه السلام هو إبراء للأكمه والأبرص وإحياء للموتى فقط لا شفاء الأمراض عموما .

ويمكن أن نقول إن البرص الذي كان يبرئه عيسى عليه السلام كان من ذلك

(١) انظر جريدة الأهرام المصرية عدد ١١ / ١٢ / ١٩٧٩م .

(٢) انظر جريدة الأهرام المصرية عدد ٢٤ / ٤ / ١٩٨٠ م .

(٣) انظر هانن سوافر: قصتي العظمى ص ٤١٤، ١١١: ١١٧، ٣٥٩: ٣٦٣ وانظر كذلك أنيس منصور: القوى الخفية ص ٢١٦: ٢١٧ .

(٤) انظر جريدة الأهرام المصرية عدد ٢٣ / ٤ / ١٩٨٠ م .

النوع الذي هو موت لخلايا الجسم أو هو انعدام لوجود الخلية منذ الولادة[1] أو على أية حال من نوع لا يمكن للبشر ولا للجن علاجه أبداً فهو خارج عن قدرتهم

والأكمه الذي كان يبرئه عيسى عليه السلام هو الممسوح العين أخرج ابن أبي حاتم من طريق عطاء عنه أنه ممسوح العين الذي لم يشق بصره ولم يخلق له حدقة لا الذى يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل[2] مما يجعل المعجزة تشتبه بغيرها [3] .

ثم إن المعجزة ليست هي أي فعل يصدر من رسول. وإنما هي ما كان معجزا سواء تحدى به أم لم يتحد وبالطبع فالرسول إن تحدى لا يتحدى إلا بما هو معجز.

وإذا كان ذلك كذلك فقد يصدر من الرسول أفعال بإذن الله لمجرد إعانته في أمر من أمور الرسالة أو الحياة لا للدلالة على صدقه فلا تكون خارقة على الحقيقة[4] .

فليس شفاء أي مرض معجز إلا ما توافرت فيه شروط المعجرة وإن حدث على يد النبي لأن ذلك ليس هو الشرط الوحيد، فالنبي يأكل ويشرب، وليس ذلك بالمعجز لأنه أمر معتاد وغير خارق للعادة .

والقرآن لم يذكر أن عيسى عليه السلام كان يشفي المرضى على سبيل المعجزة ولكن ما كان على سبيل المعجزة فهو خلق الطير من طين وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى .

---

(١) انظر في أنواع البرص Roxburg : Common Skin Disease p 342
T.B. Sneddon and R.E Church:Practical Dermatology.p.173.

(٢) انظر الألولسى:روح المعانى جـ٣ ص١٦٩ . (٣) فكأن إبراء الأكمه من جنس خلق الطير من الطين لأن الأكمه لم تخلق له حدقة وكأن إبراء الأبرص إما من جنس إحياء الموتى لأن البرص الذى كان شفاؤه معجزة له عليه السلام هو موت لبعض خلايا الجسم وإما من جنس خلق الطير من الطين باعتبار أن ذلك البرص من النوع الذى تكون فيه الخلية غير موجودة أصلا، ولذلك كان من المناسب أن يجئ إبراء الأكمه فى القرآن بجوار خلق الطير من الطين بإذن الله ،وإبراء الأبرص بجوار إحياء الموتى بإذن الله يقول تعالى:﴿ورسولا إلى بني إسرائيل أنى قد جئتكم بئاية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحى الموتى بإذن الله﴾آل عمران(٤٩) ويقول تعالى﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى﴾المائدة (١١٠) .

(٤) انظر مبحث نسبيه الدلالة في الفصل الخامس من الباب الرابع.

وعيسى عليه السلام قد يكون فعلا كان يشفي من جميع الأمراض ولكن قد لا يكون ذلك على سبيل المعجزة ولكن بالدعاء إلى الله تعالى واستجابة الدعاء في هذه الحالة غير مقتصرة على الأنبياء لقوله تعالى﴿**ادعونى استجب لكم**﴾[١] واستجابة الدعاء هي من المعونه لا من المعجزة[٢] .

ويرى سيد قطب أن الإعجاز في الإبراء أنه كان لابدواء[٣] بل بمجرد مسح الرسول بيده على المريض، وهو فارق صحيح لمن أدرك الفرق بين ما يكون بدواء بين ما لا يكون فقد يلتبس الأمر ويختلط وخاصة في عصرنا هذا عصر العلم والعلاج الكهربي والإشعاعي[٤] .

وليس في ذلك إشكال طالما أن دلالة المعجزة نسبية وما لايدرك إعجازه قوم يدركه غيرهم .

ويرى محمد رشيد رضا أن الفرق بين شفاء عيسى وشفاء الروحانيين«أن روحانيته عليه السلام أقوى وأكمل وأقدس وأفضل وأنها لم تكن بعمل كسبي منه، بل من أصل خلق الله عز وجل إياه بآية منه»[٥] .

لكن هذا يؤدي إلى أن يكون الفرق غير واضح لعدم وضوح حدود الفرق بين الروحانيتين حتى يمكننا التفريق بين النبي وغيره .

وأرى أن روحانيته عليه السلام لا تختلف عن روحانية غيره في مجرد الدرجة فقط، ولكن تختلف أولا وقبل كل شيء في طبيعة هذه الروحانية(ما عدا الأولياء فالاختلاف قد يكون في الدرجة لا في الطبيعة)[٦] وإلا ففي ذلك تصدق لفرعون في قوله﴿**إنه لكبيركم الذي علمكم السحر**﴾[٧].

---

(١) غافر : ٦٠ .   (٢) انظر حديثنا عن المعونة في الفصل الثالث من الباب الثاني .

(٣) انظر سيد قطب:في ظلال القرآن جـ٢ ص٩٩٧.

(٤) انظر صحيفة أخبار الحوادث عدد١٩٩٤/٦/٩حيث تتحدث عن ظهور فتاة فى النرويج عمرها خمس سنوات ظهرت لمرة واحدة فى إحدى المستشفيات وكانت تشفى المرضى بلمسهم أو احتضانهم سواء كان المريض أعمى أو أصم أو كسيح أو غير ذلك .

(٥) محمد رشيد رضا : الوحى المحمدى ص ١٤٦.

(٦) انظر نسبية الدلالة في الفصل الخامس من الباب الرابع .

(٧) طه : ٧١ .

فروحانية النبي لا تخضع للسنن المعتادة، أما روحانية غيره فهي خاضعة لسنته تعالى المعتادة .

وأما قوله إن روحانيته ـ عليه السلام ـ لم تكن بعمل كسبي منه فنحن نسلم بذلك ولا نعتبره فارقا بين النبي وغيره [1] .

ز ـ حقيقة قدرة السحر على التخييل وإراءة ما لا وجود له (الشعبذة) :

يعترض ابن حزم على ذلك النوع من السحر بقوله: «وأما من ادعى أنه يشبه الساحر على العيون، فيريهم ما لا ترى فإن هذه الطائفة لم تكتف بالكفر بإبطال النبوات إذ لعل ما أتى به النبي كان تشبيها على العيون لا حقيقة له ـ حتى رامت إبطال الحقائق كلها أولها عن آخرها، ولحقت بالسوفسطائية لحاقا صحيحا بلا تكلف .

وقد عاب الله عز وجل من ذهب إلى هذا فقال: [2]**﴿ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾**[3] .

ويعارض ابن حزم في ذلك كثير من العلماء ويرون أن للشعوذة حقيقة ووجودا، وذلك أن قدرة الساحر على إراءة ما لا وجود له لا تقدح في البدهيات والحقائق كما يزعم ابن حزم لأنها بفرض صحتها قد تكون محدودة التأثير.

ـ إما بالمكان فلا يتجاوز تأثير الساحر مكانه إلى غيره من الأمكنة.

ـ أو بالزمان فلا يستمر ذلك التأثير إلا بضع دقائق أو ساعات .

ـ أو بالأشخاص: فلا يقبل هذا النوع من التأثير إلا نوعية معينة من البشر بصفات خاصة، ومن ثم فلا يشتبه ذلك بالمعجزة ولا يبطل الحقائق كلها كما يدعي ابن حزم .

ويؤكد ذلك ما يروى من أنه عندما «انشق القمر على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ

---

(١) انظر اشتراط ألا تكون المعجزة من الصناعات المكتسبة في الفصل الثاني من الباب الأول .

(٢) الحجر :١٤ :١٥ .

(٣) ابن حزم : الفصل جـ ٥ ص ٦ .

فصار فـرقتين فرقة على هذا الجـبل، وفرقة على هذا الجبل، فـقالوا سحرنا مـحمد فقالوا إن كان سحرنـا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم» [١] انظروا ما يأتيكم به السفار فجاء السفار بمثل ذلك.

فهم قد استدلوا على أن ما رأوه ليس تخييلا بل هو حقيقة لأنه رؤي في كل الأمكنه، ومن كل الناس، وهو لا يسعه أن يسحر الناس جميعاً .

ويؤكد ابن سينا عـلى أن هذا النوع من السحر إنما يؤثر في نوعيـة معينة من الناس لا فيهم جـميعاً. حيث يقـول: إن« للنفوس البشرية القوية في قـوتي التخيل والوهم[تأثيـراً] في نفوس بشـرية أخرى ضعـيفـة في هاتين القوتين كنفـوس البله والصبيان، والذين لم تستول قوتهم العقلية على قمع قوة التخيل وترك عادة الانقياد فتخيل إليها وتوهمها[فى أشياء غير موجودة]أنها موجودة فى الخارج أو تخيل إليها وتوهمها في أمور موجودة حاصلة على ضد تلك الأحـوال، فيخيل إليها في أشياء متـحركـة أنها ساكنة وفي أشـياء سـاكنة أنها مـتحركـة إلى غيـر ذلك من أحوال بديعة» [٢]

وقد يشهد لكلام ابن سينا من أن تأثير هذا النوع من السحر لا يقبله إلا من تتوافر فـيهم صفات مـعينة وليس عاما ـ ما نـسميه اليوم بالتنويم المغـناطيسي فلا يخضع لتأثيره إلا من تتوافر فيهم صفات روحية معينه [٣] .

وإذا كان ابن حـزم يعتـرف بوجود الحيل والخـدع وليس في استطاعـة أحد إنكارها، بل إنه يرى أنها ـ كما ورد في القرآن في قوله تعالى﴿**سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم**﴾[٤] ـ كانت حيل عظيمة حتى أنه كان تقدير من لا يدري حيلهم من أنهـا تسعى ظنا أصله اليقين، وذلك لأنهم رأوا صفـات حيات طوال تضطرب فـسارعـوا إلى الظن وقدروا أنهـا ذات حيـات، ولو انعمـوا النظر وفتشوها لوقفوا على الحيلة فيها وأنها ملئت زئبقا ولد فيها تلك الحركات[٥] .

---

(١) رواه البخارى:فى صحيحه فى الباب(٢٧) من كتاب المناقب والباب(٣٦) من كتاب مناقب الأنصار والباب(١) من تفسير سورة القمر ومسلم فى صحيحه فى الباب(٤٣، ٤٧، ٤٨) من كتاب المنافقين وأحمد فى المسند جـ١ ص٣٧٧، ٤١٣، ٤٤٧ جـ٣ ص ٢٧٥، ٢٧٨ جـ٤ ص٨٢ .

(٢) ابن سينا: رسالة فى الفعل والانفعال ص ٦ .

(٣) انظر رءوف عبيد:الإنسان روح لا جسد جـ١ ص٢١١ :٢٧٠ .

(٤) الأعراف : ١١٦ .　　(٥) انظر ابن حزم:الفصل جـ٥ص١٠٣ :١٠٤ .

فلا فـرق بين الحيل العظيمة، والخـدع وبين التشبـيه على العيون فـلا معنى لإنكار ابن حزم للتشبيه على العيون وإقراره الحيل والخدع لأن النتيجة واحدة وهي احتمال اللبس، والخـلط بين المعجزة وبين السحر، فما رآه الـناس من سحرة موسى هو صفات حيات أو هكذا بدا لهم .

وبالطبع فإنه لو كان في استطاعة السحـرة قلب الأعيان لما قالوا لفرعون **﴿أن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾**(١) بل لكانوا قلبوا الحجارة نقـودا ولأصبحوا أغنى الناس ولقلبوا فرعون عصا أو غيرها قبل أن يقتلهم .

واما التفرقة بين المعجزة والسحر سواء كـان حيلا أو تشبيها على العيون فلا يعرفه إلا الخواص أي السحرة فإيمانهم مؤسس على معرفة لحقيقة الفارق .

بينما إيمان العوام فمؤسس على الانبهار بما حدث أو اتخاذ السحرة قدوة لهم أو على الجهل بـوجود اللبس بين المعجـزة وغيـرها، هذا بالإضافـة إلى أن الفارق الأوضح بالنسبة للجميع هو حال الداعية وقيمة الدعوة.

ح - حقيقة قدرة السحر على الجذب والتنفير :

فأما عن تأثير السحر على الإنسان بذلك فنجدة في قوله تعالى: **﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾**(٢) .

كما نجده فيما تواتر بين الناس من أخبار عن ذلك .

---

(١) الأعراف : ١١٣ .　　(٢) البقرة : ١٠٢ .　　والقائلون بالسحر اختلفوا فى القدر الذى يقع به فقال بعضهم لا يزيد تأثيره على قدر التفرقة بين المرء وزوجه لأنه لو وقع به أعظم من ذلك لذكره الله تعالى لأن المثل لا يضرب عند المبالغة إلا بأعلى الأحوال،ومذهب الأشاعرة أنه يجوز أن يقع به أكثر من ذلك،وهو الصحيح عقلا،ولا يوجد شرع قاطع يوجب الاقتصار على ما قاله القائل الأول،وذكر التفرقة بين الزوجين فى الآية ليس بنص فى منع الزيادة . انظر الألولسى:روح المعانى جـ ٣٠ ص ٢٨٤ . ولعل ذكر هذه الصورة [لأنها أشيع الصور التى يستخدم فيها السحر أو للتنبيه]... على سائر الصور فإن استكانة المرء إلى زوجته وركونه إليها معروف زائد على كل مودة فنبه الله تعالى بذكر ذلك على أن السحر إذا أمكن به هذا الأمر على شدته فغيره به أولي . الرازى :التفسير الكبير جـ٣ص٢٢١.

ويؤكد ذلك ما ورد فى القرآن والسنة وأخبار الصحابة وتابعيهم بل وعامة الأمم فى جميع الأمصار والأزمان من ذكر للسحر وآثاره غير التفرقة بين الزوجين .

فليس للسحر القدرة على مجرد التفرقة بين الزوجين بل له آثار أخرى كثيرة .

وأما عن قدرته في التأثير على الحيوان بذلك فنجده فيما «يروى عن ابن خلدون أنه قال: هناك بعض الناس لا يقربهم الذباب ويقال: إن بعض الناس عنده هذه المقدرة الشخصية على طرد الحشرات عنه . . دون أن يبذل مجهوداً في ذلك.

وقال ابن خلدون أيضا: وكنت في طفولتي أحب الكلاب وأنفق عليها طعامي ومالي. . وكنت إذا ذهبت إلى أحد البيوت فإن الكلاب تترك كل من في البيت ثم ترقد عند قدمي، ويتعجب الناس كيف تشعر هذه الكلاب بأنني أحبها؟ وكيف ينتقل شعوري إليها؟» [1] .

ويؤكد ابن حزم على هذا التأثير للسحر بقوله: «ومنه طلسمات كتنفير بعض الحيوان عن مكان ما فلا يقربه أصلاً» [2] .

وفي التوراة: «قال الرب لموسى قل لهارون مد يدك بعصاك على الأنهار والسواقي والآجام، واصعد الضفادع على أرض مصر فمد هارون يده على مياه مصر، فصعدت الضفادع وغطت أرض مصر. وفعل كذلك العرافون بسحرهم، وأصعدوا الضفادع على أرض مصر» [3] .

وبفرض صحة قدرة السحر على جذب الحيوان وتنفيره فليس معنى ذلك معارضة معجزة موسى عليه السلام التي يقصها القرآن في قوله تعالى: ﴿**فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع**﴾[4] فهذا غير هذا لأن ما يمكن أن يكون في استطاعة البشر هو التسلط على بعض الحيوانات وتسليطها، أما ما فعله موسى عليه السلام فليس حصارا لشخص أو مجموعة من الأشخاص وبعدد محدود من الضفادع يمكن تسليطه .

ولكن ما حدث مع موسى عليه السلام هو أن الضفادع ملئت كل أرض مصر، فمن أين يأتي مثل هذا العدد الضخم الذي غطى كل أرض مصر فى سرعة هائلة . والذي وصل من ضخامة حجمه أنه جعل الأرض تنتن عندما مات كما يروي الكتاب المقدس «فماتت الضفادع من البيوت والدور والحقول وجمعوها كوما كثيرة حتى أنتنت الأرض» [5] .

---

(١) أنيس منصور :القوى الخفية ص ١٤٢ ـ ١٤٣ .
(٢) ابن حزم : الفصل جـ ١ ص ١٤٥ .
(٣) سفر الخروج : الأصحاح الثامن (٥:٧) .
(٤) الأعراف : ١٣٣ .
(٥) سفر الخروج : الأصحاح الثامن (١٣ : ١٤).

إن ما حدث لموسى عليه السلام أراه خلقا للضفادع من عدم وهو معجز

وتشير التوراه في نفس السفر والأصحاح إلى أن ما فعله موسى عليه السلام ليس من جنس أفعال السحرة. ففيها: «ثم قال الرب لموسى قل لهارون مد عصاك واضرب الأرض ليصير بعوضا في جميع أرض مصر، ففعلا كذلك مد هارون يده بعصاه، وضرب تراب الأرض فصار البعوض على الناس وعلى البهائم كل تراب الأرض صار بعوضا في جميع أرض مصر وفعل كذلك العرافون بسحرهم ليخرجوا البعوض فلم يستطيعوا وكان البعوض على الناس وعلى البهائم فقال العرافون لفرعون هذا أصبع الله»[1] .

والمعجز هنا هو قلب التراب بعوضا، وهو مما لم يجعله الله في مقدور عامة الخلائق والغريب أن تعترف التوراة بالمعجزة هنا في حالة البعوض ولا تعترف بها في حالة الضفادع .

وكذب كاتب التوراة في قوله إن العرافيين فعلوا مثلما فعل موسى عليه السلام بأن أصعدوا الضفادع على أرض مصر مثله لأنه يمكن أن يكون في مقدرتهم إصعادها لكن ليس مثله لأنه أتى بها من عدم - على الراجح - كما قلنا .

ولأنهم إذا كانوا يقدرون على ذلك فلماذا لم يستطيعوا إعادتها إلى النهر عندما سلطها عليهم موسى عليه السلام؟ .

وقد حاول سعديا الفيومي تبرير ذلك المأزق فقال: فإن سأل سائل: كيف قابل السحرة موسى في آياته. قلنا إن الآيات التي صنعها عشر؛ قلب العصا والتسع الأخر، ولم تذكر التوراة أنهم قابلوه إلا في ثلاث[2] .

وبالطبع فإن هذا تبرير باطل لأن معارضة معجزة واحدة يعني كذب الرسول في ادعائه أن هذا الخارق معجز لأن المعجزة لا تعارض، والكذب أبعد الصفات عن النبوة .

ط - حقيقة قدرة السحر على نقل الأشياء :

«واختلفوا: هل يطيق الشيطان على حمل ما لا يطيق البشر حمله ؟ .

(١) السابق الفقرات (١٦ : ١٩).

(٢) انظر سعديا الفيومي : الأمانات والاعتقادات ص ١٢٤ .

١ ـ فقال قائلون: جائز ذلك ، وأن يحمل الأشياء الكثيرة

٢ ـ وأنكر ذلك منكرون وقالوا: في هذا بطلان دلائل الرسل وهذا قول «الجبائي»[١] .

ويؤكد صحة الرأي الأول: قوله تعالى على لسان عفريت من الجن لسليمان عليه السلام. بشأن نقل عرش بلقيس من اليمن إلى الشام ﴿**أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك**﴾[٢] ومقامه عليه السلام «أي مجلسه ولابد فيه من عادة معلومة حتى يصح أن يؤقت[به] فقيل المراد مجلس الحكم بين الناس ، وقيل الوقت الذي يخطب فيه الناس، وقيل انتصاف النهار»[٣] .

ومعنى ذلك أن للجن سرعة لا نطيقها، وقدرة على حمل ما لا نطيق حمله ويؤكد د. رءوف عبيد على مسألة إمكان انتقال الأجسام المادية عبر الحوائط والسقوف والأجسام الصلبة، ويذكر أمثلة وتحقيقات كثيرة عن ذلك[٤] لا يعنينا هنا سردها لأنه حتى بفرض صحتها فلا يطعن ذلك في المعجزة .

ويقرب هذه المسألة إلى أفهامنا العلم الحديث عندما يقرر أن المادة يمكنها أن تتحول إلى طاقة غير مرئية تنفذ عبر الأجسام الصلبة ثم تعود مرة أخرى لحالتها الأولى .

ويشير د. رءوف عبيد إلى أنه «قد لوحظ في بعض المجلوبات الروحية أنها تجئ إلى غرف الجلسات ساخنة ثم تبرد تدريجيا»[٥] .

إلا أنه إذا كان «من الجن المؤمنين من يعاون المؤمنين[من البشر] ومن الجن الفساق والكفار من يعاون الفساق[من البشر] كما يعاون الإنس بعضهم بعضا»[٦] فإن ذلك ليس كتسخير سليمان عليه السلام للجن لا من حيث الكم ولا من حيث الكيف، يقول ابن تيمية[٧] «فأما طاعه مثل طاعة سليمان فهذا لم يكن لغير سليمان.

---

(١) الأشعرى: مقالات الإسلاميين جـ٢ ص١٢٤ . (٢) النمل : ٣٩ .

(٣) الرازى : التفسير الكبير جـ٢٤ ص١٩٧ .

(٤) انظر رءوف عبيد: مفصل الإنسان روح لا جسد جـ١ ص٩٦٧ :٩٨٦ .

(٥) السابق جـ١ ص ١٧٤ .

(٦) ابن تيمية: ص١١٦ . (٧) السابق ص ١١٦ .

حتى أنهم لبثوا في العذاب الذي وصفه الله تعالى بأنه مهين لما مات، ولم يعلموا بموته، واستمروا في العمل المتواصل ﴿فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾[1] .

وتسخير سليمان للجن بفرض التباسه مع تسخير الكهان لهم - ولا أراه ملتبسا، فهو جزء من معجزة كبرى هي تسخير الجن، والإنس والطير والريح.. الخ يقول تعالى[2] ﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير﴾ ويقول[3] ﴿ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره﴾ .

وأما دعوى اللبس بين معجزة إسرائه - ﷺ - وبين قدرة الجن على فعل مثل ذلك فقد أفردنا لذلك ملحقا خاصا في نهاية الكتاب [4] .

ولكن إذا كان اختراع الجواهر من العدم إلى الوجود ممتنع غير ممكن البتة لأحد دون الله تعالى مبتدئ العالم ومخترعه، فمن ظهر عليه اختراع جسم كالماء النابع من أصابع رسول الله(ﷺ) بحضرة الجيش، فهي معجزة شاهدة من الله تعالى له بصحة نبوته.

فهل يمكن للجن إحضار شيء فيظن أنه خلق من العدم؟

يقول ابن تيمية مفرقا بين فعل الجن والمعجزة هنا :

«وكذلك إحضار ما يحضر من طعام أو نفقة أوثياب أو غير ذلك من الغيب، وهذا إنما هو نقل مال من مكان إلى مكان، وهذا تفعله الإنس والجن ولكن الجن تفعله والناس لا يبصرون ذلك وهذا بخلاف كون الماء القليل نفسه يفيض حتى يصير كثيراً بأن ينبع من بين الأصابع من غير زيادة يزادها، فهذا لا يقدر عليه إنسي ولا جني» [5] ..

«وكذلك الطعام القليل يصير كثيراً، وهذا لا يقدر عليه لا الجن ولا الإنس، ولم يأت النبي - ﷺ - قط بطعام من الغيب ولاشراب، وإنما كان هذا يحصل

---

(١) سبإ : ١٤ .
(٢) النمل : ١٧ .
(٣) الأنبياء : ٨١ .
(٤) انظر ملحق رقم (١) .
(٥) ابن تيمية : النبوات ص٥:٧ .

لبعض أصحابه كما أتي خبيب بن عدي وهو أسير بمكة بقطف من عنب، وهذا الجنس ليس من خصائص الأنبياء ومريم عليها السلام لم تكن نبية، وكانت تؤتى بطعام»[1] .

ولكن السؤال الآن هو: ما الفرق بين خلق الماء في مكان العدم، وبين خلقه بجوار القليل ليصير كثيراً؟ وألا يمكن أن تنقل الجن الماء الكثير حيث يوجد القليل؟ أعتقد أن كلام ابن تيمية هنا يجعل فعل الجن أعم من فعل الرسول لأنها قد توجد الشيء في مكان العدم وفي مكان وجود القليل منه بعكس الرسول الذي لا يوجده إلا في مكان وجود القليل فقط وإلا فما الذي يمنع الجن من إيجاد الشيء بجوار القليل منه، طالما تستطيع إيجاده في مكان العدم ؟؟ .

هذا هو ما تراه عين الرائي، أما حقيقة كيفية وجود هذا، ووجود هذا، فهذا لا تراه عين معظم المخاطبين بالمعجزة، فالعين لا تفرق بين ما وجوده من عدم، وما وجدوه من إحضار الجن إياه، فنحن لا نرى الجن ولا نرى ما تحضره إلا وهو حاضر أمامنا، فهو يحضر بحيلة من حيل الجن لا تجعلنا نراه وهو يحضر .

فمعجزة الرسول في إيجاد الشيء لا تشترط أن يكون حيث يوجد القليل منه، وها هو عيسى بن مريم عليه السلام يأتي بمائدة من السماء لا في موضع وجود القليل منها وهذه المعجزة لا يعرف الفرق بينها وبين ما يكون بمعونة الجن إلا من يعرف أن الجن لم تأت بذلك .

كالجن أنفسهم وهم من أمة الدعوى، أو من جعل الله تعالى له علما بذلك من الإنس لسبب من الأسباب أو بدون أسباب .

وأما إيمان غير هؤلاء بمثل هذه المعجزة فمؤسس على الانبهار بالخارق أو الجهل بوجود اللبس بينه وبين غيره من أفعال الجن أو على اتخاذ أهل الاختصاص بذلك الذين أمنوا ـ قدوة لهم .

كما قد يكون مؤسسا على معرفة الفرق بالنظر إلى حال الداعي، وقيمة الدعوة .

---

(١) السابق ص١١٥ .

ولا يشترط في كل معجزة أن يفهمها كل الناس ويدرك وجه إعجازها بل يكفي بعضهم على ما سنبينه في مبحث نسبية الدلالة[1] .

ثم إن هذه المعجزة بالذات فكانت تأتي للرسول وأصحابه في ساعات العسرة كمعونة قبل أن تأتي كدليل على الصدق، وإن كانت دليلا على الصدق.

وإتيان عيسى عليه السلام قومه بالمائدة لم يكن ابتداء منه في غير ساعات العسرة، ولكن قومه هم الذين طالبوه بها، وألحوا في طلبها، وما داموا هم الطالبون لها، فمعنى ذلك أنهم يعتبرونها مقنعة بالنسبة لهم، دالة على الصدق لا تشتبه بغيرها، فأجابهم وحذرهم بالعذاب الذي لم يعذبه أحداً من العالمين لمن يكفر منهم بعد .

يقول تعالى[2] **﴿إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا، ونعلم أن قد صدقتنا، ونكون عليها من الشاهدين، قال عيسى ابن مريم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وءاخرنا وءاية منك، وارزقنا وأنت خير الرازقين، قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾** .

ى ـ حقيقة قدرة السحر على إنطاق الجماد والحيوان :

قال الطاعنون في المعجزات: «إن الناس يجوزون دخول الجني في بدن المصروع. وأن يخبر عن الغيوب على لسان المصروع، فلما جوزوا ذلك، فلم لا يجوزون: أن الذئب لما تكلم مع الرسول عليه السلام، أو الجمل لما تكلم معه أو الذراع المسموم لما تكلم معه، فذلك الكلام إنما حصل لأجل أن الجني نفذ في بطن الذئب والجمل والذارع؟ ومع قيام هذا الاحتمال: فكيف قطعوا بأنه معجز حصل بخلق الله تعالى ؟» [3] .

والجواب عن ذلك أن نقول :

إن هذه الخوارق السابقة معجزة وإن خفي على كثير منا وجه الإعجاز فيها،

---

(١) انظر الفصل الخامس من الباب الرابع .

(٢) المائدة :١١٢ ، ١١٥ .　　(٣) الرازى : النبوات ص ١١٠ .

لأن المعجزات منها ما هو كبير ومنها ما هو صغير، فهي نسبية، وكذلك فهمها نسبي يتفاوت من فرد لآخر، فقد يفهم فرد ما لا يفهمه الآخر، كل حسب عقله، وثقافته.. إلخ [1] .

فهذا الخارق مثلا يفهمه الجن جيداً وهم من أمة الدعوة .

وقد يؤمن به إنسي ..:

- إما لعلمه بالفارق لسبب من الأسباب .
- أو لجهله بقدرة الجن على ذلك لله
- أو لاقتدائه بغيره من أهل العلم بالفارق .
- أو لثقته في صاحب الخارق لما رآه عليه من كمال حاله، وعلو دعوته .

* * * *

ومما سبق يتضح لنا حدود الفارق بين المعجزة والسحر بناء على شواهد العقل والواقع المؤيدة بالشرع لا كما يقول القاضي أبو بكر بن الطيب :

«إنما منعنا ذلك[أي عدم التفرقة بين السحر والمعجز] بالإجماع ولولاه أجزناه»[2] .

لأن التفرقة بين المعجز والسحر لا تؤخذ من الإجماع ولا من الشرع، ولكن تؤخذ من العقل المحض والواقع المشاهد واعتراف السحرة أنفسهم لأن الشرع وقتئذ لما يثبت بعد.

---

(١) انظر مبحث نسبية الدلالة في الفصل الخامس من الباب الرابع .

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن جـ ١ ص ٤٣٧ .

الفصل الثـانـي
المعجزة والكرامة

- تعريف الكرامة .

- وجود الكرامة .

- الفارق بين المعجزة والكرامة .

تعريف الكرامة :

لقد عرف القدماء الكرامة تعريفات عدة تدور في مجملها حول نفس المعنى فقد عرفها عبد الكريم الفوي بأنها«أمر خارق للعادة تظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبي، كلف بشريعة مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح علم بها أو لم يعلم»[1] .

وأرى أن اشتراطه أن تكون(على يد عبد ظاهر الصلاح)هو في حكمنا على الكرامة بأنها كرامة أي في معرفتنا لها لا في وجودها لأن الكرامة تشترط الصلاح في الظاهر والباطن.

وقوله(ملتزم لمتابعة نبى)يغنى عن قوله «كلف بشريعة مصحوب بصحيح الاعتقاد» .

ولا يخرج المعجزة التي تكون على يد أنبياء ليسوا بأصحاب شرائع جديد كأنبياء بنى إسرائيل وقوله(أولم يعلم) أراه متعارضا مع هدف الإكرام .

وزاد بعضهم«ليس بنبي في الحال ولا في المآل»[2]ليخرجوا المعجزةوالإرهاص

واشترط ابن عربي العلم بها حيث يقول:[3] «ولا يصح كون ذلك كرامة إلا بتعريف إلهي لا بمجرد خرق العادة» وهو صحيح .

وأرى أن التعريف الصحيح للكرامة: هي أنها أمر خارق لعادة عامة الخلق أجمعين يجريه الله على يد عبد صالح غير مدع للنبوة إكراما له .

وقولنا: «أمراً» تجنبا لذلك الخلاف الشكلي الذي وقع فيه المتكلمون من أنه هل الإكرام كما يكون بالفعل يكون بعدم الفعل؟أم أن الإكرام إنما يكون في الفعل فقط ويؤول غيره إليه.

وقولنا«خارقا للعادة»المقصود به عادة عامة الخلق أجمعين دون خاصتهم وهم الملائكة والأنبياء والأولياء. فقد تكون خارقة لعادتهم وقد لا تكون.

واستثناء الملائكة لأن الله تعالى قد يجعلهم أسبابا في حدوث بعض الكرامات، ومن ثم فقد تكون الكرامة خارقة لعادة الملائكة وقد لا تكون .

---

(١) عبد الكريم الفوى : عقائد التوحيد عن تحفة المريد على الجوهرة جـ ١ ص ٧٣ .
(٢) السنوسى :شرح الكبرى ص ٤٤٨ .
(٣) ابن عربى : الفتوحات المكية جـ ٢ ص ٣٦٩ .

واستثناء الأنبياء لأن كل كرامة لولي هي معجزة لنبيه عليه السلام.

واستثناء الأوليـاء لأنه قد يشارك بعضهم البـعض في بعض الكرامات ومن ثم فقد تكون كرامة الولي خارقة لعادة غيره من الأولياء وقد لا تكون.

وكونها أمراً خارقا لعادة عامة الخلق أجمعين المقصود به أيضا عادتهم . «في أنفسهم أو في غيرهم» لأن الإسراء مثلا وإن لم يكن خارقا لعادة الجن في أنفسهم وإن لم يكن خارقـا لعادة الإنس في غيرهم إلا أنه خـارق لعادة الإنس والجن في الإنس .

وقولنا«تجري على يد عبد» يخرج الخوارق العامة التي لا تكون على يد أحد من الخلق كخلق السموات والأرض مثلا .

وقولنا«غير مدع للنبوة»يخرج المعجزة وقولنا«إكراما له» يحدد هدف الكرامة وهي الإكـرام لا مجـرد التخليص من المحـن والبلايا كـالمعونة،وإن صـاحب هذا الهدف أنها دليل على صدق نبوة النبي الذي يتبعه الولي صاحب الكرامة .

وقولنا«إكراما له» يخرج كذلك الإرهاص الـذي قد يكون خارقا للعادة أيضا كالكرامـة تماما ولا يكون الفرق بينه وبين الكرامـة إلا أن الكرامة هدفهـا الأساسي الإكرام،والإرهاص وإن كـان يهدف للإكرام أيضا إلا أن هدفـه الأساسي هو لفت الأنظار إلى شخص نبي المستقبل والإرهاص بنبوته .

حقيقة وجود الكرامة

اختلف العلمـاء في حقيـقة وجود الكرامـة فالمعتزلة يـنكرونها،وأهل السنة يثبتونها،وبقولهم قال أبو الحسين البصري من المعتزلة.وصاحبة محمد الخوارزمي[١] «واختلف الروافض في ذلك ففرقة منهم أجازتها وفرقة منعتها»[٢].

والكرامة جائزة عقلا،واردة سمعا .

حكاها القـرآن عن:آصف بن برخيـا،وزير سليمـان عليه السلام فـي قوله

(١) انظر ـ الرازى:الأربعين جـ ٢ ص١٩٩ . و التـفـسيـر الكبيـر جـ١٤ ص ١٩٦ . و الجـوينى: الإرشاد ص٢٦٦.

(٢) الأشعرى : مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ١٢٣ .

تعالى ﴿**قال الذي عنده علم من الكتاب أنا ءاتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك**﴾(١)

ورواها كذلك عن الخضر - عليه السلام - في قوله تعالى﴿ **آتيناه رحمة من عندنا وعلمنها من لدنا علما**﴾(٢)فقتل الغلام، وخرق السفينة، وبنى الجدار بلا أجر.

وحكاها كذلك عن مريم - عليها السلام - في قوله تعالى﴿**فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا**﴾(٣)وفي قوله﴿**وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا**﴾(٤) وفي قوله﴿**كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله،إن الله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾(٥) .

وحكاها القرآن كذلك عن الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه﴿**قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم.قال بل لبثت مائة عام**﴾ (٦) .

ورواها القرآن كذلك عن أهل الكهف في قوله تعالى ﴿**ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا**﴾(٧) .

وإن كان هناك خلاف في الذي عنده علم من الكتاب الذي نقل عرش بلقيس(٨) وكذلك في نبوة بعض هؤلاء السابق ذكرهم (٩) .

ووردت الكرامة كذلك؛ في السنة النبوية في كثير من الأحاديث الشريفة .

ففي الصحيحين عن النبي - ﷺ -:«لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر»(١٠) .

وعنه - ﷺ أنه قال، قال تعالى «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»(١١)

---

(١) النمل : ٤٠ . (٢) الكهف : ٦٥ .(٣) مريم :١٧ . (٤) مريم : ٢٥ . (٥) آل عمران : ٣٧ .

(٦) البقرة:٢٥٩ . (٧) الكهف: ٢٥ . (٨) انظر الرازى : التفسير الكبير جـ٢٤ ص ١٩٧ .

(٩)انظر عبد الفتاح الفاوى : العقيدة ص ١٦٤ : ١٧٠ . (١٠) رواه البخارى:فى صحيحه فى الباب(٦) من كتاب فضائل الصحابة والباب(٥٤) من كتاب الأنبياء، ومسلم فى صحيحه برقم(٢٣) من كتاب فضائل الصحابة،والترمذى فى سننه فى باب(١٧)من كتاب المناقب،وأحمد فى المسند جـ ٦ ص ٥٥.

(١١) رواه البخارى فى صحيحه فى باب(٣٨)من كتاب الرقاق .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ ـ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ وصبي في زمن جريج الناسك. وصبي آخر...»[١].

وعن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله ﷺ.. خرج ثلاثة فغيمت عليهم السماء. فدخلوا غاراً فجاءت صخرة من أعلى الجبل حتى طبقت الباب عليهم، فعالجوها، فلم يستطيعوها فقال بعضهم لبعض لقد وقعتم في أمر عظيم، فليدع كل رجل بأحسن ما عمل لعل الله تعالى أن ينجينا من هذا.... فتدحرجت الصخرة فخرجوا يمشون»[٢].

وفي حديث الغلام الذي ترك الساحر، وأتى الراهب الذي رواه مسلم ـ يقول ﷺ ـ «وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء»[٣] وغير ذلك من الأحاديث كثير.

وورد في الآثار عن كثير من الصحابة، وتابعيهم وإلى يومنا هذا الكثير من الكرامات.

فعمر بن الخطاب وهو فى المدينة يرى سارية بن حصن وجيشه فى آسيا الصغرى ويصيح وهو على المنبر يوم الجمعة محذراً سارية، بقوله يا سارية الجبل الجبل وسمعه سارية وجيشه، واستجاب لتحذيره[٤].

ولا يقال بالطبع إن ما حدث لعمر هنا هو نوع من الجلاء البصري وما حدث لسارية هو نوع من الجلاء السمعي[٥] لأن كل جيش سارية سمع عمر، ولا يعقل وجود الجلاء السمعي في مثل هذا العدد ولمرة واحدة لا يتكرر بعدها.

---

(١) انظر البخارى: فى صحيحه فى الباب (٤٨) من كتاب الأنبياء ومسلم فى صحيحه فى الباب(٨) من كتاب البر وأحمد فى المسند جـ٢ ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨ .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه فى الباب (١٢) من كتاب الإجارة وأحمد فى المسند جـ ٢ ص ١١٦ .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه فى الباب(٧٣) من كتاب الزهد،وأحمد فى المسند جـ ٦ ص ١٧ .

(٤) انظر الرازى:التفسير الكبير جـ٢١ ص٨٧،وانظر ابن القيم:الروح ص٣٥٧ وابن كثير:البداية والنهاية ١٤٣/٧ ـ ١٤٤ وقال ابن كثير وهذا إسناد حسن ووافقه الألبانى .

(٥) انظر المزيد من التفاصيل عن الجلاء السمعى والبصرى:د.رءوف عبيد:الإنسان روح لا جسد جـ١ ص١٦٦ .

وخالد بن الوليد أكل السم بعد تسمية الله وما ضره [1] .

والعهد الجديد كذلك يثبت الكرامات وفي أكثر من موقع، فقد ورد فيه على لسان المسيح عليه السلام: «الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضا، ويعمل أعظم منها لأني ماض إلى أبى»[2] .

وورد في العهد القديم كذلك كثير من الكرامات .

منها قصة الفتيان الثلاثة الذين ألقوا في النار فلم تؤذهم[3] ومنها قصة الكهنة حاملي تابوت الرب الذين بمجرد أن وطئت أقدامهم نهر الأردن توقفت المياه وانقطعت تماما وظل الكهنة واقفين في وسط النهر حتى تم عبور الشعب بأكمله للنهر مقابل أريحا[4] .

ومن ثم فإن جعل من جعل ما ثبت من الكرامات في القرآن والسنة من الأمور الخاصة التي لا يقاس عليها، فلا دليل عليه لا من قرآن ولا من سنة، ولا من واقع مشاهد .

يقول ابن تيمية: والكرامة «مشهودة لمن شهدها متواترة عند كثير من الناس أعظم مما تواترت عندهم بعض معجزات الأنبياء. وقد شهدها خلق كثير لم يشاهدوا معجزات الأنبياء فكيف يكذبون بما شهدوه، ويصدقون بما غاب عنهم ويكذبون بما تواتر عندهم أعظم مما تواتر غيره؟» [5] .

ثم كيف ينكر الكرامة قوم وهم لا ينكرون الدعوات المجابة ولا ينكرون الرؤى الصادقة فإن هذا متفق عليه ثم إن الله تعالى قد يخص بعض عباده بإجابة دعائه أكثر من بعض، ويخص بعضهم بما يريه من المبشرات أكثر من غيره .

وقد ثبت في الصحيح عن النبى - ﷺ - أنه قال «لم يبق من النبوة إلا

---

(١) انظر الرازى : التفسير الكبير جـ ٢١ ص ٨٩ .

(٢) يوحنا - الأصحاح الرابع عشر آية ١٣ .

وانظر أعمال الرسل ٣/٢-٧، ٩/٤٠، ١٦/١٨، ١٩/١٢، ٢٠/١٠-١٢ .

(٣) انظر سفر دانيال ٣ /٨ - ٢٧ . (٤) انظر سفر يوشع ٣ / ١٤ - ١٧ .

(٥) ابن تيمية : النبوات ص ٢ .

المبشرات، قالوا، وما المبشرات قال الرؤيا الصالحة»[1] .

وثبت كذلك في الصحيح عنه ـ ﷺ ـ أنه قال«رب أشعث مدفوع الأبواب لو أقسم على الله لأبره»[2]. ذكر ذلك لما أقسم أنس بن النضر أنه لا تكسر ثنية الربيع فاستجاب الله ذلك، وأيضا فإن منهم البراء بن مالك أخو أنس بن مالك، وكانوا إذا اشتدت الحرب يقولون يابراء اقسم على ربك فيقسم على ربه فينصرون، والقسم قيل هو من جنس الدعاء لكن هو طلب مؤكد بالقسم، فالسائل يخضع ويقول اعطني، والمقسم يقول عليك لتعطني، وهوخاضع سائل. لكن من الناس من يدعى له من الكرامات مالا يجوز أن يكون للأنبياء. كقول بعضهم إن لله عبادا لو شاءوا من الله أن لا يقيم القيامة لما أقامها وقول بعضهم إنه يعطى كن أي شيء أراده قال له كن فيكون، وقول بعضهم لا يعزب عن قدرته ممكن كما لا يعزب عن قدرة ربه محال[3] . وهذا بالطبع باطل

ثم«إن تشريف الله تعالى عبده بمعرفته ومحبته أعظم وأعلى من إعطائه رغيفا في المفازة أو سقيه شربة من الماء، وإذا لم يبعد الأول، كيف يبعد الثاني؟»[4] .

«والملك الذي يصدق مدعي الرسالة بما يوافقه وبما يطابق دعواه لا يمتنع أن يصدر مثله إكراما لبعض أوليائه، ولا يقدح مرام الإكرام في قصد التصديق إذا أراد التصديق»[5] .

والمنكرون للكرامة يزعمون أن قول النبي لا يأتي أحد بمثل ما أتيت به يمنع من وقوع شيء من معجزات الأنبياء على أيدي الأولياء لئلا يؤدي إلى تكذيب من ثبت صدقه، واستدلالهم باطل لأنه يجوز أن تتكرر المعجزة الواحدة على يد أكثر من نبي دون أن يطعن ذلك في التحدي وصدق أي منهم بل كل منهم يصدق الآخر إذ معنى التحدي : لا يأتى كاذب بمثل ما أتيت به .

---

(١) رواه البخارى : فى صحيحه جـ ٩ ص ٤٠ .
(٢) رواه مسلم فى صحيحه فى الباب (١٣٨) من كتاب البر .
(٣) انظر ابن تيمية : النبوات ص ٢٦٧ .
(٤) الرازى : الأربعين جـ ٢ ص ٢٠٣ .
(٥) الجوينى : الإرشاد ص ٢٦٩ .

وإذا كانت آيات الأنبياء هي شهادة من الله، وإخبار منه بنبوتهم، فلا تجب أن تكون في محل النبوة، ولا زمانها، ولا مكانها، لكن يجوز ذلك وإذا كانت كرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسوله فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول فكرامات الأولياء هي من آيات الأنبياء، فإنها مختصة بمن شهد لهم بالرسالة، وكل ما استلزم صدق الشهادة بنبوتهم فهو دليل على صدق هذه الشهادة سواء كان الشاهد بنبوتهم المخبر بها هم أو غيرهم، بل غيرهم إذا أخبر بنبوتهم وأظهر الله على يديه ما يدل على صدق هذا الخبر، كان هذا أبلغ في الدلالة على صدقهم من أن يظهر على أيديهم [1] .

وإذا كان هؤلاء المنكرون للكرامات يقولون إن ما جرى لمريم، وعند مولد الرسول هو إرهاص أي توطئة، وإعلام بمجئ الرسول، فما خرقت العادة في الحقيقة إلا لنبي، فإنه إذا كان ما تقدمه ـ على قولهم ـ من معجزاته فلما لا يكون ما تأخر عنه كذلك على سبيل الكرامة على يد اتباعه .

واحتج المنكرون بأنه لو جاز ظهور هذه الخوارق في حق بعض الأولياء لجاز ظهورها في حق الباقين، وعلى هذا التقدير يخرج انخراق هذه العادات عن كونه دليلا على النبوة، وعن كونه دليلا على الولاية .

وفاتهم أنه إذا جاز وقوع خوارق العادات الكثيرة نسبيا في حق الأنبياء دون أن تصبح عادات فلما لا يجوز ذلك في حق الأولياء .

والله تعالى يقول: (٢)﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ ويقول على لسان إبليس[٣] ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ .

وإذا حصلت القلة فيهم لم يكن ما يظهر عليهم من الكرامات في الأوقات النادرة قادحا في كونها على خلاف العادة .

واحتج المنكرون بأنه لو ظهرت هذا الخوارق على النبي وعلى غيره لم يبق لظهورها وقع ولا مرتبة، كما أن المنصب الذي يصل إليه الشريف والخسيس فإنه لا يبقى له وقع .

---

(١) انظر ابن تيمية : النبوات ص ١٤٢، ٢٥٥ . ، والفرقان ص ١٢٩ .
(٢) سبأ :١٣ . (٣) الأعراف : ١٧ .

وجواب ذلك: أن ما بين المعجزات والكرامات من الفروق كثير فليس معنى أن كرامات الأولياء معجزات لأنبيائهم أن لا فرق بينهما فالكرامات نوع خاص من المعجزات، وكل كرامة معجزة وليس كل معجزة يمكن أن تكون كرامة .

واحتج المنكرون بأن تجويز الكرامات يفضي إلى القول بالسفسطة لأنا إذا جوزنا الكرامات فلعل الله تعالى قلب الجبل ياقوتا كرامة لبعض الأولياء ولعله جفف البحر كرامة لولي ثان ولعله خلق هذا الإنسان الشيخ في هذه الساعة كرامة لولي ثالث، وقس على ذلك .

إلا أن منكر الكرامة يلزمه ذلك الإشكال أيضا لأنه إن أثبت للعالم فاعلاً مختاراً، فلعل ذلك الفاعل فعل هذه الأمور من قلب الجبال ذهبا، وقلب البحار دما، وما يشبهه، إما من غير رعاية مصلحة عند من لا يوقف فاعلية الله تعالى على رعاية المصلحة، أو لمصلحة لا نعرفها نحن عند من يوقف فاعلية الله تعالى على رعاية المصالح. وأما من ينكر الفاعل المختار فيلزمه هذا الاحتمال أيضا، لأن سبب حدوث الحوادث فى هذا العالم على مذهبه تشكلات فلكية واتصالات كوكبية، ومن ثم فلا يبعد أيضا أن يحدث في الفلك تشكل غريب يوجب حدوث هذه الحوادث في هذا العالم، فثبت: أن هذا الإشكال لازم على كل الفرق [1] .

ولكن لما كان الشيء قد يكون معلوم الجواز والإمكان، ومع ذلك يكون الجزم والقطع حاصلا بأنه لم يوجد، ولم يحصل[2] آمنا من ذلك الاحتمال وآمنا بوقوع الكرامات .

ثم إن إكرامه - تعالى - لأحد خلقه لا يتعارض مع حكمته في خلقه، فلا يؤدي إلى مثلا هذا الخلل في نظام الخليقة أبداً، لأن إكرامه من حكمته تعالى .

واحتج المنكرون بأنه لو ظهرت الكرامات على إنسان ثم ادعى ذلك الإنسان على أحد مالا، فإما أن يطالبه بالبينة أولا يطالبه ولا يجوز أن يطالبه، لأنه ظهر بتلك الكرامة كمال حاله، ودرجته عند الله ومتى كان كذلك امتنع أن يكون في ادعائه المال على الغير كاذبا .

ولا يجوز أن لا يطالب بالبينة لقوله عليه السلام: «البينة على المدعي،

---

(١) انظر الرازى : الأربعين جـ ٢ ص٢٠٣ : ٢٠٥ .　　(٢) انظر الرازى : النبوات ص ١٥٧ .

واليمين على المدعى عليه»[1] ولما بطل القسمان، علمنا أنه لا يجوز ظهور الكرامة.

وجواب ذلك أن الكرامة وإن كانت لا تظهر على معلن بفسقه، فلا تشهد بالولاية على قطع. إذ لو شهدت بها لأمن صاحبها العواقب، وذلك لم يجر لولي في كرامة اتفاقا.

وكرامات الصالحين تدل على صحة الدين الذي جاء به الرسول، لا تدل على أن الولي معصوم ولا على أنه يجب طاعته في كل ما يقول [2].

وابن حزم ممن ينكرون كرامات الأولياء ويرى أن «ما ذكر عمن ليس نبيا من قلب عين أو إحالة طبيعة فهو كذب إلا ما وجد من ذلك في عصر نبي فإنه آية لذلك النبي، وذلك الذي ظهرت عليه آية بمنزلة الجذع الذي ظهر فيه الحنين، والذراع الذي ظهر فيه النطق، والعصا التي ظهرت فيها الحياة. وسواء كان الذي ظهرت فيه الآية صالحا أو فاسقا»[3].

وكلام ابن حزم باطل لمخالفته المتواتر من الكرامات في كل زمان ومكان ثم إن من الكرامات ما يستحيل اشتباهه بالمعجزات لفقدانه شروطها الأساسية، فكرامات الأولياء بالرغم من كونها معجزات لأنبيائهم إلا أنها تخالفها في كثير من الشروط.

فواقعة أهل الكهف مثلا يستحيل أن تكون معجزة لنبى من الأنبياء لأنها لم تحدث على يد نبى من الأنبياء ولم يكن أي نبى على علم بها وقت حدوثها وأصحاب الكهف «اجتهدوا في إخفائها»[4].

حيث قالوا: **﴿ولا يشعرن بكم أحداً﴾**[5] وليس هذا هو منطق المعجزة في الغالب كما سبق بيانه.

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه فى الباب(٦)من كتاب الرهن،والترمذى فى سننه فى الباب(١١)من كتاب الأحكام،وابن ماجة فى سننه فى الباب(٧)من كتاب الأحكام.   (٢) انظر الجوينى :الإرشاد ص ٢٧١ . وابن تيمية :النبوات ص ٥ .   والرازي : الأربعين جـ٢ ص٢٠٥ .

(٣) ابن حزم : الفصل جـ٥ ص١٠٧ .

(٤) الرازى: الأربعين جـ٢ ص ٢٠٣.

(٥) الكهف : ١٩ .

ثم إن الناس لا يصدقونهم في هذه الواقعة لأنهم لا يعرفون كونهم صادقين في هذه الدعوى إلا إذا بقوا طول هذه المدة وعرفوا أن هؤلاء الذين جاءوا في هذا الوقت هم الذين ناموا قبل ذلك بثلثمائة سنين وتسع سنين فامتنع جعل هذه الواقعة معجزة لأحد من الأنبياء فلم يبق إلا أن تجعل كرامة للأولياء وإحسانا إليهم.

وكذلك الحال مع مريم عليها السلام، فما حدث لها يمتنع كونه معجزة لمن عاصرها من الأنبياء، فظهور جبريل عليه السلام لها وحبلها من غير ذكر ما كان يطلع عليه أحد إلا مريم فكيف يمكن جعل هذه الأشياء معجزة لزكريا عليه السلام؟

ومريم عليها السلام في الوقت الذي كان يقول جبريل عليه السلام لها **﴿وهزي إليك بجذع النخلة،تساقط عليك رطبا جنيا﴾**[1] ما كان أحد من البشر هناك حاضرا بدليل قوله تعالى: **﴿فإما ترين من البشر أحداً،فقولي:إني نذرت للرحمن صوما﴾**[2]فبطل القول بأن هذه الأشياء معجزة لزكريا عليه السلام، وهي لم تحدث على يديه .

وزكريا ـ عليه السلام ـ كان غافلا عن كيفية حدوث هذه الأشياء. بدليل قوله تعالى **﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا،قال يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله﴾** [3] فدل هذا على أن ذلك ما كان معجزة لزكريا عليه السلام ثم إنه تعالى ذكر هذه الخوارق في معرض تعظيم حال مريم، ولم يذكر معها ما يشعر بجعلها معجزة لأحد من الأنبياء ولو كان المقصود منها إظهار تصديق زكريا لا إظهار كرامة مريم لكان ذكر زكريا عند هذه الخوارق أولى من ذكر مريم[4]

وأنكر قوم الكرامات بدعوى أن أكثر ما يروى منها ليس عن الصحابة والأولين بل أكثره عن المتأخرين وطعنوا في نقلها وفي إمكانها وحجتهم في ذلك

---

(١) مريم : ٢٥ .　　(٢) مريم :٢٦ .　　(٣) آل عمران : ٣٧ .

(٤) انظر : الرازى : الأربعين جـ٢ ص ١٩٩ ـ٢٠٢ .

باطلة لأن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج أتاه الله منها ما يقوي إيمانه ويسد حاجته ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنيا عن ذلك فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها لا لنقص ولايته. ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة بخلاف من تجري على يديه الخوارق لهدي الخلق فهؤلاء أعظم درجة[١] .

ويعلل ذلك ابن تيمية أيضا بقوله«فكرامات الأولياء هي من آيات الأنبياء فإنها مختصة بمن شهد لهم بالرسالة، وكل ما استلزم صدق الشهادة بنبوتهم فهو دليل على صدق هذه الشهادة سواء كان الشاهد بنبوتهم المخبر بها هم أو غيرهم إذا أخبر بنبوتهم وأظهر الله على يديه ما يدل على صدق هذا الخبر»[٢]. ومن ثم ففي حالة وجود النبوة والمعجزة يقل الاحتياج للكرامة، من أجل الهداية .

وينقل ابن خلدون تعليلا لذلك عن أهل التصوف إذ يقولون: «إنه يقل في زمن النبوة [خرق العادة على سبيل الكرامة] إذ لا يبقى للمريد حالة بحضرة النبي»[٣] .

ويعلل ذلك ابن عربي بأن:

- ترك الكرامة - باستثناء العلم بالله - قد يكون ابتداء من الله وهو أنه عز وجل لا يمكن هذا الولي في نفسه من شيء من ذلك جملة واحدة مع كونه من أكابر عباده .

- وقد يكون هذا الولي أعطاه الله تعالى في نفسه التمكن من ذلك فيترك ذلك كله لله فلا يظهر عليه منه شيء أصلا [٤] .

ويستشهد ابن عربي على ذلك بأن الشيخ أبو عبد الله بن قايد لما سأل الشيخ أبا السعود بن الشبل لم لا تتصرف؟فقال تركت الحق يتصرف لي كما يشاء، يريد قوله تعالى آمرا﴿**فاتخذه وكيلا**﴾[٥] - [٦] .

---

(١) انظر ابن تيمية : الفرقان ص ١٣٨ .

(٢) السابق ص ١٤٢ وانظر الشهرستاني :نهاية الإقدام ص٤٩٧ - ٤٩٨ .

(٣) ابن خلدون:المقدمة ١١٠ . (٤) انظر ابن عربي : الفتوحات المكية جـ٢ ص ٣٧٠ .

(٥) المزمل :٩ . (٦) انظر ابن عربي : فصوص الحكم جـ١ ص ١٢٨ .

ويفسر ابن عربي ذلك بأنه إذا كانت«الأمـور مقررة أزلاً ولا قوة في الوجود أياً ما كانت تستطيع أن تمـحو كلمة واحدة مما خطته يد القدر ففـيم إذن يتصرفون؟ ولم يتصرفون»[1] فإذا كان الموجـود الحقيقي هو الحق وحـده، فإذا آنس الإنسان من نفسه قوة بعد ضعف، فالحق واهب هذه القـوة، بل هو صاحبها ومالكها في صورته فمن الجهل وسوء الأدب مع الله التصرف بها.

والتفسير الصوفي الذي وضعه ابن عربي لقوله تعالى: ﴿**الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعـد ضعف قوة ثم جعل من بعـد قوة ضعفا وشـيبة**﴾[2] يفهم فيه الشيبة على أنها رمز لحالة النضوج في المعرفة الصوفية[3] .

ويوضح ذلك ابن عربي بأن المعرفة لا تترك للهمة تصرفا فكلما علت معرفة الولي نقص تصرفه بالهمة[4] .

لأن الهمة لا تفعل إلا بجمعية القلب أي تركيزه وتوجيه نشاطه الروحي نحو أمر من الأمور أو شيء من الأشياء بقصد التصـرف فيه حسبما يريد العارف، ولكن هذه الجمـعيـة القلبيـة لا تتم أبداً لصاحب المعـرفة الكاملة، لأن شـعوره بالعـجز والقصور وإدراكه أن ما أودع فيه من القدرة على التصرف في الأشياء ليس له وأنه مجرد أداة في يد الخـالق يقفان حائلا دون حـصول هذه الجمعيـة في قلبة وإذا لم تحصل الجمعية القلبية في العارف لا يحدث التصرف[5] .

وبصرف النظر عن صحـة كلام ابن عربي هذا أو عدم صحتـه فما يعنينا هنا أنه حتى الصـوفية أنفـسهم ممثلين في شيـخهم الأكبر الملـقب بسلطان العارفين لا يربطون بين الكرامة والولاية من حـيث أن الكرامة تشترط الولاية أمـا الولاية فلا تشترط الكرامة .

والكرامة إن ظهـرت على يد الولي فيرى ابـن عربي أنه يجب عليه سـترها

---

(١) أبو العلا عفيفي : التعليقات على فصوص الحكم لابن عربى جـ ٢ ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

(٢) الروم : ٥٤ .

(٣) انظر أبو العلا عفيفي : التعليقات على فصوص الحكم لابن عربى جـ ٢ ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .

(٤) انظر ابن عربى : الفصوص جـ١ ص ١٢٧ .

(٥) انظر أبو العلا عفيفي : التعليقات على فصوص الحكم جـ ٢ ص ١٥٧ .

لأن«هذا هو مذهب الجماعة لأنه غير مدع ولا ينبغي له الدعوى فإنه ليس بمشرع، وميزان الشرع موضوع في العالم قد قام به علماء الرسوم أهل الفتاوى في دين الله»[1] .

ولا يستثني ابن عربي من ذلك إلا ما يقيمه الولي«في زمانه نيابة عن الرسول في المعجزة والآية على صدقه فجاء بها لأقامة الدليل على صدق الشارع والدين لا على نفسه أنه ولي بخرق هذه العادات»[2] .

ولذلك يقول ابن عربي[3] «والكرامة عند الأكابر من رعونات النفوس إلا على حد ما ذكرناه» .

وأنكر قوم الكرامة. وقالوا إن علم الكرامات فرع يؤاخي علم الأساطير، ويقترب من علم تفسير الأحلام والأمثال وسائر معطيات اللاوعي الجماعي[4] وليس لهم في ذلك أي دليل من عقل أو شرع أو واقع مشاهد بل كل ذلك يعارضهم فيما ذهبوا إليه كما سبق بيانه .

الفرق بين المعجزة والكرامة :

نود الإشارة في البداية إلى أن ما سبق اعتباره من أن كرامات الأولياء معجزات لأنبيائهم لا يعطي الكرامة كل شروط المعجزة بل تظل الكرامة كرامة والمعجزة معجزة فلا يعني اعتبار الكرامة للولي معجزة لنبيه من وجه اعتبارها من كل وجه فهناك الكثير من الفروق بين المعجزات والكرامات .

فهناك من يرى أن شرط الكرامة الخارقة للعادة أن تجري من غير إيثار واختيار من الولي، وهذا غير صحيح .

ومذهب المحققين جواز وقوع الخوارق كلها على يد الولي باختياره وبغير

(١) ابن عربي : الفتوحات المكية جـ ٢ ص ٣٧٠ .

(٢) السابق جـ ٢ ص ٣٧١ .

ويحكي ابن عربي في ذلك قصة رآها بنفسه انظر مبحث التأويل (الفصل الرابع من الباب الرابع) .

(٣) السابق جـ٢ ص ٣٧١ .

(٤) انظر علي زيعور:الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم .

اختياره[١] وهو ما يشهد له ما تواتر من الكرامات .

ومن الناس من فرق بين معجزات الأنبياء وكـرامات الأولياء بفروق ضعيفة، مثل قولهم: الكرامة يخـفيها صاحبها أو الكرامة لا يتـحدى بها، ومن الكرامات ما أظهرها أصحابها كإظهار العلاء بين الحضرمي المشى على الماء وإظهار عمر مخاطبة سارية[٢] على المنبـر و إظهـار أبي مسلم لما ألـقي في النار أنهـا صارت عليـه برداً وسلاما[٣] .

ومنها ما يتحدى بها أصحـابها على أن دين الإسلام حق كما فعل خالد بن الوليد لما شرب السم[٤] وكالغلام الذي أتى الراهب وترك الساحر، وأمر بقتل نفسه بسهمه باسم ربه وكان قبل ذلك قد خرقت له العادة فلم يتمكنوا من قتله[٥] .

ورأى آخرون أن الفارق بينهـما هو وقوع المعجزة مع دعـوى النبوة، والكرامة

---

(١) انظر الجويني: الإرشاد ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ . وانظر كذلك السنوسي : شرح الكبرى ص ٤٤٦ : ٤٤٨ .

(٢) حسن: ذكره ابن كثير في البداية(١٣/٧) وقال هذا إسناد حسن ووافقة الأستاذ الألباني، وخرجه كذلك ابن الأثير في أسد الغابة(٦٥،٥) وله طرق ارجع إليها في السلسة الصحيحة للأستاذ الألباني .

(٣) ذكره أبو نعيم في الحلية في ترجمته، وعنه ابن الجوازي في صفوة الصفوة(٢٠٨/٤، ٢١٣) وعند الحافظ في التـهـذيب(١٢ /٣٥، ٢٣٦) . (٤) أخـرجـه الهـيـثـمي في المجمع (٣٥٠/٩) وقـال رواه أبو يعلى والطبراني، وأحد إسنادى الطبراني رجاله رجال الصحيح، وهو مرسل . (٥) رواه مسلم في صحيحه في الباب(٧٣) من كتاب الزهد وأحمد في المسند جـ ٦ص١٧ . والفرق بين معجزة الإكرام كالمعراج مثلا وبين الكرامة ـ والتي هي أيضا معجزة للنبي الذي يتبعه الولي لأنها لم تحدث إلا بفضل اتباع الولي للنبي ـ وخاصة إن قام بها الولي للدلالة على صدق النبي . أن المعجزة هدفها الأول تصديق النبوة أو زيادة التصديق والإيمان . والإيمان يزيد يقول تعالى:﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من ءاياتنا إنه هو السميع البصير﴾ الإسراء :١ . أي أن هدف الإسراء هو رؤية الآيات ورؤية الآيات تزيد الإيمان يقـول تعالى﴿وإذا تليت عليـهـم آياته زادتهم إيمانا﴾ الأنفـال : ٢ . وها هو إبراهيم عليه السلام يقول﴿رب أرني كيف تحي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ البقرة:٢٦٠ . أي ليـزيد إيماني ويتـحـول من علم اليقين إلى عين اليـقـين والمعـجـزة لا تشـتـرط أن تخـاطب جـمـيع المكلفين، وليس هناك حد عقلي أو شرعي للقلة والكثرة في عدد المكلفين الواجب تواجدهم لرؤية المعجزة ومن ثم يكفي فيه الواحد حتى وإن كان هو نفس النبي صاحب المعجزة طالما كانت هناك دلائل أخرى على صدق النبوة . أما الكرامة فهدفها الأساسي الإكرام وهو مقدم على هدف التصديق لأن الله تعالى قادر على بعث الرسل إن كانت البشريه في حاجة إلى مزيد من البراهين على صدق الرسالة. أما بعد ختم النبوة فالمعجزة الخالدة تغني عن أي معجزة أخرى. وبالرغم من ذلك رحمة من الله تعالى بعباده جعل الكرامة للولي إكراما له أولا وتصديقا لنبيه ثانيا. وعلى أية حال فالفارق بين معجزة الإكرام والكرامة وخاصة الكرامة المقامة من الولي للدلالة على صدق النبي فارق هين جداً .

ليس معها دعوى نبوة وإن كان معها دعوى فدعوى الولاية لا النبوة[1] وذلك صحيح لأن من كرمات الأولياء ما يماثل معجزات الأنبياء تماما ولا يكون الفارق إلا بالدعوى .

وأضيف أن بعض المعجزات والكرامات يمكن أن يفرق بينهما بالنظر إلى درجة خارقية كل منهما فمن معجزات الأنبياء ما لا يكون مثله أبداً للأولياء، ومنها ما يشابه ما يكون للأولياء ومنها ما يماثل ما يكون للأولياء وهو فرق أراه صحيحا لأن العقل لا يمنع من اختصاص الأنبياء بما لا يكون للأولياء بل يؤيد ذلك لأنا قلنا من قبل إن المعجزة دليل على الصدق ولابد للنبي من دليل على صدقه أما الكرامه، فهي إكرام للولي ولا حاجة للولي لمعرفة الناس أنه صادق ولكن حاجتهم في العلم بأن النبي صادق وشرعه من عند الله حتى يتبعوه فيهتدوا .

والعقل لا يمنع كذلك من وجود معجزات للأنبياء تماثل كرامات الأولياء طالما كانت الكرامات تدل على صدق الأنبياء إذا حدثت على يد اتباعهم .

ثم إن الواقع يؤكد ذلك، فكان القرآن مثلا معجزة كبرى خاصة بخاتم الرسل وليست لأحد سواه سواء كان نبيا أو وليا وكان في الوقت نفسه إبراء الأكمه والأبرص معجزة لعيسى عليه السلام وكرامة لغيره من الأولياء على ما سنبينه في مبحث الدلالة .

وخالف قوم في ذلك، فأنكر بعضهم المماثلة وليس لهم في ذلك دليل لا من عقل ولا من شرع ولا من واقع مشاهد بل كل ذلك يخالف مذهبهم[2] .

ولم ير بعض آخر إلا المماثلة ولم يفرق بين المعجزة والكرامة إلا من حيث الدعوى فقط، ويجيز أن يحدث على يد الولي كل ما يحدث على يد النبي .

---

(١) انظر الإيجي : المواقف ص ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٧٠ . و الجويني :الإرشارد ص ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٩ .
والسنوسى : شرح الكبرى ص ٤٤٦، ٤٤٨ . والرازى : الأربعين جـ ٢ ص٢٠٥ .
وابن سينا : رسالة فى الفعل والانفعال ص ٣ .

(٢) انظر مبحث نسبية الدلالة في الفصل الخامس من الباب الرابع .

يقول إمام الحرمين[1] : «فإن قيل: فما الفرق بين الكرامة والمعجزة؟ قلنا: لا يفترقان في جواز العقل إلا بوقوع المعجزة على حسب دعوى النبوءة» .

«وجنس المعجزة يقع من غير دعوى»[2] .

«والمرضي عندما تجويز جملة خوارق العوائد في معارض الكرامات» [3] .

ويقول السنوسي[4]: «ومن الأئمة من فرق بينهما بأن كل ما وقع من الخوارق معجزة لنبي لا يقع كرامة لولي كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص وقلب العصا حية، وفلق البحر أطواداً. . . ومذهب المحققين جواز وقوع الخوارق كلها على يد الولي. . . . وأن الفارق بينها وبين المعجزة. . . دعوى النبوة وعدمها».

ويقول ابن عربي[5] : «واختلف الناس فيما كان معجزة لنبي هل يكون كرامة لولي أم لا فالجمهور أجاز ذلك؛ إلا الأستاذ أبا اسحاق الإسفراييني فإنه منع من ذلك وهو الصحيح عندنا إلا أنا نشترط أمراً لم يذكره الأستاذ وهو أن نقول إلا إن قام الولي بذلك الأمر المعجز على تصديق النبي لا على جهة الكرامة به» .

وما ذكره ابن عربي أيضا لا يسلم من الخلط بين المستويات لأن ما يقوم به الولي لا يصل أبداً إلى مثل الإتيان بالقرآن فمن المعجزات ما يستحيل أن يكون لغير الأنبياء أبداً وإن جاز كما قلنا أن تقترب بعض المعجزات وتشبه بعض الكرامات، بل وتماثلها أحيانا، إلا أن هناك درجة من المعجزات يستحيل أن تماثلها الكرامات أو تشبهها، لأنه إذا كانت المعجزات منها الكبير ومنها الصغير وكانت الكرامات كذلك متدرجة، فإن الأنبياء أحق بالدرجات العليا من الخوارق لأنهم رسل الله إلى خلقه وهم أحواج إلى هذه الخوارق لهداية أقوامهم .

بل إنه تعالى خص النبي الواحد من الأنبياء بآيات لم يأت بها غيره من الأنبياء .

ولا يطعن في قولنا أن تأييد النبي أعظم من تأييد الولي قول القائل إن

---

(١) الجويني: الإرشاد ص ٢٦٩ .
(٢) السابق : ص ٢٧٦ .
(٣) السابق : ص ٢٦٦، ٢٦٧ .
(٤) السنوسي : شرح الكبرى ص ٤٤٧ .
(٥) ابن عربي :الفتوحات المكية جـ ٢ ص ٣٧٤ .

آصف بن برخيا وزير سليمان ـ عليه السلام ـ استطاع نقل عرش بلقيس وعجز سليمان عن ذلك .

لأنا نقول: إن نقل العرش مختلف فيمن نقله فقيل إنه هو سليمان نفسه عليه السلام، وقيل هو آصف بن برخيا. وقيل غير ذلك[١] وباعتبار أن من نقله هو سليمان ـ عليه السلام، فيكون ذلك حينئذ معجزة لسليمان عليه السلام .

أما إذا اعتبرنا أن الذي نقله هو آصف بن برخيا فلا يناقض ذلك ما سبق أن قلناه عن درجات المعجزة والكرامة، لأن نقل العرش ليس من ذلك النوع من الخوارق الكبرى الذي يختص به الأنبياء وحدهم، بل هو من ذلك النوع الذي يشترك فيه الأنبياء والأولياء[٢] بدليل قدرة الجن على ما يقارب ذلك **﴿قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾**[٣] .

وإذا كان ذلك كذلك فلا مانع من تميز ولي على نبي بشيء من ذلك لأن المزية لا تقتضي الأفضلية، فتميز الخضر على موسى عليهما السلام لم يجعله أفضل منه، وموسى من أولي العزم من الرسل بدليل قوله تعالى **﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا﴾**[٤] . «والخضر متنازع في نبوته»[٥] .

وليت الأمر يقف عند الخلط بين الكرامة والمعجزة بل تعداه إلى الخلط بين المعجزة والسحر، والكرامة والسحر، حتى إن قوما ذهبوا إلى أن ذلك كله من باب واحد لا يفرق إلا بالدعوى والتحدي وعدمهما، أو بالصلاح والفساد فقط .

يقول السنوسي[٦] : «وأما الفرق بين الكرامة وبين السحر فهو أن الكرامة ظهور الخارق على يد عبد ظاهر الصلاح بخلاف السحر فإن الخارق فيه إنما يظهر على أيدي الكفرة والفساق» .

---

(١) انظر الرازي : التفسير الكبير جـ ٢٤ ص ١٩٧ ـ ١٩٨ .
(٢) انظر نسبية الدلالة في الفصل الخامس من الباب الرابع
(٣) النمل : ٣٩ .
(٤) الأحزاب:٧ . وانظر تفسير ذلك:في ابن كثير:تفسير القرآن العظيم جـ٢ ص٤٦٩ .
(٥) انظر ابن حجر العسقلاني :الزهر النضر في نبأ الخضر ص ٢٣ :٢٥ .
(٦) السنوسي : شرح الكبرى ص ٤٤٧: ٤٤٨ .

ويقول الغزالي[1] : «فإن كان مع التحدي فإنا نسميه معجزة ويدل بالضرورة على صدق المتحدي، وإن لم يكن دعوى فقد يجوز ظهور ذلك على يد فاسق لأنه مقدور في نفسه» .

ويتفق الغزالي مع ابن سينا بل يكاد يتطابق نص كلامه مع قول ابن سينا : «فالذي يقع له هذا في جبلة النفس ثم يكون خيراً رشيداً مزكيا لنفسه فهو ذو معجزة من الأنبياء أو كرامة من الأولياء . . . . والذي يقع له هذا الكمال ثم يكون شريراً ويستعمله في الشر فهو الساحر الخبيث»[2] .

وقد رددنا على ذلك في موضع آخر من هذه الدراسة[3]، وهذا الخلط بين مستويات الخارق هو أيضا سبب توهم بعض العلماء أن الكرامة قد تعارض. يقول الفخر الرازي[4] : «يجب نفي المعارضة عن المعجزة ولا يجب نفيها عن الكرامة» .

والكرامة خارق حقيقي للعادة، ولا تعارض، وإنما الذي يعارض هو المعونة لا الكرامة، وإلا ما استحقت الكرامة لفظ كرامة[5] .

ثم إنه إذا كان لا فارق بين الكرامة والمعجزة إلا الدعوى، وكانت الكرامة تعارض فمعنى ذلك أيضا أن المعجزة تعارض !

---

(١) انظر الغزالى :الاقتصاد فى الاعتقاد ١٢٥ .   (٢) انظر الغزالى :معارج القدس ص ١٦٤ .
وانظر كذلك ابن سينا :الإشارات والتنبيهات ص ٨٩٨:٨٩٩ .

(٣) انظر فى شروط المعجزة، اشتراط الدعوى والتحدى واشتراط أن تكون المعجزة خارقة للعادة واشتراط أن تقع على يد فاضل خير من الباب الأول .

(٤) الفخر الرازى :التفسير الكبير جـ٢١ ص٩٣ وانظر كذلك الأربعين جـ٢ ص ٢٠٥ .

(٥) انظر الحديث عن المعونة في الفصل الثالث من الباب الثاني .

الفصل الثالث
المعجزة وأشكال الخوارق الأخرى

المعجزة:

- والعلم
- والإرهاص
- والمعونة
- والإهانة
- والاستدراج

المعجزة والعلم

يقول(ما لبرانش): «المعجزة لفظ مشكك، فإما أن يطلق على كل أمر لايخضع للقوانين التي يعرفها الناس، وإما أن يطلق على ما لا يخضع لأي قانون معلوم أو مجهول. فإذا أخذنا بالمعنى الأول، وجدنا المعجزات كثيرة وإذا أخذنا بالمعنى الثاني وجدناها جد قليلة»[١] .

والسؤال الآن هو أنها إذا كانت لا تخضع لأي قانون معروف فمن أين لنا أنها لن تخضع لأي قانون يمكن معرفته في المستقبل؟

وأجيب عن ذلك في مبحث دلالة المعجزة[٢] وكذلك عند الحديث عن نقد التأويل الطبعي للمعجزة[٣] وكذلك عند حديثنا عن عدم الاستقلال الدلالي للمعجزة الحسية[٤] .

وينبغي التأكيد هنا على أن العلم لا يشكك في المعجزة بل يؤكد وجودها«فمن استقرأ عجائب العلوم لم يستبعد من قدرة الله تعالى ما يحكى من معجزات الأنبياء عليهم السلام، بحال من الأحوال[٥] .

لأنا«إذا سلمنا بأن في مقدور بعض النواميس الطبعية أن تظفر بالبعض الآخر من غير أن تلغيه أو تلاشيه فلم لا نثق بالأولى أن نواميس فوق الطبيعة التي لا ندرك بعد كنهها، قد استأثرت ببعض النواميس الطبعية التي لازلنا نجهل عنها الشيء الكثير»[٦] .

وصدق الله العظيم ﴿**إنما يخشى الله من عبادة العلماء**﴾[٧] .

---

(١) د. جميل صليبا : المعجم الفلسفي جـ ٢ص ٣٩١ .

(٢) انظر الفصل الخامس من الباب الرابع .

(٣) انظر الفصل الرابع من الباب الرابع .

(٤) انظر الفصل الأول من الباب الثالث .

(٥) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص ٢٣٧ .

(٦) إبراهيم سعيد : لماذا أؤمن ص ١٣ : ١٤ .

(٧) فاطر : ٢٨ .

المعجزة والإرهاص

والإرهاص هو عبارة عن العلامات الدالة على بعثة نبي قبل بعثه مأخوذ من الرهص ـ بكسر الراء ـ وهو أساس الحائط. فأطلق على هذه العلامات الإرهاص لأنها تأسيس لقاعدة النبوة[1] .

ـ ولا يشترط أن تصل الإرهاصات إلى درجة الخارق الحقيقي .

فرؤيا السيدة آمنة بنت وهب مثلا حين حملت برسولنا ﷺ «أنه خرج منها نور رأت منه قصور بصرى من أرض الشام»[2] ليس بخارق وهو إرهاص بنبوته ﷺ.

أما قصة أصحاب الفيل وإهلاك الله تعالى لهم **﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول﴾**[3] فهو خارق حقيقي للعادة ولا يكون مثل ذلك لا لساحر ولا كاهن، وهم في عامة الأزمنة والأمكنة خائفون مطاردون وما يقدرون على أعدائهم، وإنما كانت قصة أصحاب الفيل إرهاصا بنبوته ـ ﷺ ـ لأنه ﷺ «ولد عام الفيل على قول الجمهور»[4] فأهلكهم الله تعالى لصيانة رسوله أن يجري عليه السبي حملا ووليدا، وليمكن لدينه في الأرض، ثم إنه لم يكن لقريش من التأله ما يستحقون به رفع أصحاب الفيل عنهم وما هم أهل كتاب ومن ثم لم يمنع الله تعالى الحجاج من هدم الكعبة بعد استقرار الدين .

وقصة أصحاب الفيل حقيقية وردت في القرآن، ولا ينكرها مسلم بل ولا ينكرها عاقل، والقرآن نزل بها على من شاهدها أو تواترت إليه ولم ينكرها أحد .

فالفارق بين المعجزة والإرهاص هو :

١ ـ عدم الدلالة القطعية على النبوة في حالة الإرهاص وقطعيتها في حالة المعجزة .

٢ ـ المعجزة لابد وأن تكون خارقة للعادة ولا يشترط ذلك في الإرهاص .

٣ ـ والمعجزة تكون مع دعوى النبوة والإرهاص بلا دعوى .

---

(١) انظر السنوسي :شرح الكبرى ص٤٤٨ .   (٢) الماوردى :أعلام النبوة ص٢٧٣ وأخرجة الحاكم وصححه.
(٣) الفيل : ٣ – ٥ .   (٤) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٤٣ .

والمعونة قيل هي«الخارق الذي يظهر من قبل العوام غير مقرون بكمال عرفان تخليصا لهم من المحن والبلايا»[١] .

وقيل هي«أمـر خارق للعـادة يظهر على يد مـستـور الحال تخليـصا له من شدة»[٢].

وقيل غير ذلك وكلها تعريفات تدور حول نفس المعنى .

وأرى أن المعونة إذا كانت خارقا حـقيقيا للعادة فأولى بها أن نسمـيها كرامة لأنها عندئذ تكون إكراما من الله تعالى .

وهذا بصرف النظر عن صاحبهـا هل هو ظاهر الصلاح أو مستور الحال لأن الولي نفسه لا يعرف أنه ولي ولا يصح أن يقطع له أحد بالولاية .

يقول إمام الحرمين[٣] و«الكرامة وإن كانـت لا تظهر على معلن بفسـقه، فلا تشهد بالولاية على قطع[٤] إذ لو شهدت بـها لأمن صاحبهـا العواقب، وذلك لـم يجر لولى في كرامة اتفاقا».

أما إذا لم تصل إلـى درجة الخارق الحـقيقي فـهي معونـة لأن الله يعين بها صاحبها فقط .

وإنما كان ذلك كذلك لأنــه تعالى قادر على تخليص عبـده من جميع المحن والبلايا بالمعونة دون الكرامة .

فإذا كان ما يعطيـه الله للعبد ليس مجرد إعانته بل إظهار أمـر خارق حقيقي فلا يكون ذلك إلا للإكرام فيسمى كرامة وليس لمجرد المعونة حتى يسمى معونة .

---

(١) الجرجانى : التعريفات ص ٢٥١ .

(٢) عبد الكريم حسن الفوى:عقائد التوحيد عن تحفة المريد على الجوهرة ص ٤٧ .

(٣) الجوينى : الإرشاد ص ٢٧١ .

(٤) وخالف فى ذلك بعض العلماء كالأستاذ أبى على الدقاق وتلميذه أبى القاسم القشيرى ـ انظر التفسير الكبير للفخر الرازى جـ ٢١ ص ٩٦ .

فإبراهيم عليه السلام مثلا - وهو نبي - جعل الله له النار بردا وسلاما حتى يكون ذلك معجزاً له عليه السلام وكذلك الحال مع أبي مسلم الخولاني وهو ليس نبي حتى يكون ذلك كرامة له مع أن الله تعالى كان قادراً على إعانته بأن يصرف همة قومه عن حرقه مثلا أو أن يجعل السماء تمطر فتطفئ النار قبل رميه فيها، أو غير ذلك، وهو تعالى قادر على كل شيء ولكنه تعالى إذا أراد أن يجري معجزة على يد نبي أجراها دلالة على صدقه، وإذا أراد أن يكرم عبد من عباده أكرمه بكرامته وإذا أراد إعانته أعانه بإعانته وإذا كان ذلك كذلك بان أن المعونة ليست مقصورة على العوام أو مستوري الحال بل تتعداهم إلى عباد الله جميعا ومنهم الأنبياء .

ولكن إذا كانت المعونة ليست هي الخارق الحقيقي للعادة كما سبق ذكره فهي إما أن تكون خارقا غير حقيقي، أي انها من نفس درجة خوارق السحرة ويمكن معارضتها وإما أن لا تكون بخارق على الإطلاق. كالإعانة على الصبر على المحن والبلايا مثلا .

والإهانة: قيل هي «خارق يظهره الله على يد فاسق مدع النبوة تكذيبا له»[١] .

و«ذكر علماء التاريخ أن مسيلمة الكذاب كان يتشبه بالنبي ﷺ وقد بلغه أن رسول الله - ﷺ- بصق في بئر فغزر ماؤه فبصق مسيلمة في بئر فغاض ماؤه بالكلية، وفي أخرى: فصار ماؤه أجاجا .

وتوضأ مسيلمة وسقى بوضوئه نخلا فيبست وهلكت . وأتي بولدان يبرك عليهم فجعل يمسح رءوسهم، فمنهم من قرع رأسه، ومنهم من لثغ لسانه .

ويقال: إنه دعا لرجل أصابه وجع في عينيه فمسحها فعمي»[٢] .

ويعترض القاضي عبد الجبار على ذلك بقوله: «وذلك مما لا أصل له عندنا . وما هذا حاله فإنه لا يجوز على الله تعالى لأنه إذا أراد تكذيب شخص كان يمكنه ذلك بأن لا يظهر عليه المعجز عقب دعواه، فإحداث شيء آخر والحال ما قلناه يكون عبثا لا فائدة فيه» [٣] .

ولا يعنينا هنا في دراستنا مثل هذا الخلاف لأنه حتى بفرض وجود الإهانة فهي لا تشتبه على أية حال بالمعجزة لأنها تكذب المدعي والمعجزة تصدقه .

إلا أن اعتراض القاضي عبد الجبار غير مقبول لأن أقسام حكم الله تعالى لا يحيط بها مخلوق ومن ثم فوجود الإهانة لا يطعن في حكمته تعالى وعلى ذلك فالاعتراض على وجود الإهانة لا يقبل إلا بالطعن في تواترها فقط .

---

(١) عبد الكريم حسن الفوى : عقائد التوحيد عن تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص ٤٨ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٦ ص ٣٣١ .

(٣) القاضى عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ص ٥٧٠ .

المعجزة والاستدراج

ورد ذكر الاستدراج في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾[1] .

وللاستدراج مترادفات كثيرة وردت في القرآن كذلك في قوله تعالى: ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾[2] وفي قوله﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾[3] وفي قوله﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم،إنما نملي لهم ليزدادوا إثما﴾[4] وفي قوله تعالى﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم﴾[5] .

فالاستدراج قد يعبر عنه بالمكر والخداع والإملاء والإهلاك .

وفي تعريفه: قيل هو «أن يجعل الله تعالى العبد مقبول الحاجة وقتا فوقتا إلى انقضاء عمره للابتلاء بالبلاء والعذاب»[6] .

وقيل هو «خلق الخارق على يد الأشقياء كالدجال وفرعون والجهلة الضالين المضلين»[7] .

وأرى أن اعتبار كون الاستدراج خارقاً حقيقياً للعادة قول باطل فالخارق الحقيقي لا يكون إلا للأنبياء أو الأولياء فقط وقد سبق بيان ذلك من قبل[8] .

وأقصى ما يحدث على يد الفساق والكفار فهو خارق غيرحقيقي نسبي لقوم دون قوم كالسحر فهو خارق لغير السحرة وغير خارق للسحرة بل معتاد لهم، وما يقوم به الجني هو خارق بالنسبة للبشر لكنه غير خارق بالنسبة للجن. أما الخارق الحقيقي معجزة كان أو كرامة فهو خارق لعادة عامة الخلق أجمعين .

---

(١) سورة الأعراف : ١٨٢ .　　(٢) سورة الأعراف : ٩٩ .

(٣) النساء : ١٤٢ .　　(٤) آل عمران : ١٧٨.　　(٥) الأنعام : ٤٤ .

(٦) الجرجاني : التعريفات ص ٢٨ .

(٧) السنوسي : شرح الكبرى ص ٤٤٨ .

وانظر كذلك الفوى:عقائد التوحيد عن تحفة المريد ص٤٨ وعبد المنعم الحفنى:المعجم الفلسفى ص ١٧.

(٨) انظر شروط المعجزة ـ مبحث اشتراط الدعوى والتحدى ومبحث اشتراط أن تكون المعجزة خارقة للعادة .

فالإنسان مثلا قد«يستغيث بمخلوق إما حي أو ميت سواء كان ذلك المخلوق مسلما أو نصرانيا أو مشركا فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث به، ويقضي بعض حاجة ذلك المستغيث فيظن أنه ذلك الشخص أو هو ملك تصور على صورته وإنما هو شيطان أضله لما أشرك بالله كما كانت الشياطين تدخل في الأصنام وتكلم المشركين ومن هؤلاء من يتصور له الشيطان ويقول له أنا الخضر وربما أخبره ببعض الأمور وأعانه على بعض مطالبه، كما قد جرى لغير واحد من المسلمين واليهود والنصارى بأرض المشرق والمغرب»[1] .

وأما ما يفرق المعونة عن الاستدراج :

أن صاحب الاستدراج يأنس به ويرى نفسه مستحقا له وحينئذ يستحقر غيره ويتكبر عليه، ويحصل له أمن من مكر الله وعقابه ولا يخاف سوء العاقبة .

أما صاحب المعونة فيحمد الله تعالى عليها أن أعانه في وقت بلائه ويزداد إيمانه .

والكرامة وإن افترقت عن الاستدراج بأنها خارق حقيقي للعادة فتفترق عنه أيضا بأن صاحبها إذا ظهر عليه شيء منها«ضج إلى الله منها وسأل الله ستره. . . وأن لا يتميز عن العامة بأمر يشار إليه فيه ما عدا العلم»[2] .

ولا يستثنى من ذلك إلا ما يقوم به الولي أحيانا نيابة عن النبي في المعجزة «لإقامة الدليل على صدق الشارع والدين لا على نفسه أنه ولي»[3] .

وما ذاك الخوف من الكرامة إلا لأنها يمكن أن يدخلها المكر الخفي من حيث أن الولي قد لا يمكنه التفرقة بين ما هو خارق حقيقي أو خارق غير حقيقي فتلتبس الكرامة مع الاستدراج .ثم أن الكرامة«يمكن أن يجعلها الله حظ عملك وجزاء فعلك، فإذا قدمت عليه يمكن أن يحاسبك بها»[4] .

---

(١) ابن تيمية : الفرقان ص ١٤٢ .

(٢) ابن عربى : الفتوحات المكية جـ٢ ص٣٦٩ . وانظر الفخر الرازى :التفسير الكبير جـ٢١ ص٩٤ .

(٣) ابن عربى : الفتوحات المكية جـ ٢ ص ٣٧١ .

(٤) السابق جـ ٢ ص ٣٦٩ .

الباب الثالث

أقسام المعجزات

انظر كيف نصرف الآيات
ثم هم يصدفون .

الأنعام (٤٦) .

تمهيد :

يقسم بعض العلماء المعجزة إلى قسمين: معجزات حسية كانشقاق القمر مثلا ومعجزات عقلية كالإخبار بالغيب، والإتيان بحقائق العلوم التي حصلت من غير تعلم(١) .

ويؤثر بعض آخر إطلاق مصطلح «معجزات قولية» على ما سبق اعتباره «معجزات عقلية» فيقسمون المعجزات إلى معجزات حسية ومعجزات قولية (٢) .

ويؤثر بعض آخر إطلاق مصطلح «معجزات فعلية» على ما سبق اعتباره «معجزات حسية» ويقسمون المعجزة إلى «معجزات فعلية ومعجزات قولية» .

وقد يضيف بعضهم قسما آخر فيقول: إن المعجزات تنقسم إلى ترك وقول وفعل والترك عندهم كأن يمسك عن القوت المعتاد برهة من الزمان بخلاف العادة(٣) ويضيف ابن تيمية : أن(٤) «صفات الكمال ترجع إلى ثلاثة العلم، والقدرة، والغنى، وإن شئت ان تقول: العلم والقدرة والقدرة إما على الفعل وهو التأثير وإما على الترك وهو الغنى» .

ويستطرد ابن تيمية في تفصيلات وتقسيمات فرعية كثيرة كقوله(٥) «وأما القدرة والتأثير فإما أن تكون في العالم العلوي أو ما دونه وما دونه إما بسيط أو مركب والبسيط إما الجو وإما الأرض، والمركب إما حيوان وإما نبات وإما معدن، والحيوان إما ناطق وإما بهيم فالعلوي كانشقاق القمر و«الجو» فكالاستسقاء والاستصحاء والإسراء، وأما الأرض والماء فكتزلزل الأرض وتكثير الماء وأما المركبات فكتكثير الطعام.........» .

ويستطرد آخرون فيجعلون من المعجزات ما يختص بالكمية كتكثير الطعام، ومنها ما يختص بالكيفية كتحويل الماء خمرا (٦) .

---

(١) انظر الرازى : الأربعين جـ ٢ ص ٨٧:٩٠ .

(٢) انظر الطوسى : فى شرحه على الإشارات والتنبيهات ص ٨٠٥ .

(٣) انظر الإيجى : المواقف ص ٣٤١ .

(٤) ابن تيمية : قاعدة شريفة فى المعجزات ص ٥ وانظر النبوات ص ٧ .

(٥) ابن تيمية : قاعدة شريفة فى المعجزات ص ١١ : ١٩ .

(٦) انظر وديعه بدر : عجائب المسيح ص ١١ .

وأرى أن تحقق ما أخبر به النبى من غيب ليس بمعجز بذاته لأنه حدث عادي وإنما الإعجاز في وقوعه كما أخبر النبي .

ومن ثم فيمكن اعتبار هذه المعجزة عقلية باعتبار أن عقل الرسول معجز لأنه علم بإعلام الله تعالى ما لا تعلمه عقولنا .

كما يمكن اعتبار هذه المعجزة حسية لأننا إنما سمعنا النبوءة بآذاننا ورأينا تحققها بأعيننا .

ولكنى أرى أن ترجيح اعتبار حال المخاطبين أولى من حال صاحب المعجزة لوضوح حالهم وهو أنهم تلقوا المعجزة بالحس ولأنهم هدف الخطاب بالمعجزة .

ولكن الحس لا يستقل بالإدراك ما لم يكن هناك عقل، فالمجنون والحيوان يشاهدون المعجزة، ولا يدركون دلالتها، ولا تعني شيئا لهم، فالحس والعقل لا ينفصلان. فالعقل لا يدرك إلا ما يأتي به الحس إليه، والحس لا يدرك شيئا ما لم يكن معه عقل يؤدي الحس إليه معطياته ليفسرها ويفهمها .

وإنما توصف المعجزة بالحسية أو بالعقلية بحسب التغليب ومن ثم فإني أميل إلى اعتبار معرفة الغيب للرسول معجزة حسية.

ثم إنا إذا اعتبرنا أن الكلام فعل لأنه ليس شيئا آخر، بطل ذلك التقسيم الذي يفرق بين القول والفعل .

وأما تقسيم ابن تيمية للمعجزات من حيث العلم والقدرة فيمكن رد العلم أيضا إلى القدرة على العلم .

أما تلك التقسيمات الفرعية التي ذكرها ابن تيمية وغيره فأرى ألا فائدة منها.

وأميل إلى تقسيم المعجزة من حيث كونها حسية (أي مادية) أو معنوية أى (عقلية أو كلية) .

الفصل الأول

تقسيم المعجزات من حيث كونها
حسية أو معنوية

مفهوم المعجزة الحسية والمعجزة المعنوية :

ـ فالمعجزة الحسية هي كل ما أيد النبي وكان خارقا حسيا لعادة .

ـ والمعجزة المعنوية هي كل ما أيد النبي وكان خارقا معنويا للعادة. من حيث أنه أمر كلي غير متعين في الخارج وإن تعينت بعض جزئياته في الخارج المحسوس كأمانته وصدقه وصدق دعوته، فإنما دل عليها اختباره واختبار شرعه وما دل عليه في مواقف حسية مشاهدة ،فكل موقف من مواقف الصدق لا يمثل معجزة معنوية، وإنما يمثل قرينة من قرائن الصدق وإنما الإعجاز المعنوي هو محصلة لهذه المواقف، وغيرها مما اصطلح على تسميته بدلائل النبوة أو أعلام النبوة وإن كان هذان المصطلحان يشملان المعجزة الحسية أيضاً .

فالمعجزة المعنوية أي العقلية أو الكلية: هي مجموع قرائن الصدق التي تعود إلى حال الداعي وقيمة الدعوى والتي تولد العلم الضروري بالصدق وإن اختلفت قيمة إعجاز هذه المحصلة تبعا للكم والكيف والإنسان المخاطب، فهناك تناسب عكسي بين هذه الأطراف الثلاثة، فكلما رجح عقل المخاطب اكتفى بكم أقل، وكيف أقل، والعكس وكلما عظم الكيف قل الاحتياج للكم والعكس .

ويؤكد صحة إطلاق مصطلح معجزة على مجموعة قرائن الصدق هو تحقيق مفهوم الإعجاز فيها فيعجز الكاذب عن ادعائها جملة يقول الماوردى فى ذلك:[1] «إن تكامل الفضل معوز فصار كالمعجز و. . . . كمال الفضل موجب للصدق والصدق موجب لقبول القول فجاز أن يكون من دلائل الرسل».

ثم إن الواقع يشهد أن الكمال الأخلاقى الذى يتصف به النبى كان دليلا قاهراً ألزم الكثيرين الإيمان به .

كما أنه ليس في القرآن ولا في السنة ذكر لهذا المصطلح(المعجزة) باعتبارها خارقا حسيا، وإنما فيهما البينة والبرهان والآية . . . . إلخ .

وهو ما ذهب إليه الفخر الرازي حين قسم المعجزات إلى حسية وعقلية وقسم المعجزة العقلية إلى أقسام لا تحمل دائما المعنى التقليدي للمعجزة.

---

(١) الماوردي : أعلام النبوة ص ١٨١ .

فبعض هذه الأقسام ليس إلا ما اصطلحنا على تسميته بالقرائن، مثل كونه - ﷺ - في الغاية القصوى من الكمال في كل واحدة من صفاته، وأنه بقى على ذلك من أول عمره إلى آخره [1] .

وكذلك الحال عند «الكرماني» في مفهومه للمعجزة فهو يقول[2] «وأعظم المعجزات من الرسل عليهم السلام عندنا كون ما يأتون به عن الله تعالى من الأمور المتضمنة رسوم الشرائع المعقودة بسنن المناسك مناسبا لخلق الله. . . فإن ذلك هو المعجز الثابت الذي يعجز عنه من كان متنبئا وإن اجتهد».

وكذلك الحال عند ابن كثير فيرى أن دلائل النبوة نوعان حسية ومعنوية ومن الدلائل المعنوية أخلاقه عليه السلام وطيب مولده ومنشئه وشريعته إلى أمته وهو ما ذهب إليه ابن تيمية أيضاً في الجواب الصحيح [3] .

وبناء على ذلك فإعجاز القرآن الكريم هو إعجاز حسي ومعنوي في آن واحد

فهو حسي مثلا من حيث إعجازه بالنغم وهو معنوي من حيث إعجازه التشريعي والمنطقي. . إلخ .

٢ - مقارنة بين المعجزة الحسية والمعجزة المعنوية :

أولا : من حيث جريانها مجرى برهان اللم ، أو برهان الإنَّ :

فالمعجزة المعنوية تجري عند المناطقة مجرى برهان «اللم»[4] لأن البحث فيها كان عن معنى النبوة .

أما المعجزة الحسية فتجري مجرى برهان «الإنَّ» [5] الذي يستدل فيه بأثر من آثار الشيء على وجوده .

وإذا كان برهان اللم أقوى في الاستدلال من برهان الإنَّ فإن هذه الطريقة أي طريقة المعجزة المعنوية أفضل من طريقة المعجزة الحسية في الاستدلال .

---

(١) انظر الرازى : الأربعين جـ ٢ ص ٨٧ : ٩٦ .

(٢) الكرمانى : راحة العقل ص ٥٧٠ .

(٣) انظر ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٦ ص٧٢ .

(٤) فبرهان «اللم» هو الذى «يعطى السبب فى التصديق بالحكم، ويعطى السبب فى وجود الحكم، فهو مطلقا معط للسبب» (ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ص ٨٤) .

(٥) أما برهان الإنَّ «فهو البرهان الذى يفيد أن الشيء موجود من دون أن يبين سبب وجوده (جميل صليبا: المعجم الفلسفى جـ ١ ص ١٣٧) .

ثانيا: من حيث الاستقلال الدلالي :

١ - المعجزة الحسية لاتستقل في دلالتها عن المعجزة المعنوية

للمعجزة الحسية وجهين ومستويين من المعنى: وجها منظورا(الحادثة التي يستطع كل إنسان أن يلاحظها)، ووجها غير منظور(هو المعنى الديني الذي يدركه المؤمن)فأنت إن قدمت زهرة لعالم في النبات، يكون رد فعله رد فعل عالم اختصاصي، فيسأل: «ما هذا؟» وهو يحلل الزهرة ويصنفها، وإن كان يجهلها، فلن يألوا جهداً حتى يهتدي إلى أصلها، وإن قدم شاب زهرة لخطيبته، فإنها ترى فيها رسالة. لأن هذه الزهرة تعبر عن شيء ما فلا يكون سؤالها: «ما هذا؟» بل«ما معنى هذا؟» وهكذا ينظر إلى الزهرة نفسها من زاويتين متباينتين في المعنى، مع أن هاتين النظرتين لا تتعارضان في الجوهر - فبين علماء النبات عشقا - وإن اختلفتا في المدلول كل الاختلاف ظاهريا. في نظر العلم لا وجود للمعجزة. بل ليس هناك إلا حادثة بارزة للعيان. فالغاية من العلم هي تفسير كنه العالم والأحداث، ولابد لذلك من الاهتداء إلى العلل. يقوم مبدأ العلم على شيء من الحتمية، أي على خضوع الطبيعة لبعض قوانين على العلم أن يكتشفها، إذ أنه يستطيع عندئذ أن يؤثر في العلل ويعمل كلما شاء على تكرار الحادثة نفسها وما لم يهتد العلم إلى تفسير حادثة معينة لا يسعه إلا أن يعترف بجهله وأن يواصل البحث. المعجزة كمعجزة لا يعترف بها إلا المؤمن، إذ لا تعد الهدية بين الأصدقاء«هدية»، مالم يقم بينهم رابط صداقة أو على الأقل حد أدنى من المعرفة يجعلهم يكتشفون في الشيء المقدم علامة صداقة فالشيء الذي يعطيه مجهول في الشارع يكون سؤالا لا علامة. والمؤمن أو الذي تخامره على الأقل فكرة عن الله ويكنز في قلبه استعدادا للإيمان، يرى في الحدث الذي يبدو له خارقا بادرة عطف من لدن إلهه. لكن هذه الرؤية لا تتم انطلاقا من الحادثة المنفردة، فهي لا تتسم بالمعنى المقصود منها إلا إذا اتصلت بحوادث أخرى وبأقوال تثبتها [1] .

وهذا هو المعنى الذي قصده الفيلسون الرياضي بليزبسكال عندما لاحظ أن حركات الكواكب والطيور في الهواء قد تشهد على ذكاء الإله وعنايته في نظر

---

(١) انظر اتيان شار بنتيه وآخرون .المعجزات فى الإنجيل ص ٥ : ٧ .

إنسان يؤمن فعلا بوجود الله. ولكنها عاجزة في حد ذاتها عن إزالة الإنكار الأساسي لوجود الله. فإن ما يجعل الملحد متصلبا في إلحاده ليس ضعف الشواهد الموجودة في العالم المنظور. بل قرارا اتخذته الإرادة والعواطف .

وقيل إنه كلما كنت أكثر إيمانا كلما كثرت المعجزات التي تجد في كل مكان[١] .

فما لم تكن هناك معجزة معنوية موجهة للعقل أولاً ولهذه الإرادة والعواطف التي تشكل موقف الإنسان من الله فلا معنى للمعجزة الحسية [٢] .

وفي ذلك يقول الغزالي: إن الخارق الحسي«إذا نظرت إليه وحده، ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر ربما ظننت أنه سحر وتخييل، وأنه من الله إضلال فإنه﴿**يضل من يشاء ويهدي من يشاء**﴾ [٣] ثم يقول: «فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن في جملة نظرك، حتى يحصل لك علم ضروري لا يمكن ذكر مستنده على التعيين» [٤] .

ويقول ابن رشد أيضا في ذلك إن المعجزة الحسية لا «تدل دلالة قطعية إذا انفردت. إذ كانت ليست فعلا من أفعال الصفة التي بها سمي النبي نبيا. وأما القرآن [والمعجزات المعنوية]فدلالته على هذه الصفة هي مثل دلالة الإبراء على الطب .

ومثال ذلك لو أن شخصين ادعيا الطب فقال أحدهما الدليل على أني طبيب أني أسير علي الماء وقال الآخر الدليل أني أبرئ هذه المرضى، لكان تصديقنا بوجود الطب للذي أبرأ المرضى ببرهان وتصديقنا بوجود الطب للذى مشى على الماء مقنعا ومن طريق الأولى والأحرى. . . . . . وما يقع فى النفس هو أن من أقدره الله

---

(١) "The more religious you are the more miracles you will find every-where" John Lewis : The Religions of the World p 142
وانظر Hastings Rashdall : Philosophy and Religion pp. 129 : 140
"Acceptance of miracles...based on faith "
Antony Flew : A Dictionary of Philosophy p.217 .

(٢) فإن المعجزة حتى ولو أثبتت بالبراهين التاريخية الكافية فإنها لا تفيد بالضرورة يقينية المصدر الإلـهى حتى تتجسم التعاليم مع خصيصة الله والعقل والضمير، فالمعجزة والتعاليم يوضح كل منهما الآخر
The New Encyclopaedia Britannica Vol .15 p.586 .

(٣) فاطر: ٨ . (٤) الغزالي : المنقذ من الضلال ص ٨٣ ـ ٨٤ .

على هذا الفعل الغريب وخصه به من سائر أهل وقته فليس يبعد عليه ما يدعيه من أنه قد آثره الله بوحيه»[1] .

«فالمعجز في العلم والعمل هو الدلالة القطعية على صفة النبوة، وأما المعجز في غير ذلك من الأفعال فشاهد لها ومقو»[2] .

وابن تيمية كذلك يؤكد على العلاقة الدلالية بين المعجزة الحسية والمعجزة المعنوية، وأن المعجزة الحسية لا تستقل في دلالتها عن المعجزة المعنوية وذلك في قوله:[3] «فلو قدر أن رجلا جاء في زمان إمكان بعث الرسل، وأمر بالشرك وعبادة الأوثان وإباحة الفواحش والظلم والكذب، ولم يأمر بعبادة الله ولا بالإيمان باليوم الآخر هل كان مثل هذا يحتاج أن يطالب بمعجزة أو يشك في كذبه أنه نبي؟ ولو قدر أنه أتى بما يظن أنه معجزة لعلم أنه من جنس المخاريق أو الفتن، والمحنة ولهذا لما كان الدجال يدعى الإلهية لم يكن ما يأتي به دالاً على صدقه للعلم بأن دعواه ممتنعة في نفسها وأنه كذاب» .

وهذا مما استدل به«ثمامة»على كذب مدعي النبوة فقد روي البيهقي أن رجلا تنبأ في أيام المأمون فقال للحاجب: أبلغ أمير المؤمنين أن نبى الله بالباب، فأذن له فقال ثمامة: ما دليل نبوتك؟قال: تحضر لي أمك فأواقعها فتحمل من ساعتها وتأتي بغلام مثلك فقال ثمامة: صلى الله عليك أيها النبى رحمة الله وبركاته أهون عندي من إحضارك أمي ومواقعتها .

وورد في الكتاب المقدس على لسان المسيح عليه السلام«إن قال لكم أحد هو ذا المسيح هنا أو هو ذا هناك فلا تصدقوا، لأنه سيقوم مسحاء كذبه وأنبياء كذبة، ويعطون آيات وعجائب لكي يضلوا لو أمكن المختارين أيضا»[4] .

ولكنه عليه السلام جعل الفرق في قوله: «من الثمر تعرف الشجر»[5] وورد كذلك في الكتاب المقدس«احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة من ثمارهم تعرفونهم. هل يجتنون من الشوك عنبا

---

(١) ابن رشد : الكشف عن مناهج الأدلة ص ١١٩ .
(٢) السابق ص ١١٦ .
(٣) ابن تيمية : شرح العقيدة الأصفهانية ص ٩١ .
وانظر كذلك متى الأصحاح (٢٤) آية (٢٤) .
(٤) مرقس الأصحاح (١٣) آية (٢١:٢٢)،
(٥) متى الأصحاح (١٢) آية (٣٣) .

أو من الحسك تينا، هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارا جيدة، وأما الشجرة الردية فتصنع أثمارا ردية لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثمارا ردية ولا شجرة ردية أن تصنع أثمارا جيدة. كل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار فإذاً من ثمارهم تعرفونهم»(١) .

وفي العهد القديم ورد في سفر التثنية: «إذا قام في وسطك نبي أو حالم حلما وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلمك عنها قائلا لنذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكي يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم» (٢).

ونحن في عصرنا هذا بعد وفاة موسى عليه السلام لو أتى سحرة بعصى لهم وقلبوها حيات لأشكل الأمر علينا، وليس معنا عصا موسى التي تبين الفرق بين المعجزة والسحر، ولا ينجينا من ذلك إلا إيماننا بأن المعجزة الحسية لا تستقل في دلالتها عن المعجزة المعنوية وأن رسولنا ﷺ هو خاتم الأنبياء .

٢ - دلالة المعجزة المعنوية تغني عن المعجزة «الحسية»:

يقول الباقلاني(٣)«وقد اتفق على أنه لا دليل يفصل بين الصادق والكاذب في ادعاء الرسالة إلا الآيات المعجزة» ويقول أيضاً:(٤)«المعنى الموجب لظهور المعجزات على أيدي الرسل إنما هو كونهم أنبياء لله سبحانه»وهو يعني المعجزات الحسية .

ويقول شارح العقيدة الطحاوية «لا ريب أن المعجزات دليل صحيح لكن الدليل غير محصور في المعجزات، فإن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين، أو أكذب الكاذبين. ولا يلتبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما وتعرف بهما»(٥) .

ويقول ابن تيمية:(٦) «لم يكن من شرط الإيمان بالأنبياء وجود الآيات [الحسية] بل قد يعلم صدقهم بدون ذلك... فدلائل الصدق لا تنحصر كدلائل الحب والبغض هي كثيرة جداً» .

---

(١) السابق الأصحاح (٧) آية (١٥ : ٢٠) .
(٢) سفر التثنية ١٣ / ١ ـ ٣ . (٣) الباقلانى : البيان ص ٣٨ .
(٤) السابق ص ٤٤ . (٥) صدر الدين بن أبى العز الحنفى : شرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٠.
(٦) ابن تيمية : النبوات ص ١٩٢ .

ويقـول أيضا: إن«كل من بنى إيمانه عـلى المعجـزات يظن أن لا تعرف نبـوة الأنبياء إلا بالمعجزات [الحسية] وللنظار هنا طرق متعددة منهم من لا يجعل المعجزة دليلا بل يجعل الدليل استواء ما يدعو إليه وصحته وسـلامته من التناقض ومنهم من يجعل أدلة أخرى غير المعجزة، وهذا أصح الطرق»[1].

وهذا هو الصحيح، لأن الطرق إلى معرفة الله تعالى كثيرة .

وأما قول الجويني:[2] «فـإن قيل: هل في المقـدور نصب دليل على صـدق النبي غير المعجزة؟ .

قلنا: ذلك غير ممكن: فإن ما يقـدر دليلا على الصدق لا يخلو: إما أن يكون معتادا، وإما أن يكون خارقا للعادة فإن كان معتاداً يستوي فيه البر والفاجر فيستحيل كونه دليلا» .

فأفهمـة نصا على إثبات المعجزة المعنوية أيضـا لأنها معجزة وليسـت معتادة وليست ممكنة لأي أحد كما أنها لا يستوي فـيها البر والفاجر. وليس من المعتاد أن تجتـمع قرائن الصدق حـتى تؤدى إلى العلم الضروري بالصـدق ويكون الشخص كاذبا، وكيف يستويان ومع أحدهما قرائن الصدق ومع الآخر قرائن الكذب الكافية لتوليد العلم الضروري بالصدق أو الكذب .

وادعى محـمد بن إبراهيم الوزير: «أن العقل لا يوجب المـعجزة الحسـية في النبوة [اكـتفاء بقرائن الأحـوال] وإنما وجب ذلك سمعـا. . . وذلك السمع. . . هو الإجماع»[3] ثم ناقض نفسه مخالفا ذلك الإجماع المزعوم فقال[4]«وإن كان صاحب كتاب الدعائم من الإمامية أجاز ذلك عقلا وسمعا واحتج عليه لكن فيه شذوذ» .

ونحن لا ندري مـستـند ذلك الإجمـاع، وقـد جعل ابن تيـمـية والغـزالي والمرجاني وغيرهم ومحمـد بن إبراهيم الوزير ـ نفسه ـ دلالة المعجزة المعنوية دلالة ضرورية.

---

(١) ابن تيمية : شرح العقيدة الأصفهانية ص ٨٨ (بتصرف) .

(٢) الجويني : الإرشاد ص ٢٧٨ .

(٣) محمد بن إبراهيم الوزير : البرهان القاطع ص ٤٠ .

(٤) السابق ص ٤٠ .

يقول ابن تيمية: إن[1] «خبـر الواحد المجهـول من آحاد الناس قد يقـترن به قرائن يعرف بها صـدقه بالضرورة فكيف بمن عرف صدقه وأمـانته وأخبر بمثل هذا الأمر الذي لا يقوله إلا من هو من أصـدق الناس أو من أكذبهم، وهم يعلمون أنه من الصنف الأول دون الثاني» .

ويقول أيضـاً: إن «كثيـرا من الناس يعلم صدق المخـبر بلا آية البـتة، بل إذا أخبره وهو خبـير بحاله أو بحال ذلك المخبر به أو بهما علم بالـضرورة إما صدقه وإما كذبه » .

ويقول ابن تيمية كذلك: إن «أكثر الخلـق إذ علموا ما جاء به موسى ومحمد علموا صدقهم بالضرورة، ولهذا لا يوجـد أحد قدح في نبوتهم إلا أحد رجلين إما رجل جاهل لم يعرف أحوالهم وإما رجل معاند متبع لهواه»[2] .

ويقول الغزالي في هذا:[3] «فليكن مثل هذه الخوارق إحدى القرائن والدلائل في جملة نظرك حتى يحصل لك علم ضروري لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين كالذي يخبره جماعة بخبر متواتر لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين، بل من حيث لا يدري، ولا يخرج عن جملة ذلك ولا تتعين الآحاد، فهذا هو الإيمان القوي العلمي» .

بل إن الغزالي يؤكد على اعتبار أن خوارق الأنبـياء الحسية ما هي إلا إحدى القرائن في جملة النظر قائلا:[4] «فأعظم بغباوة من ينظر في أحواله، ثم في أفعاله ثم في أخلاقه، ثم في معجزاته، ثم في اسـتمرار شرعه إلى الآن، ثم في انتشاره في أقطار العالم، ثم في إذعـان ملوك الأرض له في عصره، وبعـد عصره، مع ضعـفه ويتمه، ثم يتمار بعد ذلك في صدقه» .

ويقول المرجاني محشي شرح الدواني:[5] «إن الأحكام الشرعيـة كلها حتى

(١) ابن تيمية :النبوات ص ٢٤٤ .
(٢) السابق . نفس الموضع.
(٣) الغزالي : المنقذ من الضلال ص ٨٤ .
(٤) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ٢ ص ٣٨٧ .
(٥) انظر القاسمى : دلائل التوحيد ص ٦٦ : ٦٧ .

وجوب تصديق مدعي النبوة وصدق دعواه في البعثة، تثبت بخبر الرسول ـ ﷺ ـ لأن ما يعطي وجوب الاعتقاد هو الشرع لأن الحاكم عندنا هو الله تعالى ليس إلا ولا يلزم الدور من ثبوت الشرع بنفسه لأنه لا يتوقف إلا على العلم بصدقه (أي صدق الرسول) وهو حاصل لتمكن العاقل منه فرط التمكن كأنه مركوز في فطرته يكفيه التذكير من الشارع بحمله على الالتفات إلى دعوته فإذا التفت إليه المخاطب أدنى التفات يحصل له المعرفة بصدقه كما قال تعالى[1] **﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾** أي ليستحضروا ما هو كالمركوز في عقولهم لفرط تمكنهم منه. . . ولو تنزلنا عن دعوى الضرورة والظهور، فنقول ثبوت المعجزة وصدق النبوة يستند إلى قضية عقلية يعطيها النظر في أحوال النبي وأفعاله وأخباره وأقواله التي تضمنها القرآن واشتملت عليها دواوين السنة وكتب السير والآثار» .

والنبي لابد له من إظهار معجزة تدل على صدقه، فإذا أتى بها وبان لقومه وجه الإعجاز فيها لزمهم تصديقه وطاعته، ولم يكن لهم مطالبته بمعجزة أخرى، فإن طالبوه بأخرى فإن شاء الله عز وجل أظهر الأخرى توكيداً للحجة عليهم، وإن شاء عاقبهم على ترك الإيمان بمن قد دلت المعجزة على صدقه. والمعجزة الواحدة كافية في الدلالة على صدقه ومن لم يؤمن به بعدها استحق العقاب .

فإن طلب المتعنتين لا أمد له، ومن المعلوم أن من قامت عليه حجة بينة في مسألة حق من حقوق العباد ليس له المطالبة بأخرى وإلا كان ظالما، ولا يمكن الحكام الخصوم من ذلك. وهذا يؤكد على ما سبق من أن المعجزة المعنوية إذا كانت دلالتها ضرورية وقامت بها الحجة، لم تجب المعجزة الحسية .

إلا أنه قد يكون في تتابع الآيات حكمة لله عز وجل فيتابع بينها، فإن الأدلة كلما كثرت وتواردت على مدلول واحد. كان أوكد وأظهر وأيسر لمعرفة الحق فقد يعرف دلالة أحد الأدلة من لم يعرف دلالة الآخر وقد يبلغ هذا ما لم يبلغ هذا.

ومحمد بن إبراهيم الوزير ـ نفسه ـ الذي يدعي الإجماع على وجوب المعجزة الحسية في النبوة، بالرغم من اعترافه أن العقل لا يوجب ذلك اكتفاء بقرائن

---

(١) سورة ص : ٢٩ .

الأحوال الدالة دلالة ضرورية على الصدق ـ هو القائل :[1] «اعلم أنك إذا نظرت في هذه الأحوال الشريفة المختصة بالنبي ـ ﷺ ـ علمت صدقه بالضرورة ،وهي طريقة قوية ».

وهو القائل ـ أيضاً :[2] ومتى علمنا صدقه ضرورة لم يجب نصب دليل على ذلك [ولكن يجوز] لأن الاستدلال لو وجب على الضروريات لما صح علم أبداً لأن الاستدلال إن لم ينته فما لا نهاية له محال ،وإن انتهى فلا نهاية له إلا إلى الضرورة» .

بل إن ابن تيمية يصرح بأنه «لا إجماع في ذلك بل كثير من الطوائف يقولون إن صدقهم بغير المعجزات»[3] الحسية .

وقد سبق قوله: إن هناك «من لا يجعل المعجزة(الحسية) دليلا بل يجعل الدليل استواء ما يدعو إليه وصحته وسلامته من التناقض»[4] أي المعجزة المعنوية.

ثم إنه لا يصح الاحتجاج بالإجماع في ذلك،فإن الاجماع إنما يثبت بعد ثبوت النبوة والمقدمات التي يعلم بها النبوة لا يحتج عليها بالإجماع .

وقد صرح ثمامة بن الأشرس بأن[5] «النبى لا يحتاج إلى معجزة أكثر من استقامة شريعته» وهو ما ذهب إليه أيضا الإباضية وكثير من الخوارج أن نفس قول النبى أنا نبى ودعوته إلى ما يدعو إليه حجة،ولا يحتاج عليها إلى بينة وبرهان. وهو ما ذهبت إليه الكرامية أيضاً[6] وهو نفس ما سبق إيراده من كلام المرجاني والغزالي وغيرهم.

وحتى المحدثون فقد خالفوا هذا الإجتماع المزعوم. يقول العقاد:[7] «علامات الرسالة الصادقة هي: عقيدة تحتاج إليها الأمة. وهي أسباب تمهد لظهورها، وهي

---

(١) محمد بن إبراهيم الوزير : البرهان القاطع ص ٣٦ .

(٢) السابق ص ٤٦ .

(٣) ابن تيمية : النبوات ص ٣٥ .

(٤) ابن تيمية : شرح العقيدة الأصفهانية ص ٨٨ .

(٥) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٢٦٦ .

(٦) انظر البغدادى : أصول الدين ص ١٧٥ .

(٧) العقاد : عبقرية محمد ص ١٦ .

رجل يضطلع بأمانتـها في أوانها . فـإذا تجمعت هذه العـلامات . فمـاذا يلجئنا إلى علامة غيرها؟ وإذا تعذر عليها أن تجتمع فأي علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها؟»

«قالت حوادث الكون: لقد كانت الدنيا في حـاجة إلى رسالة وقالت حقائق التاريخ: لقـد كان محـمد هو صـاحب تلك الرسالة ولا كلمـة لقائل بعد عـلامة الكون، وعلامة التاريخ»[1] وهذا هو نفس اتجاه محـمد عبده، ومحمـد رشيد رضا وجل المحدثين .

وليس هناك نص شـرعي واحد صـريح على وجوب المعـجزة الحـسيـة في النبوة .

بل على العكس فينفي القرآن ضرورة وجوب المعجزة الحسية للنبوة والرسالة يقول تعالى :[2] ﴿قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلى﴾ .

ويقول تعالى :[3] ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفـا أو تأتي بالله والملائكة قـبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه.قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾ .

فالقرآن هنا ينفي الارتباط الضروري بين المعجزة الحسية والرسالة، فالرسالة لا تشترط المـعجزة الحسيـه ولكن المعجرة الحسـيه تشترط التـأييد الإلـهى الذي يكون للرسل .

ويصرح الإنجيل كذلك بنبـوة يحى عليه السلام[4] ويصرح بأنه«لم يفعل آية واحدة»[5] .

وما ورد في القرآن من تأيـيد الله تعالى لأنبيائه بالآيات والبـينات والبراهين

---

(١) السابق ص ١٨ .
(٢) الأنعام : (٥٠) .
(٣) الإسراء : (٩٠ : ٩٣)
(٤) انظر لوقا : ٧ / ٢٦ .
(٥) يوحنا : ١٠ / ٤١ .

إلخ فليس ذلك نصا على ضرورة المعجزة الحسية في النبوة، لأن المعجزات المعنوية هي أيضا آيات وبينات وبراهين طالما أن دلالتها ضرورية .

وحديث«ما من الأنبياء نبى إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله عز وجل إلي وأرجو أن أكون أكثرهم تبعا يوم القيامة»[1] .

فليس نصا على المعجزة الحسية، فالآية هي العلامة، وقرائن الأحوال علامات

ثالثا: من حيث نوعية المخاطبين :

- يقول المسيح : طوبى للذين آمنوا ولم يروا [2]

ويرى ابن تيمية أن المعجزة المعنوية طاعة الخلق بها أعم وأكثر، والمطيع بها خيار بنى آدم عقلا ودينا، وأما المعجزة الحسية فلا يدخل فيها إلا جهال الناس ممن لا عقل له ولا دين [3].

ويقول القاسمي:[4] «فأما الحسي فيشترك في إدراكه العامة والخاصة، وهو أوقع عند طبقات العامة، وآخذ بمجامع قلوبهم وأسرع لإدراكهم. . . وأما العقلي فيختص بإدراكه كملة الخواص من ذوي العقول الراجحة والأفهام الثاقبة. . . » .

وعبارة القاسمي غاية في الدقة، فقد جعل المعجزة الحسية يشترك في إدراكها العامة والخاصة، إلا أنها أوقع عند العامة، فهو لم ينف أثرها على الخاصة .

فها هو «إبراهيم» - عليه السلام - يقول فيما يحكيه القرآن﴿**ربي أرني كيف تحي الموتى**﴾(٥) ويقول﴿**ليطمئن قلبى**﴾ وإبراهيم عليه السلام من الخواص، وليس من العوام .

وقوله تعالى له: ﴿**أو لم تؤمن قال بلى**﴾ يدل على أن الفارق هنا بين العوام والخواص أن إيمان العوم مبني على المعجزة الحسية أما الخواص فالمعجزة الحسية تؤكد إيمانهم - المبني على الإعجاز المعنوي .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه فى الباب الأول من كتاب فضائل القرآن والباب الأول من كتاب الاعتصام ومسلم فى صحيحه برقم (٢٣٩) من كتاب الإيمان وأحمد فى المسند جـ٢ ص ٣٤١ ، ٤٥١ .

(٢) يوحنا : ٢٠ : ٢٩ .

(٣) انظر ابن تيميه : قاعدة شريفة ص ٣٣ .

(٤) القاسمى : دلائل التوحيد ص ١٥٨ .

(٥) البقرة : ٢٦٠ .

وهو ما حدث مع رسولنا - ﷺ - فيما رواه الإمام أحمد عن أنس: قال: جاء جبريل إلى رسول الله - ﷺ - ذات يوم. وهو جالس حزين قد خضب بالدماء من ضرب بعض أهل مكة قال: فقال له: مالك؟ فقال: فعل بي هؤلاء وفعلوا فقال له جبريل: أتحب أن أريك آية؟ قال: فقال. نعم قال: فنظر إلى شجرة من وراء الوادي فقال: ادع تلك الشجرة فدعاها، قال: فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه فقال: مرها فلترجع. فأمرها فرجعت إلى مكانها فقال رسول الله - ﷺ -: حسبي[1].

فإيمانه - ﷺ - لم يؤسس علي المعجزة الحسية ولكنها عندما عرضت عليه - ﷺ - قبلها، فهو - ﷺ - آمن وصدق قبل هذه المعجزة ونفس الشيء يقال عن الإسراء والمعراج لا سيما المعراج، فهو معجزة حسية خاصة به ﷺ - ولم يرها أحد من المكلفين غيره ونفس الشيء يقال عن موسى عليه السلام فأراه الله تعالى معجزتي العصا واليد البيضاء منفرداً. ولكن إيمان موسى لم يكن مؤسسا عليهما لأنه سمع خطابه تعالى - الذي ليس كمثله شيء - من قبل وليس بعد كلام الله تعالى ومناجاته يحتاج المرء إلى معجزة حسية ليؤسس إيمانه، بل قد يحتاجها ليزيده، والإيمان يزيد.

وقوله - ﷺ - بعد فعله بعضا من معجزاته «أشهد أني رسول الله»[2] فهو من هذا الباب لأنه كان قد آمن من قبل ذلك بوقت طويل كما توضح كتب السير.

ولما تقدمت البشرية وارتقت ونضجت فكريا وحان ميعاد بعث النبى الخاتم جعل الله تعالى معجزته ﷺ الكبرى هى القرآن الكريم وهى معجزة معنوية حسية[3] وحثنا القرآن الكريم، وكذا حثت السنة النبوية على النظر في المعجزة

---

(١) رواه ابن ماجة فى سننه فى الباب (٢٣) من كتاب الفتن والدارمى فى سننه فى الباب (٤) من المقدمة ،وأحمد فى المسند جـ ٣ ص ١١٣. (٢) ابن حزم الفصل جـ ٥ ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٣) انظر مفهوم المعجزة الحسية والمعجزة المعنوية من الباب الثالث ويلاحظ أنه لما كان الوعي البشري في اطواره الأولى ملتصقا بالطبيعة حتى كاد لا يتميز عنها كان من حكمة الله تعالى أن جعل إطار المعجزة في اليهودية هو عالم الطبيعة الكبير(إنفلاق البحر مثلا) ولما بدا قدر من التمايز عن الطبيعة في الوعي الإنساني في المسيحيه إذا تعكس مسيره الوعي توجها من(الخارج) إلى(الداخل) كان من حكمته تعالى أن تحول إطار تحقق المعجزة من عالم الخلق الأكبر إلى عالم الخلق الأصغر(الإنسان) فأصبح الإنسان بما هو ذات تؤمن وليس بما هو طبيعه تخرق هو إطار تحقق المعجزة(إحياء الموتى ، شفاء المرضى) فبدا بذلك وكأن تمايز الوعي عن الطبيعة يعكس أيضا تمايزا للمعجزة عنها وأخيرا فإن تمام الوعي بالذات في الإسلام قد انعكس في إنبثاق ضرب من الإعجاز العقلي - وهو القرآن الكريم وإن لم ينفصل إنفصالاً تاما عن أدنى درجات المعجزة التي تتوافق مع أدنى درجات الوعي مراعاة لاختلاف أحوال المخاطبين بالمعجزة(كانشقاق القمر) .ومن هنا فإن التفاوت بين معجزات الأنبياء لا يرتبط =

المعنوية أكثر مما حثنا على النظر في المعجزات الحسية .

وكيف لا ! والبشرية قد ارتقت ونضج عقلها .

وكيف لا ! والنبوة قد ختمت والمعجزة الحسية محصورة ـ غالبا ـ بحاجزي المكان والزمان ولا تخترقهما إلا بالتواتر .

نعم نحن قد نكون في حاجة إلى التواتر أيضاً في المعجزة المعنوية، وذلك في معرفة حال الداعي، ولكننا لسنا في حاجة ماسة إلى التواتر لمعرفة قيمة الدعوة فذلك أمر بين بنفسه إذا توافقت الدعوة مع الفطرةالإنسانية ومع الواقع الإنساني .

كما أنه بمعرفة قيمة الدعوة يمكن استنتاج حال الداعي .

وإذا كان العلماء ورثة الأنبياء. فلا قدرة للعلماء على الإتيان بالمعجزات الحسية، وإنما لهم القدرة على الكشف عن المعجزات المعنوية .

وبالرغم من ذلك فقد أيد الله تعالى من رحمته نبيه ـ ﷺ ـ بكثير من المعجزات الحسية من تكثير الطعام، ونبع الماء من بين أصابعه، وانشقاق القمر. . إلخ وذكر تعالى بعضها في كتابه العزيز فتواترت هذه المعجزات الحسية وقامت بها الحجة .

وإذا كان عصر المعجزات قد انتهى فإن رحمة الله الواسعة أبقت الكرامة للأولياء خارقا حسيا دالاً على صدق النبى، فهي لم تحدث إلا لمتابعة الأولياء للأنبياء .

يقول ابن تيمية: [1] «وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسوله ـ فهى في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول» .

إلا أنها بقيت دليلا شخصيا لا يعرفها إلا الولي نفسه فقلما تحدث علنا، وقلما يتعمد الولي إظهارها .

يقول ابن عربي: [2] «فإذا ظهر عليه (أي الولي) شيء من كرامات العامة (يعني

= فقط بأن معجزات كل نبي كانت من جنس ما تفوق فيه قومه بل يرتبط ـ وهو الأهم ـ بما بين أطوار المعجزة من جهة وبين أطوار الوعي من جهة أخرى من توافق بنيوي ثابت .

انظر علي مبروك : النبوة من علم العقائد إلى فلسفه التاريخ ص ٢٠٢ : ٢٠٣ .

(١) ابن تيمية : الفرقان ص ١٢٩ .

(٢) ابن عربى : الفتوحات المكية جـ ٢ ص ٣٦٩ .

الخوارق الحسية) ضج إلى الله منها وسأل الله ستره . . . وأن لا يتميز عن العامة بأمر يشار إليه فيه ما عدا العلم . . .

فأسنى ما أكرمهم به من الكرامات العلم خاصة، لأن الدنيا موطنه، وأما غير ذلك من خرق العادات فليست الدنيا بموطن لها» .

ويشرح ابن عربي بعد ذلك ما يقصده «بالعلم» فيقول [1] «ولا اعني بالعلم إلا العلم بالله والدار الآخرة، وما تستحقه الدار الدنيا، وما خلقت له ولأي شيء وضعت، حتى يكون الإنسان من أمره على بصيرة حيث كان» .

وبفرض حدوث الكرامة علنا. فلا يعرف أنها كرامة ويميزها عن غيرها من الخوارق إلا قليل.

نعم. هناك قرائن الصدق التي تدل على ولاية الولي وتفرقه عن الكذاب والمدعي للولاية، ولكن الكرامة ليست هي كل خارق يحدث على يد الولي الصادق، فقد يكون ذلك اختبارا من الله تعالى لوليه، وقد يكون ذلك من عمل الشياطين يفتنون به أولياء الله، كما يذكر ذلك ابن تيمية في قوله «وكثير من هؤلاء قد لا يعرف أن ذلك من الجن، بل قد سمع أن أولياء الله لهم كرامات وخوارق للعادات، وليس عندهم من حقائق الإيمان ومعرفة القرآن ما يفرق به بين الكرامات الرحمانية وبين التلبيسات الشيطانية فيمكرون به» [2] .

ولذلك يقول ابن عربي: [3] «ولا يصح كون ذلك كرامة إلا بتعريف إلهي لا بمجرد خرق العادة» .

وحاصل ذلك أن المعجزات الحسية :

١ ـ يدركها المتخصصون المدققون كل في مجاله كسحرة فرعون ومعجزة موسى عليه السلام في قلب العصا حية، والقرآن الكريم (المعجزة الخالدة) تدرك كل فئة من المتخصصين ما لا تدركه غيرها ـ إلا على وجه الإجمال ـ من وجوه

---

(١) السابق جـ ٢ ص ٣٧٠ .

(٢) ابن تيمية : الفرقان ص ١٥٩ .

(٣) ابن عربي : الفتوحات المكية جـ ٢ ص ٣٦٩ .

إعجازه هذا بالطبع إلى جوار إعجازه العام الذي يدركه الجميع وهو الاطمئنان النفسي وهو الذي عبر عنه الوليد بن المغيرة بقوله «إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه. مغدق أسفله، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى عليه» .

٢ ـ ينبهر بها العوام ويؤسسون عليها إيمانهم .

٣ ـ ويبقى بين هؤلاء وهؤلاء طبقة كبيرة دون الفهم ودون الانبهار لم يبهروا ولم يفهموا ، فهم لا يؤمنون بالمعجزات الحسية إلا بمتابعة المتخصصين ويكون خطابهم بالمعجزات الهدائية، فالمعجزات الهدائية تؤسس إيمانهم ، والمعجزة الحسية تزيد إيمانهم .

رابعا : من حيث طلب الأنبياء للمعجزات :

إن الأمر المعجز إذا ظهر للجماعة منهم من يؤمن عند ذلك ومنهم من يعرفه ويجحده ولا يظهر التصديق به ظلما وعلوا وحسداً، ومنهم من يلحق ذلك بالسحر والإيهام، فلما رأت الرسل ذلك وأنه لا يؤمن إلا من أنار الله قلبه بنور الإيمان فقصرت الهمم عن طلب الأمور المعجزة .

ـ يقول تعالى ﴿**وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون**﴾ (١) .

ـ ﴿**وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون.وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا**﴾ (٢) .

ـ ﴿**وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه.قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أو لم يكفيهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم**﴾ (٣) .

ـ ﴿**ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد**﴾ (٤).

ـ ﴿**واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها،قل إنما الآيات عند**

---

(١) يونس : ١٠١ .
(٢) الإسراء : ٥٩ .
(٣) العنكبوت : ٥٠ ، ٥١ .
(٤) الرعد :٧ .

الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة و نذرهم في طغيانهم يعمهون ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾ [١] .

- ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين﴾ [٢] .

- ﴿وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ [٣] .

- ﴿ولئن آتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ [٤] .

- ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ [٥] .

- ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلاّ أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾ [٦] .

- ﴿ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ [٧] .

- ﴿ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحرون﴾ [٨] .

- ﴿ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى﴾ [٩] .

- ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين﴾[١٠] .

---

(١) الأنعام : ١٠٩ ، ١١١ .
(٢) النمل : ١٣ .
(٣) الأعراف : ١٣٢ .
(٤) البقرة : ١٤٥ .
(٥) يونس : ٩٦ .
(٦) الأنعام : ١١١ .
(٧) الأنعام : ٧ .
(٨) الحجر : ١٤ ، ١٥ .
(٩) طه : ٥٦ .
(١٠) آل عمران : ١٨٣ .

- ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا،أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا،أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه.قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا﴾[1] .

فالمعجزة الأولى التي طلبوها: أن يفجر لهم من الأرض ينبوعا وقد نسوا أن الحق تعالى أعطى لموسى عليه السلام أكثر من ذلك فكان يضرب بعصاه الحجر فتنفجر منه العيون وإذا بقومه يعبدون العجل رغم كل المعجزات التي رأوها. والمعجزة الثانية التي طلبوها(أن تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا) وقد أعطانا الله سبحانه وتعالى في سورة الكهف قصة ذلك العبد صاحب الجنتين،الذي آتت جنتيه ثمارهما وفجرت الأنهار خلالهما. . ومع ذلك بدلاً من أن تزيده هذه النعمة خشوعا لله قادته إلى الكفر قال تعالى[2] ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا﴾. أما الآية الثالثة: (أن تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) ولو أن السماء سقطت عليهم كسفا ما عاش منهم أحد ليؤمن، والمعجزة الرابعة التي طلبوها: (أن تأتي بالله والملائكة قبيلا) وهم يعرفون أنهم يوم يرون الملائكة لا ينفع نفسا إيمانها. قال تعالى:[3] ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك.يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً.قل انتظروا إنا منتظرون﴾. والمعجزة الخامسة (أو يكون لك بيت من زخرف) والدنيا موقوته. . والنعيم الحقيقي في الآخرة. وقد عرض على الرسول - ﷺ - أن تجعل له جبال مكة ذهبا، فأبى ثم يطلبوا منه بعد ذلك أن يرقى إلى السماء وأن يأتيهم بكتاب يقرأونه. . ونسوا أن رسول الله - ﷺ - قد أسري به إلى السماء العليا، . . وقد

---

(١) الإسراء : ٩٠ ، ٩٣ .

(٢) الكهف : ٣٥ ، ٣٦ .

(٣) الأنعام : ١٥٨ .

طلبوا كتابا من السماء والقرآن بين أيديهم نزل من السماء.. ولو أن الله سبحانه أراد أن ينزل إليهم كتابا من السماء.. فلابد أن ينزله بلغتهم وإلا لما عرفوه.. وما استطاعوا أن يفهموه.. فالقرآن نزل بلغتهم لغة العرب حتى يستطيعوا أن يقرأوه وأن يفهموه وأن ينفذوا تعاليمه[1] .

إلا أنه يمكن فهم قوله تعالى **﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾**[2] على أن الآيات هنا المراد بها الآيات المشترطة على سبيل العناد والتعنت لا كما يدعي سيد قطب وغيره من أنها الآيات على الإطلاق [3] .

لأن الرسول ـ ﷺ ـ وإن لم يستجب لهم ويفجر لهم من الأرض ينبوعا عند التحدي إلا أنه فعل ما هو أعظم بدون تحد من أحد له، فتفجر الماء من بين أصابعه الشريفة [4] فهو ـ ﷺ ـ لم يستجب لهم في طلبهم لأنه كان على علم من أن طلبهم حينئذ لم يكن إلا للسخرية والاستهزاء ومن ثم فمهما يروا من المعجزات فسيأولونها .

«وقد قال المنافقون وقد رأوا بأعينهم سحابة واحدة في إبّان القيظ قد مطرت عسكر المؤمنين وحده عند دعاء النبى ـ ﷺ ـ : إن ذلك إنما كان بتأثير النوء لا بدعائه»[5] .

وقال اليهود في المسيح: «إن معه بَعْلَزَبُول وإنه برئيس الشياطين يخرج الشياطين» [6] .

وورد في الكتاب المقدس «إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء، ولا إن قام واحد من الأموات يصدقون» [7] .

---

(١) انظر الشعراوي : معجزات الرسول ١٠٠ ، ١٠٦ . (٢) الإسراء : ٥٩ .

(٣) يقول سيد قطب :«إن الرسول ﷺ لم يرسل بخوارق من نوع الخوارق التى جاءت مع الرسل قبله....لما كان من تكذيب الأولين بها» فى ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٤٢٧ .

وانظر . Gibb and kramers:Shorter Encyclopaedia of Islam, p.389

Mircea Eliade: The Encyclopedia of Religion ,Vol . 9 . p . 546 .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه فى الباب(٣١) من كتاب الأشربة والنسائى فى سننه فى الباب(٦٥) من كتاب الطهارة،وأحمد فى المسند جـ ١ ص ٤٠٢ . (٥) محمد رشيد رضا:الوحى المحمدى ص٣٧.

(٦) مرقس الأصحاح (٣) آية (٢٢) وانظر كذلك«لوقا»الأصحاح (١١) آية (١٥) .

(٧) «لوقا» الأصحاح (١٦) آية (٣١) .

بل جاء في الأناجيل من سيرة المسيح عليه السلام أن الكهنة عجلوا بسعيهم لإهلاك السيد المسيح حين علموا بآياته وأشفقوا أن تقود الناس إلى الإيمان برسالته. فدعاهم إلى الكيد له ما كان أحرى أن يدعوهم إلى الاستماع له أو الصبر عليه.

ففي إنجيل يوحنا «فجمع رؤساء الهكنة والفريسيون مجمعا وقالوا ماذا نصنع فإن هذا الإنسان يعمل آيات كثيرة وإن تركناه هكذا يؤمن الجميع به فيأتي الرومانيون، ويأخذون موضعنا وأمتنا فقال لهم واحد منهم وهو قيافا. كان رئيسا للكهنة في تلك السنة: أنتم لستم تعرفون شيئا ولا تفكرون أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها» [1] .

وكذا كانت نصيحة إبليس للمشركين عند اجتماعهم للكيد للرسول - ﷺ - وقول بعضهم «نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فإن خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع... (فقال لهم إبليس): لا والله ما هذا لكم برأي ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم»[2] .

ومن ثم فنلاحظ أن كثيرا من معجزات الأنبياء الحسية كانت معجزات رحمة من الله وعناية منه برسوله والمؤمنين[3] .

كإنزال الملائكة في غزوة بدر وتسخير الله السحاب لإسقاء المسلمين وتثبيت أقدامهم التي كانت تسيخ في الرمل يقول تعالى: **﴿فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾** [4] .

وفي غزوة تبوك عندما نفد ماء الجيش قال أبو بكر: «يا رسول الله إن الله عودك في الدعاء خيراً فادع لنا، فرفع يديه فدعا، فلم يرجعهما حتى كانت السماء سكبت لهم ما ملئوا به ما معهم من الروايا ولم تتجاوز عسكرهم»[5] .

---

(١) يوحنا الأصحاح (١١) آية (٤٧ : ٥٠) .   (٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٧٤ .

(٣) وهذا لا يعني أنها لم تكن حجة كما يزعم سيد قطب في قوله «فأما ما وقع فعلا للرسول ﷺ من خوارق شهدت بها روايا صحيحه فكان إكراما من الله لعبده لا دليلا لإثبات رسالته» .انظر سيد قطب: في ظلال القرآن جـ٦ ص٣٤٢٧ .

(٤) الأنفال : ٩ .

(٥) رواه ابن جرير وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في كتابيهما «دلائل النبوة» والضياء في الأحاديث المختارة .

وإن كان ـ ﷺ ـ وأهل بيته وأصحابه يصبرون على المرض والجوع والعطش ولا يدعو لهم ـ ﷺ ـ بما يزيل ذلك إلا نادراً .

«وقد سألته المرأة التي كانت تصرع أن يدعو الله لها بالشفاء فأرشدها إلى أن الصبر على مصيبتها خير لها فشكت إليه أنها تنكشف عند النوبة وسألته أن يدعو لها ألا تنكشف، فدعا لها واستجاب الله دعاءه»[1] .

فالمعجزة الكبرى هي: مجموعة القرائن والمعجزات التي يقوي بعضها بعضا حتى تولد العلم الضروري .

والقرينة الواحدة والمعجزة الحسية الواحدة قد يتحقق فيها معنى الإعجاز ويستقل في حق بعض الناس لا كلهم وذلك متوقف على طبيعة القرينة أو المعجزة وطبيعة الشخص .

إلا أن المعجزة الحسية بالرغم من ذلك لابد وأن تكون حجة في ذاتها بمعنى أنها تختلف عن الخوارق التي تحدث على يد غير الأنبياء فهي وإن كانت متميزة، وإن كانت علامة حقيقية إلا أن فهمهما وإدراكها هو الذي يختلف حسب البيئات والأشخاص، وذلك كالحال في أفراد التواتر فكل فرد وإن كان عدلا ثقة إلا أن البعض يمكن أن ينكر هذه العدالة فيه لجهله بوجودها فخبره ليس ببرهان للجميع وإن كان برهانا عند بعضهم ممن خبره وعرفه جيداً .

ولا يعني ذلك أن المعجزة المعنوية هي الضامنة للإيمان فها هو«تولستوي» في كتابه المترجم باسم«حكم النبي محمد» وميكل هارت في كتابه المترجم باسم«الخالدون مائة أعظمهم محمد» ـ ﷺ ـ وغيرهم كثيرون[2] أشادوا بالرسول ـ ﷺ ـ وبدعوته ومع ذلك أرجعوا كل ذلك إلى العظمة والعبقرية الشخصية لا إلى النبوة .

وها هو القرآن مع كونه في رأس معجزات الهداية ما آمن به إلا من شرح

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه فى الباب(٥) من كتاب المرضى ومسلم برقم (٥٤) من كتاب البر،وأحمد جـ١ ص ٣٤٧ .

(٢) كبرناردشو ، ولامارتين ، وجان جاك رسّو وغيرهم .

الله صدره للإسلام فمسألة الهداية بيد الله، فهو يهدي من يشاء ويضل من يشاء ويهدي من يهديه إذا شاء من غير معجزة ومن غير نبى .

وإنما كان الفرق بين المعجزة المعنوية والمعجزة الحسية هنا أن المعجزة المعنوية كانت هي مجموعة القرائن الدالة دلالة ضرورية على الصدق. وتعود إلى نفس الصفة التي سمي بها النبي نبيا بعكس المعجزة الحسية التي كانت حادثة منفردة نسبية الدلالة وإن كانت بينة في نفسها إلا أنها لا تستقل في دلالتها عن المعجزة المعنوية وتجري مجرى برهان الإن لا برهان اللم كالمعجزة المعنوية ثم إنها محصورة ـ غالبا ـ بحاجزى الزمان والمكان .

ويؤكد ما سبق قول ابن تيمية:[1] «وأنفع الخوارق الخارق الدني... ثم بعده الخارق المؤيد للدين المعين له» .

وكذلك قوله:[2] «الدين الصحيح أوجب لطاعة النفوس وحصول الرياسة من الخارق المجرد كما هو الواقع فإنه لا نسبة لطاعة من أطيع لدينه إلى طاعة من أطيع لتأثيره إذ طاعة الأول أعم وأكثر، والمطيع بها خيار بني آدم عقلا ودينا، وأما الثانية، فلا تدوم ولا تكثر ولا يدخل فيها إلا جهال الناس كأصحاب مسيلمة الكذاب وطليحة الأسدي ونحوهم، وأهل البوادي والجبال ونحوهم ممن لا عقل له ولا دين» .

هذا بالإضافة إلى أنه كان من الأسباب التي أدت إلى عدم طلب الأنبياء المعجزة الحسية .

أنه كان من سننه تعالى في كونه أنه إذا استجاب لرسوله في طلب المعجزات الحسية، وبعد ذلك لم يؤمن قومه فإن الله يهلكهم .

والأنبياء رحماء بأقوامهم لأنهم وإن لم يؤمنوا فعسى أن يخرج من أصلابهم من يؤمن بدين الله ويحارب في سبيل الله .

يقول تعالى[3] **﴿إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن**

---

(١) ابن تيمية : قاعدة شريفة ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) السابق ص ٣٣ .

(٣) المائدة : ١١٢ ، ١١٥ .

ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين. قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ .

وروى عنه - ﷺ أنه قال لما مر بالحجر[1] «لا تسألوا الآيات وقد سألها قوم صالح فكانت (الناقة) ترد من هذا الفج وتصدر من هذ الفج فعتوا عن أمر ربهم. فعقروها، فكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما، فعقروها فأخذهم صحية أهمد الله عز وجل من تحت أديم السماء منهم إلا رجلا واحداً كان في حرم الله عز وجل قيل من هو يا رسول الله قال هو أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه» .

خامسا: من حيث ترتيب الأنبياء الزمني للمعجزة الحسية والمعنوية :

بتأمل أحوال الأنبياء ومعجزاتهم نلاحظ أن الأنبياء عليهم السلام لم يبدأوا أقوامهم بالمعجزات الحسية، ولكن بدأوهم بالمعجزات المعنوية «فإن الحوار شيء يختلف عن المعجزة في مخاطبة العقل، فالنبى يظهر المعجزة الحسية التي منحه الله إياها عندما يجد أن عقول المنكرين ترفض الأدلة العقلية والبراهين الدامغة فتكون المعجزة الحسية قاهرة للعقل لأنها على خلاف المألوف وخرقا للنواميس لذا لا يجد العقل أمامه ترتيب أسباب ومسببات . . .

إن الله لم يطلب منهم إلغاء عقولهم ولكنه طلب منهم أن يتدبروا ويفكروا ليصلوا إلى الحق، فلما رفضوا لغة التفكير أعجزهم الله بالآيات والنذر»[2] .

فرسولنا - ﷺ - بدأ دعوته بقرائن المعجزة المعنوية. فاستدل على صدقه بمعرفة قومه لصدقه، فقد روى البخاري ومسلم والترمذي عن ابن عباس قال: «لما نزلت ﴿**وانذر عشيرتك الأقربين**﴾[3] صعد النبي - ﷺ - على الصفا، فجعل ينادي

---

(١) رواه أحمد في مسنده جـ ٣ ص ٢٩٦ .

(٢) محمد الصايم : قيمة العقل في الإسلام ص ٦٦ . (٣) الشعراء : ٢١٤ .

يابنى فهر يابنى عـدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فـجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر مـا هو فجاء أبو لهب وقريش فقـال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مـصدقيّ، قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقا قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[1] .

فاكتـفى - ﷺ - حينئذ بذكر مـعرفتهم لصـدقه وأمانته عن الإتيـان بمعجزة حسية، ثم توالت بعد ذلك معجزاته - ﷺ - الحسية .

«وموسى بن عـمران لما جاء إلى مصـر فقال لهارون وغـيره إن الله أرسلنى علموا صدقة قبل أن يظهر لهم الآيات ولما قال لهارون إن الله قد أمرك أن تؤازرنى صدقـه هارون في هذا لما يعلم من حاله قـديما ولما يرى من تغيـر حاله الدال على صدقه»[2] .

وفي الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام وفرعون بدأ موسى عليه السلام بقرائن المعجزة المعنوية .

قال تعالى:[3] **﴿قال فرعـون وما رب العالمين،قال رب الـسموات والأرض وما بـينهمـا إن كنتم موقنين قـال لمن حوله ألا تستمـعون قـال ربكم ورب آبائكم الأولين قال إن رسـولكم الذي أرسل اليكم لمجنون قـال رب المشرق والمغـرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾** .

فلما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهه، ولم يبق له قول سوى العناد عدل إلى استعمال القوة .

﴿قـال لئن اتخذت إلـهـا غيـرى لأجـعلنك من المسجـونين﴾[4] ولما أحـس موسى عليه السلام عـدم خضوع فرعون لمنطق العقل ولجأ لمنطق القـوة والقهر لجأ هو أيضا لهذا المنطق ولكـن باستخدام المعجزات الحـسية **﴿قال أو لو جـئتك بشيء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين فالقى عـصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾**[5] .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه فى الباب الثانى من تفسير سورة الشعراء وفى الباب الثانى من تفسير سورة سبإ وفى الباب الأول والثانى من تفسير سورة المسد ورواه الترمذى فى سننه فى تفسير سورة المسد ورواه أحمد فى المسند جـ ١ ص ٢٨١، ٣٧٤ جـ ٣ ص ٤٧٦ جـ ٥ ص ٦٠ . (٢) ابن تيمية : النبوات ص ٢٤٤.
(٣) الشعراء : ٢٣، ٢٨ . (٤) الشعراء : ٢٩ . (٥) الشعراء : ٣٠ .

ولما تقدم موسى عليه السلام للسحرة بدأ بقرائن المعجزة المعنوية ﴿**قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى**﴾ (١) .

«قيل: معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم فقائل يقول: هذا كلام نبى وليس بساحر وقائل منهم يقول: بل هو ساحر»(٢) .

ولم أحس موسى أنهم لا يستمعون لمنطق العقل و﴿**قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكما المثلى**﴾(٣) .

لجأ هو أيضا إلى منطق المعجزة الحسية ﴿**فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون**﴾ (٤) .

وصالح عليه السلام بدأ دعوته بقرائن المعجزة المعنوية فدليل صدقه أنه رسول أمين وأنه لا يطلب أجرا وأنه جاء يدعو إلى الهداية التي لا تنكرها الفطر السليمة، والعقول الصحيحة فكذبوه وطلبوا منه آية فجاء لهم بالناقة يقول تعالى: (٥) ﴿**كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني لكم رسول أمين،فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتتركون في ما ها هنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون.قالوا إنما أنت من المسحرين، ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم**﴾ .

«وقد ذكر المفسرون أن ثمودا اجتمعوا يوما في ناديهم فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله وذكرهم ووعظهم وأمرهم فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة وأشاروا إلى صخرة هناك ناقة من صفتها كيت وكيت وذكروا

---

(١) طه : ٦١ – ٦٢ . (٢) ابن كثير : قصص الأنبياء ص ٢٨٦ .
وانظر كذلك القرطبى: الجامع لأحكام القرآن جـ ٥ ص ٤٢٥٥ .
(٣) طه : ٦٣ . (٤) الشعراء : ٤٥ .
(٥) الشعراء : ١٤١ ، ١٥٥ .

أوصافا سموها وتعنتوا فيها وأن تكون عشراء طويلة من صفتها كذا وكذا، فقال لهم النبى صالح ـ عليه السلام ـ: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به ؟ قالوا: نعم فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك .

ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل ما قدر له ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة على الوجه المطلوب الذي طلبوا و على الصفة التي نعتوا فلما عاينوها كذلك رأوا أمرا عظيما ومنظرا هائلا، وقدرة باهرة ودليلا قاطعا وبرهانا ساطعا فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم»[1] .

سادسا : من حيث البعد الزمنى لهما :

فالمعجزة الحسية محصورة بحاجزي المكان والزمان لا يراها إلا عدد محدود من الناس بعكس المعجزة المعنوية فهي تكسر حاجزي الزمان والمكان وتتخطاهما .

صحيح أن المعجزة الحسية قد تتخطى حاجزي الزمان والمكان بالتوتر إلا أن التواتر لا تتوافر شروطه دائما في كل المعجزات الحسية وحتى لو توافرت فليس من رأى كمن سمع .

وها هو إبراهيم عليه السلام يطلب من الله أن يريه كيف يحى الموتى بالرغم من إيمانه وكونه خليل الرحمن وذلك ليتحول إيمانه من علم اليقين إلى عين اليقين.

أما المعجزة المعنوية فلا حاجة لها إلى التواتر بنفس هذه الدرجة وخاصة ما يرجع منها إلى موضوع الدعوة يقول الباقلاني: (٢) «وفيه أيضا [أي القرآن] من عظم الشأن ما ليس في غيره من آيات الرسل، وهو بقاؤه تحديا أبداً للمخالفين في نبوته عليه السلام، في الإتيان بمثله وعجزهم عن ذلك .

فهي آية باقية حاضرة لا يحتاج في العلم بوجودها إلى إخبار المخبرين ونقل

---

(١) ابن كثير : قصص الأنبياء ص ١١٣ .

(٢) الباقلانى : البيان ص ٣١ ، ٣٢ .

الناقلين الذين ربما ظن بهم الكذب. . . . ووضع مالا أصل له . . . . ووجود القرآن وحضوره يغنى عن نقل له ودليل عليه» .

ويقول القاسمى:[1] «كتاب الله العزيز. . . لم يكن كونه خارقا من طريق السماع كانقلاب العصا حيه وإنما ثبت كونه معجزا بطريق الحس والاعتبار لكل إنسان وجد ويوجد إلى يوم القيامة، وبهذا فاقت هذه المعجزة سائر المعجزات» .

إلا أن المعجزة الحسية قد تتخطى حاجز الزمان في أحوال قليلة. كما هو الحال في .

- القرآن الكريم وهو معجزة حسية معنوية .

- آثار قدم إبراهيم عليه السلام التي يقول تعالى عنها **﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾**[2] .

- كرامات الأولياء و«هي من آيات الأنبياء فإنها مختصة بمن شهد لهم بالرسالة وكل ما استلزم صدق الشهادة بنبوتهم فهودليل على صدق هذه الشهادة سواء كان الشاهد بنبوتهم المخبر بها هم أو غيرهم بل غيرهم إذا أخبر بنبوتهم وأظهر الله على يديه ما يدل على صدق هذا الخبر كان هذا أبلغ في الدلالة على صدقهم من أن يظهر على أيديهم»[3] .

---

(١) القاسمي : دلائل التوحيد ص ١٥٤ .

(٢) آل عمران : ٩٧ .

(٣) ابن تيمية : النبوات ص ١٤٢ .

الفصل الثاني

تقسيمات أخرى للمعجزات

١ - من حيث درجة الخارقية :

فمعجـزات الأنبياء متفاوتة الإعجـاز فمنها صغار وكبار وإن كـانت متساوية الأحكام في ثبوت الإعجاز، وتصديق مظهرها على ما ادعاه من النبوة .

فمنها ما لا يكون لـغيرهم، ومنها ما يشابه ما لا يكون لـغيرهم من الأولياء ، ومنها ما يماثل ما يكون للأولياء ومنهـا ما يشابه ما يكون للروحانيين في أي دين كصوفية الهـنود ورهبان النصارى بل إن بعضا مما يحسب أنه خوارق حقـيقية ليس بخارق حقيقي ولكنه معونة منه تعالى وربما وجد بسنة إلـهية طبعية [١] .

ولا يسمى شيء من تلك الخوارق «معجزة» إلا مـا كان خاصا بالأنبياء عليهم السلام .

ولا يستـثنى من ذلك إلا ما شاركهم فـيه الأولياء فـإذا حدث على يد النبى سمى مـعجزة وإذا حـدث على يد الولي سمى كـرامة وإنما كـان ذلك كذلك لأن كرامات الأوليـاء معجزات لأنبيائهم كـما يقول ابن تيمية لأنهـا كانت لهم بفضل اتباعهم الأنبياء [٢] .

٢ - من حيث الإتيان بغير المعتاد أو المنع من المعتاد :

وقد سبق تناول ذلك تفصيليا في حديثنا عن شروط المعجزة .

٣ - من حيث كونها معجزات هداية أو رحمة أو إكرام أو إنذار أو سخط :

- ومعجزات الهداية مثل القرآن وتكون قبل الإيمان لأنها برهانه .

- ومعجزات الرحمة والنعـمة مثل إنزال الملائكة لمعونة المؤمنين في الحرب أو في غيرها، ومثل تكثير الطعام ونبعان الماء وقت الحاجة .

- ومعجزات الإكرام مثل الإسراء والمعراج وتكون للمؤمنين إكراما لهم [٣].

---

(١) انظر مبحث نسبية الدلالة في الفصل الخامس من الباب الرابع .

(٢) انظر ابن تيمية : الفرقان ص ١٢٩ والنبوات ص ١٤٢ .

(٣) وما يروي عن عيسي عليه السلام في العهد الجديد مثل قوله «لا تخف.آمن فقط فإنها تشفى» لوقا ٨ :٥٠ وقوله «اذهب إيمانك قد شفاك» مرقس ١٠ :٥٢ . وقوله «إن آمنت ترين مجد الله» يوحنا ١١ :٤٠ . وقريب من ذلك كما في مرقس ٩ :٢٣ ،ومتي ٩ :٢٧ ـ ٣٠، ١٥ :٢١ ـ ٢٨ ليس هو طلب الإيمان قبل المعجزة وإنما هو طلب الإقرار بالإيمان الذي قد يحول دونه الكبر والطمع ممن يعرف صدقه عليه السلام جيداً بدليل =

ـ ومعــجزات الإنذار مثل نتق الجـبل فوق بنى إسـرائيل كما يقـول تعالى[1] ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ .

ـ ومعجزات سخط ونقمة كطوفان نوح عليه السلام .

ولا تعني هذه التقسيمات وجود حدود فاصلة بينها فالمعجزة الواحدة لابد أن لها أكثر من وجه إلا أنه قد يكون أحد هذه الأوجه هو الأظهر في دلالتها .

فمعجزات الهداية مثلا هي أيضــا رحمة ونعمة وإكرام وهي إنذار للمخالفين لأنها أتت من عند القادر على كل شيء وعلى إهلاك الكفرة والفاسقين .

ومعجزات السخط والنقمة مـثلا هي أيضا معجزات هداية وفي نفس الوقت إنذار وذلك للأقوام التالية للأمم المهلكة .

يقول تعالى[2] ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كـيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخـرة خير للذين اتقوا أفـلا تعقلون حتى إذا استـيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى مـن نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ وهكذا الحال في بقية المعجزات .

٤ ـ من حيث كونها تدخل تحت تأثير النفساني في النفساني أو تأثير النفساني في الجسماني :

يقول ابن سينا[3] «وأما الآيات والمعجزات فإن قسـمين من أقسامها يدخلان تحت تأثير النفساني في النفساني وقسـما واحدا منها يدخل تحت تأثير النفساني في الجسماني، وذلك أن أصناف المعجزة ثلاثة» .

أما الصنفان الأوليان فأحدهما يتـعلق بفضيلة العلم حيث يؤتى النبى الحكمة والعلم الإلهى دون تعلم بشـرى وإنما من مـحض الفضل الإلهى كـما قـال النبى أوتيت جوامع الكلم .

هذا مع علم الكافـة بأن النبى كـان أمـيا نشـأ في بيـئة بـدوية لا شأن لهـا بالمدارسة والبحث، وعلى ذلك فهذا العلم الإلهى الذي أوتيه النبى هو أحد ضروب

=طلبهم المعجزة لا كدليل على صدقه وإنما كمنجاة لهم من الموت والمرض لا يقدر عليها إلا الله .
فهم ليسوا في حاجة إلى معجزات هداية ليبنوا عليها إيمانهم .ولكنهم يطلبون معجزات إكرام وهى لا تكون إلا للمؤمنين المقرين بإيمانهم .

(١) الأعراف : ١٧١ . (٢) يوسف :١٠٩ - ١١١ .

(٣) ابن سينا :رسالة فى الفعل والانفعال ص ٢ .

المعجزات عند ابن سينا وهو يدخل تحت تأثير النفساني في النفساني «إذ حقيقة الوحي هو الإلقاء الخفي من الأمر العقلي بإذن الله تعالى في النفوس البشرية المستعدة لقبول مثل هذا إما في حال اليقظة ويسمى الوحي وإما في حال النوم ويسمى النفث في الروع»[1] ولذلك فنفس النبي في حال تأهب واستعداد دائمين لتلقي سوانح الغيب عن طريق العلم الإلهي .

وفي مثل هذه النفس ـ على حد ما يذهب ابن سينا ـ قال تعالى: **﴿يكاد زيتها يضيئ ولو لم تمسسه نار﴾**[2] «فكأن مثال هذه النفس كبريت والعقل الفعال نار فيشتعل فيها دفعة واحدة ويحيلها إلى جوهره» [3] ويعبر الغزالي عن ذلك بقوله «يكاد زيتها يضيء ضوء الفطرة ولو لم تمسسه نار الفكرة»[4] .

وأما الصنف الثاني، الذي يدخل أيضا تحت تأثير النفساني في النفساني فهو يتعلق بما أوتيه النبي من قوة على تخيل الأمور الماضية، والحاضرة والاطلاع على بعض الأمور الغيبية في المستقبل «فيلقى إليه كثير من الأمور التي تقدم وقوعها بزمان طويل فيخبر عنها، وكثير من الأمور التي تكون في الزمان المستقبل فينذر بها وبالجملة يحدث عن الغيب فينتصب بشيرا ونذيراً وخاصيته الإنذار بالكائنات والدلالة على المغيبات»[5] وذلك ما دل عليه قوله تعالى: **﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك﴾**[6] وقوله تعالى: ﴿ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك﴾[7] وقوله تعالى: **﴿الم. غلبت الروم. في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين﴾** [8] .

هذا بالإضافة إلى مأثور الأخبار النبوية كما أخبر النبي عليه السلام بموت النجاشي[9] وقوله لرسول كسرى «إن ربي تبارك وتعالى قد قتل ربك[10] فكان كما قال... الخ .

وهذا الانفتاح على الغيب قد يكون من الناس في حال النوم ويسمى الرؤيا الصادقة ولكنه للأنبياء يحدث في اليقظة وفي النوم ويفترق عما يكون لغيرهم بكثير من الفروق [11] .

---

(١) السابق :ص ٣ . (٢) النور: ٣٥ . (٣) ابن سينا : السابق ص ٤ . (٤) الغزالي:معارج القدس ص١٦١ :١٦٣ . (٥) ابن سينا السابق ص ٤ . (٦) هود : ٤٩ . (٧) النساء : ١٦٤ . (٨) الروم : ١ : ٤ . (٩) رواه البخارى : فى صحيحه جـ٥ص٦٤ . (١٠) رواه أحمد :في مسنده جـ٥ص٤٣ . (١١) انظر مبحث قدرة السحر على التنبؤ بالغيب ص١١١ :١٢٠ .

وعن تأثير النفساني في الجسماني يقول ابن سينا [١] «وأما الصنف الثالث من أصناف المعجزات فإنه يتعلق بفضيلة قوة النفس المحركة التي تبلغ من قوتها إلى القدرة على الإهلاك وقلب الحقائق من تدمير على قوم بريح عاصفة وصاعقة وطوفان وزلزلة وقلب العصا حية» .

ويدخل في هذا القسم إجابة الدعاء والحسد .

ولنا وقفة طويلة عند ذلك في مبحث تأويل المعجزة (٢) .

٥ ـ من حيث كونها عن الهمة أو عن الأمر :

فابن عربى يفرق بين نوعين مختلفين من التسخير :

الأول : الحاصل بوساطة قوة خاصة يطلق عليها الصوفية اسم الهمة .

الثانى : تسخير الأشياء بمجرد الأمر من غير استعانة بتلك القوة .

ويلزم من هذا أن من تسخر له الأشياء بوساطة الهمة لابد أن يكون قد وصل إلى درجة روحية خاصة هي درجة الجمعية التي يوجه بها همته نحو الشىء المراد فيحصل وفي هذا يقول : إن أجرام العالم تنفعل لهمم النفوس إذا أقيمت في مقام الجمعية [٣] .

أما النوع الثانى من التسخير فهو قوة يهبها الله لمن يشاء من غير كسب ولا رياضة ولا توجيه لهمة أو نحوها .

يقول ابن عربي [٤] «وأما التسخير الذي اختص به سليمان وفضل به غيره وجعله الله من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده فهو كونه عن أمره فقال[٥] ﴿فسخرنا له الريح تجرى بأمره﴾ . والله يقول في حقنا كلنا من غير تخصيص ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه﴾ [٦] .

وقد ذكر تسخير الرياح والنجوم وغير ذلك، ولكن لا عن أمرنا بل عن أمر الله فما اختص سليمان إن عقلت إلا بالأمر من غير جمعية ولا همة، بل بمجرد الأمر» .

---

(١) ابن سينا: السابق ص ٥. (٢) انظرتعليقنا علي الفصل الرابع من الباب الرابع

(٣) انظر أبو العلا عفيفي :التعليقات على فصوص الحكم لابن عربي جـ٢ ص٢١٨ .

(٤) ابن عربي : فصوص الحكم جـ١ ص ١٥٨ .

(٥) سوره ص : ٣٦ . (٦) الجاثية : ١٣ .

وأرى أنه بفرض صحة اختصاص سليـمان بذلك فهذا لا يعنى أفضليته على جميع الرسل لأن المزية لا تقتضى الأفضلية .

ولنا وقفة طويلة عند ذلك في مبحث تأويل المعجزة .

٦ - من حيث الدلالة على الشخص أو الشخص والنوع :

فابن تيمية يفرق بين نوعين من الآيات نوع يدل على الشخص فقط إذ النوع قد عرف من قـبل . ويستشهد على ذلك بـأن الله تعالى يبين نبوة محمـد في غير موضع باعتبارها بنبـوة من قبلة، وتارة يبين أنه لم يرسل ملائكة بل رجالا من أهل القرى ليـبين أن هذا معـتاد ومعـروف ليس هو أمراً لم تجـر به عادة الرب كـقوله تعالى **﴿وما أرسلنا قـبلك إلا رجالا نـوحي إليهم فـاسـألوا أهل الذكـر إن كنتم لا تعلمون﴾**[١] وقوله[٢] **﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك،ولو أنـزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه مـلكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبـسون﴾** وكقوله[٣] **﴿وما محمـد إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل﴾** وقوله[٤] **﴿قل ما كنت بدعا من الرسل﴾** .

والنوع الثـانى من الآيات يدل على الشخص والنوع إذ النوع لم يـعرف من قبل ويمثل ابن تيمية لذلك النوع من الآيات بآيات نوح عليه السلام (٥) .

وكما قلنا من قبل فى حديثنا عن شروط المعجزة (٦) .

إن ابن تيمـية لم يوضح هذا الفـرق بين المعجز الذي يـدل على الشخص، والذي يدل على الشخص والنوع. أي بين مـعجزة نوح ومعـجزة غيره من الأنـبياء عليهم السلام .

وبصرف النظر عن الخلاف فى من هو أول الأنبيـاء. فكلام ابن تيمية هنا قد يمكن أن يكون صحـيحـاً وتكون هناك آيات خاصة بأول الأنبـياء لتـبين الشخص والنوع. وإن خفيت هـذه الآيات على كثير منا ولا إشكال فى ذلك فـدلالة المعجزة نسبية .

---

(١) الأنبياء : ٧ .　　(٢) الأنعام : ٨ - ٩.　　(٣) آل عمران : ١٤٤ .

(٤) الأحقاق : ٩ وكذلك ورد في الإنجيل علي لسان المسيح عليه السلام:«لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقوني »يوحنا ٥:٤٦.　　(٥) انظر ابن تيمية : النبوات ص ١٤ ، ١٩ .　　(٦) انظر الشرط الرابع .

ثم إنا لسنا فى حاجة ملحة لهذه المعرفة لأنا كما يقول الرازى[1] «نعرف بظهور المعجز عليه كونه مشرفا عند الله على سبيل الإجمال من غير أن نعرف كيفية ذلك الشرف» وبالطبع من يشرفه الله لا يكذب عليه. وكما يقول ابن رشد[2] «إن من أقدره الله تعالى على هذا الفعل الغريب وخصه به من سائر أهل وقته فليس يبعد عليه ما يدعيه من أنه قد آثره الله بوحيه» لأن «من ظهرت عليه أمثال هذه الأشياء فهو فاضل والفاضل لا يكذب» [3].

أما إن قلنا إن آدم عليه السلام هو أول الأنبياء فقد كان له عليه السلام من الآيات الظاهرة ما يدل على الشخص والنوع وهو أنه عليه السلام أصل البشرية ولم يكن معه من يحتال عليه ويكذب في ادعاء النبوة إلا من هو فرعه وتابعه، ولم تنقطع النبوة في بنى آدم قال تعالى[4] ﴿**وإن من أمة إلا خلا فيها نذير**﴾ ومن ثم عرف النوع.

---

(١) الرازي : النبوات ص ١٨٤ .

(٢) ابن رشد : الكشف عن مناهج الأدلة ص ١٢٠ .

(٣) السابق : ص ١١٢ .

(٤) فاطر : ٢٤ .

الباب الرابع

المعجزة بين الإقرار والإنكار

إن الإيمان بالمعجزات لا ينفك عن الإيمان بالله .

شيله رماخر

ريتجه . ل

الفصـــل الأول

إمكـان المعجـزة

المعجزة ممكنه وليست بالمستحيلة

فالمعـجزة فوق العقـل لاضده لأن العقل محـدود وعالم الغيب مطلق غـير محدود وإلا ما استحق الإيمان به .

والمعجزة هـي أيضا فوق الطبيـعة لا ضدها[١]، وهي إظهـار نظام أعلى من الطبيعة يخضع له النظام الطبعـى فكما أن الإرادة الإنسانية توقف ناموس الثقل إذا رفع الإنسان يده كذلك إرادة الله تعالى توقف جميع النواميس الطبعية إذا شاءت.

«فالنواميس الطبعية إنما هي عـبارة عن نظام سنه الخالق ينشأ بموجبه عن كل علة معلول واحد على الدوام، فإن نشأ عن علة واحدة معلولات متنوعة في أوقات مختلفة في دائرة الطبعيات كان ذلك من قبيل المخالفة. ولما كانت المعجزة ناشئة عن علة. . . خارجة عن دائرة الطبيعة لكنها تحدث في الطبيعة معلولات خاصة مع بقاء النواميس الطبعية على نظامها. كان ذلك غير مخالف لتلك النواميس»[٢] .

والمعجـزة ممكنة لأنهـا ليست بأعـجب مما هو حادث مـشاهد أمـام الأبصار والبصائر، وليست هي بمحتاجة إلى قدرة أعظم من القدرة التي نشهد من بدائعها ما يتكرر أمامنا كل يوم وكل ساعـة«ومن استقرأ عجائب العلوم لم يستـبعد من قدرة الله تعالى ما يحكى من معجزات الأنبياء عليهم السلام بحال من الأحوال»[٣] .

لأنا«إذا ما سلمنا بأن في مقـدور بعض النواميس الطبعيـة أن تظفر بالبعض الآخر من غير أن تلغيه أو تلاشيه فلم لا نثق بالأولى أن نواميس فوق الطبعية التي لا ندرك بعد كنهها، قـد استأسرت ببعض النواميس الطبعـية التي لازلنا نجهل عنها الشيء الكثير»[٤] .

---

(١) يقول القديس أوغسطين: «عندما نقول إن الله يفعل شيئا ضد الطبيعة فنحن نعني أنه يفعل ضد الطبيعة كما نعرفها فى شكلها الاعتيادي المألوف لنا .

انظر . David Patrick, :Chambers's Encyclopaedia Vol.ll.p.227

(٢) نخبة من علماء النصارى : علم اللاهوت النظامي ص ٤٨٤ .

(٣) الغزالي :تهافت الفلاسفة ص٢٣٧. فالعلم يؤكد المعجزات،ولا تعارض بينهما كما يزعم بعض الباحثين قائلين إن عصر المعجزات انتهي من العالم العلمي .

(The age of miracles had gone from the scientific world)

John Lewis: The Religions of The World p.144 .

وانظر . Antony Flew : A Dictionary of Philosophy, p. 217

(٤) إبراهيم سعيد : لماذا أؤمن ص ١٣ ، ١٤ .

وإن لم يكن من المستحيل عقلا أن يتم في ثانية ما تعودنا أن يتم في عام، ولا من المستحيل عقلا أن يحدث في قيد الشعرة ما كنا نظن أنه لا يحدث في غير الآفاق الفساح فقد كان هذا مستحيلا في رأي عباد العادات ومنكري الخوارق فيما تعودوه، وبعضهم معدودون من الفلاسفة المفكرين وفي عصرنا هذا أصبح كل ذلك واقعا حقيقيا، والعقل الإنساني لا يصاب بآفة أضر له من الجمود على صورة واحدة يمتنع عنده كل ما عداها، فـإما أن تكون الأشياء عنده كما تعودها وكـرر مشاهدتها وإما أن تحسب عنده في عـداد المستحيلات، وأدنى من هذا العـقل إلى صحة النظر عقل يتفتح لاحتمال وجود الأشياء على صور شتى لا يحصرها المحسوس والمألوف فلا اسـتحالة في خوارق العـادات. ومن قال باستـحالتها لزمـه الإثبات لأنه يدعي الاستحالة عقلا بغير دليل[١] .

ويؤكد ابن سينا على هذا الموقف العقلانى بقوله«وليس الخرق في تكذيبك ما لم يستبن لك. . . دون الخـرق في تصـديقك مـا لم تقم بين يـديك بينتـه . . . فالصواب أن تسرح أمثال ذلك إلى بقعة الإمكان ما لم يذدك عنه قائم البرهان» [٢]

لأن عدم العلم لا يعنى العلم بالعدم. وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك المعنى بقوله تعالى ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم**﴾[٣] وعاب على أقوام أنهم ﴿**كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله**﴾[٤] .

ثم إن القـدرة التي خلقت العالم لا تعـجز عن حـذف شيء منه أو إضـافة شيء إليه ومن السهل أن يقال عن ذلك أنه غير متصور عند العقل لكن الذى يقال عنه إنه غير متصور ليس غيـر متصور إلى درجة وجود العالم[٥] يعنى لو لم يكن هذا العالم موجـودا وقيل لمن ينكر المعجزات ولا يتـصور وجودها: سيـوجد عالم كذا، كـان جوابه أن هذا غـير مـتصـور، وكان نفى تصـوره أشد من نفى تـصور المعجزات.

---

(١) انظر العقاد: التفكير فريضة إسلامية ص ٨٢ : ٨٣ .

(٢) ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ص ٩٠٢

(٣) الإسراء :٣٦ .

(٤) يونس :٣٩ .

(٥) والكلام لويليام استانلي جوون من كبار المنطقيين الإنجليز .

بل إذا نظرنا في خلق العقل الذى هو أكبر معجزة وأول رسول من الله إلى عباده، ثم إذا نظرنا في أن يبعث رسولا إلى عباده ويجعل على يديه علامة لرسالته كما يبعث الملك عامله إلى رعيته بمرسوم من عنده. إذا نظرنا فإن إرسال الرسل إلى الناس وجعلهم ممتازين ببعض المعجزات التى هى أوسمة رسالتهم، أسهل من خلق معجزة العقل في الإنسان وجعل نوعه ممتازا بها [1] .

لأن الأول من هذين الأمرين في متناول القدرة البشرية أيضا. فيستطيع الملك أن يرسل رسولا إلى شعبه ويخصه بمرسوم منه لا يوجد في يد غيره، ولا يستطيع أن يمنح رسول العقل وكوننا نرى الأمر بالعكس فنظن ما هو أكثر وقوعا أسهل لكثرته. وما هو أقل وقوعا أصعب لقلته. لا يغير الحقيقة المعقولة عند قطع النظر عن القلة والكثرة فجميع الممكنات سهلة متساوية الأقدام في السهولة بالنسبة إلى قدرة الله، والممكنات لا تحد ولا تنتهى إلا في المحال الذى يقدره العقل المحض ويفصل بينه وبين الممكن بميزانه، وليس لغير هذا الميزان حق البت في حدود الإمكان والاستحالة، فلا يقال هذا ممكن وهذا محال بالنظر إلى تجربة الوقوعات وعلى رغم هذا نجد الذين ينكرون النبوات والمعجزات يعتمدون فى إنكارهم على تجربة الوقوعات الحاضرة لكونهم لا يقدرون الله وعظمته قدرته كما قال تعالى : **﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾**[2] ولكونهم في عصر رواج التجربة، وكساد العقل المحض فيرون السموات والأرض مخلوقة فيعترفون بإمكانها غير مستبعدين، ولا يرون في عصرهم نبيا ولا معجزته التى ليست بأعظم من السموات والأرض، فيقولون إنها غير ممكنة ويقولون إنها غير مؤتلفة مع نظام العالم .

---

(١) ولهذا قال «شاتوبريان» :«الإنسان حيوان ميتافيزيقي» لامتيازه بالعقل ،فالانسان نفسه يكفينا مثالا للمعجزة ولا يجوز أن يقال انتهازا للفرصة من قولنا بأن العقل أكبر معجزة:أن رسول العقل يغني عن إرسال الرسل ...... لأن الناس لا يستغنون بعقولهم عن عباد الله الذين اصطفاهم لدعوة الخلق إلى صراطه المستقيم،كما أن كون الرعية من ذوي العقول لا يغنيهم من أن يرسل إليهم الملك عاملا من عنده ينزلون إلى قوله ويعتبرونه قول الملك.

انظر ـ مصطفى صبري : القول الفصل هامش ص ٢٥ ـ ٢٦ .

(٢) الأنعام : (٩١) .

ولا شبهة في إمكان المعجزات، والذين ادعوا أنها محالات عقلية لم يميزوا ما هو غير واقع بالنظر إلى تجربتنا [١] عما هو محال في حين أن بينهما فرقا عظيما، فها هنا خمس مراتب: الإمكان، والوقوع، وضرورة الوقوع، وعدم الوقوع، واستحالة الوقوع. فتحكم التجربة في الوقوع واللاوقوع فقط، حتى إن حكمها في اللاوقوع لا يكون كليا بتمام معنى الكلمة[٢]. أما الثلاثة الباقية فالحاكم فيها العقل، وقد يكون الممكن أمرا عظيماً تقصر التجربة عن الوصول إليه. فيظنه قصير العقل مستحيلا أو يكون الواقع كثير الأمثال جدا فيظنه ضروريا، مثلا يرى النار تحرق دائما ما من شأنه الاحتراق، فيحكم بأن إحراقها ضروري لا يمكن انفكاكه عنها مع أن الضرورة أو الاستحالة تندر جداً [٣] .

وهناك كثير من الأحاديث النبوية تقرب لنا فهم مسألة الوحى ومعجزة الإنباء بالغيب للأنبياء وذلك حين ترشدنا إلى أن الرؤيا الصالحة من الوحى .

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها «أول ما بدئ به رسول الله - ﷺ - من الوحى: الرؤيا الصالحه - وفي رواية«الصادقة» - في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح» [٤] .

ومن الأحاديث التى تؤيد ذلك الأحاديث التى ترشدنا إلى أن «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة» [٥] وقوله - ﷺ - «لم يبق من النبوة إلا المبشرات»قالوا: وما المبشرات ؟ قال الرؤيا الصالحة» [٦] .

وهذا الذى قالته السيدة عائشة وغيره هو أحد الأدلة على النبوة. والذى انتهى إليه عباقرة الفكر فذاك أمر قد جربه أكثر الخلق إن لم يكن كلهم، وجميع الناس

---

(١) علي أن التجارب الماضية من مختلف الأمم في أزمنة الأنبياء تشهد بوقوع المعجزات،فوجود الأنبياء المعروفين - عليهم السلام - وشهود الناس بمعجزاتهم ثابتان .

(٢) «ومن هنا لا يرى «استوارت مل» الوجوب والضرورة في أى مسألة تثبت بالتجربة مهما كثر عدد التجارب الواقعة في جميع أزمنة الماضي فليس بشيء إزاء عدد الحالات غير المتناهية التي يحتفظ بها المستقبل احتياطيا والقول بأنه لا سبب داعيا على أن لا تكون حالات المستقبل طبق الماضي مؤيدة للتجارب السابقة ، خروج عن مبدأ التجربة ،وإقامة مبدأ آخر مكانها . مصطفى صبري : القول الفصل هامش ص ٢٨ - ٢٩ .

(٣) انظر مصطفى صبري : القول الفصل ص ٢٥ ، ٢٩ .

(٤) رواه البخاري:في صحيحه جـ١ ص٣ ، ٣٧ .

(٥)رواه البخاري: في صحيحه جـ ٩ ص ٣٩ .

(٦) رواه البخاري : في صحيحه جـ ٩ ص ٤٠ . ويلاحظ أن الأحاديث السالفة الذكر في شأن =

إذن عندهم جزء من النبوة يرشدهم إلى الاستدلال على صحتها وإمكانها إذا تبصروا فيه وترووا فى أمره [١] .

يقول الغزالى إن«عجائب الرؤيا الصادقة فإنه ينكشف بها الغيب، وإذا جاز ذلك في النوم فلا يستحيل أيضا في اليقظة فلم يفارق النوم اليقظة إلا فى ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسات فكم من مستيقظ لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه» [٢] .

وفى (المنقذ من الضلال) يعود الغزالى إلى نفس الموضوع ويفصله بعض التفصيل حيث يقول: (٣) «وقد قرب الله تعالى ذلك على خلقه بأن أعطاهم أنموذجا من خاصية النبوة، وهو النوم، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب: إما صريحا وإما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير، وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه، وقيل له: إن من الناس من يسقط مغشيا عليه كالميت ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب لأنكره وأقام البرهان على استحالته وقال: القوى الحساسة أسباب الإدراك، فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها: فبأن لا يدركها مع ركودها أولى وأحق وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة، فكما أن للعقل طورا من أطوار الآدمى، يحصل فيه عين يبصر بها أنواعا من المعقولات، والحواس معزولة عنها، فالنبوة أيضا عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور يظهر في نورها الغيب. وأمور لا يدركها العقل» .

والعقل الإنسانى يؤمن بكثير من الأشياء مع عدم إدراكه لحقيقتها وكنهها إنه يؤمن بالكهرباء مع أنه لم يدرك حقيقتها ولكنه آمن بها عن طريق آثارها، فعليه كذلك إذا لم يدرك حقيقة الوحى أن يؤمن به عن طريق آثاره التى تتمثل في الحقائق الإلهية التى يأتى بها الأنبياء .

= الرؤيا،والتي تربط بينها وبين النبوة ورد فيها أن المراد بالرؤيا فيها الرؤيا الصادقة لا أى شيء يرى في المنام. فالرسول ـ ﷺ ـ يقول:إن«الرؤيا من الله والحلم من الشيطان» (رواه البخاري فى صحيحه جـ٩ ص٣٩) ويقول ـ ﷺ ـ «الرؤيا ثلاث فرؤيا حق ورؤيا يحدث الرجل نفسه ورؤيا تحزين من الشيطان» (رواه البخاري فى صحيحه جـ٩ ص٤٨ والترمذى فى سننه جـ٤ ص٥٣٢ ـ ٥٣٧ ـ ٥٤٢)

(١) فالرؤي من دلائل النبوة لا كما يرى بعض الكتاب من أنها من عوامل تطورها
أنظر Hastings Rashdall: Philosophy and Religion p . 146

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ٢٥ .   (٣) ص ٨٠ .

إننا اليوم قد نكون أقدر على فهم هذه المسألة مسألة الوحى التى تعنى الاتصال ـ بطريق ما ـ بين الله ورسوله .

فهناك وقائع كثيرة تجرى من حولنا في كل لحظه ونحن نعجز عن إدراكها أو سماعها أو الإحساس بها بواسطة أجهزتنا العصبية.

وقد استطاع العلم الحديث أن ييسر لنا إدراك كثير من الأشياء التى يصعب على الإنسان بدونه أن يدركها بفضل الأجهزة العلمية التى اخترعها، وهذه الأجهزة تستطيع أن تدل على صوت ذباب طائر على بعد بضعة أميال وكأنه يطير عند أذنك ومن الأجهزة العلمية ما وصل التقدم فيه إلى حد أنها تسجل صدام الأشعة الكونية في الفضاء لقد اخترعنا آلات كثيرة أثبتت أنها تستطيع إدراك الكثير من الأحداث التى لا يمكننا سماعها بالطرق السمعية التقليدية وهذه الطاقة غير العادية لا تخص الآلات العلمية الحديثة، وإنما وهبها الله لبعض الحيوانات أيضا فالكلب مثلا يستطيع أن يشم ريح الحيوان الذى مر من الطريق .

وهناك حيوانات كثيره تسمع أصواتا تخرج عن نطاق أسماعنا، فلقد أثبتت البحوث فى هذا الميدان أن بعض الحيوانات يتمتع بقوة «الإشراق» Telepathy فلو أنك وضعت حشرة مما يطلق عليه (Moth) أو (العتة) وهى حشرة مجنحة ـ على نافذة مفتوحة فستحدث صوتا يسمعه زوجها على مسافة بعيدة جدا، ولسوف يجيبها هذا الزوج أيضا بطريقته .

وهناك نوع خاص من هذه الحشرات يدعي (الجندب) يحك رجليه وجناحيه ويصوت بطريقة غير عادية ـ ويسمع على مبعدة نصف ميل ـ ليدعو زوجه، وهذه الزوج ترسل أيضا وهى ساكنة بلا حراك جوابا لا نعرفه وإنما يعرفه الجندب الذكر، ثم يلحق بها أينما كانت .

وقد أثبتت البحوث أيضا أن «أبو النطيط» (Grasshoper) لديه قدرة خارقة على السماع حتى إنه يستطيع أن يسمع ويحس الحركة التى تحدث في نصف قطر من ذرة اليهدروجين!

وهناك أمثلة أخرى كثيرة، تؤكد إمكان وجود رسائل غير مرئية لدى ذوى الحواس الخاصة، وإذا كان الأمر كذلك فما وجه الغرابة في ادعاء إنسان أنه يسمع صوتا من لدن ربه لا يدركه عامة الناس؟ مادام من الممكن أن توجد في هذا العالم

حركات وأصوات لا تسمعها آذان الإنسان ولكن تسجلها الآلات ؟ .

ومادامت هناك رسائل تدركها حيوانات دون أخرى؟وقد تبين أن تجارب الإشراق والانكشاف ومعرفة الغيب لا تخص الحيوانات وإنما توجد في الإنسان «بالقوة» (١) .

ولا يعنى ذلك القول بتأويل النبوة فهناك فوارق كثيرة بين خوارق الأنبياء وخوارق غيرهم ولكن ما قصدته مما سبق هو تقريب مسألة خرق العادة إلى الأذهان وأنها لا تقع في حيز المستحيل بل في حيز الممكن .

وفى أعجوبة: «التنويم المغناطيسى» آية عملية تمثل الوحى تمثيلا حسيا، فقد أصبح الرجل القوى الإرادة يستطيع أن يتسلط بقوة إرادته على من هو أضعف منه حتى يجعله ينام بأمره نوما عميقا لا يشعر فيه بوخز الإبر وهنالك يكون رهين إشارته وتنمحى إرادته في إرادته: فلو شاء أن يمحو من نفسه رأيا أو عقيدة لمحاها بكلمة واحدة .

فإذا كان هذا فعل الإنسان بالإنسان فما ظنك بمن هو أشد منه قوة؟ فذلك مثل حامل الوحى ومتلقيه عليهما السلام: هذا بشر مطواع ذو روح صافية يقبل انطباع العلوم فيه، وذاك ملك شديد القوى ذو مرة يحمل إليه رسالته ويقرئها إياه فلا ينسى إلا ما شاء الله. بيد أن بعداً شاسعا بين هذا الوحى النبوى ووحى الناس بعضهم لبعض، فالناس كما عرفت قد يوحون زخرف القول غروراً، وكثيرا ما يترك وحيهم في نفس متلقيه أعراضا عقلية أو بدنية يصعب علاجها، فأين هذا من الوحى بين رسولين مؤيدين اصطفاهما الله لرسالته، رسول من الملائكة ورسول من الناس ؟ فأما الرسول الملكى فإنه كما علمت لا يوحى إلا الحق، ولا يأمر إلا بالخير، وأما الرسول البشرى فإنه لا يزال من بعد كما كان من قبل ، ثابت الفؤاد كامل العقل قوى النفس والبدن (٢) .

وأما قول القائلين إن الملائكة أجرام علوية لا تهبط فمردود عليهم لتقريرهم بأن العقل والنفس جرمان علويان هبطا إلى الجسم وحلاّ فيه

(١) وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدى ص ٩٦ ، ٩٧ .
وانظر رءوف عبيد : مفصل الإنسان روح لا جسد جـ ١ ص ١٠٤ ، ١٠٥ .
(٢) انظر محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم ٧٦ : ٧٨ .
وانظر د . رءوف عبيد : مفصل الإنسان روح لا جسد جـ ٣ ص ٧٦ .

وإذا كان الإنسان في عصرنا الحاضر استطاع الصعود إلى السماء بمركبة أو طائرة فإن ذلك ليقرب إلينا مسألة إمكانية صعود الرسول أو هبوط الملك إليه .

وإذا كان الإنسان في عصرنا الحاضر استطاع أن يحول المادة من صورة إلى أخرى (صلبة سائلة غازية) فإن هذا ليقرب إلينا مسألة إمكان التقاء النبى بالملك مع اختلاف طبيعتيهما إذ من الممكن أن تحول طبيعة أحدهما إلى طبيعة الآخر، وخاصة أن طبيعة الرسول ليست جسما خالصا وإنما له روح قدسية من عالم الأمر كما يقول الفلاسفة أو نورانية مستمده من نور الله كما يقول الصوفية .

ثم إن النبوة وإن كانت قد ختمت إلا أن من المعجزات ما هو خالد حتى الآن. ومن رحمة الله تعالى أنه جعل أعظم المعجزات على الإطلاق وهى القرآن الكريم معجزة خالدة .

فالقرآن الكريم معجزة كبرى خالدة وتدل أيضا على إمكانية وجود غيرها من المعجزات بل وتصرح بهذا الوجود في كثير من المواضع .

كما يدل على هذا الوجود أيضا للمعجزة الحسية علمى الطب والنجوم فإن من يبحث فيهما يعلم بالضرورة أنهما يدركان بإلهام إلٓهى وتوفيق من جهته تعالى ولا سبيل إليهما بالتجربة دائماً فإن من الأحكام النجومية ما لا يقع إلا في كل ألف سنة مرة، فكيف ينال ذلك بالتجربة وهكذا خواص الأدوية [1] فإنه يصعب إدراكها جميعا بالتجربة .

وإذا كانت المخلوقات مرتبة في سلسلة الكمال، وكانت أفراد كل صنف منها متميزة أيضا في درجة الكمال، فكان الإنسان أكمل من الحيوان، وكان الناس متفاوتون في درجة الكمال. فأن يوجد إنسان هو أكمل الناس ـ وهو المراد بالنبوة ـ فهو أمر ممكن .

ويرد الباقلانى على الطاعنين في إمكانية المعجزة بأنها إما أن تكون مستحيلة في العادة أو في قدرة الصانع، ولا يمكن أن تكون مستحيلة في قدرة الصانع، ومن قال بذلك فقد ألحد وترك الدين، ولا دليل على استحالتها في قدرة الصانع لأن

---

(١) انظر الغزالي : المنقذ من الضلال ص ٨٠ ـ ٨١ .

عدم المشاهدة لا يعنى عدم الوجود فنحن مثلا لم نشاهد خلق إنسان إلا من ذكر وأنثى والعقل والشرع يدلان على أن مبدأ الإنسان وهو آدم عليه السلام لم يكن من ذكر وأنثى فدل ذلك على أن عدم المشاهدة لا يعنى عدم الوجود ولا يمكن أن تكون المعجزة كذلك مستحيلة في العادة لأنه لا مانع من أن ينقض الله تعالى العادات ويظهر المعجزات على أيدى رسله [١].

ويبين مصطفى صبرى أن موقف هؤلاء المدعين لاستحالة المعجزة موقف لا ينم إلا عن ضعف عقل وسوء نية لأن من يؤمن بوجود الله ولا يؤمن بسعة قدرته التى وسعت خلق السموات والأرض لخلق معجزة تأييدا لرسله تعالى فذلك منهم حماقة إن لم تكن أكبر من حماقة الإلحاد كانت أظهر أما من لا يؤمن بوجود الله ويجعل نظام العالم عبارة عن المصادفة والفوضى كبوخنر إمام الملاحدة ولسانهم المدافع عنهم، فلا يسعهم إنكار المعجزات بحجة أنها تخالف نظام العالم الذى أنكروه أولا [٢].

ثم إن هؤلاء الذين يستشهدون بقوله تعالى **﴿فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾**[٣] على نفيها [٤] لا محمل لاستشهادهم لأن المراد بالآية إنما هو تبين سنة الله في أمم بعث فيهم أنبياء وأيدهم بالمعجزات فعصوهم وكذبوهم وسنة الله إنزال العذاب عليهم، كما قال تعالى: [٥]**﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون أفبعذابنا يستعجلون، فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين﴾** وكما قال: [٦] **﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا. استكبارا فى الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، فهل ينظرون إلا سنة الأولين، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾**، وكما قال فى سورة الأحزاب **﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾**[٧] وفي سورة الإسراء **﴿وإن كادوا**

---

(١) انظر الباقلاني : التمهيد ص ١٠١ ـ ١٠٢ . (٢) انظر مصطفى صبري : القول الفصل ص ٣٥.
(٣) فاطر : ٤٣ (٤) انظر على سبيل المثال : هيكل:حياة محمد ص ٤٤، ٤٥، ٥٤ من مقدمة ط٢.
(٥) الصافات : ١٧١، ١٧٧ . (٦) فاطر : ٤٢، ٤٣ . (٧) الأحزاب : ٦٠ ، ٦٢ .

ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا﴾ (١).

وبنفس هذا المنهج حاول سبينوزا(٢) نفى المعجزات مستشهدا على ذلك بما ورد فى المزامير عن الطبيعة من أن الله تعالى: «ثبتها إلى الدهر والأبد. وصنع لها حداً فلن تتعداه»(٣). وبما ورد فى سفر الجامعة: «قد عرفت أن كل ما يعمله الله أنه يكون إلى الأبد. لا شيء يزاد عليه ولا شيء ينقص منه»(٤) ولكن لا يخفى علينا أن لفظ «الأبد» فى لغة التوراة لا يعنى زمانا بلا نهاية وإنما يعنى زمانا طويلا فقط. فقد جاء في سفر التثنية: «لا يدخل عمونى ولا مؤابى فى جماعة الرب حتى الجيل العاشر. لا يدخل منهم أحد فى جماعة الرب إلى الأبد»(٥) فقد حدد نهاية الجيل العاشر بلفظ «الأبد».

ثم إنه كيف يمكن أن يكون معنى الآيات كما ظنوا فتكذب الكتب المقدسة ما نصت هى نفسها عليه من أنباء الأنبياء ومعجزاتهم الخارقة لسنة الكون، التى يؤكد عليها القرآن بقوله ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى﴾ (٦).

ثم إنه كيف «يكون القادر المختار(٧) عاجزا عن تغيير ما وضع؟ أما أنه لم يغيره فيما رأينا وهو سنته التى لن نجد عنها تحويلا فذلك بالنسبة إلينا، ومعناه أنا لا نقدر على تبديل سنة الكون. فلا تكون النار إلا حارة محرقة لكل ما من شأنه الاحتراق بموجب نظام العالم، ومصلحتنا في استمرار نظامه أنا نعتمد عليه مطلقا في أمورنا وحاجاتنا وتحصل لنا منه قواعد مضبوطه. ولكن نظام النار هذا مثلا الذى نحن

(١) الإسراء: ٧٦ - ٧٧ .
(٢) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة ص ٢٣٨ .
(٣) المزامير: ١٤٨ / ٦ .
(٤) الجامعة: ٣ / ١٤ .
(٥) التثنية: ٢٣ / ٣ .
(٦) يوسف: ١١١

(٧) أما قول سبينوزا: «إن القوانين العامة للطبيعة ليست إلا مجرد أوامر إلهية تصدر عن ضرورة الطبيعة الإلهية وكمالها، إذن فلو حدث شيء في الطبيعة يناقض قوانينها العامة. كان هذا الشيء مناقضا أيضا لأمر الله وعقله وطبيعته» انظر: سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة ص٢٢٣ .
فمكمن الخطأ هنا في فكر سبينوزا هو سلبه صفة الاختيار عن الله تعالى وكأن سبينوزا وهو الفيلسوف الحر مازال فى داخله ذلك الرجل اليهودي الذي لا يعرف كيف ينظر إلى الله تعالى نظرة إجلال لينطبق عليه قوله تعالى: «وما قدروا الله حق قدره» الزمر (٦٧) ثم هل يعني سلب صفة الاختيار عن الله تعالى هو سلبها عن الإنسان أيضا؟ وإلا فهل يمكن للإله غير المختار أن يخلق الإنسان المختار؟

مقيدون به ـ لا خالق النار وواضع نظامها ـ ليس بمانع أن يجعلها الله بردا وسلاما على نبيه وخليله إبراهيم صلوات الله وسلامة عليه. تأييدا لرسالته من عنده»[1] .

والحواس التى شهدت قوانين الطبيعة وثباتها هى التى شهدت نقضها على يد الرسل. والطعن في هذه الحواس في حالة رؤيتها للمعجزات طعن فيها في حالة رؤيتها لقوانين الطبيعة الثابتة .

والعادات الطبعية ليس فيها سنة لازمة لا تتحول، فإنه قد عرف أن الشمس والقمر والكواكب مخلوقة بعد إن لم تكن وهذا تبديل، كما أنه تعالى يقول: ﴿**يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات**﴾[2] وهذا تبديل آخر. هذا فضلا عن أن انتقاض عامة العادات معلوم لدي الكافة فإن كانت العادات قد جرت ببنى آدم ألا يخلقوا إلا من أبوين فقد انتقضت هذه العادة في خلق آدم وحواء والمسيح عليهم السلام كما كان إحياء الموتى غير مرة مخالفا للعادة وناقضا للسنة الإآهية .

ثم إن نظام العالم العام الذى كان دليلا على وجود الله تعالى الذى هو واضع النظام يكون تغييره الذى نعبر عنه بالمعجزة والذي هو أيضا نظام من الله. لكنه نظام خاص استثنائى دليلا على وجود أنبيائه .

ومن هنا يمكننا أن نعد تأييد الأنبياء بالمعجزات من سنن الله أيضا [3] .

وأما قول من أنكر المعجزة بدعوى أن ذلك مناف لحكمة الله تعالى فمن ذا الذى أحاط بحكمة الله تعالى أو بسننه علما .

ثم إن الفلاسفة الذين أطبقوا على إنكار خوارق العادات يلزمهم القول بالاعتراف بها في مسائل:

المسألة الأولى: إنهم جوزوا حدوث إنسان بالتولد لا بالتوالد وقرروا ذلك بأن قالوا: البدن الإنسانى إنما تولد من مقادير مخصوصة من العناصر الأربعة. فتلك المقادير اختلطت وامتزجت في مدة معلومة، فحصل بسبب ذلك الامتزاج كيفية مزاجية معتدلة ـ وإذا تم حدوث البدن بهذا الطريق وجب حدوث النفس المتعلقة بتدبيره، وحينئذ يتم تكون الإنسان، والموقوف على الممكن ممكن فكان حدوث

---

(١) مصطفى صبري : القول الفصل : ص ٢٧ .
(٢) إبراهيم : ٤٨ .
(٣) انظر مصطفى صبري : القول الفصل ص ٢٧ ـ ٢٨ .

الإنسان المعين على سبيل التولد ممكنا، وإذا كان ذلك ممكنا كان انخراق العادات على قولهم جائزا .

المسألة الثانية: انهم يقولون إن هيولى عالم الكون الفساد: هيولى مشتركة بين الكل، وإنما اختص هيولى الجسم المعين بالصورة المعينة لأن شكلا فلكيا اقتضى كون تلك المادة مستعدة لقبول تلك الصورة الخاصة والأشكال الفلكية غير مضبوطة وغير معلومة. وبهذا التقدير فإنه لا نوع من أنواع الخوارق إلا وهو ممكن محتمل[1]

إلا أنه ليس كل ما كان ممكنا في طبيعته يقدر الإنسان أن يفعله ومن ثم فإن المعجزة وإن كانت ممكنة في نفسها إلا أنها ممتنعه في حق غير الرسل .

ونحن في عصرنا الحديث نفاجأ بكثير من المفكرين المسلمين ومن أهل الكتاب تزعجهم مسألة المعجزات الحسية فيتغاضون عنها ويحاولون إنكارها بالرغم من إيمانهم رافعين شعار أن الإيمان إنما يؤسس على المعجزة المعنوية الهدائية لا الحسية .

يقول «إتيان شاربنتيه» «وبرناردبوى» وغيرهم من الكتاب المسيحيين في كتابهم«المعجزات في الإنجيل» «إن كثيراً من المسيحيين تزعجهم معجزات الإنجيل. . فهناك ميل لدى بعض المسيحيين إلى التغاضى عنها في التعليم المسيحى أو إلى شرحها شرحا طبعيا » [2] .

فإذا كانت المعجزات من وجهة نظر العصور السابقة من الدعائم الكبرى للمسيحية، فهى الآن من الصعوبات الأساسية والمعوقات لقبولها [3] .

ومن الكتاب المسلمين نجد مثلا محمد حسين هيكل يقول:[4] «إن حياة محمد كانت كلها حياة إنسانية سامية، وإنه لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق» .

وكذلك نجد محمد رشيد رضا في الوحى المحمدى يقول [5] « العجائب التى

---

(١) انظر الرازي : النبوات ص ١٠٠ .

(٢) إتيان شاربنتيه وآخرون : المعجزات فى الإنجيل ص ٦٧ .

(٣) انظر John Lewis : The Religions of The World p . 143

(٤) هيكل : حياة محمد ص ٤٤ من مقدمة ط ٢ .

(٥) انظر رشيد رضا : الوحي المحمدى ص ٣٠ ، ٣١ .

بنيت على أساسها الكنائس النصرانية [١] على اختلاف مذاهبها أصبحت في هذا العصر حجة على دينهم لا له وصادة للعلماء والعقلاء عنه لا مقنعة به، ولولا حكاية القرآن لآيات الله التى أيد بها موسى وعيسى عليهما السلام لكان إقبال أحرار الإفرنج عليه أكثر واهتداؤهم به أعم وأسرع، لأن أساسه قد بنى على العقل والعلم، وموافقة الفطرة البشرية، وتزكية أنفس الأفراد، وترقية مصالح الاجتماع.

وأما آية الرسول التى احتج بها على كونه مبعث من عند الله تعالى فهى القرآن، وأميته عليه الصلاة والسلام فإنما هي آية علمية تدرك بالعقل والحس والوجدان.

أما تلك العجائب الكونية فهى مثار شبهات وتأويلات كثيرة في روايتها وفى صحتها وفى دلالتها، وأمثال هذه الأمور تقع من أناس كثيرين في كل زمان والمنقول منها عن صوفية الهنود والمسلمين أكثر من المنقول عن العهدين العتيق والجديد وعن مناقب القديسين، وهي من منفرات العلماء عن الدين فى هذا العصر».

وفريد وجدى نجد له أيضا في مجلة الأزهر مجموعة مقالات بعنوان «السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة» يحاول فيها أن يصور الإعجاز في الرسالة المحمدية بما يشبه هذا النوع الطبعى الذى يكون إعجازه في مبلغه من الكمال المنقطع النظير لا فى خارقيته للطبيعة.

وطه حسين أيضا في «مجلة الثقافة» نجد له مقالاً بعنوان «القلب الرحيم» يقول فيه: وما رأيت أعجب من أمر محمد - ﷺ - فيما رأيت وما علمت من أمور الأنبياء، رجل كان يطالبه خصومه وأعداؤه بالمعجزات فيتبرأ منها، ويعلن إليهم أنه بشر مثلهم وأنه لم يرسل ليبهر العقول بالأحداث العظام، وإنما أرسل ليتلو على الناس قرآنا يتحدث إلى عقولهم فيملأها هدى ويتحدث إلى قلوبهم فيشعرها رحمة وبرا. ثم لا يخلو أمره من هذه المعجزات التى تبهر العقول وتسحر الألباب دون أن تحدث في طبيعة الأشياء حدثا أو تتجاوز بعادات الناس الجارية طريقها

---

(١) ففي أغلب الأديان الرئيسية تبدو روايات المعجزات إضافات خارجية ثانوية ولكن في المسيحية فهي تلعب دورا أساسيا فطبقا للأناجيل فإن المسيح جذب الانتباه أساسا بالأشفية المعجزة خاصة للمرضى المعتقد بمس الشياطين لهم.

انظر: The Encyclopaedia Americana Vol .19, p . 217

المألوف، إنما هى معجـزات ممتازات يراها الناس مألوفة يسـيره ويراها المفكرون نادرة باهرة ومقنعة و مفحمة للمكابرين أ. هـ .

ومعنى ذلك أن النبوة كـانت على خلاف الطبيعة في الأنبيـاء حتى أصبحت في نبينا طبعية لكن عيب المخالف للطبيـعة عندهم أنه مستحيل الوقوع وهو يتضمن الطعن فى نبوة غيـره من الأنبياء طعنا لا يرضاه الإسلام، لكـون نبوتهم مكفولة من القرآن، وفـضلا عن ذلك فإن هذا الطعن وذاك المدح إنما يكونان طعنا ومـدحا على مزاج الملاحدة الماديين القائلين باستحالة ما يخرق سنة الطبيعة حتى إذا سمعه بعض المسيحيين انقلب القدح في نظرهم مدحا، والمدح قـدحا، واعترافا من كتاب المسلمين بعدم كون محمد ـ ﷺ ـ نبيا، لأن النبى الحقيقي لابد أن يكون له حالة يضيق عنها نطاق الطبيـعة وتتعـداها إلى ما فوقهـا لتكون علامة رسـالته من الله ويكون الذين يتبعونه على بينة من أمره (١) .

يقول مؤلفو كتاب علم اللاهوت النظامى(٢)«لولا إثبات المسيح لاهوته بتلك الأعمال المقنعة لكان عدم الإيمان به من أصغر الخطايا»لأنه يقول:(٣) «لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالا لم يعملها أحد غيرى لم تكن لهم خطيئة»ويقول (٤) :«إن كنت لست أعـمل أعمـال أبى فلا تؤمنوا بى» ويقـول(٥):«لاتؤمـنون إن لم تـروا آيات وعجائب» .

ويقول العقاد أيضا ـ مهونا من شأن المعجزة الحسية تهوينا غير مقبول (٦) «إنما نجحت دعوة الإسلام لأنهـا دعوة طلبتها الدنيا، ومهدت لهـا الحوادث، وقام بها داع تهيأ لها بعناية ربه وموافقة أحواله وصفـاته، فلا حاجة بها إلى خارقة ينكرها العقل أو إلى علة عـوجاء يلتـوي بها ذوو الأهواء، فهـى أوضح شىء فهمـا لمن أحب أن يفهم وهى أقوم شىء سبيلا لمن استقام» .

---

(١) انظر مصطفى صبري : القول الفصل ص ١٢٧ ، ١٢٨ . .
(٢) نخبة من علماء النصارى : علم اللاهوت النظامي ص ٥٠٧ .
(٣) يوحنا : الأصحاح الخامس عشر آية ٢٤ .
(٤) السابق : الأصحاح العاشر آية ٣٧ .
(٥) السابق : الأصحاح (٤) آية (٤٨) .
(٦) العقاد : عبقرية محمد ص ٢٧ .

إلا أنه لا يمكن للعقاد أن ينكر تفوق القرآن على جميع أسباب النجاح التى عددها من التهيؤ العام، والحاجة العامة في العالم ومن اجتماع أنواع العبقرية في شخص الداعى، ثم إنه إذا كان القرآن كلام الله المنزل بنصه على محمد بواسطة الملك، فإن ذلك يتناقض مع المفروض آنفا في نبوة محمد من العبقرية المستغنية عن الخوارق الغيبية لكونه أكبر خارقة، وأكبر اتصال منه بعالم الغيب .

وإن لم يكن القرآن كلام الله بل كلام محمد نفسه عزاه إلى الله كان محمد كاذبا في نسبة القرآن إلى الله على الرغم من قول القرآن: **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلي ولم يوح إليه شيء﴾** (١) وكان هذا الكذب أكبر مناف للنبوة والعبقرية معا. فإن تساهل العبقريون وذهبوا فيما بينهم إلى عدم التنافى بين العبقرية والكذب غير مصارحين به غير أمثالهم فماذا يقولون في تحدى القرآن الإنس والجن مجتمعين على أن يأتوا بمثله؟مع أنه لا يتصور صدور التحدى عن عاقل من البشر على أن يأتوا بكلام مثل كلامه، فهل يمكن عند دعاة العبقرية أن يكون محمد العبقرى مجنونا إن أمكن عندهم أن يكون كاذبا؟ وهل يجوز عندهم ائتلاف العبقرية بالجنون أيضاً كما جاز ائتلافها بالكذب؟(٢) .

ثم إن منكرى المعجزات البانين إنكارها على دعوى استحالتها لا يفرقون بين المعجزات الكونية والعقلية، ويرون الكل مخالفا لسنة الكون، كما يرون المخالف لسنة الكون محالا .

فمتى بلغ أي شيء مبلغ المعجزة والخارقة خالف سنة الكون وخرقها، وإلا لم يكن معجزة إلا في تعبيرات الأدباء المتجوزين، حتى إن النبوة والرسالة بمعناهما المعروف عند المليين معجزة مخالفة لسنة الكون، فمن يقول باستحالة المخالف لسنة الكون يقول باستحالة النبوة والرسالة أيضا .

ومن ثم فإن القرآن مهما حبب إليهم وأعجبوا به فلا يبلغ تقديرهم وإعجابهم مبلغ اعتباره معجزة تثبت بها نبوة محمد ـ ﷺ ـ وقد يطمع منهم أن يعدوه أفضل كتاب في الدنيا وضعه بشر. أما أنه كلام الله أنزل على خاتم أنبيائه

---

(١) الأنعام : ٩٣ .

(٢) انظر مصطفى صبري : القول الفصل ص ١٣ ـ ١٤ .

ليكون له معجزة النبوة فأمر خارق لسنة الكون لن يقبله منكرو المعجزات والخوارق.

وإنكار المعجزات الخارقة للنواميس يلزمه إنكار النبوة لسببين: أولهما كون المعجزة علامة النبوة، فمن ينكرها فلا بد أن ينكر النبوة. وثانيهما أن منشأ إنكار المعجزة كونها من الأمور الغيبية مع أن النبوة نفسها التى هى اتصال خاص بالله من الأمور الغيبية أيضا .

ثم إن إثبات إمكان النبوة والمعجزة والنشأة الثانية فمن أسهل الأمور بعد ثبوت وجود الله وإرادته وقدرته على كل شىء[1] ومن هنا قال «شيله رماخر» و «ريتجه. ل» : « إن الإيمان بالمعجزات لا ينفك عن الإيمان بالله» ومعناه أن من يؤمن بالله فلابد أن يؤمن بالمعجزات أيضا .

ثم إن منكرى المعجزات الحسية لنبينا - ﷺ - من المسلمين إن كان إنكارهم مبنى على أنها مخالفة للعلم وسنة الكون وكان معنى مخالفتها لهما أنها غير واقعة بل غير ممكنة الوقوع لزم أن لا تقع من الأنبياء السابقين أيضا وأن تكون أنباء وقوعها المقصوصة فى القرآن كاذبة مختلقة كأنباء وقوعها من نبينا المروية فى كتب الحديث والسيرة .

فما دام المنكرون لا يجترئون على التشكيك فى صحة أنباء القرآن فلا مندوحة لهم أن يعترفوا بالمعجزات الكونية ولو منسوبة إلى الأنبياء الأولين، اعترافا لا يبقى بعد ذلك مانع يمنعهم من الاعتراف بها منسوبة إلى نبينا ويضطرهم إلى القيام بدعوى منكرة تزول معها الثقة عن أفضل كتب الإسلام وأصحها بعد القرآن مثل كتاب البخارى ومسلم وسائر كتب السنة وموطأ مالك ومسند أحمد .

ثم كيف لا يعتبر هؤلاء معجزات الأنبياء حجة ولا تعبير القرآن عن تلك المعجزات تارة بالحق وتارة بالبينات وتارة بالآية الكبرى وتارة بالسلطان وتارة بالبرهان وتارة بالفرقان حجة فى أنها حجة .

---

(١) انظر David PatricK : Chambers's Encyclopaedia Vol . II . p . 227

قال تعالى :(١) ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا﴾ .

وقال :(٢) ﴿ قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم﴾ .

وقال :(٣) ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾ .

وقال :(٤) ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ .

وقال :(٥) ﴿ وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾ .

وقال :(٦) ﴿ وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء،واضمم إليك جناحك من الرهب،فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملإيه﴾ .

وقال :(٧) ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ .

وقال :(٨) ﴿ وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين﴾ .

ثم إن إيهام أن المعجزات الكونية أظهرها الله على أيدى رسله عبثا لأنها لم تنجح في تأييد رسالاتهم ولم تكن خير وسائل إلى اقتناع الناس بصدقهم .

يعنى أن الله تعالى ما أصاب في اختيار المعجزات لأنبيائه إلا في معجزة القرآن التى تخاطب العقول والأفهام .

والذين ينتقدون الخوارق الكونية من معجزات الأنبياء تارة بحجة التباسها بأعمال السحرة وتارة بعدم كونها ضامنة لإيمان الأمم التى بعثوا إليها فقد تعدوا بالمعجزات حدودها وطالبوا الأنبياء بمعجزات ملجئة لا تتفق مع اختيار المكلفين وتجعل الإيمان بالغيب معاينة لا يبقى معها امتياز المؤمن على الكافر بل يضطر الجميع عندها إلى الإيمان،وليس لنا أن نشترط في نصاب دلالة المعجزة على صدق النبى أن يؤمن به كل من شهد معجزته لأن دلالة المعجزة على صدق النبى في دعوى النبوة لا تفوق دلالة البراهين الحسيةو العقلية على وجود الله ومع هذا لا

---

(١) يونس :٧٦،٧٧ . (٢) آل عمران :١٨٣ . (٣) الإسراء : ١٠١ . (٤) البقرة :٢٥٣ .
(٥) البقرة :٥٣ . (٦) القصص : ٣١-٣٢ . (٧) النازعات : ٢٠ . (٨) الذاريات : ٣٨ .

تؤثر تلك البراهين في قلوب الملاحدة الضالين ولا يحد ذلك من قيمتها عند ذوى العقول السليمة ؟ .

ولا يلزم أن تكون المعجزة حتى معجزة الهداية ضامنة للهداية بالنسبة إلى كل إنسان، وهذا القرآن مع كونه في رأس معجزات الهداية ما آمن به إلا من شرح الله صدره للإسلام فمسألة الهداية بيد الله فهو يهدى من يشاء ويضل من يشاء ويهدى من يهديه إذ شاء من غير معجزة ومن غير نبى، إلا أنه لا يعذب الناس حتى يبعث رسولا وبالمعجزات تتم حجته عليهم (١) .

ثم إنه إذا كانت المعجزات الحسية قد تشتبه بالسحر، فالمعجزات الهدائية قد تشتبه أيضا بالعبقرية .

فتلستوى وخاصة في كتابة المترجم باسم«حكم النبى محمد»(٢) وميكل هارت في كتابه المترجم باسم«الخالدون مائة أعظمهم محمد»(٣) وغيرهم كثيرون(٤) أشادوا بالرسول ـ ﷺ ـ وبدعوته ومع ذلك أرجعوا كل ذلك إلى العظمة الشخصية لا إلى النبوة .

وهؤلاء المنكرون للمعجزات الحسية اكتفاء بالمعجزات الهدائية غافلون عن حكمة الجمع بين الإعجاز الحسى والمعنوى كما أوضحناها في مبحث نسبية الدلالة(٥) .

وأما قوله تعالى: **﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه،إنما أنت منذر ولكل قوم هادى﴾**(٦)وقوله **﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه،قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين﴾**(٧)، وقوله **﴿وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه،قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾**(٨)وقوله**﴿و يقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب﴾**(٩)

---

(١) انظر مصطفي صبري : القول الفصل ـ الصفحات ١٠ ،١١، ٢٤، ٦٢، ٧٨، ٨٧، ١٠٠، ١٠١، ١٠٣، ١٠٤، ١٢٧، ١٣٢، ١٣٥، ١٣٦.

(٢) ترجمه إلى العربية سليم قبعين ـ مكتبة ابن سينا ـ ١٩٩٠م

(٣) ترجمه إلى العربية أنيس منصور : الزهراء للإعلام العربي سنة ١٩٨٦ م

(٤) كبرنارد شو، وجان جاك رسّو ولامارتين وغيرهم .

(٥) انظر مبحث نسبية الدلالة فى الفصل الخامس من الباب الرابع.

(٦) الرعد : ٧ .

(٧) العنكبوت : ٥٠ .

(٨) الأنعام : ٣٧

(٩) الرعد : ٢٧ .

، وقوله﴿بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتينا بآية كما أرسل الأولون﴾ (١) .

فالحكمة فى إنزال هذه الآيات تتصور في أن كتاب الإسلام يرمى إلى تهذيب العقول وهدايتها إلى رشدها وقد قد كان الذين كتبوا التوراة والإنجيل للنصارى زعموا المسيح إلها يقدر على التصرف في الكائنات فالقرآن الذى هو كتاب دين التوحيد يعتنى بتصحيح تلك العقيدة ويكرر أمر الله لنبيه بإعلان أن كل شيء بيد الله ليس للنبى من الأمر شيء وإنما هو عبده ورسوله. وإنما الآيات ككل شيء عند الله لا يقدر محمد على الإتيان بها من تلقاء نفسه. فيقول الله له: ﴿ليس لك من الأمرشيء﴾(٢)، ويقول: ﴿قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله،ولو كنت أعلم الغيب لا ستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾(٣) ، ويقول ﴿قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك أن أتبع إلا ما يوحى إلى﴾(٤). وحتى يقول ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾(٥) وكان النبى - ﷺ - من شدة حرصه على هدايه الناس أن قال الله عنه﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ (٦) فقد كان يتمنى نزول ما يسألونه من الآيات لكن الله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولا يشرك في حكمة أحدا، يقول لنبيه ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين،إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾(٧) ويقول ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية،ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾(٨)، فهذا الخطاب من الله لنبيه في القرآن يعطى فكرة جدية عن عقيدة الإسلام، كيف تقدر فيها عظمة سلطان الله فوق عباده، كائنين من كانوا، كما أنه يعطى فكرة جدية عن القرآن، هل يمكن أن يكون كلام سيدنا محمد وفيه هذه الآية الآخيرة؟ فهذه الآية واللاتى ذكرنا قبلها وأمثالها التى لم نذكر مثل ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾(٩)نزلت لتفهيم الفرق بين الرب

---

(١) الأنبياء : ٥ . (٢) آل عمران : ١٢٨ . (٣) الأعراف : ١٨٨ .
(٤) الأنعام : ٥٠ . (٥) القصص :٥٦ . (٦) الكهف : ٦ .
(٧) الشعراء : ٣-٤ . (٨) الأنعام : ٣٥ . (٩) القصص : ٦٨ .

والمربوب وتثبيته في قلوب المسلمين ليعلموا أنه ليس في استطاعة محمد أن يأتى بآية ولا بأي شيء إلا بإذن من ربه ورب كل شيء، وليس هذا خاصا بمحمد(ﷺ) بل يستوى وسائر رسل الله(١) كما قال القرآن أيضا: **﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾**(٢)وقال على لسان الرسل **﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده،وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله﴾** (٣) ولم يستلزم ذلك عدم وجود معجزات لأولئك الرسل .

ومن ثم فإن دعوى أن الرسول - ﷺ - لم يؤيد بالمعجزات الكونية، وأن القرآن لم يرد فيه ذكر معجزة كونية منسوبة إلى نبينا، فدعوى باطله (٤) .

فآيات القرآن نفسه تدل على وجود معجزات لنبينا - ﷺ - غير القرآن، وإن كان بعض تلك الشواهد مجملا لا يدل على حادثة معينة. ولسنا بصدد التفصيل لواقعات المعجزات فمحلها كتب الحديث والسيرة وكتب دلائل النبوة، وحسبنا في صددنا ما أشير إليه في الآيات الآتية (٥) .

١ - **﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾** (٦) .

٢ - **﴿اقتربت الساعة وانشق القمر.وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾**(٧) .

٣ - **﴿وإذ رأوا آية يستسخرون وقالوا إن هذا إلا سحر مبين﴾** (٨) .

٤ - **﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾** (٩) .

٥ - زيادة الواو الدالة على آية أو آيات مقدرة يعطف عليها ما بعدها في قوله تعالى **﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله،وإنما أنا نذير**

---

(١) انظر مصطفى صبري : القول الفصل ص ١٤٩ .

(٢) الرعد : ٣٨ .　(٣) إبراهيم : ١١ .　(٤) انظر فى هذا الادعاء الباطل:

Gibb and Kramers :Shorter Encyclopaedia of Islam p 389 .

Mircea Eliade: the Encyclopedia of Religion Vol . 9 . p . 546

(٥) انظر في تفصيل ذلك مصطفى صبري : القول الفصل ص ١٥٦ : ١٦٠ .

(٦) الأنعام : ٤ ، يس : ٤٦ .　(٧) القمر : ١، ٢ .

(٨) الصافات : ١٤ ، ١٥ .　(٩) الأنعام : ١٢٤ .

مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾(١) . والمعنى ألم تكفهم الآيات ولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم.

٦ - زيادة الواو في قوله تعالى: ﴿وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى﴾ (٢)، والمعنى ألم تأتهم آية، ولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى .

٧ - ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون. ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ (٣) .

٨ - ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾(٤) .

٩ -﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾(٥) .

١٠ - ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين .بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ (٦) .

١١ - ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ (٧) .

١٢ - ﴿يا أيها الذين أمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم﴾ (٨) .

نزلت فى بنى النضير من اليهود لما ائتمروا بالنبى - ﷺ - حين أتاهم مع بعض خواص أصحابه يستقرضهم في دية رجلين وقد كانوا عاهدوا النبى على ترك القتال وعلى أن يعينوه في الديات فقالوا اجلس حتى نطعمك ونعطيك ما تريد ثم

---

(١) العنكبوت : ٥٠-٥١ . (٢) طه : ١٣٣ .
(٣) الأنعام : ١٠٩-١١٠ . (٤) الأنفال : ١٢ . (٥) الأنفال : ١٧ .
(٦) آل عمران : ١٢٣ ، ١٢٥ . (٧) الأنفال : ٩ . (٨) المائدة : ١١ .

تآمروا على أن يطرح أحدهم رحى من فوق الجدار الذي جلس مستندا إليه فنزل جبريل وأخبر بذلك» .

١٣ - ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها.وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا﴾ [١] .

نزلت في هجرة الرسول - ﷺ - منبئة بدنوّ هلاك الذين أخرجوه من بلده. وكان المؤمنون وقت الهجرة ونزول الآية في غاية الضعف فما مضت سنة حتى قتل صناديد قريش في بدر وفاز المسلمون بالنصر الموعود .

١٤ - ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا﴾ [٢] .

كان المؤمنون وقت نزول الآية في قلة وعجز لا ينامون الليالى آمنين على حياتهم من مهاجمة الأعداء المحيطة بهم فمن ذا الذى كان يطوف بباله أن تكون من المسلمين دولة عظمى تعلو كلمتها في وجه البسيطة،كما تبشر به الآية؟ حتى أنه كان من المستبعد أن يتغلب المسلمون على قبائل العرب المجتمعة على معاداتهم،والآية المتقدمة تنبئ بتمزق القبائل أمامهم» .

١٥ - ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾ [٣] .

١٦ - ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين﴾ [٤] .

الآيتان تبشران بفتح مكة وكانت الأولى منهما نزلت أثناء الهجرة الثانية عند العودة من الحديبية .

١٧ - ﴿قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون﴾ [٥] .وفي هذا إشارة إلى الحروب الواقعة في عهد الخلفاء الراشدين .

---

(١) الإسراء : ٧٦ - ٧٧ .
(٢) النور : ٥٥ .
(٣) القصص : ٨٥ .
(٤) الفتح : ٢٧ .
(٥) الفتح : ١٦ .

١٨ ـ ﴿الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهو من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم،وعد الله لا يخلف الله وعده﴾ (١).

١٩ ـ ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا﴾ (٢).

ثم إن آحاد المعجزات الحسية لرسولنا ـ ﷺ ـ تفيد فى مجموعها العلم القطعى لاختصاصه بخوارق العادات .

---

(١) الروم : ١ : ٦ .　(٢) الإسراء : ١ .

الفصل الثانى

مصدر المعجزة

فهناك من يطعن في المعجزة بالطعن في مصدرها، قائلين: إن الدلالة القطعية لم تقم على أنها من عند الله تعالى، بل يجوز أن تكون من فعل غيره .

ولذلك الغير عدة احتمالات :

١ - القول بأن المعجزة من فعل الرسول :

فهناك من يرى أن المعجـزة إما تابعة لقوة التخيل والعـقل العلمى وإما تابعة لقوة العقل النظرى. وإما تابعة لقوة النفس [١].

وسيأتى بيان ذلك عند حديثنا عن خصائص النبوة في مبحث التأويل، والرد على ذلك في تعليقنا العام على مبحث التأويل [٢].

وسيأتى مزيد من الجواب عن ذلك في مبحث وحدانية المؤثر .

٢ - القول باحتمال كون المعجزة من تأثير قوى الأدوية :

فيرى بعض المنـكرين أنه من المحتمل أن مدعى« الرسـالة وجد دواء كان هو سبب المعجزة، ومع قيام هذا الاحتمال فسدت دلالة المعجزة على صدق الرسول .

وبالطبع فـهذا الرأي باطل لأن فـيه إنكارا لما هو بدهي وضـرورى عند كل إنســان من أن إحيـاءالموتى وقلب العـصا حـية والإتيـان بالقـرآن وغيـر ذلك من المعجزات لا يخضع لدرك خواص الأدوية والموجودات [٣].

٣ - القول باحتمال كون المعجزة من أفعال الجن والشياطين :

فـيـرى بعض المنكرين أنه من المحـتـمل أن تكون المعـجـزة من فـعل الجن والشياطين، ووجود الجن والشياطين وإثبات القدرة الـعظيمة لهم جائز عقلا ومتفق عليه بين أرباب الملل والنحل .

ويضـيـف هؤلاء المنكرون ـ أن الأنبيـاء وإن جـاءوا بلعن الشيـاطين إلا أن الشياطين إنما يتحملون ذلك اللعن منهم ليحصل غرضهم من ترويج الباطل، ثم إنه لعل المراد باللعن طائفة منهم والآتون بالمعجزات أقوام آخرون .

---

(١) انظر الغزالي : معارج القدس ص ١٥١ وما بعدها . ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ص ٨٦١ وما بعدها. (٢) انظر الفصل الرابع من الباب الرابع .

(٣) انظر الفرق بين المعجزة والعلم في الفصل الثالث من الباب الثانى .

بالإضافة إلى أن هذه الشبهات لا يقبح صدورها من الله تعالى، لأنه لوجزم بها المكلف لكان التقصير منه حيث جزم لا في موضع الجزم ثم إن إنكار هذه القوة للجن والشياطين يوجب تكذيب الأنبياء الذين أخبروا بذلك [١].

وجواب ذلك: أن الأنبياء وإن أطبقوا على إثبات القوة العظيمة للجن والشياطين إلا أنهم أوضحوا أن لهذه القوة حدودا لا تتخطاها إلى خرق العادة خرقا حقيقيا كما هو الحال في المعجزة .

ففى القرآن نجد قوله تعالى ﴿**فلما خرتبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين**﴾ [٢] ونجد أيضا قوله تعالى ﴿ **قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين،قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك**﴾ [٣].

ثم إن قدرة الجن معلومة للإنس أو على الأقل لبعض الإنس، وبالتالى يمكن معرفة الفرق بين ما يأتون به وبين المعجزة .

أما الشياطين فنحن وإن لم نعرف قدرتهم بالتجربة كما هو الحال مع الجن إلا أننا لم نعرف وجودهم إلا بالشرع الذى أوضح لنا قدرتهم وأنها لا تبلغ مبلغ خرق العادة الحقيقي أبدا .

ثم إنه إذا كانت الخوارق غير الحقيقية من فعل الجن والشياطين تأييدا للكاذب فما أسهل تفريقها عن الخوارق الحقيقية التى لا تكون إلا من الله تعالى وذلك بالنظر إلى حال الداعى وقيمة الدعوة، وفى مبحث وحدانية المؤثر سيأتى مزيد جواب عن ذلك .

٤ ـ القول باحتمال كون المعجزة من أفعال الملائكة :

فيرى المنكرون إن أكثر أهل الدنيا أطبقوا على إثبات الملائكة والقرآن دل على الإيمان بهم فقال : ﴿**والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله**﴾[٤].

---

(١) انظر الرازي : النبوات ص ١٠٩ ، ١١٢. و الأربعين جـ ٢ ص ٩٩ .

(٢) سبا : ١٤

(٣) النمل ٣٩ ، ٤٠ .

(٤) البقرة : (٢٨٥) .

والقرآن دل أيضاً على أنهم أصحاب القدرة الظاهرة، والقوى الغالبة فإن جبريل عليه السلام قلع مدائن قوم لوط من قعور الأرض ورفعها إلى قريب من السماء، ثم رماها على الأرض[1] وأيضا القرآن يدل على أنه إنما وصل إلى محمد عليه السلام من قبل جبريل. فإنه قال[2] **﴿قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك﴾** وقال [3] : **﴿والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس إنه لقول رسول كريم﴾** فبين: أن هذا القرآن إنما وصل إلى محمد عليه السلام بواسطة رسول كريم. وقال أيضا[4]: **﴿علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى﴾** .

ومن ثم فقبل العلم بعصمة الملائكة عن القبائح والأكاذيب والأضاليل، نجوز أن تكون هذه المعجزات إنما ظهرت على الأنبياء من قبلهم وبإعانتهم، وعلى هذا التقدير فلا يبقى في هذه المعجزات فائدة البتة، ما لم نعلم كون الملائكة معصومين من الأباطيل والأكاذيب، والعلم بعصمتهم لا يحصل من الدلائل العقلية بل من الدلائل النقلية، والعلم بصحة الدلائل النقلية يتوقف على العلم بصدق الرسل في ادعاء الرسالة، والعلم بصدقهم يتوقف على عصمة الملائكة، وذلك دور، والدور باطل [5] .

ويجاب عن ذلك بأن الملائكة لا يعرف وجودهم إلا من الشرع الذي عصمهم[6] وبالتالى فإن صحة الدلائل النقلية لا يتوقف على العلم بعصمة الملائكة، لأن الملائكة قبل وجود الدلائل النقلية لا دليل على وجودهم أصلا .

ثم إن تفرقة الرسول بين وحى الملاك ووحى الشيطان أو بعبارة أخرى طرق معرفة الرسول كونه رسولا، فتفصيل الكلام عنها في مبحث دلالة المعجزة.

هذا بالإضافة إلى أن كون المعجزة من فعل الملائكة لا يتعارض مع كونها من تأييد الله تعالى، لأن الله وحده هو المؤثر، ولا مؤثر سواه، إما مباشرة وإما عن طريق الأسباب المخلوقة فالله هو خالق الأسباب والمسببات. وهو قادر على خلق

---

(١) نجد ذلك فى قوله تعالى ﴿والمؤتفكة أهوى﴾ النجم : ٥٣ .
(٢) البقرة : ٩٧ .
(٣) التكوير : ١٧ ، ١٩ .　　(٤) النجم : ٥ ، ٦ .
(٥) انظر الرازى : النبوات ص ١١٢ ١١٣ ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ والأربعين جـ٢ ص ٩٩:١٠٠ .
وانظر الباقلاني : البيان ص ١٠١ ، ١٠٢ .
(٦) انظر ملحق (٣) .

المسببات بدون أسبابها، وبدون أسباب مطلقا ولكنها الحكمة الإلهية في وضع قانون السببيــة، ولها أن تخرقه وقتما شــاءت وكيفما شاءت، وقد فــصلنا ذلك في مبحث مستقل بعنوان وحدانية المؤثر.

وفى موضوع المعجزات لما أراد الله تعالى لمعجزاته التى يؤيد بها أنبيائه أن لا تعارض، ولما جعل الله تعالى ملائكته معصومين وخصهم بالقدرة العظيمة، فلا مانع من جعلهم أسبابا في معجزاته التى يؤيد بها أنبياءه .

والقرآن والسنة والعقل يؤيدون ذلك وقد فصلنا ذلك عند حديثنا في شروط المعجزة عن اشتراط كونها خارقة للعادة وكونها مما ينفرد تعالى بالقدرة عليه .

٥ - القول باحتمال كون المعجزة بسبب طالع النبى :

فيرى المنكرون أن الفلاسفة قــد اتفقت على أن للأجرام الفلكية والاتصالات الكوكبية تأثيرات مخصوصة في أحوال هذا العالم .

وبتقدير صــحة ما قالوه لا يمتنع أن يــكون اختصاص مدعى النــبوة والرسالة بهذه المعجزات إنما كان لأجل اشتمال طالع مولده على ذلك .

وإذا ثبت أن هذا الاحتمــال قائم ظهر أنه لا سبيل البــتة إلى القطع بأن هذه الخوارق التى ظهرت على الأنبياء من فعل الله تعالى [١] .

٦ - القول باحتمال كون المعجزة من أفعال الأفلاك والكواكب [٢] .

ويقول المــنكرون أيضا إنه قــد اتفقت الفــلاسفة والــصابئة عــلى أن الأفلاك والكواكب: أحياء ناطقة مطلعة على جميع أحوال هذا العلم وبتقدير صحة ما قالوه لا يمكن القطع بأن خــالق المعجزات هو الله ســبحانه وتعــالى بل لا يمتنع أن يكون فاعلها هو الكواكب [٣] .

---

(١) انظر الرازى: النبوات ص ١١٤ ،والأربعين جـ٢ ص١٠٠ ، ١٠١ .

(٢) والفرق بين هذا السؤال وبين ما قبله أنه فى السؤال الأول:كانت الكواكب موجبة بالذات لهذه الآثار العجيبة بحسب الشرائط المختلفة،والأشكال الفلكية المتعاقبة. أما فى هذا السؤال:فالأفلاك والكواكب أحياء ناطقة مختارة فى الفعل والترك .

(٣) انظر الرازي : النبوات ص ١١٥ ، ١١٦ ، الأربعين جـ ٢ ص ١٠٠ .

والجواب عن هذه الشبهة وسابقتها سبق في مبحث الطلسمات وسيأتى مزيد تفصيل للجواب في مبحث وحدانية المؤثر وفي كل تلك المباحث أكدنا على أنه لا مؤثر في الوجود إلا الله وأن ما عداه لا يعدو أن يكون سببا مخلوقا له تعالى ، فهو تعالى خالق الأسباب والمسببات .

٧ ـ القول باحتمال كون المعجزة من أفعال العقول والنفوس :

يقول المنكرون إن الفلاسفة قد اتفقت على إثبات العقول والنفوس[١] فلم لا يجوز أن يكون فاعل هذه المعجزات هو هذه العقول والنفوس .

وجواب ذلك أن ما ذكره الفلاسفه من ذلك فلم يبرهنوا عليه وأما الزعم بأن هذه النفوس والعقول هى الملائكة فـزعم باطل لأن الملائكة التى أخبرت بها الرسل أحياء ناطقون، وهم كثيرون ولـيسوا عشرة يقول تعالى ﴿**وما يعلم جنود ربك إلا هو**﴾ [٢]وهؤلاء يزعـمون أن الصـادر الأول هو العـقل الأول وعنه صدر كل مـا دونه، والعقل الفعال العاشر رب كل ما تحت فلك القمر .

وهذا كله يعلك فساده بالاضطرار من دين الرسل، وبعض هؤلاء يزعمون أن هذا العـقل هو المذكور في حـديث يروى«إن أول ما خلق الله العـقل، فقـال أقبل فأقبل، فقال له: أدبر فأدبر، فقـال وعزتى ما خلقت خلقا أكرم علىّ منك، فبك آخذ وبك أعطى ولك الثواب وعليك العـقاب»ويسمونه أيضـا القلم لما روى«إن أول ما خلق الله القلم» [٣] .

والحديث الذى ذكروه في العـقل كذب موضوع عند أهل المعـرفة بالحديث، كما ذكر ذلك أبو حاتم البستى، والدارقطنى، وابن الجوزى وغيرهم، وليس فى شىء من دواوين الحديث التى يعتمد عليها ومع هذا فلفظه لو كان ثابتا حجة عليهم. فإن لفظه«أول مـا خلق الله تعالى العقـل قال له. . . » ويروى«لما خلق الله العـقل قال له. . . »[٤] فمـعنى الحديث أنه خـاطبه في أول أوقـات خلقه، ليس مـعناه أنه أول

---

(١) انظر ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ص ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٥٧٨ ، ٦٠٢ ، ٦٠٤ : والنجاة ص ٣٣٤ .
(٢) المدثر : ٣١ . (٣) رواه الترمذى فى سننه فى باب (١٧) من كتاب القدر، وأبو داود فى سننه فى باب(١٦) من كتاب السنة ، وأحمد فى مسنده جـ ٥ص ٣١٧ . (٤) أخرجة عبد الله بن الإمام أحمد فى زوائد الزهد، قال حدثنا علي بن مسلم حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا مالك بن دينار عن الحسن برفعه «لما خلق الله العقل قال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر قال ما خلقت خلقا أحب إلي منك، بك آخذ وبك أعطي» وهذا مرسل جيد الإسناد وهو فى معجم الطبراني الأوسط موصول من حديث أبي أمامة ومن حديث أبي هريرة بإسنادين ضعيفين .

المخلوقات و«أول» منصوب على الظرفية كما في اللفظ الآخر«لما» وتمام الحديث «ما خلقت خلقا أكرم عليّ منك» فهذا يقتضى أنه خلق قبله غيره، وسبب غلطهم أن لفظ العقل في لغة المسلمين ليس هو لفظ العقل في لغة هؤلاء اليونان، فإن العقل في لغة المسلمين مصدر عقل يعقل عقلا . . . ويراد بالعقل الغريزة التى جعلها الله تعالى في الإنسان يعقل بها، وأما أولئك فالعقل عندهم جوهر قائم بنفسه كالعاقل، وليس هذا مطابقا لغة الرسل والقرآن [١] .

ثم إنه إذا كانت نظرية الفيض قامت أصلا لتثبيت الوحدة في واجب الوجود وشيدت على أساس أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد والله واحد فوجب أن يصدر عنه بالتفكير فيض واحد هو العقل الأول إلا أنهم قالوا إنه صدر عن هذا العقل الأول الذى صدر عن الله بالفيض اثنان: عقل ثان وجسم الفلك الذى بعده. . بل إن ابن سينا جعل لهذا العقل ثلاثة فيوضات. عقل ونفس وجسم وهكذا لم يلتزموا بما قالوا ونقضوا قاعدتهم التى من أجلها اخترعوا نظرية الفيض فكيف يصدر عن هذا العقل الأول وهو واحد: اثنان أو ثلاثة مع أن القاعدة عندهم أن الوحد لا يصدر عنه إلا الواحد. وإذا جاز صدور الكثرة عن الواحد فلماذا لم يصدر عن واجب الوجود عندهم مثل ذلك ؟ .

وربما يقول الفلاسفة إن ثمة فرقا بين واجب الوجود وبين هذا العقل الأول الذى صدر عنه لأن واجب الوجود واحد من كل الجهات أما هذا العقل الصادر عنه فهو وإن كان واحداً في الوجود إلا أنه متعدد في الاعتبارات، والكثرة التى صدرت عنه إنما صدرت بحسب هذه الاعتبارات المتعددة .

إلا أنا نقول: إذا كان هذا العقل الأول الذى صدر عن واجب الوجود يحتوى على اعتبارات وجهات متعددة فقد صدر إذن عن هذا الواجب للوجود عندكم شيء يحتوى على كثرة وتعدد، وسيان بعد ذلك أن تكون كثرة في الوجود أو فى الاعتبارات، ومما يؤخذ على نظرية الفيض أيضا صدور الكائنات عن الله صدورا طبعيا ضروريا لا عن إرادة واختيار، وهذا ما يبطله الشرع ويرفضه العقل[٢] وسيأتي مزيد تفصيل للرد على هذه الشبهه في مبحث وحدانية المؤثر.

---

(١) انظر ابن تيمية : الفرقان ص ٩٠ ، ٩٢ . .

(٢) انظر الفاوي : النبوة بين الفلسفة والتصوف (رسالة دكتوراه) ص ٤٨ ، ٤٩ .

والجواب عن كل ما سبق من شبهات حول مصدر المعجزة أن نقول :

إن المعجزة الحسيـة لا تستقل في دلالتها عن المعجزة المعنوية كـما سبق بيانه والمعجزة المعنويـة هي مجموعة القـرائن التى تعود إلى حال الداعى وقيـمة الدعوة والتى تولد العلم الضـرورى بالصدق، ومتى تولد هذا العلـم الضروري بطلت هذه الشبهات .

ثم إنه إذا كانت المعجزة نسبية في فهمـا وإدراكها كما سيأتي بيانه، فإن هناك من يحتاج إلى النظر في اثبات الفاعل المخـتار الأوحد قبل النظر إلى المعجزة وهذا لا حديث لنا معه هنا في هذه الدراسة الخاصة بالمعجزة .

وهناك من يمكنه بالنظر إلـى المعجزة الاسـتدلال بهـا على وجود الله تعـالى الفاعل المخـتار الأوحد الـعادل الحكيم الرحيم لأن المعـجزة التى هى فـعل خارق للعادة تدل بنفسها على ثبوت الصانع وكمالاته كسائر الحوادث، بل هى أخص لأن الحوادث المعـتادة ليست في الدلالة كالحـوادث الغربية إذ هى آيات جديدة فـتعطى حقها .[١] .

فإذا ثبت هذا الوجود الإلهى الكامل بطل القول بوجود مؤثر آخر سواه سواء قيل إنه كوكب أو فلك أو عقل أو روح علوى أو سفلى. إلا ما كـان سببا مخلوقا له تعالى فالفعل فعل الحق ولكن بواسطة المخلوق .

وهذا ما أكـدنا عليه فـيما سـبق عند حديثنا عن الطلسـمات فقلـنا إن تأثير الملائكة بل والكواكب على فرض اعتبارها من الأسباب يعـود في حقيقته إلى فعل الله تعالى وحده فهو خالق الأسباب والمسببات [٢] .

وأكدنا عليه أيضـا في مبحث التأويل فى تعليقـنا العام على المبحث، ورددنا كل الأسباب الظاهرة إلى شىء واحد هو فعل الله تعالى [٣] .

---

(١) انظر آخر الفصل الخامس من الباب الرابع .
(٢) انظر الفصل الأول من الباب الثانى .
(٣) انظر الفصل الرابع من الباب الرابع .

وكذلك أكدنا عليه عند حديثنا عن شروط المعجزة واشتراطنا أن تكون مما ينفرد الله بالقدرة عليه .

ثم إنا لو فرضنا شيئا آخر مؤثراً لكانا إذا اجتمعنا على ذلك الممكن فإما أن يقع ذلك الممكن بهما فيجتمع على الأثر الواحد مؤثران مستقلان وهو محال .

وإما أن يقع بأحدهما دون الآخر وهو محال، لأن كل واحد لما كان مستقلا بالتأثير كان وقوعه بأحدهما دون الآخر ترجيحا لأحد طرفى الممكن على الآخر بلا مرجح وهو محال .

ثم إنه لما امتنع وقوعه بواحد منهما لزم أن يقال إنه لا يقع البتة أو إن وقع فقد وقع من غير مؤثر وذلك محال. لأنه يلزم أن لا يدخل شيء من الممكنات في الوجود أو إن دخل في الوجود فإنه يحدث من غير مؤثر أصلا وكلاهما باطل .

فثبت أن جميع الممكنات واقع بقدرة الله تعالى.

والاقتران بين ما يعتقد فى العادة سببا وبين ما يعتقد مسببا ليس ضروريا .

فإن اقتران الأسباب والمسببات لما سبق من تقدير الله سبحانه بخلقها على التساوق لا لكونه ضروريا في نفسه غير قابل للتفاوت، بل في المقدور خلق الشبع دون الأكل وخلق الموت دون جز الرقبة، وإدامة الحياة مع جز الرقبة، وهلمّ جرا، إلى جميع المقترنات .

ففاعل الاحتراق مثلا هو الله تعالى إما بواسطة الملائكة أو بغير واسطه، فأما النار وهى جماد فلا فعل لها .

وليس هناك شبهة دليل على فعل النار إلا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار والمشاهده تدل على الحصول عندها ولا تدل على الحصول بها وأنه لا علة سواها .

لأن العلة أمر لا يرى ولا تتعلق به المعاينة والمشاهدة حتى يصح تعيين العلة على أنها النار .

ويمثل لذلك الغزالى بأن الأكمه، لو كانت في عينيه غشاوة ولم يسمع من الناس الفرق بين الليل والنهار لو انكشفت الغشاوة عن عينيه نهارا وفتح أجفانه،

فرأى الألوان، ظن أن الإدراك الحاصل في عينيه لصور الألوان فاعله فتح البصر وأنه مهما كان بصره سليما ومفتوحا، والحجاب مرتفعا والشخص المقابل متلونا فيلزم لا محالة أن يبصره، ولا يعقل أنه لا يبصره حتى إذا غربت الشمس، علم أن نور الشمس هو السبب في انطباع الألوان في بصره .

ومن ثم يتبين لنا أن وراء الأسباب الظاهرة العلة الحقيقية إلا أنها ثابتة ليست تنعدم أو تغيب ولو انعدمت أو غابت لأدركنا التفرقة وفهمنا أن ثم سببا آخر وراء ما نشاهده من الأسباب الظاهره هو الله تعالى [١] .

ومن الطريف أن هذا الرأى الذى عارض به الغزالى رأي «الفارابى »و«ابن سينا» في السببية قد وجد له أنصارا في العصر الحديث، فردده وقال به فلاسفة لهم شأنهم في عالم الفكر، فأيدوا تلك النظرية التى تركز كل القوى والمؤثرات في العالم بأجمعه في شيء واحد هو قدرة الله يقول «مالبرانش» كما فى «المطالب والمذاهب»فى مبحث«الدين فى الأزمنة الأخيرة»: إنما نرى توالى الحادثات ولا نرى الرابطة التى تربط أحد الطرفين بالآخر، لكونها شيئا إآهيا لا يوجد مثله في المخلوقات وهذا عين ما قاله علماؤنا الأصوليون: لا تثبيت العلية بالدوران، ويقول أيضا في مبحث المعرفة من «المطالب والمذاهب»: ليست العلة الحقيقية إلا واحدة لأن الإآه الحق واحد والقوة التى في الطبيعة وفي كل شيء عبارة عن إرادة الله، فالاعتراف مثلا بأن الشمس تعطى الحركة والحياة للأشياء يكون شركا، والقول باستطاعة الملائكة والمقربين لو اجتمعوا تحريك ورقة من أوراق شجرة يكون تناقضا وهذا عين ما ذهب إليه علماء أصول الدين من أهل السنة من أن الله تعالى هو خالق أفعال العباد لا العباد أنفسهم مع كون الإنسان أولى بأفعاله من النار بفعل الإحراق[٢] ويقول«هيوم» الذى هو أشهر مشاهير المنكرين للمعجزات: إذا أمعنا في النظر فنحن لا نرى القوانين والأسباب وإنما نرى الحادثات والنتائج، فنقول بالعلية والضرورة من غير أن نراهما. ويقول استوارت مل: إن الله الذى أوجد سلسلة

---

(١) انظر الغزالي: تهافت الفلاسفة ص ٢٢٧ ، ٢٣١ .

(٢) وفى الكتاب المقدس نجد نفس هذا المعنى فالمعجزة عمل من أعمال الله ففي العهد الجديد «إن كنت بأصبع الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله» لوقا الأصحاح (١١) آية (٢٠) وفى التوارة نجد أن كهنة فرعون الذين ناقشوا معجزات موسى عليه السلام اضطروا آخر الأمر إلى الاعتراف بأن «أصبع الله» هي التي تعمل بواسطته ـ انظر سفر الخروج الأصحاح (٨) آية (١٩) .

الأسباب والعلل قادر على تعطيل عمل هذه السلسلة، فلا تكون المعجزة خارقة للعادة بهذا الاعتبار ولا يختل قانون السببية، فسبب المعجزة إرادة الله، ومراده من عدم كون المعجزة خارقة أنها غير مخلة بقانون السببية وهو الناحية المهمة للمسألة لوجود سببها الذي هو إرادة الله، وإلا فالمعجزة تخرق العادة بتعطيل عمل سلسلة الأسباب الطبعية.

وكلام الغزالى وغيره هنا لا يهدم العقل والعلم لأن مسائل العلم الطبعى مبنية على التجربة التى لا تدل على القطعية الضرورية وإن دلت على القطعية الواقعية ونظام الأسباب إنما اشترط ليكون نظاما ووسيلة يتوسل بها عباد الله في قضاء حاجاتهم أي ليكون شرطا بالنسبة إليهم لا بالنسبة إلى الفاعل يحتاجون إلى مراعاته ولا يحتاج هو إليها (١) .

ومما يؤكد على أن السببية ليست ضرورة عقلية أنا نجد أن التسليم بمبدأ التعاقب عاماً في الحيوانات ايضاً .

(١) انظر مصطفى صبري : القول الفصل ص ٣٠ ، ٣٣ .

الفصل الثالث

تواتر المعجزة

- تعريف التواتر
- شروط التواتر
- التواتر بين الإقرار والإنكار

ـ التواتر في اللغة: التتابع أو التتابع مع فترات، وتواترت الأشياء أي جاءت بعضها في إثر بعض وِتْراً وِتْراً من غير أن تنقطع [1] .

ـ والتواتر في الاصطلاح عند المحدِّثين : ما أخبر به جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب[2] عن مثلهم من مبدئه إلى منتهاه أي يكون رواته في كل عصر من أعصاره على جهة يستحيل إجماعهم على الكذب .

ويكون مستند انتهائهم الحس، فإن لم يكن المخبر عنه شيئا محسوسا وكان طريق العلم به الاستدلال والنظر لم يوجب ذلك التواتر علما .

والناقلين وإن قصر عددهم عن عدد أهل التواتر وكانوا آحادا فإن كل واحد منهم لو أضاف ما نقله إلى حادثة معينة أكثر السامعين لخبره قد شهدها، فلم ينكروا ذلك لا عند سماعهم ولا بعد ذلك دل ذلك على صدق ما أضيف إليهم، وادعى عليهم وقام إمساكهم عن إنكار ذلك مقام نقلهم لمثل ما نقله الآحاد .

ولا يمكن بالطبع أن يكون السامعين أو كثير منهم قد أنكروا مشاهدة ما ادعاه الناقلون عليهم وسماعه، ولم ينقل ذلك الإنكار إلينا، لأن إنكار هذه الأعلام مما يجب توفر الدواعى على نقله وضبطه، ومعرفة عين المعترض فيه ولفظه حتى يشتهر ذلك ويظهر ويجرى مجرى الخبر الذى هو اعتراض عليه.

وقد زعم كثير من اليهود أن من شروط الخبر الموجب للعلم القاطع للعذر:

أن تكون الناقلة لا يحصرهم عدد، ولا يحويهم بلد، ولا يجوز على مثلهم التكاتب والتراسل وأن تتغاير آباؤهم وتختلف أنسابهم، وتتفرق دواعيهم وهممهم، وأغراضهم وأن تختلف مللهم ودياناتهم. وألا يحملوا على نقلهم بالسيف وألا يضموا إلى خبرهم ما تحيله العقول . وأن يكونوا في دار ذلة وممن تؤخذ منه الجزية.

وكلامهم هذا باطل لأنه لو نقل إلينا خبر عن مشاهدة أهل بلدة واحدة وبنو

---

(١) انظر عبد السلام هارون وآخرون : المعجم الوسيط جـ ٢ ص ١٠٥١ .

(٢) يقول الباقلاني :وهم أن يكونوا عددا يزيد على كل عدد أمرنا الله بالاستدلال على صدق المخبر به أى يزيدون على الأربعة لأن الشهادة فى الإسلام لم تزد على أربعة شهود فى حالة الزنا. انظر الباقلاني:التمهيد ص ١٦٣ : ١٦٤ .

أب واحد وأهل دين واحد وإن لم يكونوا في دار ذلة، وممن يؤدي الجزية، وهم أهل تواتر، لوجب العلم بصدقهم وصحة نقلهم وكذلك لو كانت حرفتهم واحدة .

وأما اشتراط ألا يضموا إلى خبرهم ما تحيله العقول فإنه باطل: لأن أهل التواتر لا يجوز وقوع الكذب منهم ونقل ما تحيله العقول كذب لا محالة، ولو جاز عليهم ذلك لبطل العلم بخبرهم (١) .

وقد طعن قوم في التواتر وذكروا في ذلك عدة شبهات فقالوا: إن اليهود على كثرتهم وتفرقهم في مشارق الأرض ومغاربها يخبرون عن موسى عليه السلام أنه قال: إن شريعتى باقية وإنها لا تصير منسوخة البتة، ففى التوراة «ويكون لكم هذا اليوم تذكارا فتعيدونه عيداً للرب في أجيالكم تعيدونه فريضة أبدية» (٢) وفيها كذلك «احفظ واسمع جميع هذه الكلمات التى أنا أوصيك بها لكى يكون لك ولأولادك من بعدك خير إلى الأبد إذا عملت الصالح والحق فى عينى الرب إلهك» (٣) .

فهذا الخبر، إما أن يكون صدقا أو كذبا فإن كان صدقا فقد بطلت شريعتكم. وإن كان كذبا فقد صار هذا التواتر باطلا .

وللجواب عن ذلك نقول :

١ ـ قد أنكرت العنانية من اليهود تواتر ذلك وقالوا: «إن نسخ الشريعة جائز من جهتى العقل والشرع، وإن من جاء بعد موسى من الأنبياء فإنما أنكرنا نبوتهم لما عدموا الأعلام المعجزة لا غير، ولو كان متواترا لعلموه» (٤) .

٢ ـ ويحتمل أن يكون المعنى من قوله «فريضة أبدية» في النص السابق من التوراة أي فريضة أبدية ما لم تظهر المعجزات على يد داع يدعو إلى خلافها وتبديلها، لأنه قد قيد في العقل وجوب تصديق من ظهرت الأعلام على يده كما أنه قد قيد في العقل وجوب سقوط فرض العمل بالشريعة مع الموت والعجز .

٣ ـ وإن صح ماذكره اليهود من القول بعدم نسخ شريعتهم لم يجز أن يظهر

---

(١) انظر الباقلاني : التمهيد ص ١١٥ : ١١٨، ١٣٥ : ١٣٩، ١٦٣ : ١٦٤ ، الرازي : الأربعين جـ ٢ ص ٨٠ : ٨١ ، البغدادي : أصول الدين ص ٢٠ ، ٢٢ .

(٢) سفر الخروج الأصحاح (١٢) آية (١٤) .

(٣) سفر التثنية الأصحاح (١٢) آية (٢٨) .

(٤) القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ص ٥٨٠ .

الله المعجزات على يد من يدعو إلى نسـخها وتبديلها وإلا فقدت المعـجزة دلالتها على صدق دعوى النبوة فيقدح ذلك في نبوة موسى عليه السلام نفسه .

٤ ـ وموسى عليه السلام قرن خبره الذى تدعيـه اليهود عليه بالأمر بتصديق الرسل بعده وقد صـدق اليهود يوشع وحزقيل واليسع، وداود وسليـمان، وصدقت العيـسوية منهم بنبـوة أبي عيـسى الأصبـهانى، واليهـود ينتظرون رسلا إلـى وقتنا هذا، ففى سفر التثنية : «يقيم لك الرب إلـهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون» (١) .

٥ ـ وأما قوله في سفر التثنيـة : «احفظ واسمع جميع هذه الكلمات التى أنا أوصيك بها لكى يكون لك ولأولادك من بعدك خـير إلى الأبد إذا عملت الصالح والحق في عينى الرب إلهك» (٢) .

فالأبـد هنا وصف للخيـر الذى يكون لليهـودى ولأولاده إن حفظ وسـمع جميع هذه الكلمـات التى أوصى الله بها وليس وصفا لشـريعة لا تنسخ. والإنسان قد يقول مثل هذا ثم ينسخ العمل ويديم الجزاء .

٦ ـ ولفظ «الأبد» في لغـة التـوراة لا يعنى زمانا بلا نهـاية وإنما يعنى زمـانا طويلا إلى مدة، وعلى سبيل المـثال، فقد جاء في سفر التـثنية «لا يدخل عمونى ولا مؤابى في جماعـة الرب حتى الجيل العاشر لا يدخل منهم أحـد في جماعة الرب إلى الأبد» (٣) فقد حدد نهاية الجـيل العاشر بلفظ «الأبد» أي أن الأبد محدد بمدة، وكذلك شريعة موسى محددة بمدة .

٧ ـ وموسى عليه السلام عبرانى اللسان ولا شك أن كثرة التفاسير والترجمة لكلامه من لغه إلى لغة تدخل التحريف على كـلامه، فلم تجب الضرورة بصحة ما نقلوه وفسروه .

٨ ـ والمسلمـون لا يطعنون في تواتر التوراة المتـداولة فهم يـعرفون أنهـا من كتـابة «عزرا في مـدينة بابل، وتواترت من بعد عـزرا، وإنما يستـدلون من نصوص

---

(١) سفر التثنية : الأصحاح (١٨) آية (١٥) .

(٢) السابق الأصحاح (١٢) آية (٢٨) .

(٣) السابق : الأصحاح (٢٣) آية (٣) ولنا فى ذلك وقفة متأنية فى دراسة مستقلة بعنوان «ختم النبوة بين العقل والنص» (تحت الطبع) .

التوارة التى كتبها عزرا: على أن التوراة التى بيد اليهود والنصارى اليوم، وهى التى كتبها عزرا كتبت من بعد مـوت موسى بزمان طويل، وهذا يعنى أن تحريفات كثيرة حدثت في التوراة الأصلية. ففى التوراة المعاصرة: «فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب ودفنه في الجواء في أرض مـوآب مقابل بيت فغور، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم» [١] .

فـفي هذا النص الدليل على أن مـوسى لم يقل هـذا كلام لأنه مـات قـبل كتابتـه بزمن طويل يكفى لضياع الشريعة كـما كان كافيـا لأن لا يعرف أحد مكان قبره عند كتابة ذلك النص من التوراة .

ولو كـانت التوراة المـتداولة هى الأصليـة لكانت واحـدة مع جـميع فـرق اليـهود، ومـا بين التـوراة السـامرية والعـبـرانيـة من خلاف لا يخـفى مـثله على العاقل، وكذا النسخة المعروفة «بالسبعينية» التى اتفق عليها سبعون حبراً من أحبارهم وهى التى في أيدى النصارى .

ومعلوم تاريخيا أن «بخت نصر» قـتلهم بالكلية ولم يبق إلا عددا قليلا يمكن إطباقهم على الكذب، وبذا تخرج روايتهم عن حد التواتر .

«والتـوراة إنما كـانت طول مـدة ملك بنى إسـرائيل عند «الكوهن الأكـبـر» الهارونى وحده لا ينكر ذلك منهم إلا كذاب مجاهر» [٢] فأمكن تبديلها .

وقال الطاعنون في التـواتر أيضا: أهل التواتر يجـوز الكذب على كل واحد منهم، فكذا الكل إذ ليس كذب الكل إلا كذب كل واحد .

وجواب ذلك : أنه لا يمكن مسـاواة حكم الكل لحكم كل واحد أبداً، فالكل مثلا له القدرة على تحريك ما لا يقوى عليه كل واحد منفردا .

ثم إن العـادة لم تجر باجـتمـاع مثل عـدد أهل التواتر على نقل كـذب عن مشاهدة ولا عن كتـمان ما هم عالمون به من غير ظهـور الحديث به بينهم والإقرار إذا خلوا بأنهم كتـموا وكذبوا لعلة دعـتهم إلى ذلك، لأنه لا يجوز أن يستـمر بهم

---

(١) السابق :الأصحاح (٣٤) آية (٥ ، ٦) .

(٢) ابن حزم : الفصل جـ ١ ص١٩٧ .

ترك ذلك والخوض فيه والحديث به زمانا طويلا أو الأبد حتى لا يعلم ذلك، وإن جاز ذلك على الواحد والاثنين منهم، كما أنه لم تجر العادة باجتماع أهل التواتر على تشويه وجوههم وطلاق نسائهم وسفرهم إلى بلد واحد لما جعلهم الله عليه من تفرق الدواعى واختلاف الأغراض، وإن جاز ذلك على آحادهم .

وقال الطاعنون في التواتر أيضاً: إن حكم كل طبقة حكم ما قبلها بواحد، فإن من جوز إفادة المائة للعلم أجاز إفادة التسعة والتسعين له قطعا، ولم يحصره في عدد، وادعاء الفرق تحكم، فلنفرض طبقة لا تفيده ثم نزيد عليها واحدا واحدا، فلا يفيد بالغا ما بلغ .

وجواب ذلك : أن حصول العلم عند خبر التواتر يختلف بالوقائع والمخبرين والسامعين، ثم إن العشرة لها القدرة على تحريك ما لا تستطيعة التسعة .

وقال الطاعنون في التواتر أيضاً :لو أوجب التواتر العلم لأوجبه خبر الواحد لأن التواتر يحصل بخبر الواحد بعد الواحد فالموجب له هو الخبر الأخير.

وجواب ذلك أن الخبر الأول يفيد ظنا. ويقوى بالثانى والثالث إلى ما لا أقوى منه. فيلزم أن الموجب له هو الخبر الأخير بشرط سبق أمثاله كتحريك العشرة مثلا للجسم الثقيل فقد لا يتم إلا عند وجود العاشر ولكن بشرط سبق التسعة .

وقال الطاعنون كذلك: إن العلم بصفة الشىء مشروط بالعلم بذات الشىء ومن ثم فما لم نعلم عدد الطبقات التى بيننا وبين الطبقة الذين شاهدوا الخبر المتواتر كانت ذواتها مجهولة لنا، ولا يمكننا الحكم على هذه الطبقات بأنها موصوفة بالصفات المعتبرة فى التواتر .

وقال بعضهم: الخبر المتواتر إذا كان خبراً عن الأمور الماضية حصل فيه احتمال مانع من القطع واليقين، وذلك الاحتمال هو أن يقال لعل واحداً ألقى ذلك الكذب على سبيل الإرجاف ثم إنه انتشر ذلك الإرجاف واشتهر قليلاً قليلا حتى امتلأ العالم منه، ونحن نشاهد أن مثل هذا الإرجاف كثيرا ما يحصل في زماننا، فإذا جاز ذلك في هذا الزمان، ونحن نشاهده فكذا في سائر الأمنة .

ـ والجواب عن كل ذلك أن نقول :

إنه لما كان العلم الحاصل عن خبر التواتر علما ضروريا كانت هذه الشبهات

طاعنة في الضروريات، فلم تكن مستحقة للجواب، لأن ذلك الجواب لا محالة يكون نظريا فيتوقف الضرورى عليه فيقع الدور وهو محال .

ثم إن من ينكر خبر التواتر يلزمه أن لا يصدق بوجود كل ما لم يشاهد حسه مما غاب عنه وبعد في المكان أو كان وجوده سابقا له في الزمان، وبالطبع فإن ذلك لا يجوزه أي عقل .

فمن أقر بذلك مع إنكاره للتواتر في حالة معجزات الأنبياء مدعيا أن الفرق أنه لا ينكر أحد هذه الأمور، وكثير من الناس ينكرون أعلام الأنبياء .

قيل له: إن كثيرا من الناس لا يعرفون كثيرا مما صح عندك من الأخبار العارضة لمن كان في بلادك، فليس جهلهم بها ودفعهم لها لو حدثوا بها مخرجا لها عن الصحة، وكذلك جحد من جحد أعلام الأنبياء ليس مخرجا لها عن الوجوب والصحة .

والأمر كما يقول الغزالى[1]: «فإن قال قائل: إن هذه الأمور لم تتواتر عندى لا جملتها ولا آحادها، فيقال له: ينبغى عليك أن تخالط القوم الذين تواتر ذلك بينهم حتى يتواتر ذلك إليك فإن الأصم لا تتواتر عنده الأخبار، وكذا المتصامم، فهذا أيضا عذرنا عند إنكار واحد منهم التواتر على هذا الوجه » .

فإن قال: إنه ليس نجد الناس على الكذب فيما كان قبلنا من الأخبار ما نجدهم على الكذب في أعلام النبوة .

قيل له : بل الأمران سواء لا فرق بينهما .

فالأنبياء والملوك جميعا لابد وأن يكون لكل منهم أولياء يدافعون عنهم وأعداء يحاربونهم وبالرغم من ذلك لم يستطيع أحد أن يخدع التاريخ [2] .

وهناك من يسلمون بحجية التواتر، ولكنهم يطعنون في تواتر أعلام نبى ما قائلين: إن آحاد هذه الوقائع لم يبلغ نقلها مبلغ التواتر .

---

(١) الغزالي :الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٣١ .

(٢) انظر تفصيلات ما سبق من الطعون وردودها : الباقلاني :التمهيد ص ١٤٠ :١٤٤ ـ ١٦٢ : ١٦٣ . الإيجي:المواقف ص ٣٤٧، ٣٤٨ . الرازي: الأربعين جـ٢ ص٨٣ :٨٧ . ابن حزم:الفصل جـ١ ص١٤٣ :١٤٤ .

ونقول لهؤلاء إن التواتر ضربان: تواتر من جهة اللفظ كالأخبار المتفقة عن القرون الماضية والبلاد النائية وتواتر من طريق المعنى كالأخبار المختلفة عن سخاء حاتم وشجاعة على رضى الله عنه وما أشبه ذلك .

فآحاد هذه الواقائع وإن لم يبلغ نقلها مبلغ التواتر لكن مجموعها قد يفيد العلم باختصاصه بخوارق العادات .

الفصل الرابع

القول بتأويل المعجزة

- التأويل الرمزي
- التأويل الطبعي
- تعليق عام

- التأويل الرمزى :

وهو اتجاه مقبول طالما بعد عن التكلف والتعسف في التأويل وطالما لم يخالف ظاهر الشرع وطالما لم يجزم أن ذلك التأويل الرمزى هو مراد الله تعالى، فهذا ليس من حق أحد عدا من أنزل عليه الكتاب لبيانه وطالما أنه لم ينكر الواقعة الحسية المتواترة .

ومما يؤكد صحة هذا الاتجاة ما ورد في شأن القرآن الكريم من أن له ظاهرا وباطنا .

فقد أخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس، قال: القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطون، لا تنقضى عجائبه، ولا تبلغ غايته فمن أوغل فيه برفق نجا ومن أوغل فيه بعنف هوى أخبار وأمثال، وحلال وحرام. ، ناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه وظهر وبطن، فظهره التلاوة، وبطنه التأويل، فجالسوا به العلماء، وجانبوا به السفهاء. وقال ابن مسعود: من أراد علم الأولين والآخرين فليتل القرآن ، ومن المعلوم أن هذا لا يحصل بمجرد التفسير الظاهر. وروى عن الحسن أنه قال: قال رسول الله - ﷺ - : «لكل آية ظهر وبطن. . . » قال ابن النقيب إن ظاهرها ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر، وباطنها ما تضمنته من الأسرار التى أطلع الله تعالى عليها أرباب الحقائق [١] وفي رواية : «إن للقرآن ظهرا وبطنا»[٢] .

وفكرة الظاهر والباطن هذه نجدها أيضا في قوله تعالى: **﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾** [٣] .

ويشهد لها قوله تعالى: **﴿وتفصيلا لكل شيء﴾**[٤] وقوله تعالى: **﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾** [٥] .

---

(١) انظر الألوسي : روح المعاني جـ ١ ص ٧ .

(٢) وهذا الحديث مع اختلافات فى رواياته. كما يقرر صاحب مجمع الزوائد، قد رواه البزار وأبو يعلى فى الكبير والطبراني فى الأوسط، كما يقرر السيوطي فى الجامع الكبير: أن هذا الحديث رواه ابن حبان فى صحيحه، والطبرانى فى الكبير، وابن جرير فى تهذيب الآثار وفى التفسير، وقد حكم السيوطى على هذا الحديث فى الجامع الصغير بأنه حديث حسن، وابن عربي فى الفتوحات يروى إجماع أهل الكشف على صحة هذا الحديث .

(٣) آل عمران: ٧ . (٤) الأنعام : ١٥٤ . (٥) الأنعام : ٣٨ .

ثم إنه كيف يقال باحتمال ديوان المتنبى وأبياته المعانى الكثيرة ولا يقال باشتمال قرآن النبى - ﷺ - وآياته، وهو كلام رب العالمين المنزل على خاتم المرسلين على ما شاء الله تعالى من المعانى، والله تعالى يقول: [1] ﴿**ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله**﴾ ومن ثم يكون القرآن صالحا لكل زمان ومكان .

ومما يؤكد صحة هذا الاتجاه روايته عن الصحابة رضوان الله عليهم فيقول ابن عباس فى قوله تعالى ﴿**أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها**﴾[2]: «الماء العلم والأودية القلوب» [3] .

وكثير ممن قالوا بالتأويل الرمزى للمعجزة لم ينكروا الواقعة الحسية ودلالاتها المتعددة وإن جعلوا منها الدلالة الرمزية، ومن ثم فتأويلهم مقبول ما تحققت الشروط الأربعة السابقة في التأويل .

يقول الكرمانى مؤولا: ﴿**وإذ قال إبراهيم ربى أرنى كيف تحى الموتى**﴾ [4] «يقول أرنى كيفية إحياء الأنفس الحسية الميتة عن الحقائق ونقلها عن رتبتها وطبيعتها إلى رتبة الملائكة فتحى الحياة الأبدية. . . . الخ » [5] .

ويقول مثبتا: [6] «إن المعجز الذى هو فعل المبعوث لا يتمكن أحد من إصدار مثله إلى الوجود إلا بنور إلهى من دار القدس» .

ويقول القاضى النعمان في كتابه أساس التأويل: «فلا يتوهم السامع. . . أنا متى ذكرنا تأويل شيء من الباطن أبطلنا من أجله الظاهر، نعوذ بالله من ذلك» .

وكذلك الحال عند معظم الصوفية، يقول الألوسي: «وأما كلام السادة الصوفية في القرآن، فهو من باب الإشارات إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة، وذلك من كمال الإيمان ومحض العرفان، لا أنهم اعتقدوا أن الظاهر غير مراد أصلا، وإنما المراد الباطن فقط إذ ذاك اعتقاد الباطنية الملاحدة توصلوا به إلى نفى الشريعة بالكلية، وحاشى سادتنا من

---

(١) لقمان :٢٧ . (٢) الرعد : ١٧ .

(٣) الغزالي : إحياء علوم الدين جـ ٥ ص ٤٥ .

(٤) البقرة :٢٦٠ . (٥) الكرماني : راحة العقل ص ٥٤٢ .

(٦) السابق : ص ٥٧٠ .

ذلك كيف وقد حضوا على حفظ التفسير الظاهر وقالوا لابد منه أولا إذ لا يطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر ومن ادعى فهم أسرار القرآن قبل إحكام التفسير الظاهر فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب[1] .

فابن عربي مثلا يرى أن عصا موسى صورة ورمز لعصيان فرعون وامتناعه عن أن يجيب دعوة موسى أما انقلابها«حية»فهو أيضا رمز لانقلاب عصيان فرعون طاعة والحية من الحياة، والحياة هنا حياة العلم والعرفان وقلب معصية فرعون طاعة أي أورد اسم المعصية على فرعون من وجه واسم الطاعه عليه من وجه آخر، وهو لم يتغير، وكذلك قلب عصا موسى حية في اللسان الرمزى، أي سماها عصا في صورة وحية في صورة أخرى، وجوهرها واحد لم يتغير إلا في الحكم وخلاصة القول أن فرعون لم يعص موسى إلا في الصورة بل لم يكن عصيانه إلا عين الطاعة، لأن العصيان والطاعة مظهران لحقيقة واحدة ، كما أن عصا موسى وحيته لم يكونا إلا مظهرين وصورتين لجوهر واحد، فلم يختلف عصيان فرعون عن الطاعة الحقيقية إلا بمقدار ما اختلفت عصا موسى عن الحية التى تحولت تلك العصا إليها، والحقيقة أنه ليس هناك تحول ولا انقلاب وإنما هو تغير في الصور[2] .

ففرعون «لم يفعل ما فعل. . . . . إلا تلبية للأمر الإلهى التكوينى الذى يخضع له كل ما فى الوجود، وإن خالف بمعصيته الأمر التكليفى، فهى طاعة في صورة معصية»[3] .

ومما سبق من كلام ابن عربى يتبين لنا أن ابن عربى هنا جعل لعصا موسى معنى رمزيا إلا أنه لم ينكر وجودها الحسى بل إن هذا المعنى الرمزى مبنى في أساسه على التسليم بوجود الظاهر« فلم يختلف عصيان فرعون عن الطاعة الحقيقية إلا بمقدار ما اختلفت عصا موسى عن الحية التى تحولت تلك العصا إليها» .

ويؤكد ابن عربى على ذلك الوجود الحسى للمعجزات بالرغم من تأويلة الرمزى لها فيقول:[4] «فإنا رأينا عصا موسى عليه السلام حية وعصى السحرة حيات، ولم تفرق العامة بين الحيات » .

---

(١) الألوسي : روح المعاني جـ١ ص ٧ . وانظر الغزالي: إحياء علوم الدين جـ ١ ص ٢٨٨ ، ٢٩٣ .
(٢) انظر أبوالعلا عفيفى : التعليقات على فصوص الحكم لابن عربي جـ٢ ص٣١٢ .
(٣) السابق جـ٢ ص ٢٩٩ . (٤) ابن عربي : الفتوحات المكية جـ ٢ ص٣٧٤ .

بل إن ابن عربي نفسه إذا ما وجد أن التأويل الرمزي ينفى الوجود الحسى للمعجزة، نجده من أول المدافعين عن ذلك الوجود الحسى للمعجزة [1] .

وبذلك نرى اتفاق كثير ممن قالوا بالتأويل الرمزى في احترام الظاهر وعدم سقوطه فى أي حال من الأحوال .

نعم هناك الغلاة الذين قالوا بسقوط الظاهر ولكن نقول: إن الغلاة لا تخلو فرقة إسلامية منهم ومن التجنى اعتبارهم ممثلين لفرقهم .

ونرى كذلك مما سبق أن أوردناه من نماذج للتأويل الرمزى أنها وإن لم تنكر الواقعة الحسية إلا أنها لا تخلو من التعسف في التأويل، وإن اختلفت درجة هذا التعسف من موضع لآخر. هذا بالإضافة إلى ما في تأويل ابن عربى من الجزم والقطع به. حيث أنه يصرح أنه لا يكتب إلا ما ينزل عليه من الله تعالى [2] وهذا ما نرفضه .

وكذلك تأويل محمد رشيد رضا لقوله تعالى ﴿**اقتربت الساعة وانشق القمر**﴾[3] بأن المراد من انشقاق القمر ظهور الحق قياسا على انشقاق الصبح أي طلوعه، فهو تأويل مرفوض أيضا لأنه يخالف اللغة التى نزل بها القرآن، فليس في

---

(١) ويتبين ذلك مما يرويه لنا فى الفتوحات من موقف شاهده بنفسه يثبت أن للمعجزات وجودا حقيقياً. يقول ابن عربي: «اتفق لنا فى مجلس حضرنا فيه.. وقد حضر عندنا شخص فيلسوف ينكر النبوة على الحد الذي يثبتها المسلمون وينكر ما جاءت به الأنبياء من خرق العوائد... وكان زمان البرد والشتاء وبين أيدينا منقل عظيم يشتعل نارا فقال المنكر المكذب إن العامة تقول إن إبراهيم عليه السلام ألقي فى النار فلم تحرقه، والنار محرقة بطبعها الجسوم القابلة للإحراق، وإنما كانت النار المذكورة فى القرآن فى قصة الخليل عبارة عن غضب نمرود عليه، وحنقه، فهي نار الغضب، وكونه ألقي فيها لأن الغضب كان عليه، وكونها لم تحرقه أى لم يؤثر فيه غضب الجبار لما ظهر به عليه من الحجة بما أقامه من الأدلة فيما ذكر من أفول الأنوار وأنها لو كانت آلهة ما أفلت، فركب له من ذلك دليلا، فلما فرغ من قوله قال له بعض الحاضرين ممن كان له هذا المقام... فإن أريتك أنا صدق ما قاله الله تعالى فى النار أنها لم تحرق إبراهيم، وأن الله جعلها عليه كما قال برداً وسلاماً، وأنا أقوم لك فى هذا المقام مقام إبراهيم عليه السلام فى الذب عنه لا أن ذلك كرامة فى حقي، فقال المنكر هذا لا يكون، فقال له: أليست هذه هي النار المحرقة. قال نعم قال تراها فى نفسك ثم ألقى النار التي فى المنقل فى حجر المنكر، وبقيت على ثيابه مدة يقلبها المنكر بيده، فلما رآها ما تحرقه تعجب ثم ردها إلى المنقل، ثم قال قرب يدك أيضا منها، فقرب يده فأحرقته، فقال له هكذا كان الأمر، وهي مأمورة تحرق بالأمر وتترك الإحراق كذلك والله تعالى الفاعل لما يشاء، فأسلم ذلك المنكر واعترف » السابق جـ ١ ص ٣٧١ .

(٢) انظر : ابن عربي : فصوص الحكم جـ ١ ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٣) القمر : ١

اللغة انشق القمر بمعنى طلع لأن انشقاق القمر عند طلوعه غير معقول كمعقولية انشقاق الفجر عند طلوعه [١] .

ثم كيف يكون هذا التفسير صحيحا وهو يخالف سياق النص القرآنى فالآية التالية للآية السابقة تنص على أن الانشقاق كان آية له - ﷺ - وهي ﴿**وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر**﴾[٢]ولو لم يكن القمر قد انشق لأسرع الناس بتكذيبه ﷺ .

ومن ثم فهذا التأويل مرفوض لأنه يخالف اللغة التى نزل بها القرآن ويخالف التواتر المتفق عليه، فحديث انشقاق القمر اخرجه «أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وابن جرير وابن منذر وابن مردويه وأبو نعيم والحاكم والبيهقى عن علي وابن مسعود وحذيفة وجبير بن مطعم وابن عمر وابن عباس وأنس، ولذا قال ابن عبد البر: روى حديث انشقاق القمر جماعة كثيرة من الصحابة وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين، ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا وتأيد بالآية الكريمة» [٣] .

وكذلك فنحن نرفض تأويلات الشيعة الإثنا عشرية لأنهم جزموا بمراد الله في تفسيراتهم حيث جعلوا الأئمة من آل البيت مفوضون من جهة الله تعالى في بيان أحكامه [٤] .

---

(١) انظر مصطفى صبري : القول الفصل ص ١٣٨ . (٢) القمر : ٢ .

(٣) مصطفى صبري: القول الفصل ص ١٣٩ . وقد كانت هذه الآية محلا لمطاعن كثيرة من أهمها: أنها لو وقعت لسجلها تاريخ الأمم الأخرى . وجواب ذلك : أن هذا هو ماحدث بالفعل فقد سجلتها كتب بعض مؤرخي الهند وأرخت بها لبناء بعض الأبنية فى الهند ففى المقالة الحادية عشر من تاريخ فرشته أن أهل مليبار من إقليم الهند رأوه أيضاً وقد نقل الحافظ المرى عن ابن تيميه أن بعض المسافرين ذكر أنه وجد فى بلاد الهند بناء قديما مكتوبا عليه بنى ليلة انشق القمر. ثم إن انشقاق القمر لم يكن أحد من أمم أهل الأرض يترصده وينتظره وكان فى ليل وفى زمان البرد ولفترة وجيزة،فقلما يراه أحد ثم إنه قد يحول بين الرائى والقمر فى بعض الأماكن سحاب كثيف فلا يرى هذه المعجزة ، هذا بالإضافة إلى اختلاف مطالع القمر،فهو لا يرى لكل أهل الدنيا مرة واحدة. ومن ثم فإنه من المتوقع ألا يكون رآه إلا عدد محدود من أهل الأرض متفرقين فى بلدان شتى زبما حمل معظم المؤرخين روايتهم على تخطئة الأبصار أو على نوع من الكسوف . انظر القاضي عبد الجبار: المغني جـ ١٦ ص ٤١٩ القرطبي :الإعلام ص ٣٤٨ ، ٣٥٠ . رحمة الله الهندي : إظهار الحق جـ٢ ص ١٦٦ .

(٤) انظر محمد محمد إبراهيم العسال : الشيعة الاثنا عشرية ومنهجهم في تفسير القرآن رسالة (دكتوراه) ص ٩٨

ونرفض تأويلاتهم كذلك لأنها لا علاقة لها باللغة التى نزل بها القرآن، ولأنها تخالف الشرع، حيث جعلوا القرآن يدور في فلك الولاية والإمامة التى يدعونها للأئمة من آل البيت فالقرآن بل وكل الكتب السماوية نزلت فيهم وفي توجيه أنظار الخلق إليهم، بل ما من آية مدح إلا فيهم وفى أوليائهم نزلت وما من آية قدح إلا في مخالفيهم وفى أعدائهم وردت فالآيات والبينات هم الأئمة من آل البيت، بل إن الشيعة الإثنى عشرية تفسر الإله بالإمام، ولفظ الجلاله الله بالإمام الحق، وتفسير الجبت والطاغوت بأبى بكر وعمر وعثمان [1] رضى الله عنهما .

ـ التأويل الطبعي :

يحاول بعض الفلاسفة والمفكرين تأويل المعجزة بردها إلى قوانين العلم والطبيعة وذلك من منطلق أن مبدأ العلم يقوم على حتمية خضوع الطبيعة لبعض القوانين على العلم أن يكتشفها ليتمكن بالتأثير في العلل من تكرار الحوادث كلما أراد، وما لم يتمكن العلم من تفسير حادثة معينة فلا يسعه إلا الاعتراف بجهله ومواصله البحث. ومن ثم فإنه في نظر العلم لا وجود للمعجزة وليس هناك سوى حادثة بارزة للعيان .

وهؤلاء المؤولون منهم من يرى أن المعجزة بل و النبوة هى نتاج طبعى للتطور كابن خلدون .

يقول ابن خلدون: [2] إن«هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام وربط الأسباب بالمسببات واتصال الأكوان واستحالة بعض الموجودات إلى بعض. . . ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول الأفق الذي بعده. . وللنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية. . وقتا من الأوقات في لمحة من اللمحات وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل. . ويكون لها اتصال بالأفق الذى بعدها شأن الموجودات المرتبة كما قدمناه» .

وينقل الرازى عن منكرى النبوات أنهم يرون أن الإتيان بالمعجزات أمر طبعى

---

(١) السابق ص ١٩٨ ، ٢١٤ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٥ ، ٩٦ .

يعود إلى اختلاف الناس في النفوس وفى الأمزجة، فنحن بين أمرين: إما أن نثبت النفس الناطقة البشرية، وإما أن لا نثبتها، فإن أثبتنا النفس الناطقة، فقد يقال: إن نفس النبى عليه السلام مخالفة لسائر النفوس بالماهية والحقيقة، فهى لماهيتها المخصوصة وحقيقتها التى باعتبارها امتازت عن سائر الحقائق، قدرت على ما لا يقدر عليه غيرها، وأما إن قلنا: إن القول بالنفوس الناطقة باطل فلابد أن نعترف أن لكل واحد من أشخاص الناس مزاجاً مخصوصا، وتركيبا مخصوصا به امتاز عن سائر الأشخاص .

ومن ثم فإنه قد يقال: ما به امتاز هذا الشخص عن سائر الأشخاص علة لكونه قادرا على الأفعال التى يعجز عنها غيره. وعلى هذا التقدير لا يمكننا أن نعلم أن هذا المعجز هو فعل الله تعالى [1] .

ويرى الفارابى أن «النبوة مختصة في روحها بقوة قدسية تذعن لها غريزة عالم الخلق الأكبر كما تذعن لروحك غريزة عالم الخلق الأصغر، فتأتي بمعجزات خارجة عن الجبلة والعادة ولا تصدأ مرآتها ولا يمنعها شيء عن انتقاش ما في اللوح المحفوظ» [2] .

وابن سينا والغزالى وغيرهما من الفلاسفة كثيرون يرون أن للنبوة ثلاث خواص: «أحدهما تابعة لقوة التخيل والعقل العملى. والثانية تابعة لقوة العقل النظرى والثالثة تابعة لقوة النفس» [3] .

ويرون أن لذلك أسبابا معلومة في مذاهب الطبيعة. يقول ابن سينا عن الخاصية الأول: [4] «وإذا بلغك أن عارفا حدث عن غيب فأصاب متقدما ببشرى أو نذير فصدق ولا يتعسرن عليك الإيمان به، فإن لذلك في مذاهب الطبيعة أسبابا معلومة» .

ويؤكد ابن سينا ذلك بأن التجربة والقياس متطابقان على أن للنفس الإنسانة أن تنال من الغيب نيلا ما في حالة المنام، فلا مانع من أن يقع مثل ذلك النيل في حال اليقظة إلا مانعا يمكن أن يزول ويرتفع كالاشتغال بالمحسوسات .

(١) انظر الرازي: الأربعين جـ٢ ص٩٨ . والنبوات ص ١٠٥ ، ١٠٧ .
(٢) الفارابي : فصوص الحكم ص ١٤٥ ، ١٤٦ .
(٣) الغزالي : معارج القدس ص ١٥١ . وانظر ابن سينا: رسالة فى الفعل والانفعال ص٣، ٥.
(٤) ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ص ٨٦١ .

ـ أما التجربة:ـ فالتسامع ـ:وهو حصول الاطلاع على الغيب للغير ـ والتعارف : وهو حصول ذلك الاطلاع للناظر نفسه فيشهدان به، وليس أحد من الناس إلا وقد جرب ذلك بنفسه تجارب ألهمته التصديق، إلا أن يكون أحدهم فاسد المزاج نائم قوى التخيل والتذكر .

ـ وأما القياس الدال على إمكان اطلاع الإنسان على الغيب حالتى نومه ويقظته فمبنى على مقدمتين :

إحداهما: أن صور الجزئيات مرتسمة في المبادئ العالية قبل كونها [١] .

الثانية: أن للنفس الإنسانية أن ترتسم بما هو مرتسم فيها بحسب الاستعداد وزوال الحائل [٢] .

لأن الأنفس الإنسانية عندهم من جوهر العقول المفارقة وليست من مادة هذا الجسم الذى تديره.

يقول الفارابى[٣] «إن الروح التى لك من جواهر عالم الأمر»ومن ثم فلها القدرة على الاطلاع والتأثير شأنها في ذلك شأن العقول التى هي من جوهرها [٤] .

وتختلف استعدادات النفوس لقبول هذه المدركات الغيبية. فالقوة المتخيلة موضوعة بين قوتين تحولان دون عملها هما الحس والعقل فالحس يورد عليها صورا محسوسة تشغلها عن عملها، والعقل يصرفها عن كل ما لا توردہ الحواس عليها.

فإذا ضعفت إحدى هاتين القوتين لم تتمكن القوة الأخرى من ممانعة المتخيلة عن عملها، كما هو مشاهد في حالة النوم وركود الحواس أو في حالة الجنون وضعف العقل.

ومن ثم فإن إخبار المجانين بالغيب فإنما يتفق أكثر ذلك لهم عند أحوال كالصرع والغشى حين تركد قواهم الحسية مع ضعف عقولهم فتقوى القوة المتخيلة

---

(١) انظر مبحث الطلسمات فى الفصل الأول من الباب الثانى. (٢) انظر ابن سينا :الإشارات والتنبيهات مع شرح الطوسي عليه ص ٨٦١ ، ٨٦٦ . (٣) الفارابي : فصوص الحكم ص ٩ .

(٤) يلاحظ مدى التشابه بين هذا الدليل وبين نظرية المثل الأفلاطونية التي ترى أن نفوسنا كانت ذات حياة فى العالم العقلى،وذات اطلاع على الحقائق،ولما أجبرت على النزول،أصبحت دائمة الحنين إلى عالمها الأول،ولذا فإنها لا تكاد ترى فرصةتتيح لها الاتصال بعالمها العقلى حتى تنتهزها كما يحدث للنائم والمريض ولكن التحرر النهائي لا يكون إلا بعد الموت .

على إدراك الغيب .

ومن ثم فإن بعض المتنبئين قد يستعينون ببعض الأشياء التى تحدث للحس حيرة وركودا، فتقوى القوة المتخيلة على عملها وقد وجه الوهم إلى غرض معين فيتخصص بذلك قبوله كتأمل شيء شفاف مرعش للبصر برجرجته وبريقه .

ومراتب النفوس في قبول هذه المدركات الغيبية كثيرة جداً فبعض النفوس لا يكون فيه هذا الاستعداد أصلا، وبعض آخر يكون هذا الاستعداد فيه ضعيفا، وبعضها يكون هذا الاستعداد فيه قويا فتدرك طرفا من عالم الغيب - في النوم - إلا أنها لا تستطيع أن تستثبته كما هو. فالقوة المتخيلة بغريزتها تترك ما أخذت وتورد شبيهه أو ضده أو مناسبه، كما هو الحال عند اليقظان من أنه قد يشاهد شيئا فينعطف عليه التخيل إلى أشياء أخرى مما يتصل به حتى ينسى الشيء الأول إلى أن يقوم بالتحليل العكسى فيأخذ الحاضر مما قد تأدى إليه الخيال فينظر أنه خطر في الخيال تابعا لأي صورة تقدمته وتلك لأي صورة أخرى تقدمتها وكذلك إلى أن ينتهى إلى البدء ويتذكر ما نسيه مما شاهده من عالم الغيب .

وبعض النفوس يكون هذا الاستعداد فيه أقوى فتستثبت ما نالته من عالم الغيب من غير أنه يغلبه الخيال وينتقل إلى غيره، فتكون الرؤيا التى لا تحتاج إلى تعبير .

بل إن هناك نفوسا بلغت من قوة استعدادها لقبول المدركات الغيبية أنها تتمكن من ذلك في اليقظة أيضا .

وهذه النفوس أيضا منها ما لا يستطيع أن يستثبت ما يناله من عالم الغيب وتفعل المتخيلة فيه مثلما تفعل في حالة الرؤيا المحتاجة إلى تعبير .

ومنها ما يستطيع أن يستثبت ذلك دون أن يغلبه الخيال، كقول الرسول - ﷺ «إن روح القدس نفث في روعى كذا وكذا» .

ومنها ما يستطيع أن يستثبت ذلك مع استمرار المتخيلة في محاكاتها .

وتقبل المتخيلة على بنطاسيا أو لوح الحس المشترك [1] وتحاكى فيه ما قبلت

---

(١) البنطاسيا :أو كما يسميها ابن سينا «الحس المشترك» هو لوح النقش الذي إذا تمكن منه صار النقش فى حكم المشاهد،وربما زال الناقش الحسي عن الحس،وبقيت صورته هنيهة في الحس المشترك فبقي في =

بصورة عجيبة مسموعة ومبصرة وهو ما يحكى عن الأنبياء عليهم السلام من مشاهدة صور الملائكة واستماع كلامهم [١] .

الخاصة الثانية للنبوة :وهى تابعة للقوة النظرية .

ـ ويستدل عليها ابن سينا بأن للحدس والفكر مراتب في التأدية إلى المطلوب بحسب الكيف أي سرعة التأدية وبطئها وبحسب الكم .

ولتلك المراتب حدان : نقصان وكمال .

وحد النقصان : هو أن تنبت جميع أفكار الشخص عن مطالبه. وحد الكمال: هو أن يكون صاحبه في غنى في أكثر أحواله عن التعلم والفكرة .

ولما كان طرف النقصان مشاهداً فطرف الكمال ممكن الوجود ويستشهد على ذلك ابن سينا بقوله ـ ﷺ [٢]«أوتيت جوامع العلم» وبقوله تعالى **﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾** [٣] وقوله **﴿ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان﴾**[٤]وقوله**﴿يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار﴾** [٥]،وكأن مثال هذه النفس كبريت والعقل الفعال نار فيشتعل فيها دفعة واحدة ويحيلها إلى جوهره ويعبر عن ذلك الغزالى بقوله: يكاد زيتها يضئ ضوء الفطرة ولو لم تمسسه نار الفكرة [٦] .

الخاصة الثالثة للنبوة: التابعة للنفس :

يرى ابن سينا والغزالى وغيرهما أن للنفس الإنسانية أثرا في العالم المادي.

= حكم المشاهد دون المتوهم،كالقطر النازل خطا مستقيما،وانتقاش النقطة الجوالة محيط دائرة،فإذا تمثلت الصورة فى لوح الحس المشترك صارت مشاهدة سواء كانت فى ابتداء ارتسامها فيه من المحسوس الخارج وبقائها مع بقاء المحسوس أو ثباتها بعد زوال المحسوس أو قوعها فيه لا من قبل المحسوس إذا أمكن

انظر ابن سينا: الإشارات والتنبيهات ص ٨٧٠ .

(١) انظر الغزالي : معارج القدس ص ١٥٤ ، ١٥٨ . ابن سينا :الإشارات والتنبيهات وشرح الطوسي عليه ص ٨٧٦ ، ٨٩٠ .

(٢) رواه البخاري فى صحيحه فى الباب(١١) من كتاب التعبير ومسلم فى صحيحه برقم(٥) من كتاب المساجد وأحمد فى المسند جـ٢ ص ٢٥٠،٤١٢،٤٤٢،٥٠١ .

(٣) النساء :١١٣ . (٤) الشورى :٥٢.

(٥) النور : ٣٥ .

(٦) انظر الغزالي : معارج القدس ص ١٦١ : ١٦٣. وابن سينا : الإشارات والتنبيهات وشرح الطوسي عليه ص ٣٧٠ ، ٣٧١ . و رسالة فى الفعل والانفعال وأقسامهما ص ٣ : ٤ .

ويستدلـون على ذلك بأنه قد ظهر في العلوم الإآلهيـة أن الصور الحسيـة تابعة في الوجود للصور التى في النفوس والعقول الكلية .

ولما كانت الأنفس الإنسانية قريبة الشبه من تلك الجواهر إذ أن النفس جوهر قائم بذاته غـير منطبع في بدن الإنسان ولا في غـيره من الأجسام، بل هو مـفارق للمواد والأجسام مجرد عنها وله علاقة ما ببدن الإنسان ما دام حيا كتعلق مستعمل الآلة بالآلة .

ولما كان للنفس الإنسانية أثر في بدنها مع مباينتها له بالجوهر كما هو واضح في حالة الخوف والغضب والشهوة .

وكانت طبيعة البدن ليست إلا من عنصر العالم .

فلا يستبعد أن يكون لبعض النفوس ملكة يتعدى تأثيرها بدنها وتكون لقوتها كأنها نفس ما للعلم .

وخاصة إذا شـحذت ملكتها بقهر قـواها البدنية التى لها كالشـهوة والخوف والغضب، فتحدث سحب هاطلة ورياح وصواعق وزلازل أو تمنع من ذلك[١] .

ويستدل هؤلاء على ذلك أيضا :

بوجود الحسد [٢] .

وبأن النفوس الضـعيفة إذا اجتـمعت على توجية الفكر إلـى شيء معين قد يحصل لها نوع من القوة المؤثرة، كما هو مشاهد في صلاة الاستسقاء [٣] .

---

(١) انظر الفارابي : فصوص الحكم ص ٩ . و ابن سينا :الإشارات والتنبيهات وشرح الطوسي عليه ص ٨٩٢ :٩٠٠ ورسالة فى الفعل والانفعال وأقسامهما ص ٥ . و رسالة في الكلام عن النفس الناطقة ص ١٩٦ . والغزالي : معارج القدس ص ١٦٣ ، ١٦٤ . و الكرماني : راحة العقل ص ٥٦٨ .

(٢) انظر ابن سينا : الإشارت والتنبيهات ص ٨٩٣ ، ٨٩٦ .

(٣) انظر الرازي : النبوات ض ١٩٦ .

وقد يستشهد على ذلك أيضا بما ذكره ابن جرير فى تاريخة عن أشياخ من غسان وبني القين من أن المسلمين فى حصارهم لحمص كبروا تكبيرة زلزلت معها المدينة وتصدعت الحيطان ثم كبروا الثانية فتهافتت الدور واستسلمت المدينة انظر جـ٣ ص ٩٧ .وانظر الكاندهلوي : حياة الصحابة جـ ٤ ص ٤٣٨ ، ٤٣٩ .

وبأن البخار مع خفته يستطيع أن يدفع قاطرة وباخرة والكهرباء مع عدم رؤيتها تستطيع أن تدير المصانع وتنير المدن بأكملها، فكذلك الإرادة الإنسانية .

ومن ثم فبناء على ما سبق يمكن تفسير الدعوات واللعنات تفسيراً جديداً يعود إلى تأثير النفس في الأشياء وربما استدل على ذلك بقوله ـ ﷺ ـ «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة. . .»[1] وبقوله: «إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة» [2] وبقول عمر رضى الله عنه «إني لا أحمل هم الإجابة ولكنى أحمل هم الدعاء» .

وبقول المسيح ـ عليه السلام: «الحق أقول لكم إن من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر ولا يشك في قلبه بل يؤمن أن ما يقوله يكون فمهما قال يكون له» [3] .

فالإيقان بالإجابة وحمل هم الدعاء قد لا يكونا إلا حسن توظيف للإرادة وعمل النفس. وهو ما اصطلح ابن عربى على تسميته «بجمعية الهمة» [4].

ويرى ابن سينا أن: هذه القوة ربما كانت للنفس بحسب المزاج الأصلي منسوبة إلى الهيئة النفسانية المستفادة من ذلك المزاج التى هي بعينها التشخص الذى تصير النفس معه نفسا شخصية، وربما تحصل بمزاج طارئ وربما تحصل بالكسب كما للأولياء » [5] .

ومن ثم فطبعى جداً أن لا يفرق ابن سينا وكذلك الغزالى بين النبى وغيره إلا بأن الذى يقع له هذا في جبلة النفس ثم يكون خيرا رشيدا مزكيا لنفسه، فهو ذو معجزة من الأنبياء أو كرامة من الأولياء والذى يقع له هذا ثم يكون شريرا ويستعمله في الشر فهو الساحر الخبيث [6] .

ويرى بعض الباحثين أن: الفارابى وابن سينا والغزالى وغيرهم وإن قالوا بتأويل المعجزة إلا أن تأمل كلامهم لا يفضى إلى القول بكسبيتها .

---

(١) رواه الترمذي والحاكم عن أبى هريرة .

(٢) رواه البخاري فى صحيحه فى الباب(٢١) من كتاب الدعوات ومسلم فى صحيحه برقم (٨ ،٧) من كتاب الذكر،وأحمد فى المسند جـ٣ ص ١٠٧ . (٣) إنجيل مرقص الأصحاح (١١) آية (٢٣) .

(٤) انظر الباب الثالث الفصل الثانى التقسيم الخامس للمعجزات .

(٥) الطوسي:شرح الإشارات والتنبيهات ص ٨٩٧ .

(٦) انظر ابن سينا: الإشارات والتنبيهات ص٨٩٨ ، ٨٩٩ . والغزالي : معارج القدس ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

يقول أحد هؤلاء الباحثين :[1] «إنه للحقيقة والإنصاف يجب أن نقول: إن الفارابى يعتبر القوة النفسية خاصة نبوية فكأنها لا تتعدى النبى إلى غيره، وإذا كان القول بالنبوة على الوجة المذكور عند الفلاسفة يوهم كسبيتها، وبالتالى يوهم عدم ختمها برسالة الإسلام فالحق أن ذلك لازم لم يلتزمه فلاسفة الإسلام .

حيث اننا نجد تصريحات لهم بختم النبوات بنبوة سيدنا محمد - ﷺ - » .

فقد قال ابن سينا في رسالة أضحوية في أمر المعاد[2] :«إن الشريعة الجائية على لسان نبينا محمد - ﷺ - جاءت بأفضل ما يمكن أن تجئ عليه الشرائع وأكمله، ولهذا صلح أن تكون خاتمة الشرائع وآخر الملل، ولهذا المعنى قال - ﷺ - «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» .

ولكن يناقض هذا الاتجاه ويؤكد قولهم بالكسبية قول ابن سينا :«إذا بلغك أن عارفا حدث عن غيب فأصاب متقدما ببشرى أو نذير فصدق ولا يتعسرن عليك الإيمان به فإن لذلك في مذاهب الطبيعة أسبابا معلومة» [3] .

وقوله «ولعلك قد تبلغك عن العارفين أخبار تكاد تأتي بقلب العادة . . . فتوقف ولا تعجل، فإن لأمثال هذه أسبابا في أسرار الطبيعة » [4] .

وكذلك قوله« بأن الذي يقع له هذا في جبلة النفس ثم يكون خيراً رشيداً مزكياً لنفسه، فهو ذو معجزة من الأنبياء أو كرامة من الأولياء. . .والذى يقع له هذا ثم يكون شريراً ويستعمله في الشر فهو الساحر الخبيث» [5] .

ثم تأكيده على كلامه بقوله: «اعلم أن هذه الأشياء ليس سبيل القول بها والشهادة لها إنما هي ظنون إمكانية صير إليها من أمور عقلية فقط، وان كان ذلك أمرا معتمداً لو كان ولكنها تجارب لما ثبتت طلبت أسبابها» [6] .

وهو نفس كلام الغزالى في معارج القدس «والذى يقع له هذا الكمال في

---

(١) محمود عبد المعطي بركات : قضايا النبوات ص ٦٩ .

(٢) ابن سينا : رسالة أضحوية فى أمر المعاد ص ٥٨ .

(٣) ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ص ٨٦١ .

(٤) السابق ص ٨٩٢ .

(٥) السابق ص ٨٩٨ ، ٨٩٩ .

(٦) السابق ص ٨٩١ .

جبلة النفس ثم يكون خيرا متحليا بالسيرة الفاضلة ومحامد الأخلاق وسير الروحانيين مجتنبا عن الرذائلَ ودنيات الأمور، فهو ذو معجزة من الأنبياء... أو كرامة من الأولياء... ثم من يكون شريراً ويستعمله في الشر فهو الساحر الخبيث.

واعلم أن هذا الأشياء ليس القول بها والشهادة لها: هي ظنون إمكانية سير إليها من أمور عقلية فقط وإن كان ذلك أمراً معتمداً لوكان ، ولكنها تجارب لما ثبتت طلب أسبابها» (١) .

ثم إن استدلال الباحث بأن الفارابى : يعتبر«القوة النفسية خاصة نبوية » على أنه ينفى القول بالكسبية. استدلال باطل لأن قولنا إن معرفة الرياضيات مثلا خاصة بعلماء الرياضيات لا يعنى أن معرفة الرياضيات ليست كسبية. فالاختصاص قد يكون بالاكتساب وقد يكون بالاصطفاء .

وأما استدلال الباحث على عدم القول بالكسبية عند ابن سينا لتصريحه بختم النبوة في رسالته الأضحوية فإن لذلك تفسيرات متعددة .

١ - إما الطعن في نسبة أحد هذين الرأيين المتعارضين لقائل واحد .

٢ - وإما أن يكون هذان الرأيان يمثلان مرحلتين تطوريتين مختلفتين من مراحل التطور الفكرى لدى الكاتب .

٣ - إما أن يكوم أحد هذين الرأيين هو ما يعبر عن وجهة نظر الكاتب الحقيقية ويكون الرأي الآخر هو مجرد رأي يحاول به الكاتب إرضاء العامة وخاصة إذا كان ما يمثل وجهة نظر الكاتب الحقيقية مخالفا لظاهر الشرع .

٤ - وإما أن يكون أحد هذين الرأيين هو ما يمثل وجهة نظر الكاتب الحقيقية ويكون الرأي الآخر هو مجرد رأي قاده إليه منهجه العقلي الذى فرض عليه ليواجه أقواما من الملاحدة لا يسلمون إلا بمثل هذه المناهج العقلية الملتوية فقادته تلك المناهج الخاطئة إلى هذه النتائج المرفوضة والتى يرفضها هو نفسه ولكنه لم يجد بدأ من التسليم بها لا عن اقتناع بها ولكن إفحاما للخصم وإلزاما له بما أدى إليه منهجه .

وفي النهاية أقول: إنه بصرف النظر عن حقيقة رأي هؤلاء الفلاسفة في كسبية

---

(١) الغزالي : معارج القدس ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

النبوة فإنهم إن عنوا من كلامهم أنها مكتسبة فهذا ما نرفضة، ونجيب عنه هنا، وإن عنوا من كلامهم أنها غير مكتسبة فلا إشكال حينئذ .

ومن هؤلاء المؤولين من يرى في إجابة الشجرة التى دعاها الرسول فأتت إليه ثم عودها إلى مكانها [1] أن ذلك كان بجاذب ودافع .

ويرد عليهم القاضى عبد الجبار بأنه لو كان كذلك لكان يجب أن يرى الناس ذلك مع شدة حرصهم على التفحيص عن حاله. (ثم أي دافع هذا وأي جاذب هذا في هذه البيئة البدوية) .

ويقولون كذلك عن حنين الجذع له - ﷺ [2] لعله كان في الجذع خروق تتخرق الريح فيها فيسمع منها ذلك الصوت شبيها بالحنين .

ويرد عليهم القاضى عبد الجبار: بأنه لو كان كذلك لكن يجب أن يسمع قبل ذلك أو بعده ومعلوم أن ذلك لم يكن يسمع إلا في الحال الذى قلناه [3] .

ويردمصطفى صبرى كذلك على ما نسب إلى محمد عبده من أنه كان يحمل انفلاق البحر لسيدنا موسى ومن معه، ثم غرق فرعون وجنوده فيه على الجزر والمد اللذين كثيرا ما يقعان في البحر.

بأنه من المستحيل عادة وقوع جزر ومد مثل ذلك ثم إن مصادفتها لزمان اجتياز البحر أيضا مستحيل عادة، وكذلك احتمال علم موسى المسبق بذلك الزمان لأنه حتى وإن علم مسبقا بذلك الزمان فلن يمكنه موافقة لحظة عبوره لهذا المد والجزر أبداً .

ثم إن في ذلك تكذيبا للقرآن في ترتيبه انفلاق البحر على ضربه بالعصا [4] قال تعالى[5] : ﴿**فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق**

---

(١) رواه ابن ماجة فى سننه فى باب(٢٣) من كتاب الفتن، وأحمد فى المسند جـ٣ ص١١٢، والدارمي فى سننه فى باب(٤) من المقدمة .

(٢) فقد روى البخارى فى صحيحه فى الباب(٢٥) من كتاب المناقب، وابن ماجة فى الباب(١٩٩) من كتاب الإقامة والدارمي فى سننه فى باب(٦) من المقدمة وباب(٢٠٢) من كتاب الصلاة. « أن النبي ﷺ كان يخطب على جذع قبل أن ينصب له المنبر فلما أن نصب له المنبر تحول إلى المنبر فحن الجذع حنين الناقة إلى ولدها ولم يسكن حتى احتضنه النبي ﷺ فسكن »

(٣) القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ص ٥٩٥ ، ٥٩٧.

(٤) انظرمصطفى صبري :القول الفصل ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٥) الشعراء : ٦٣ .

كالطود العظيم﴾ .

وفي مبحث المعـجزة والسحر أمثلـة كثيرة لأمثـال هذه التأويلات، سبق الرد عليها .[1]

تعليق عام :

١ ـ إن التأويل الطبعى مقبول ما تحققت شروط عدة هى :

ـ إذا لم تكن دلالة النص الشرعى قطعية .

ـ وكان هناك من النصوص والأدلة ما يمنع من حمل النص على ظاهره .

ـ وطالما بعد التـأويل عن التكلف والتعـسف ومخالفـة اللغة التى جـاء بها النص الشرعى .

ـ ولم يخالف ظاهر الشرع .

ـ ولم يجزم به صاحبه .

٢ ـ إن حقيقة المعجزة وحكمتها الأولى أنها خارقة للنواميس والسنن المطردة في الكون [2]، وبالتالى فأي محاولة لتأويلها أو تفسـيرها طبعيا فهي محاولة فاشلة ليس لها أي أساس من الصحة .

ثم إنا إذا التمسنا تفسيرا طبعيا لـبعضها فسوف نصل إلى نوع من المعجزات لا يمكن تفسيره لاستحالة هذا التـفسير عقلا فنقف بالشخص الذى نريد أن نرضى عقله العلمى عند مـعجزات لا يمكن الإيمان بها من طـريق العلم، فنجعله في ريب وشك ونرجع به القـهقرى إلى الإنكار من حـيث لا ندرى، وعلى ذلك فمـحاولة تفسير المعجزات واخضاعها للنظريات العلمية محاولة فاشلة بذاتها وفاشلة بغايتها، ومفسدة لمعنى المعجزة ومؤدية لزيادة تشكيك الناس [3] .

---

(١) وانظر المزيد من محاولات التأويل هذه: جريدة الأهرام المصرية عدد ٩ / ٣ / ١٩٩٤ .

(٢) ومن ثم فإن خرق المعجزة لقوانين الطبيعة ينبغي ألا يكون من دواعي إنكارها لا كـما يدعي بعض الباحثين

أنظر . Encyclopaedia Britannica Vol .15 p.586

(٣) انظر عبد الفتاح أحمد الفاوي : النبوة بين الفلسفة والتصوف (رسالة دكتوراه) ص٣٩٥ .

وانظر . Joseph Butler : The Analogy of Religion pp.359 : 367

Charles H. Coates : The Red Theology in The Far East, p.30

ومن ثم فكلام ابن سينا والغزالى السابق الذى لم ير فرقا بين المعجزة والسحر إلا من حيث أن «الذى يقع له هذا في جبلة النفس ثم يكون خيراً رشيداً مزكيا لنفسه فهو ذو معجزة من الأنبياء أو كرامة من الأولياء. . .والذى يقع له هذا ثم يكون شريرا. . فهو الساحر الخبيث»[1] فهو كلام باطل لأن هذه الصفات الثلاث التى جعلوها خاصة للأنبياء توجد لعموم الناس وحتى للمشركين .

وليس أدل على ذلك من أنهم اعترفوا أن ذلك يحدث للساحر والمجنون ،وصدقوا بذلك قول الله تعالى عنهم﴿**كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون**﴾[2] .

ولم يفرقوا بين ما يحدث للساحر والمجنون وبين ما يحدث للنبى إلا بأن الساحر يأمر بالشر والمجنون ناقص العقل،أما النبى فهو كامل العقل ويأمر بالخير،أي أنه ليس هناك فارق إلا ذلك الفارق الذي يشارك النبى فيه غيره من عامة الناس .

٣ ـ إن معجزات الأنبياء عليهم السلام ليست من الأمور الكسبية لأنها كما قلنا خارقة للسنن الكونية المطردة .حتى ما يكون بدؤه بحركة إرادية يأمرهم الله تعالى بها .

يقول تعالى للرسول ﷺ ﴿**وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى**﴾[3]،ويأمره أن يجيب مقترحي الآيات من قومه بقوله ﴿**قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا**﴾ [4] وقوله ﴿**قل إنما الآيات عند الله**﴾ [5] وقوله ﴿**إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين**﴾ [6] .

وورد في العهد الجديد على لسان المسيح عليه السلام: «لا يقدر الابن أن يفعل من نفسه شيئا إلا ما ينظر الآب يعمل » [7] .

وكذلك قوله :«أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئا كما أسمع أدين ودينونتي عادلة لأني لا أطلب مشيئتى بل مشيئة الآب الذى أرسلنى» [8] .

---

(١) ابن سينا :الإشارات والتنبيهات ص ٨٩٨ ، ٨٩٩ . وانظر الغزالي : معارج القدس ص ١٦٤ ، ١٦٥ .
(٢) الذاريات : ٥٢ ، ٥٣ . (٣) الأنفال : ١٧ . (٤) الإسراء : ٩٣ .
(٥) العنكبوت : ٥٠ . (٦) يونس : ٢٠ .
(٧) يوحنا : ٥ / ١٩ . (٨) السابق : ٥ / ٣٠ .

وهذا ما اعترف به سحرة فرعون بعدما رأوا الآيات قائلين لفرعون : «هذا أصبع الله» (١) .

ولو كان للأنبياء قدرة على شيء دون ما يؤيدهم الله تعالى به لكان أولى بهم أن يدفعوا عن أنفسهم الخوف والمرض والإيذاء والقتل ولجعلوا كل الناس مؤمنين ، وخاصة أقرباءهم وأحباءهم كابن نوح وأبي إبراهيم وعم محمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أجمعين .

والمشاهد عكس ذلك .

فالأنبياء تخاف، فقد خاف موسى عليه السلام حين ألقى عصاه فتحولت إلى حية تسعى، فولى مدبراً ولم يعقب لشدة خوفه منها حتى هدأ الله روعه وأمن خوفه يقول تعالى (٢) **﴿وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدى المرسلون﴾** .

وكذلك خاف إبراهيم عليه السلام لما رأى الملائكة لا يأكلون من عجله الذى ذبحه لهم. يقول تعالى (٣) **﴿فأوجس منهم خيفة﴾** .

والأنبياء كذلك يصيبها ما يصيب الناس من البلاء والمرض بل والقتل، بدليل قوله تعالى **﴿وقتلهم الأنبياء﴾** (٤) وقوله ـ ﷺ «أكثر الناس بلاء الأنبياء. . . »(٥) .

ولا تهدى الأنبياء كذلك من أحبت، يقول تعالى لرسوله الكريم ـ ﷺ: **﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾** (٦). ويجيب إبراهيم عليه السلام لما قال: **﴿ومن ذريتي، قال لا ينال عهدى الظالمين﴾**(٧) ويقول لنوح عليه السلام **﴿لا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾** (٨) .

ويلزم على قول الفلاسفة باكتساب المعجزة تجويز نبى بعد سيدنا محمد (٩) ـ

---

(١) الخروج : ٨ / ١٩ . (٢) النمل : ١٠ .
(٣) الذاريات : ٢٨ . (٤) آل عمران : ١٨١ . .
(٥) رواه البخاري في الباب(٣) من كتاب المرضي، والترمذي في سننه في باب(٥٧) من كتاب الزهد، وابن ماجة في سننه في باب(٢٣) من كتاب الفتن، والدارمي في الباب(٦٧) من كتاب الرقاق، وأحمد في المسند جـ١ ص ١٧٢ ، ١٧٤، ١٨٠ ، ١٨٥ . جـ ٦ ص ٣٦٩ .
(٦) القصص : ٥٦ . (٧) البقرة : ١٢٤ .
(٨) المؤمنون : ٢٧ .
(٩) ولنا في ذلك وقفة متأنية في دراسة مستقلة بعنوان « ختم النبوة بين العقل والنص » . (تحت الطبع) .

ﷺ أو معه وذلك مستلزم لتكذيب القرآن والسنة، فقد قال تعالى ﴿وخاتم النبيين﴾ [١] وقال عليه الصلاة والسلام «ليس بعدى نبى» [٢] وأجمعت الأمة على إبقائه على ظاهره .

٤ ـ إن الرسالة هبة إآلهية لا تكتسب بجهد ولا تنال بكسب ﴿الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس﴾[٣] و﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ [٤] . ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان﴾ [٥] فالنبى تختاره العناية الإلهية بدقة فيربى تربية خاصة بحيث يكون في جميع أطواره مكلوءا بالرعاية محفوظا بالعناية .

ففى موسى عليه السلام. يقول القرآن الكريم ﴿وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى﴾ [٦] . ويقول : [٧]﴿ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسى﴾ .

وفي محمد عليه الصلاة والسلام، يقول رب العزة: ﴿ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى، ووجدك عائلا فأغنى﴾ [٨] .

وفي إرميا تقول التوراة على لسان الرب: «قبلما صورتك في البطن عرفتك، وقبلما خرجت من الرحم قدستك» [٩] ويقول إِشَعْيَاء: [١٠] «الرب من البطن دعانى من أحشاء أمى ذكر اسمى . . الرب جابلى من البطن عبدا له. . .».

ويقول عاموس: «لست أنا نبيا ولا أنا ابن نبى بل أنا راع وجانى جميز فأخذنى الرب من وراء الضأن وقال لى الرب اذهب تنبأ لشعبى إسرائيل» [١١]. كما يقول بولس الرسول: «الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم»[١٢].

ومنشأ الخطأ في رأيى هو الخلط بين :

أ ـ ما إذا كانت الرعاية من أجل النبوة فتكون النبوة هبة وهو ما نراه .

ب ـ أو أن النبوة هي النتيجة الطبعية للهداية . فتكون النبوة مكتسبة وهذا ما نرفضه .

---

(١) الأحزاب : ٤٠ . (٢) رواه البخاري فى صحيحه فى باب(٧٨) من كتاب المغازي وأحمد فى المسند جـ٣ص٣٣٨ جـ٦ ص٣٦٩، ٤٣٨ . (٣) الحج : ٧٥ . (٤) الأنعام :١٢٤ .
(٥) الشورى : ٥٢ . (٦) طه : ٣٩ . (٧) طه : ٤٠-٤١ (٨) الضحى : ٦، ٨.
(٩) إرمياء : ١ / ٥ . (١٠) إشعياء : ٤٩ / ١ - ٥ .
(١١) عاموس ٧ : ١٤ ـ ١٥ . (١٢) رومية ٨ : ٢٩ وانظر غلاطيه ١ : ١٥ .

٤ ـ أما مسألة رد خوارق العادات إلى قوة الرسول النفسية فيدلل ابن تيمية على بطلان ذلك بقوله: إن فعل النفس مشروط بإرادتها «والعقل الإرادى مشروط بالشعور وخوارق العادات التى للأنبياء منها ما يكون النبى شاعراً به ومنها ما لا يكون مريداً له، فلا يكون ذلك من فعل نفسه بل ومنها ما يكون قبل وجوده ووجود قدرته، ومنها ما يكون بعد موته ومفارقة نفسه لهذا العالم، ومن المعلوم أن ما يكون قبل أن يصير لنفسه قوة ونحو ذلك يمتنع أن يكون مضافا إلى قوته، فإن المعدوم لا قوة له» [١].

وأرى أنه إذا اعترفنا أن المعجزة ليست كسبية وأنها خارق حقيقي متميز، ولكن الله أعطى نبيا قوة لنفسه يؤثر بها فليس في ذلك إشكال طالما كانت تلك القوة النفسية غير مكتسبة. وطالما كانت مختصة بالأنبياء، ولا تكون لأحد سواهم.

كما كان الحال مع سليمان عليه السلام، وكما كان يفعل المسيح في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله وكما قال تعالى في الحديث القدسى «فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه» [٢].

ولكن يبقى الفرق الحقيقى بين الرأيين في أن القول بأن خرق العادة من عند الله مباشرة معناه أن النبى أو الولى لا يتسطيع تحديد زمان ومكان ونوع وكيفية المعجزة إلا إذا أعلمه الله بذلك.

أما القول بأن خرق العادة من تأثير نفس النبى فمعنى ذلك أن الله يعطى النبى أو الولى القوة النفسية، وله أن يستخدمها في الزمان والمكان وبالكيفية التي يريدها كما أعطى الناس جميعا القوة البدنية.

ولا إشكال في ذلك ولكن القضية الحقيقية فهى في القول بكسبية المعجزة وعدم تمييزها عن غيرها من الخوارق غير الحقيقية.

٦ ـ أما بالنسبة لطبيعة الوحى فخلاصة رأي هؤلاء الماديين: أن الوحى إلهام كان يفيض من نفس النبى الموحى إليه لا من الخارج [٣].

فيتصور ما يعتقد وجوبه إرشادا إلهيا نازلا عليه من السماء بدون وساطة، أو

---

(١) ابن تيمية: الصفدية.
(٢) رواه البخارى: فى صحيحه فى الباب (٣٨) من كتاب الرقاق.
(٣) انظر Hastings Rashdall: Philosophy and Religion, p. 147.

يتمثل له رجل يلقنه ذلك يعتقد أنه ملك من عالم الغيب، وقد يسمعه يقول ذلك، وإنما يرى ويسمع ما يعتقده في اليقظة، كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذى هو مظهر من مظاهر الوحى عند جميع الأنبياء .

فهؤلاء الماديين لا يقولون بملائكة يرون، وربما كانت الملائكة عند بعضهم نفوس مجردة، ولا كلام لهم يسمع، لأنه من خواص الأجسام، ومآل الوحى عندهم إلى تخيل ما لا وجود له في الحقيقة، كما هو حال المرضى والمجانين على ما صرحوا به .

ولو كان أحدنا آمراً وناهيا من قبل نفسه بما يوافق المصلحة، ويلائم العقل لم يكن نبيا باتفاق، فكيف من يأمر وينهى من قبل ما يرجع إلى تخيلات لا أصل لها، وربما خالفت المعقول [١] .

والفلاسفة من علماء اليهود مع أنهم ارتضوا أن تكون المخيلة طريقا للوحى كفلاسفة المسلمين إلا إنهم استثنوا موسى عليه السلام من ذلك حتى يجعلوه فوق الأنبياء جميعا وحتى يبينوا أن ليس كتاب صحيح غير كتابه عليه السلام .

يقول ابن ميمون:[٢] «إن كل نبى إنما يسمع الخطاب بواسطة ملك إلا سيدنا موسى: الذى قيل فيه(فما إلى فم أخاطبه) [٣] فلتعلم: أن الأمر كذلك، وأن الواسطة هنا: هى القوة المتخيلة لأنه إنما يسمع أن الله يكلمه في حلم النبوة وسيدنا موسى من فوق الغشاء من بين الكروبين [٤] دون تصرف القوة المتخيلة».

---

(١) انظر الإيجي: المواقف ص ٣٣٨ .   (٢) ابن ميمون : دلالة الحائرين ص ٤٤٣ .

(٣) ففي التوراة: «إن كان منكم نبي للرب فبالرؤيا أستعلن له في الحلم أكلمه، وأما عبدي موسى فليس هكذا، بل هو أمين فى كل بيتي فما إلى فم وعيانا أتكلم معه لا بالألغاز» (العدد ١٢ / ٦ ـ ٨)

ويقول ابن ميمون فى شرح النص السابق: «ولم يصرح بأن فى المرأى سماع كلام من الله....ويكون كل كلام يسمع على أى وجه سمع إنما كان فى حلم كما جاء النص فى حلم أخاطبه، وأما مرأى النبوة فلا يدرك فيه إلا أمثالا، واتصالات عقلية تحصل أمورا علمية شبه التي تحصل عن النظر...وهو قوله فبالرؤيا اتعرف له. (انظر ابن ميمون: دلالة الحائرين ص ٤٤٢)

والمراد من مرأى النبوة فى قوله(فبالرؤيا استعلن له) «حالة مزعجة مهوله تصحب النبي فى حال اليقظة» السابق : ص ٤١٨ . وإن وجدت نصوص تشهد بكلام سمعه الأنبياء فى المرأى، فيرد ابن ميمون ذلك إما إلى: «أن يكون الله هو الذي يخيل له أنه يخاطبه» أو أن «يكون أول ذلك الأمر مرأى ثم انتهى للاستغراق وصار حلما» السابق ص ٤٤٢ . إلا مع سيدنا موسى بالطبع .

(٤) ففي التوراة: «وأنا اجتمع بك هناك وأتكلم معك من على الغطاء من بين الكروبين اللذين على تابوت الشهادة، بكل ما أوصيك به إلى بني إسرائيل» (الخروج ٢٥ / ٢٢) .

ثم إنه لو قال المؤولون: إن هذه الصور التى يشاهدها الأنبياء والأولياء وغيرهم، ليست موجودة في الخارج لأنها لو كانت موجودة في الخارج لوجب أن يدركها كل من كان سليم الحس إذ لو جاز أن لا يحصل الإدراك مع حصول شرائطه لجاز أن يكون بحضرتنا جبال ورعود ونحن لا نراها ولا نسمعها، وذلك يوجب الجهالات .

فيقال لهم: هذه الجهالات التى التزمتموها على هذا القول: هي على قولكم ألزم.

لأنه لو جاز أن يرى الإنسان صورا. ويشاهدها ويتكلم معها، ويسمع أصواتها، ويرى أشكالها، ثم لا تكون موجودة البتة في الخارج، جاز أيضا في كل هذه الأشياء التى نراها ونسمعها من صور الناس والجبال والبحار وأصوات الرعود، أن لا يكون لشيء منها وجود في الخارج، بل يكون محض الخيال، ومحض الصور المرتسمة في الحس المشترك، ومعلوم أن القول به محض السفسطة بل نقول هذا في البعد عن الحق أشد من الأول، لأنه على القول الأول يكون كل ما رأيناه فهو موجود حق إلا أنه يلزمنا تجويز أن يكون قد حضر عندنا أشياء ونحن ما رأيناها، وتجويز هذا لا يوجب الشك في وجود كل ما رأيناه وسمعناه .

أما على القول الذى يقولونه فإنه يلزم وقوع الشك في وجود كل صورة رأيناها، وكل صوت سمعناه، وذلك هو الجهالة التامة والسفسطة الكاملة (١) .

ومما يؤكد أن وحى النبى إلهي، وأن مصدره ليس الذكاء والعبقرية أو اللاشعور والحاسة السادسة: النظر في حال الداعي وفى قيمة الدعوة فإن في ذلك إعجازا تزول معه كل هذه الشبهات (٢) .

فما يأتي به الأنبياء من وحي يكون وحياً صادقا لا يأتيه الكذب أبداً يقينياً واضحاً صريحا مفصلا يمكن للنبى أن يعبر عنه أبلغ تعبير فالعبارة نفسها قد تكون موحاة كما هو شأن القرآن الكريم ﴿آيات بينات﴾ (٣) بـ﴿لسان عربى مبين﴾ (٤) .

هذا بالإضافة إلى أن وحى الأنبياء به من أنواع الإعجاز ما يمنع أي ريبة فيه

---

(١) انظر الرازي : النبوات ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٢) للدكتور محمد عبد الله دراز جهد مشكور فى كتابه«النبأ العظيم» فى دحض شبهة الوحي النفسي،فليرجع إليها من أراد الاستزاده . (٣) البقرة : ٩٩ . (٤) النحل : ١٠٣ .

هذا بعكس وحى غير الأنبياء يقول تعالى:[1] ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**﴾، سواء كان وحى عقولهم أو وحى نفوسهم ولا شعورهم، فلابد فيه من الخطأ ولا يقطع به صاحبه أبدا على وجه اليقين، ولابد فيه من الغموض واحتمال المعانى الكثيرة والتفسيرات المتعارضة هذا بالإضافة إلى أنه وحى ناقص غير كامل [2] .

ومما يؤكد بطلان فكرة الوحى النفسى كذلك ورود كثير من النصوص التى تروى نزول جبريل عليه السلام في صورة بعض الأعراب، فيراه الرسول - ﷺ - ويراه الصحابة على نفس الصورة البشرية التي يراها الرسول - ﷺ [3] .

وأن ما كان يأتيه من وحى - ﷺ كصلصلة الجرس كان الصحابة يسمعونه فعن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - «أنه كان إذا نزل على رسول الله - ﷺ - الوحى يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل» [4] .

وأنه - ﷺ - كان إذا نزل عليه الوحى ثقل لذلك، وربما أوحى إليه وهو على راحلته فترعد حتى يظن أن ذراعها ينفصم، وربما بركت .

فعن زيد بن ثابت رضى الله عنه أنه قال :«أنزل الله على رسوله - ﷺ - وفخذه على فخذى فثقلت على حتى خفت أن ترض فخذى »[5] .

ثم أنه - ﷺ - وكذلك سائر الأنبياء - كان يستطيع بسهولة التفريق بين فكره الخاص وبين وحى السماء وهذا ما تعجب له المستشرقون [6] فإن ذلك يبطل فكرة الوحى النفسى من أساسها .

ثم «إن عزو ذلك الاطلاع المختص بالنبى إلى اختلاف النفوس في صفاء

---

(١) النساء : ٨٢ . (٢) انظر مبحث قدرة السحر علي التنبؤ بالغيب .

(٣) انظر أبو داود: فى سننه فى باب القدر من كتاب السنة جـ٢ ص ٥٢٦ وانظر كذلك البخاري فى صحيحه فى كتاب الإيمان جـ١ ص٢٠ وأحمد فى المسند جـ١ ص ٢٧ .

(٤) رواه أحمد فى المسند جـ١ ص٣٤ ،جـ٤ ص٢٦٨ ، ٢٧١ ، والترمذي فى سننه فى الباب الأول من تفسير سورة«المؤمنون» ،والدارمي فى سننه فى الباب الثاني من المقدمة .

(٥) رواه البخاري« فى صحيحه فى الباب (٢) من كتاب الصلاة والباب(٨) من تفسير سورة«النساء» ،والنسائى فى سننه فى الباب (٤) من كتاب الجهاد،وأحمد فى المسند جـ ٥ ص ٨٤ .

(٦) انظر P.M.Holt - ANN K.S. Lambton - Bernard Lewis:The Cambridge History of Islam . Vol (1) p.31 .

جوهرها وكدره مع اتحادها بالنوع كما هو مذهب الفلاسفة مشكل .

لأن المساواة في الماهية توجب الاشتراك في الأحكام والصفات وأما ادعاؤهم إمكان الاتصال بالمبادئ العالية والانتقاش بما فيها فمبنى على مقدمات خطابية»[1] .

(1) انظر الإيجي : المواقف ص ٣٣٧ .

الفصل الخامس

دلالة المعجزة

- وجه دلالة المعجزة
- نسبية الدلالة
- الدلالة بين الإقرار والإنكار

١ - وجه دلالة المعجزة :

إذا كانت المعجزة تدل على الصدق دلالة قطعية فلابد لها من وجه دلالة وإن لم نعلمه بعينه فقد تكون دلالتها سمعية أو عادية أو وضعية أو عقلية . . .

الدلالة السمعية :

ولا يمكن أن تكون دلالتها سمعية إذ يستحيل أن تثبت صحة الأدلة السمعية قبل ثبوت دلالة المعجزة لأنه دور .

الدلالة العادية :

وهي كدلالة قرائن الأحوال على خجل الخجل ووجل الوجل وخوف الخائف

يقول الإيجي : [1] «في كيفية دلالتها : وهي عندنا - أي الأشاعرة - إجراء الله عادته بخلق العلم بالصدق عقيبها، فإن إظهار المعجز على يد الكاذب، وإن كان ممكنا عقلا فمعلوم انتفاؤه كسائر العاديات، لأن من قال أنا نبى ثم نتق الجبل وأوقفه على رؤوسهم وقال إن كذبتمونى وقع عليكم وإن صدقتمونى انصرف عنكم، فكلما همّوا بتصديقه بعد عنهم، وإذا هموا بتكذيبه قرب منهم، علم بالضرورة أنه صادق في دعواه، والعادة قاضية بامتناع ذلك من الكاذب .

وقد ضربوا لهذا مثلا : قالوا : إذا ادعى الرجل بمشهد الجم الغفير، أني رسول هذا الملك إليكم، ثم قال للملك إن كنت صادقا فخالف عادتك وقم من الموضع المعتاد لك من السرير واقعد بمكان لا تعتاده، ففعل، كان ذلك نازلا منزلة التصديق بصريح مقاله، ولم يشك أحد في صدقه بقرينة الحال.

وليس هذا من باب قياس الغائب على الشاهد، بل ندعى في إفادته العلم الضرورة العادية» .

الدلالة الوضعية :

وهى كدلالة الألفاظ بالوضع على معانيها. قالوا لأن المواضعة قد تعرف بصريح يدل على التواضع كما لو قال شخص لشخص إن فعلت كذا فاعلم بذلك قصدى في طلبك ففعل ما واضعه عليه، فإن من وقعت معه المواضعة يفهم طلبه على حسب ما واضعه عليه، فقد تعرف المواضعة بصريح من أحد المتواضعين وبفعل

---

(١) الإيجي : المواقف ص ٣٤١ ، ٣٤٢ .

من الثاني من غير أن يسمع كلامه [١] كما هو الحال في مثال الملك السابق، فإجابة الملك تقوم مقام التصريح بالمواضعة .

وكما فعل النبي - ﷺ - في غزاة الفتح لما كانت راية الخزرج مع سعد بن عبادة، وكان فيه حدة، وقال لا قريش بعد اليوم اليوم يوم الملحمة اليوم يستحل الحرمة، قيل للنبي - ﷺ - إنه يخاف منه أن يضع السيف في أهل مكة، فقال قولوا له يعطى الراية لابنه قيس قيل إنه لا يقبل منه فقال هذه عمامتي قولوا له قد أمر رسول الله - ﷺ - بذلك، فلما رأى عمامته مع من جاء بها علم أنه ليس له في إعطائه عمامته مقصود إلا أن تكون علامة، ولم يكن قبل ذلك قد واطأه على ذلك.

وكذلك لما أعطى أبا هريرة نعلية ليخرج فيبشر الناس بما ذكره له، فإنهم إذا رأوا معه نعليه علموا أنه لم يعطه النعلين إلا علامة[٢] .

الدلالة العقلية:

يقول الجويني: [٣] «إن المعجزة لا تدل على صدق النبي حسب دلالة الأدلة العقلية على مدلولاتها، فإن الدليل العقلي يتعلق بمدلوله بعينه ولا يقدر في العقل وقوعه غير دال عليه، وليس كذلك سبيل المعجزات .

وبيان ذلك بالمثال في الوجهين أن الحدوث لما دل على المحدث، لم يتصور وقوعه غير دال عليه وانقلاب العصا حية، لو وقع بديا من فعل الله عز وجل من غير دعوى نبي، لما كان دالاً على صدق مدع، فقد خرجت المعجزات عن مضاهات دلالات العقول. » .

ويجيب الجويني عن ذلك بأن «الدليل ليس مجرد وجود الخارق بدون دلالة النبوة، وإنما الدلالة من حيث إجابة دعوى المتحدي بالخارق، فمجرد الخارق لا يدل إذن، فلم يكن هذا نقضا على من أجراها مجرى الأدلة العقلية » [٤] .

---

(١) ويقول الجويني في ذلك: «إن المعجزة تدل على الصدق من حيث تتنزل منزلة التصديق بالقول - الإرشاد ص ٢٧٣ .

(٢) انظر ابن تيمية : النبوات ص ١٨٨ .

(٣) الجويني : الإرشاد ص ٢٧٣ .

(٤) السنوسي: حواش على شرح الكبرى ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ .

ويرى المعتزلة أن ظهور المعجـزة على يد الكاذب ممتنع عقلا: لأنه إضلال من الله على فـرض وقوعه والإضـلال من الله ممتنع عـقلا [١]، ومن ثم تصـبح دلالة المعجزة ذات طابع عقلي .

أما ابن تيميـة فيعطى المعجزة طابعها العـقلي الذى يمثل بعدا من أبعاد ثلاث تمثل دلالة المعجزة البعد الوضعى البعد العقلى البعد الضرورى أو النظرى .

يقول ابن تيمية: [٢] «والدليل الذى هو الآية والعـلامـة ينقسم إلى مـا يدل بنفسه وإلى ما يدل بدلالة الدال به» .

وهم يسمون ما يكون بقصد الدال كالكلام دليـلا وضعيا، فالأقوال والأفعال التى يقصد بها الدلالة كالعقد وما يجـعلة الرجل علامة، ونحو ذلك يسمونه دليلا وضعيـا ويسمون ما يدل مطلقا دليلا عـقليا، والأجود أن يقال جمـيع الأدلة عقلية بمعنى أن العقل إذا تصورها علم أنها تدل فالدليل يدل بصفة هو في نفسه عليها لا بصفة هى فى المستدل، ولكن كونه عـقليا يرجع إلى أن المستدل علمه بعقله، وهذا صفة في المستدل لا فيه أو الأجـود أن يقال الدليل قد يدل بمجرده وقد يدل بقصد الدال على دلالته فـإذا أريد تقسيـمها إلى عقلي مـجرد، وإلى وضعى يحـتاج مع العقل إلى قصد من الدال فـهو تقسيم صحيح. فإن العـقل شرط في جميع العلوم التى تختص بالعقلاء [٣] .

- أما عن البعد الضـرورى أو النظري فهو يقول: [٤] «للناس في وجه دلالة المعجزات وهى آيات الأنبياء على نبوتهم طرقـا متعددة، منهم من قال دلالتها على التصـديق تعلم بالضرورة ومـنهم من قال تعلم بالنظر والاسـتدلال، وكـلا القولين صحيح فإن كثيرا من العلوم في هذا كدلالة الأخبار المتواترة فإنه قد يحصل بالخبر علم ضرورى، وقـد يحصل العلم بـالاستدلال. . . والآيات: من النـاس من يعرف استلزامـها للوازمهـا بالضرورة، ويكون اللزوم عنده بيـنا لا يحتاج فـيه إلى وسط

---

(١) انظر القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ص ٥٧١ .

(٢) ابن تيمية : النبوات ص ١٧٨ .

(٣) انظر السابق ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٤) السابق ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

ودليل، ومنهم من يفتقر إلى دليل ووسط يبين له أن هذا الدليل مستلزم لهذا الحكم، وهذا الحكم لازم له ومن تأمل معارف الناس وجد أكثرها من هذا الضرب، فقد يجئ المخبر إليهم بخبر فيعرف كثير منهم صدقه أو كذبه بالضرورة لأمور تقترن بخبره، وآخرون يشكون في هذا ثم قد يتبين لبعضهم بأدلة وقد لا يتبين».

ولكن قد يقال إذا علمنا ذلك اضطرارا لم يكن للتكليف بالعلم بصدق النبى وجها، وخرجنا بذلك عن أن نكون مكلفين بالعلم بالدين، ويجيب ابن تيمية عن ذلك بأنه إذا حصل العلم الضرورى بوجود الخالق وبصدق رسوله كان التكليف بالإقرار بالصانع وعبادته وحده لا شريك له وبتصديق رسله. وطاعة أمره وهذا هو الذى أمرت به الرسل ولم يأمروا جميع الخلق بأن يكتسبوا علما نظريا بوجود الخالق، وصدق رسله لكن من جحد الحق، أمروه بالإقرار به، وأقاموا الحجة عليه، وبينوا معاندته، وأنه جاحد للحق الذى يعرفه، وكذلك الرسول كانوا يعلمون أنه صادق ويكذبونه» [1].

ومما سبق يتبين لنا أن دلالة المعجزة دلالة عقلية بمعنى أنها تدرك بالعقل وأنها تستلزم المدلول وفطرية بمعنى أن هذا هو شأنها مع بعض الناس لا كلهم، ونظرية مع بعض آخر من الناس، ووضعية، فهى تقوم مقام التصريح بالمواضعة وهى عادية، فهي تدل كدلالة قرائن الأحوال على خجل الخجل ووجل الوجل وخوف الخائف، وما يقوم مقام المواضعة لا يفهم إلا في ضوء العادة، ففى مثال الملك السابق لم تفهم المواضعة إلا بأن خالف الملك عادته، وعلمنا أن من عادته ألا يخالفها إلا لأمر معين وانتفى علمنا بوجود سبب غير تصديق الرسالة .

٢ ـ نسبية الدلالة :

إن المعجزة الكبرى: هى مجموعة القرائن والمعجزات التى يقوى بعضها بعضا حتى تولد العلم الضروري .

والقرينة الواحدة، والمعجزة الحسية الواحدة يتحقق فيها معنى الإعجاز ويستقل في حق بعض الناس لاكلهم وذلك متوقف على طبيعة القرينة أو المعجزة وطبيعة الشخص .

---

(١) انظر السابق ص ٣٥ .

إلا أن المعجزة الحسية بالرغم من ذلك لابد وأن تكون حجة في ذاتها بمعنى أنها تختلف عن الخوارق التى تحدث على يد غير الأنبياء فهي وإن كانت متميزة، وإن كانت علامة حقيقية إلا أن فهمها وإدراكها هو الذى يختلف حسب البيئات والأشخاص، وذلك كالحال في أفراد التواتر فكل فرد وإن كان عدلا ثقة، إلا أن هناك من قد ينكر هذه العدالة فيه فخبره ليس ببرهان للجميع وإن كان برهاناً عند بعضهم ممن خبره وعرفه جيداً .

يقول ابن تيمية:[1] «والآيات من الناس من يعرف استلزامها للوازمها بالضرورة، ويكون اللزوم عنده بينا لا يحتاج فيه إلى وسط ودليل، ومنهم من يفتقر إلى دليل ووسط يبين له أن هذا الدليل مستلزم لهذا الحكم، وهذا الحكم لازم له، ومن تأمل معارف الناس وجد أكثرها من هذا الضرب، فقد يجئ المخبر إليهم بخبر فيعرف كثير منهم صدقه أو كذبه بالضرورة لأمور تقترن بخبره، وآخرون يشكون في هذا ثم قد يتبين لبعضهم بأدلة وقد لا يتبين وكثير من الناس يعلم صدق المخبر بلا آية البتة، بل إذا أخبره وهو خبير بحاله أو بحال ذلك المخبر به أو بهما علم بالضرورة إما صدقه ، وإما كذبه .

ويقول القاضى عبد الجبار: [2]«وجملة ماله من المعجزات. . . ينقسم إلى: ما يعلم ضرورة و إلى ما يكون الطريق إليه الاستدلال ولا يمكن أن يقال: لو كان في معجزاته ما يعلم ضرورة لا شترك فيه المخالف، والموافق ولعلمه كل عاقل، فإن هذا هو الواجب في الضروريات، لأن العلوم الضرورية تنقسم إلى: ما يكون من بداية العقول فيجب اشتراك العقل فيه، وإلى ما يكون مستندا إلى طريقة نحو العلم بمخبر الأخبار، ونحو العلم بالمدركات وغيرهما، فإن ما هذا سبيله إنما يجب الاشتراك فيه عند الاشتراك في طريقه » .

ويؤكد هذه النسبية :ما سبق أن أكدنا عليه من اختلاف معجزات الأنبياء لتناسب الوعى البشري فى أطواره المختلفة، ففى أطواره الأولى كان ملتصقا بالطبيعة حتى كاد لا يتميز عنها. فكان من حكمة الله تعالى أن جعل إطار المعجزة

---

(١) ابن تيمية : النبوات ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٢) القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ص ٥٩٥ .

فى اليهودية هو عالم الطبيعة الكبير (انفلاق البحر مثلا) .

ولما بدا قدر من التمايز عن الطبيعة فى الوعى الإنسانى فى المسيحية - إذ تعكس مسيرة الوعى توجها من (الخارج) إلى (الداخل) - كان من حكمة تعالى أن تحول إطار تحقيق المعجزة من عالم الخلق الأكبر إلى عالم الخلق الأصغر (الإنسان) .

فأصبح الإنسان بما هو ذات تؤمن وليس بما هو طبيعة تخرق هو إطار تحقق المعجزة (احياء الموتى، شفاء المرضى ، الإخبار بالغيوب)فبدا بذلك وكأن تمايز الوعى عن الطبيعة يعكس أيضا تمايزا للمعجزة عنها.

وأخيراً فإن تمام الوعى بالذات فى الإسلام قد انعكس فى انبثاق ضرب من الإعجاز العقلى وهو القرآن الكريم - وإن لم ينفصل انفصالا تاما عن أدنى درجات المعجزة التى تتواقف مع أدنى درجات الوعى[1]مراعاة لاختلاف أحوال المخاطبين بالمعجزة. كانشقاق القمر .

وكما تفاوتت معجزات الأنبياء لتناسب الوعى البشرى فى أطواره المختلفة، تفاوتت كذلك لتناسب أقوام الأنبياء فكانت معظم معجزات الأنبياء من جنس ما نبغ فيه أقوامهم، فمعجزات موسى عليه السلام، العصا واليد البيضاء. . . الخ تناسب نبوغ قوم فرعون في السحر، ومعجزات عيسى عليه السلام إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، كانت تناسب نبوغ قومه في الطب، ومعجزة رسولنا - ﷺ - كانت متعددة الجوانب بلاغية، فكرية تشريعية. .إلخ لتناسب الناس جميعا في كل مكان وفي كل زمان إلى قيام الساعه.

بل و تعددت معجزات النبى الواحد، بل إن قرائن الصدق هى أيضا تعددت، فقد يعرف دلالة أحد الأدلة من لم يعرف دلالة الآخر، وهذا أمر يختلف من إنسان لآخر حسب رجاحة عقله ومقدار فهمه، وثقافته، وطبيعة نشأته، ومن ثم اختلفت أسباب الإيمان من شخص لآخر، وهذا معلوم في الماضى والحاضر [2] .

---

(١) انظر علي مبروك : النبوة من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ ص ٢٠٢ : ٢٠٣ .

(٢) انظر ما كتبناه فى المقارنة بين المعجزة الحسية والمعجزة المعنوية من حيث نوعية المخاطبين .

فوضـوح الحكم على المعجـزة بأنها معـجزة يختلـف من إنسان لآخر كـما يختلف من معجزة لأخرى .

يقول ابن تيـمية:[1] «إن مـعجـزات الأنبيـاء منها صـغار وكـبار» ويقـول الماوردى:[2] وهذه الأقسام ونظائرها الداخلة في حدود الإعـجاز متساوية الأحكام في ثبوت الإعجاز وتصديق مظهرها على مـا ادعاه من النبوة، وإن تفاوت الإعجاز فيها وتباين كما أن دلائل التوحـيد قد تختلف في الخفاء والظهور وإن كان في كل منها دليل» .

فمحمد رشـيد رضا مثلا يرى أن المعجزات قسمان: تكوينيـة وروحانية تشبه الكسبية أي أنها بحسب مظهرها قسمـان: قسم لا يعرف له سنة إلـهية يجرى عليها وقسم يقع بسنة إلـهية روحانية لا مادية .

ويمثل للقسم الأول: بالآيـات التى أيد الله بها موسى ـ عليـه السلام وأثبتـها القرآن له كالآيات التسع بمصر .

ويمثل للقسم الثانى : بآيات المسيح عليه السلام التى أيده الله تعالى بها، فهى على كونها خارقة للعادة الكسبية وعلى خلاف السنن المعروفة للناس، قد يظهر فيها أنهـا كلهـا أو جلهـا حدثـت على سنة الله في عـالم الأرواح، كـما كـان خلقـه كذلك، فـقد حملت أمه به بنفـخة من روح الله عز وجل فيـها، إلا أن مظاهر آياته عليه السلام أعظم من مظاهر سائر الروحانيين من الأنبياء والأولياء .

ويرى محمد رشيد رضا: أن النوع الأول أدل على قدرة الله ومشيئته واختياره في أفعـاله في نظر البشر لبعـدها عن نظام الأسباب والمسـببات التى تجرى عليـها أفعالهم [3] .

وبنفس هذه النظرة كـان بعض اليـهود يعـير عـيسى عليـه السلام بضـعف معجزاته أمـام معجزات أسلافه قائـلين«أية آية تصنع لنرى ونؤمن بك؟ماذا تعمل؟ آباؤنا أكلو المن فى البرية كما هو مكتوب أنه أعطاهم خـبزا من السماء ليأكلوا»[4] . «وجاء إليه الفريسيون والصدوقيون ليجربوه فسألوه أن يريهم آية من السماء»[5] ولذا أنزل الله لهم المائدة من السماء كما فى سورة المائدة .

---

(١) انظر ابن تيمية: النبوات ص ١٩٨ ، ١٩٩ .
(٢) الماوردى : أعلام النبوة ص ٢٨ .
(٣) انظر محمد رشيد رضا :الوحي المحمدى ص ١٤٥ ، ١٤٦ .
(٤) يوحنا : ٦ : ٣ ـ ١٣ .
(٥) متى : ١٥ : ١ .

وكثيــر من المتكلمين يقسمون المعــجزة إلى قسمين: قســم ينفرد الله بالقدرة عليه نحــو اختراع الأجسام وإحــياء الموتى و،إبراء الأكمه والأبرص وقلــب العصا حية،وقسم يدخل مــثله وما هو من جنسه تحت قدر العباد غــير أنه يقع منه تعالى على وجه يتعذر على العباد مثله. نحو قلب المدن، ونقل الجبال والإتيان بالقرآن[١].

ويرى بعــضهم أن النوع الثــانى أبعد عن اللبس لأن إعــجازه يثبت عملــياً بتجــربة شخصيــة يمكن أن يقوم بها كل من أراد ومــا حصله الإنسان بنفســه يقنعه ويؤثر فيه أكثر مما فرض عليه من الخارج.

يقول ابن عربى عن النوع الأول: [٢] «وذلك عزيز أعنى الوصول إلى العلم به كإحياء الموتى، لا يقدر عليه إلا الله ولكن الوصول إليه على طريق العلم أنه حى في نفس الأمر عزيــز فإنا رأينا عصا موسى ـ عليــه السلام ـ حية وعــصىّ السحرة حيات ولم تفرق العامة بين الحيات، فلهذا قلنا إن الوصول إلى علم ذلك عزيز» .

ويرى بعض آخــر من العلمــاء: أن ما يدخل تحت قــدر العــباد أو مــثله ربما عرضت فــيه الشبهــة وحصلت الشكوك للمكلفين فى أنه مما يتم بحــيلة من الحيل وسبب من الأسباب[٣].

وبصرف النظر عن صحة تفضيل قــسم على آخر من هذا الأقسام فما يعنينا هنا هو مبدأ أن المعجزات نسبية في درجة خارقيتها ومن ثم فمن الطبعى أن تختلف وجهات الأنظار في النظر إلى هذه الأقسام، وتفضيل أحدها على الآخر .

والقرآن الكريم يصرح بأن من المعــجزات ما هو أكبر من غيــره قال تعالى[٤] ﴿وكذلك نصرف الآيات﴾ قال الماوردى: [٥] «أي نخالف بينها. . . فكان بعــضها حجة قاطعة، وبعضها أمارة لائحة». وقال تعالى [٦] **﴿وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها﴾** وقال تعالى: [٧] **﴿فأراه الآية الكبرى﴾** وقال تعالى: [٨] **﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقــهم لها خاضعين﴾** أي «ولأنزلنا من الســماء آية قاهرة لا يملكون مــعها جدلا ولا انصــرافا عن الإيمان»[٩] وقال تعالى: [١٠] **﴿وقل**

---

(١) انظر القاضي عبد الجبار:شرح الأصول الخمسة ص ٥٦٩ .
وانظر الماوردي: أعلام النبوة ص ٢٦ ، ٢٧ والبغدادي : أصول الدين ص ١٧٦ .
(٢) ابن عربي : الفتوحات المكية جـ ٢ ص ٣٧٤ . (٣) انظر الباقلانى:البيان ١٤ :٢٠ (٤) الأنعام : ١٠٥ . (٥) الماوردي : أعلام النبوة ص ٥١ ، ٥٢ . (٦) الزخرف : ٤٨ . (٧) النازعات : ٢٠ . (٨) الشعراء : ٤ . (٩) سيد قطب : في ظلال القرآن جـ ٥ ص ٢٥٨٤ . (١٠) النمل : ٩٣ .

الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها﴾ فالمعرفة التى لا جدال معها إنما تكون بمجموعة الآيات كالخبر المتواتر، بعكس الآية الواحدة التى هي في مـقام خبر العدل الثقة لمن يعرف عدالته ومن لا يعرفها .

وقصة موسى مع السـحرة أوضح مثال لهذه النسبـية في الدلالة، فهى تؤكد على نسبية الخارقية في المعجزة وأن منها ما قد يمكن أن يراوغ منه بالباطل كمعجزة قلب العصا حية بعكس نتق الجبل مثلا فتصعب المرواغة معه(١)، وتؤكد هذه القصة أيضا على أن إدراك المعجزة، وفهمها نسبى أيضا ففهمها السحرة من أول وهلة ولم يفهمها فرعون إلا من قرائن الأحوال.

وبيان ذلك أنا نجـد سحرة فرعـون يقولون**﴿لن نؤثرك علـى مـا جـاءنا من البينات﴾**(٢) بينما قال فرعون**﴿إنه لكبيركم الذى علمكم السحر﴾**(٣)وفرعون أدرك المعجزة بدليل قوله تعالى: **﴿فذانك برهانان من ربك إلى فـرعون وملئه﴾**(٤) ولأن عدد السحرة كان عدد تواتر: **﴿يأتوك بكل سحار عليم﴾**(٥)وهذا هو منطق التحدى أن يجمع كل سحار عليم. وإذا كانت مصر متقدمه في هذا العلم(علم السحر) في ذلك الوقت فلابد أن يكون عدد السحرة كبيراً جداً ولأنه لم تكن هناك خدعة، وقد تمت المعجـزة أمام حشـد من الناس في وضح النهار. قـال تعالى(٦): **﴿وأن يحشر الناس ضحى﴾** . ولأن السحرة كـيف يتواطئون مع موسى وسيف فـرعون مسلط على رؤوسـهم؟ وكيف يكون كـبيرهم وهو لـم يعش بأرض مصر بـل خرج إلى أرض مدين مبكراً ؟

إلا أن فرعـون حاول أن يراوغ من هذه المعجـزة بالرغم من وضوحـها، وإن كان إدراكه قائم على هذه القرائن لا على معرفة حقيقة الفرق بين المعجزة والسحر ففرعـون وملئه لو كانوا أدركـوا المعجزة من البداية لما قـبلوا التحدى، ولما جـمعوا السحـرة، وحشروا الناس ضحـا لأنهم لو كانوا على يقين مما حدث أنه سـيحدث لمنعوا ذلك فليس هو في صالحهم أن تكون الغلبة لموسى عليه السلام، وأن يؤمن به السحرة .

وهنا لم يظهـر الفرق إلا عند الجـمع بين المعجـزة والسحـر في نفس المكان

---

(١) وفي ذلك يقـول تعالى:﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقـوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ (الأعراف ١٧١) . (٢)طه : ٧٢ . (٣) الشعراء : ٤٩ ، طه : ٧١
(٤) القصص : ٣٢ . (٥) الشعراء : ٣٧ . (٦) طه : ٥٩ .

والزمان، ولم يحدث ذلك دائما في جميع المعجزات، ولم يدرك الفرق إلا السحرة أما غيرهم فأدركوا صدق موسى بقرائن الأحوال السابقة الذكر .

وبعد وفاة موسى عليه السلام. لو أتي السحرة بعصيهم الآن وقلبوها حيات لأشكل الأمر علينا، وليس معنا عصا موسى التى تبين الفارق بين المعجزة والسحر إلا أنه لما كانت المعجزة الحسية لا تستقل في دلالتها عن المعجزة المعنوية، وكانت كل معجزة حسية مصحوبة بمعجزة معنوية أمكننا معرفة الفارق بين النبى الصادق والمدعى الكاذب بالنظر إلى المعجزة المعنوية .

ويؤكد على مسألة التدرج في المعجزات هذه أن معجزات الأنبياء منها ما لا يكون لغيرهم، ومنها ما يشابه ما يكون لغيرها من الأولياء، ومنها ما يماثل ما يكون للأولياء، ومنها ما يشابه ما يكون للروحانيين في أي دين كصوفية الهنود ورهبان النصارى، بل إن بعضا مما يحسب أنه خوارق حقيقية ليس بخارق حقيقى ولكنه معونة معتادة منه تعالى، وربما وجد بسنة إلٓهية طبعية .

يقول ابن تيمية إن الكرامات «لا تبلغ . . قط إلى مثل معجزات المرسلين. . . ولكن قد يشاركونهم [أي يشارك الأولياء الأنبياء] في بعضها »(١) « فليس كل ما كان من آيات الأنبياء يكون كرامه للصالحين» (٢) ولكن آياتهم صغار وكبار كما قال تعالى: (٣) ﴿**فأراه الآية الكبرى**﴾ فلله تعالى آية كبيرة وصغيره، وقال عن نبيه محمد ﴿**لقد رأى من آيات ربه الكبرى**﴾(٤) فالآيات الكبرى مختصه بهم وأما الآيات الصغرى فقد تكون للصالحين، مثل تكثير الطعام فهذا قد وجد لغير واحد من الصالحين لكن لم يوجد كما وجد للنبى ﷺ أنه أطعم الجيش من شىء يسير. فقد يوجد لغيرهم من جنس ما وجد لهم لكن لا يماثلون في قدره فهم مختصون إما بجنس الآيات كالإتيان بالقرآن وإما بقدرها وكيفيتها كنار الخليل، فإن أبا مسلم الخولانى(٥) وغيره صارت النار عليهم بردا وسلاما لكن لم تكن مثل نار إبراهيم في عظمتها كما وصفوها، فهو مشارك للخليل في جنس الآية كما هو مشارك في جنس الإيمان ومحبته الله وتوحيده، ومعلوم أن الذى امتاز به الخليل من هذا لا

---

(١) ابن تيمية : النبوات ص٤ . وانظر كذلك الإيجي :المواقف ص ٣٤٦، ٣٤٧ .
ومحمد بن إبراهيم الوزير : البرهان القاطع ص١٦ . والغزالي :معارج القدس ص ١٥٨ ، ١٦٣ .
(٢) ابن تيمية : النبوات ص ١١٦ . (٣) النازعات :٢٠. (٤) النجم: ١٨ .
(٥) انظر ابن تيمية :مجموعة الفتاوى جـ ١١ ص ٢٧٩ . وابن كثير :البداية والنهاية جـ٦ ص٣٠٢ .

يماثله فيه أبو مسلم وأمثاله(١)

ولكني أرى أن من آيات الأنبياء ما يماثل الكرامه من كل الوجوه .

ففي حديث الغلام الذى ترك الساحر وأتى الراهب الذى رواه مسلم يقول ـ ﷺ ـ «وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوى الناس من سائر الأدواء»(٢) وهو ما كان معجزا لعيسى عليه السلام .

وفي الحديث «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة . . . الخ»(٣) ولم يكن منهم نبى إلا عيسى عليه السلام، وسبق أن دللنا على أن كلامه عليه السلام في المهد كان معجزة

وكذلك ما يروى عن المسيح ومشيه على الماء(٤) فقد جرى مثله للعلاء بن الحضرمى(٥) وورد في الكتاب المقدس على لسان المسيح عليه السلام: «من يؤمن بي فالأعمال التى أنا أعملها يعملها هو أيضا ويعمل أعظم منها»(٦) .

وابن تيمية نفسه الذى منع تماثل المعجزات مع الكرامات وإن أجاز تشابههما فقط يذكر أن «إحياء الموتى اشترك فيه كثير من الأنبياء بل والصالحين» (٧) .

وقد سبق بيان أن تماثل الكرامة والمعجزة لا يطعن في المعجزة .

بل إن من آيات الأنبياء ما يشابه خوارق غيرهم من الرواحانيين، وإن لم يكونوا أولياء.

وكما أن المعجزات درجات والصغرى منها تشابه الكرامة بل تماثلها، بل تشابه خوارق الروحانيين كصوفية الهنود ورهبان النصارى كمعجزة الإسراء مثلا(٨) فكذلك الكرامة درجات والصغرى منها تشابه المعتاد من خوارق السحرة

---

(١) انظر ابن تيمية: النبوات ص ١٩٨، ١٩٩ . (٢) رواه مسلم: في صحيحه في الباب(٧٣) من كتاب الزهد وأحمد في مسنده جـ٦ ص١٧ . (٣) أخرجه البخاري: في صحيحه في الأنبياء في الباب(٤٨) ومسلم في صحيحه في الباب(٨) من كتاب البر، وأحمد في مسنده جـ٢ ص٣٠٧، ٣٠٨ .

(٤) انظر إنجيل متي الأصحاح الرابع عشر آيه (٢٦، ٣٢). (٥) انظر ابن تيمية: النبوات ص ٢٦٠.

(٦) إنجيل يوحنا: الأصحاح الرابع عشر آية (١٣) .

(٧) ابن تيمية : النبوات ص ٤٠٤ .

(٨) انظر الملحق رقم (١) .

والروحانيين من صوفية الهنود والرهبان، وغيرهم، وكذا ما يفعله الجن، فيشبه أحيانا الكرامة وإن لم يماثلها كالعفريت الذى قال لسليمان ﴿**أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك**﴾ (١) لكن قول الذى عنده علم من الكتاب ﴿**أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك**﴾ (٢) لا يقدر عليه العفريت .

ثم إن بعضا مما يحسب أنه من خوارق الأنبياء أو الأولياء ليس بخارق في حقيقتة، ولكنه قد يظنه الجاهل بحقيقته أنه خارق حقيقي، وما هو بالخارق الدال على الصدق، ولكنه قد يكون معونة منه تعالى لنبيه، أو وليه، والرسول لم يقل إن كل ما يفعله معجزة لأنه يأكل ويشرب وينام وذلك معتاد وغير معجز وإنما المعجز ما كان خارقا حقيقيا للعادة .

وقد يكون ذلك المظنون خارقا نتيجة لسنة إلٓهية في الخلق فهو معتاد لمن يأخذ بأسبابه، فهو من جنس ما يفعله السحرة والروحانين والرهبان وربما كان قوله - ﷺ - عن خط الرمل «كان نبى من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك»(٣) دالاً على ذلك .

ونحن إذا نظرنا إلى المنهج الروحى للأنبياءوالأولياء والرهبان واليوجيين نجد تقاربا وتشابها بين بعض هذه المناهج، وإن اختلفت درجة التشابة من نبى لآخر ومن طريق صوفى لآخر ومن مذهب يوجى لآخر .

ومن ثم فربما كان ذلك التقارب في المنهج هو سبب تلك الخوارق(المجازية) التى قد نجدها عندهم جميعا - لا الخوارق الحقيقية التى تكون من عند الله للأنبياء والأولياء فقط .

يقول ابن عربى :(٤) «ولا يصح كون ذلك كرامة إلا بتعريف إلهى لا بمجرد خرق العادة» لأن الولى قد لا يمكنه التفريق بين الخارق الحقيقي والخارق المجازى الذى يحدث بسنة إلٓهية في الخلق، لمن يأخذ بأسبابه سواء كان صاحبه صالحاً أو فاسقا .

---

(١) النمل : ٣٩ . (٢) النمل : ٤٠ .

(٣) رواه مسلم : فى صحيحه جـ ١٤ ص ٢٢٤ .

(٤)ابن عربي : الفتوحات جـ ٢ ص ٣٦٩ .

ويقرر ابن تيمية أن المشتغلين بالذكر، والفكر، والرياضة، ومجاهدة النفس، وما أشبهه يفتح عليهم من الكشوفات والكرامات وما سوى ذلك من الأحوال مع قلة علمهم، وجهل بعضهم - ما لا يفتح على المشتغلين بالعلم ودرسه والبحث فيه حتى لو بات الإنسان متوجها مشتغلا بالذكر والحضور لابد أن يرى واقعة أو يفتح عليه شيء ولو بات ليلة يكرر على باب من أبواب الفقة لا يجد ذلك، حتى إن كثيرا من المتعبدين يجد للذكر حلاوة ولذة، ولا يجد ذلك عند قراءة القرآن مع أنه قد وردت السنة بتفضيل العالم على العابد لا سيما إذا كان العابد محتاجا إلى علم كان العالم مشتغل به عن العبادة .

ففي الحديث «إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع»(١)، وإن «العلماء ورثة الأنبياء»(٢) وإن «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»(٣) وغير ذلك من الأحاديث كثير.

فليس كل عمل أورث كشوفا أو تصرفا في الكون يكون أفضل من العمل الذى لا يورث كشفا وتصرفا، فإن الكشف والتصرف إن لم يكن مما يستعان به على دين الله كان من متاع الحياة الدنيا، وقد يحصل ذلك للكفار والمشركين وأهل الكتاب(٤) .

ولعله بسنة إلهية في الكون

وإذا أردنا أن نتعرف على بعض ملامح ذلك المنهج المشترك بين بعض الأنبياء والأولياء والرهبان واليوجيين والذى قد يكون هو المسؤول عن حدوث بعض الخوارق غير الحقيقية والتى قد يظنها البعض حقيقة ويخلط بينها وبين المعجزة

---

(١) رواه الطيالسي عن صفوان بن عسال، وابن ماجة فى سننه فى الباب السابع عشر من المقدمة بلفظ مختلف، وأبو داود فى سننه فى الباب الأول من كتاب العلم، والترمذي فى سننه فى الباب التاسع عشر من كتاب العلم والنسائي فى سننه فى باب(١١٢) من كتاب الطهارة وحسنه السيوطي فى الجامع الصغير جـ١ ص١٤٥ .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه فى الباب(١٧) من كتاب العلم، وأبو داود فى سننه فى الباب الأول من كتاب العلم، وابن ماجة فى سننه فى الباب (١٧) من المقدمة والدارمي فى سننه فى الباب (٣٢) من المقدمة، وأحمد فى مسنده جـ٥ ص١٩٦ .

(٣) رواه الترمذي عن أبى أمامة وصححه السيوطي فى الجامع الصغير جـ ١ ص ١٢٤ .

(٤) انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى جـ ١١ ص ٣٩٥ ، ٣٩٨ .

ويتوهم إمكان معارضتها، أو يخلط بينها وبين الكرامة، ويرى نفسه أهلا للإكرام وهو كافر ضال مثلا .

فسنجد بعض ملامح ذلك المنهج المشترك في:

الأخلاق العالية:

يقول تعالى عن نبيه الكريم ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [١] ويقول ابن عربي عن الرياضة الروحية عند الصوفية: «والرياضة عبارة عن تهذيب الأخلاق وترك الرعونة وتحمل الأذى» [٢] والأخلاق العالية أيضا مشترطه عند الرهبان وكذلك عند اليوجيين [٣] بل والسحرة أيضا [٤] يقول الرازى: [٥] «اجمعوا على أن صاحب هذا العمل [السحر] كلما كان إقباله على أبواب البر والخير أكثر كانت أعماله أكمل، لأن الغالب على طبيعة العالم هو الخير، وأما الشر فمغلوب، فإذا اعتضد عمله بالجانب القاهر الغالب كان ذلك العمل : أكمل وأفضل ».

تطويع النفس:

فالجنيد يجيب السائل. متى يصير داء النفس دواءها ؟ بقوله إذا خالفت النفس هواها، وقال يزيد الرقاشي: إليكم عنى الماء البارد في الدنيا لعلى لا أحرمه في الآخرة وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: متى أتكلم؟ قال: إذا اشتهيت الصمت ،قال: ومتى أصمت؟ قال إذا اشتهيت الكلام، وقال على رضى الله عنه: من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات في الدنيا، وكان مالك بن دينار يطوف في السوق، فإذا رأى الشيء يشتهيه قال لنفسه: اصبرى فوالله ما أمنعك إلا من كرامتك علي ويقول الغزالى: لا يمكن إصلاح القلب لسلوك طريق الآخرة ما لم يمنع نفسه عن التنعم بالمباح، فإن النفس إذا لم تمنع بعض المباحات طمعت في المحظورات (٦) .

ويقول ابن سينا إن من شروط الرياضة الروحية لدى الصوفية «تطويع النفس

---

(١) القلم : ٤ . (٢) ابن عربي : الأنوار ص ١٦ .

(٣) انظر :ج.توندريو ،ب رثال: اليوجا سيطرة على النفس والجسم ص ٣١ .

(٤) انظر شروط المعجزة وحديثنا عن اشتراط كونها تقع على يد فاضل خير ص ٤٧ .

(٥) الرازي : النبوات ص ٢٢٢ .

(٦) انظر الغزالي : إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ٦٦ ، ٦٨ .

الأماره للنفس المطمئنة لتنجذب قوى التخيل والوهم إلى التوهمات المناسبة للأمر القدسى، منصرفة عن التوهمات المناسبة للأمر السفلى»[1] .

ولعل في قوله تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ [2] وقوله ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾ [3] إشارة إلى ذلك .

وعند السحرة واليوجيين كذلك نجد تطويع النفس مشترطا بأن يحب الإنسان ما يكره ويكره ما يحب يقول أحد الكتاب المعاصرين: «وهذه النظرية [وهى أن يحب الإنسان ما يكره ويكره ما يحب] تدعو إلى أن يقوم الإنسان بتطويع رغباته والسيطرة عليها. . وعن طريق تطوع النفس لأي شيء وكل شيء يصبح الإنسان سهلا أي يمكن التأثير فيه. . وفي نفس الوقت يصبح قادرا على التأثير في الآخرين»(٤).

ويقول ابن سينا:[5] «فلا تستبعدن أن يكون لبعض النفوس ملكة يتعدى تأثيرها بدنها وتكون لقوتها كأنها نفس ما للعالم. . لا سيما إذا كانت شحذت ملكتها بقهر قواها البدنية التى لها فتقهر شهوة أو غضبا أو خوفا من غيرها» .

الصيام:

فالأديان السماوية جميعا فرض فيها الصيام يقول تعالى:[6] ﴿يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾ ويقول ابن عربى:[7] «واحذر من الشبع ومن الجوع المفرط». وكذلك نجد الصيام عند السحرة واليوجيين(٨) وأصحاب الرياضات الروحية جميعا .

فمما يرويه «د: دى» في مذكراته ـ وهو أحد علماء الروحانيات في العصر

(١) ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ص ٨٢٠ ، ٨٢٧ .

(٢) آل عمران : ٩٢ . (٣) البقرة : ٢١٦ . (٤) أنيس منصور : القوى الخفية ص ١٢٣ .

(٥) ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ص ٨٩٣ ، ٨٩٦ .

(٦) البقرة : ١٨٣ . وانظر نحميا ٩ :١ وإرميا ٣٦ : ٩ . ومتى ١٧ : ٢١ .

(٧) ابن عربي : الأنوار ص ١٧ .

(٨) انظر Yogi,RamacharaKa : Hatha Yoga p . 59.

الحديث ـ أنه كان يستعد استعداداً روحيا بأن يصوم أسبوعين، لا يذوق فيهما إلا الماء وإلا القليل من السكر قبل أن يقوم بعملية الوساطة الروحية من خلال أحد الوسطاء (١) .

ويقول النسفى عن الحسد وهو نوع من أنواع السحر: «وكانت العين في بنى أسد، فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شيء فيقول فيه لم أر كاليوم مثله إلا هلك» (٢) .

وكذلك الحال عند قراء الفنجان إذا علت همتهم (٣) .

الطعام :

فنجد الميل عند أصحاب الروحانيات عموما إلى الأغذية النباتية ، وبعدهم عن الأغذية الحيوانية .

يقول ابن عربى عن النظام الغذائي للصوفى «وتحفظ فى غذائك . . . وليكن من غير حيوان فإنه أحسن»(٤) .

وذلك «عونا للمريد على السهر للذكر وتلطيفا لكثافته الترابية»(٥) وكذلك الحال عند اليوجيين(٦) .

ويقول الرازى عن الساحر إنه يشترط «أن لا يأكل من الحيوانات ويقتصر على الخبز والملح ونبات الأرض، والسبب فيه أن النفوس البشرية مشغوفة باللذات الجسدانية ، فإذا وصل إليها أقبل عليها وغاص فيها . وانصرف عن الجانب الأعلى وإذا لم يجدها وبقى محروما عنها ، عاد بطبعه إلى الجانب الأصلى والمركز الفطرى » (٧) .

وهذا بالطبع بعكس حال رسولنا ـ ﷺ ـ الذي كان أحب الطعام إليه

---

(١) انظر أنيس منصور : القوى الخفية ص٩٩ .
(٢) النسفي : مدارك التنزيل جـ٤ص٣١٤ .
(٣) انظر:أحمد حسين الشاعر :أسرار الفنجان ص١٩ .
(٤) ابن عربي : الأنوار ص ١٧ .
(٥) جوده المهدي : النفحات الجودية ص ١٤٢ .
(٦) انظر Yogi Ramacharaka : Hatha Yoga p. 71 .
(٧) الرازي :النبوات ص٢٢٢. وانظر كذلك ج.توندريو،ب رئال:اليوغا سيطرة على النفس والجسد ص٣٢.

اللحم، وكان يقول «هـو يزيد فى السمع. وهو سيد الطعـام في الدنيا والآخرة، ولو سألت ربى أن يطعمنيه كل يوم لفعل»(١).

الطهارة:

ففي القرآن: ﴿**وثيابك فطهر**﴾ (٢).

ويقول ابن عربى للصوفى:(٣) «فأول ما يجب عليك طلب العلم الذى تقوم به طهارتك وصلاتك».

ويقول الرازى عن الساحر:(٤) «ويجب أن يكون عـطر البـدن بعيـدا عن الأوساخ».

«وتعتبر نظافة الجسد فى المكان الأول»(٥) لليوجى.

العزلة:

يقول ابن عربي للصوفي:(٦) «فلابد لك من العزلة عن الناس» «وليس المراد من ترك الناس ترك صـورهم... وإنما المراد: أن لا يكون قلبك، ولا أذنك وعـاء لما يأتون به من فضول الكلام، فلا يصفو القلب من هذيان العالم» (٧).

وفي اليوجا: «يجب على الفرد أن يعزل نفسـه عن المظاهر الخارجية للأشياء المادية لكى يستطـيع السيطرة عليهـا. وعلى الإنسان أن ينظر إلى الحيـاة باستقـامة وعدل وبدون حـزن أو ألم أو افتـراء، أو اعتـداء وأن يعمل جـهده ليتـغلب على جهله»(٨).

وكذلك شأن الرهبان دائماً العزلة.

---

(١) أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث جابر: «أتانا النبى - ﷺ - فى منزلنا فذبحنا له شاة، فقال «كأنهم علموا أنا نحب اللحم» وإسناده صحيح. (٢) المدثر: ٤.

(٣) ابن عربي: الأنوار ص ١٥. (٤) الرازي: النبوات ص ٢٢٣.

(٥) ج توندريو، ب. رتال: اليوغا سيطرة على النفس والجسد ص ٣١.

(٦) ابن عربي: الأنوارص ١٥. (٧) السابق ص ١٦.

(٨) ج توندريو، ب. رتال: اليوغا سيطرة على النفس والجسد ص ٣١.

التركيز:

يقول ابن سينا : ان من شروط الرياضة الروحية للصوفى«تنحية ما دون الحق عن مستن الإيثار»(١) .

ويقول الغزالى :(٢)«وزعموا أن الطريق في ذلك أولا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها، وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه، بل يصير قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شيء وعدمه، ثم يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب، ويجلس فارغ القلب مجموع الهم ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتب حديث ولا غيره، بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى» .

ويقول ابن عربى:(٣) «ولا تطلب منه في خلوتك سواه ولا تعلق الهمة بغيره» « واشتغل بذكر الله بأي نوع شئت من الأذكار، وأعلاها الاسم المفرد، وهو قولك الله . الله . لا تزد عليه شئا»(٤) .

«والأقطاب هم الذين ذكرهم «الله» لايزيدون عليه» (٥) .

ويقول الرازى إن من أنواع السحر(السحر المبنى على قوة الوهم وتصفية النفس) ويشرحه بقوله: «إذا أعرضت النفس. .عن التوجه إلى سائر الجوانب وبقيت متوجهة إلى غرض واحد. .ومطلوب معين: قويت حينئذ قوتها واشتد تأثيرها، فقدرت على إحداث أحوال غريبة في هذا العالم»(٦) .

وفي اليوجا نجد«تثبيت الفكر على نقطة واحدة إما شيء أو فكرة أو عن مطلق . . . . والتحقق التام مع موضوع التأمل مثلا الله، وهي نوع من الانصهار مع الله، وتوحيد روح الفرد مع المطلق»(٧) .

---

(١) ابن سينا: الإشارات والتنبيهات ص ٨٢٠، ٨٢٧ .

(٢) الغزالى :إحياء علوم الدين جـ٣ص١٩ . وانظر كذلك كمياء السعادة ص ١٢٥ .

(٣) ابن عربي : الأنوار ص ١٨ . (٤) السابق ص ١٧ .

(٥) ابن عربي : القطب الغوث الفرد ص ١٩ . (٦) الرازي : النبوات ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

(٧) ج توندريو ،ب. رئال: اليوغا سيطرة على النفس والجسد ص ٢٩، ٣٠ .

انظر كذلك Desmond Dunne: Yoga For Everyone p.p . 96:111

إيقاع التنفس:

ففي اليوجا نجد أن للتنفس إيقاعاً معينا «والإيقاع المدرسى النموذجى هو :

- شهيق : (١) ثانية
- احتفاظ : (٤) ثانية
- زفير : (٢) ثانية
- توقف : (٢ أو ٤) ثانية

ويمكن أن يتغير حسب الأفراد أو يتضاعف» (١) .

وبعض الصوفية يستخدم في التنفس إيقاعا مشابها ففى الطريقة النقشبندية نجد «الذكر بحبس النفس بالنفى والإثبات: (لا إله إلا الله) بعدد وتر على قدر اتساع النفس، بحيث يتلفظ قبل نهايته بـ(سيدنا محمد رسول الله)» (٢) حيث «يلصق [المريد] لسانه بسقف حلقه والأسنان بالأسنان والشفة بالشفة، ويحبس النفس» (٣) .

ثم إن الذكر بالاسم المفرد الله، والذى يفضله معظم الصوفية حتى على قراءة القرآن كما سبق من كلام الغزالي ، وابن عربى فيه إيقاع تنفس منتظم وبطئ.

- طريقة الجلوس :

فعند بعض الصوفية نجد أن للجلوس أسلوبا معينا فمن آداب وشروط (ختم الخواجكان)وهو المنسوب إلى الإمام عبد الخالق الخجدوانى . .) الجلوس متوركا عكس تورك الصلاة» (٤) .

واليوجا مشهوزة بوضعياتها الجسدية التى تسمح بالتأمل والتركيز بدون جهد(٥) .

---

(١) ج توندريو ،ب. رثال: اليوغا سيطرة على النفس والجسد ص ٤٩ .
انظر كذلك Desmond Dunne: Yoga For Everyone p.p . 79 : 95

(٢) د. جوده المهدي : النفحات الجودية ص ١٤٣ .	(٣) السابق ص١٣٥ .

(٤) السابق ٧٥ ، ٧٦ .

(٥) ج توندريو ،ب. رثال: اليوغا سيطرة على النفس والجسد ص ٢٩ ، ٣٠ .
انظر كذلك Desmond Dunne: Yoga For Everyone p.p . 149 : 154

ـ الحركة الكثيرة :

فالصوفـية مغرمون بالحركـة، كما هو مشاهد الآن في مجـالس ذكرهم، وقد تتخذ هذه الحركة شـكلا رأسيا من ركوع إلى قيام إلى ركوع وقد تتـخذ شكلا أفقيا في شكل أنصاف دوائر، بل إنهـا قد تتحـذ شكلا دائريا كاملا، كمـا هو الحال عند الدراويش المولاوية، اتباع جـلال الدين الرومى، ويرون أن في ذلك تشبـها بالملائكة المهيمون الدائرون حول العرش، ويقولون إن لذلك أصلا من فعل الصحابة .

فقـد«وصف علي يوما الصحـابة. فقال: كانـوا إذا ذكروا الله مادوا كمـا تميد الشجرة في اليوم الشديد الريح »(١) .

وهذا العنف الحركى نجده أيضـا عند أصحاب الرياضات الروحيـة فابن سينا يروى عن قوم من الأتراك«أنهم إذا فرغوا إلى كاهنهم في تقدمة معرفة، فزع هو إلى شد حثيث جدا(عدو مسرع) فـلا يزال يلهث فيه حتى يكاد يغشى عليه ثم ينطق بما يخيل إليه» (٢) .

* * * *

وفي النهـاية أقـول: إن ذلك لا يعنى أن هذا هو المنهج الوحـيـد لأصحـاب الروحانيات، فللصوفـية طرق كثيرة ولكل منها منهـجها، واليوغا نفسهـا أنواع كثيرة وليست نوعا واحداً، بل إن منهج الأنبياء الروحى نفسه يختلف من نبى لآخر فمنهم من لم يعاشر أمرأة قط كـالمسيح ويحى ـ عليهما السلام ـ ومنهم من عـاشر الكثير كداود وسليمان ـ عليهما السلام ـ «وكـثيرون من أصحاب القوى الخفية. . لا يكف عن الخمر أو القمار أو التنقل. . أو انه غارق في الجنس» (٣) .

بل يجعل«بعل شـمطوب» (١٧٠٠ ـ ١٧٦٠) زعـيم«الحضـيدية» وهي فـرقة صوفية يهودية ـ شعار طريقته «الهبوط من أجل الصعود» فما من سبيل للقضاء على الشهوة إلا باستنفادها وما من علاج للعطش إلا بالشرب .

وعلى نظريته في وحدة الوجود فإن الله مـوجود في الطعام والشراب والجسد

(١) ابن رجب الحنبلي : جامع العلوم والحكم ص ٤١٨ .

(٢) ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ص ٨٨٧ ، ٨٩٠ .

(٣) أنيس منصور : القوى الخفية ص ١٥٤ .

وفي كل شيء مادي، ومن ثم فالممارسات الجسدية عبادة لله بالجسد تهيئ للمرتبة اللاحقة وهي عبادته بالروح (١) .

فليس ما ذكرنا هو المنهج الوحيد لأصحاب الروحانيات ولكنه ربما كان الأظهر .

وهذا الخلط بين المستويات هو ما جعل محمد رشيد رضا لا يرى فرقا بين بعض المعجزات وبين ما يفعله صوفية الهنود والمسلمين والروحانيين عموما إلا أن روحانية الرسول «أقوى وأكمل وأقدس وأفضل» (٢) .

وأقول إنه إذا كان هناك تشابه ما بين معجزات عيسى عليه السلام أو غيره، وخوارق بعض الروحانيين باستثناء الأولياء فليس مرد ذلك إلى الاختلاف بين الرسول أو الولي وهؤلاء في الدرجة الروحية فقط، ولكن مرده وقبل كل شيء إلى اختلاف الطبيعة الروحانية نفسها، وإلا فإن قول، محمد رشيد رضا يصدق فرعون في قوله **﴿إنه لكبيركم الذى علمكم السحر﴾** (٣) .

وأما قول رشيد رضا إن روحانيته عليه السلام، لم تكن بعمل كسبي منه (٤) فقد قلنا في شروط المعجزة من قبل إن ذلك غير معتبر .

وإنما الذى يحدث على يد الولي أو النبي ويحدث مثله على يد الروحانيين من السحرة والرهبان واليوجيين وغيرهم، فهو إما ليس معجزا ولا يتحدى النبي به، ولكنه معونة، وليس بخارق حقيقي وإنما حدث بسنة إلهية معروفة للخلق، ولكنه خارق لمن جهل سببه الطبعي. وإما أنه خارق حقيقي وإن لم يفهمه الجميع، فالخارق الحقيقي كما أن منه ما هو أعظم من غيره في درجة خارقيته فهو نسبي في دلالته وفهمه .

وكذلك الحال أيضا في الخوارق غير الحقيقية، فمنها ما هو أعظم من غيره حتى إنه قد يلتبس مع بعض المعجزات عند بعض العوام، فهي نسبية في درجة خارقيتها، وفي فهم الناس لحقيقتها .

---

(١) انظر عبد المنعم الحفني: موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية ص ١٠٨ : ١٠٩ .

(٢) رشيد رضا : الوحي المحمدي ص١٤٥ ، ١٤٦ . (٣) طه : ٧١ .

(٤) رشيد رضا : الوحي المحمدي ص ١٤٦ .

إلا أنه «كما لا يقدح في الأحجار الكريمة والجواهر الفاخرة ولا ينقص من قيمتها الغالية وجود زيوف تشابهها وتلتبس مع أصولها الحقيقية في أعين الغافلين وأنظارهم. . . . . ،كذلك لا يقدح في آيات الله التى أظهرها على أيدى من أصطفاهم للرسالة إلى الناس وجود مشعوذين من أهل السحر والدجل» (١) .

ومن ثم فإن إيمان الناس بالمعجزات فمبناه على :

- إما إدراك حقيقي للفارق بين المعجزة وغيرها من الخوارق غير الحقيقية، وذلك لا يكون إلا لأهل الاختصاص كسحرة فرعون مثلا .

- وإما عدم إدراك للبس بين الخارق الحقيقي وغير الحقيقي .

- وإما الاقتداء بأهل الاختصاص .

- وإما الثقة بصاحب الخارق لكمال حاله وعلو دعوته .

---

(١) مصطفى صبري : القول الفصل هامش ص ١٠١ .

معجزات للأنبياء ليست لأحد سواهم	معجزات للأنبياء تشبه الكرامات ولكن تفوقها	معجزات تماثل الكرامات	معجزات تشبه خوارق السحرة	خوارق قد تحدث علي يد الأنبياء وليست بالمعجزات (خوارق السحرة والروحانيين)
كالقــــرآن	كعدم إحراق النار لإبراهيم عليه السلام ولأبي مسلم الخولانى	كإحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص والمشى على الماء	كالإســـراء	كخط الرمل ومعرفة بعض أنواع الغيب ومساعدة الجن.
خـــــوارق حقـــــيقيـــة				خوارق غير حقيقية مجازية (قد تتعلم)

أقسام المعجزات بحسب درجة خارقيتها للعادة

ـ الدلالة بين الإقرار والإنكار :

فهناك من يطعن في المعجزة بالطعن في دلالتها ولهؤلاء عدة شبهات هى :

أ ـ إنكار الدلالة نظرا لعدم الاحتياج إليها في توليد العلم الضروري :

فإذا كان الله هو الذى يخلق العلم بالصدق بعد وقوع المعجز والله هو الذى أوقع المعجز فما فائدة المعجزة إذن والله قادر على خلق العلم مباشرة دون ما حاجة إلى مناسبة (١) .

والجواب عن ذلك :

أن نقول إن ذلك سؤال عن الحكمة ، والله تعالى لا يسأل عما يفعل، وعدم معرفة الحكمة لا يعنى عدم وجودها، وهذا السؤال مثل سؤال السائل عن الحكمة في خلق الشبع عند الأكل، والله قادر على خلقه بدون أكل . ، وإذا كان عدم معرفتنا للحكمة هنا لا يعنى عدم وجود علاقة بين الأكل والشبع، فكذا الوضع في المعجزة، فعدم معرفتنا للحكمة من تولد العلم الضرورى بالصدق عند المعجزة لا يعنى عدم وجود علاقة بين المعجز والعلم الضرورى بالصدق .

ب ـ إنكار الدلالة نظرا لأن الفرع لا يكون دليلا على الأصل :

يقول المنكرون: «كيف تكون الأعراض دليلا على وجود الله إذا كانت المعجزة تغيرات في الأعراض وجريانها على نحو غير مألوف على الأجسام (٢) فكيف تكون الأعراض وهى مشروطة بالأجسام ولا تستقل بذاتها، دليلا على وجود الجواهر المفارقة؟إن العرض لا يؤدى إلى جوهر، والمشروط لا يؤدي إلى الشارط كما أن الفرع لا يثبت الأصل، والمعجزة فرع والنبوة أصل»(٣) .

وجواب ذلك :

---

(١) انظر حسن حنفي : من العقيدة إلى الثوره جـ٤ ص٧٤ .

(٢) «من فضائح القوطي:قوله بأن الأعراض لا يدل شيء منها على الله تعالى،وكذلك قال صاحبه عباد وزعما أن فلق البحر،وقلب العصا حية،وانشقاق القمر،ومحق السحر والمشي على الماء، لا يدل شيء من ذلك على صدق الرسول فى دعواه الرسالة البغدادي :الفرق بين الفرق ص ١١٩ .

(٣) حسن حنفي : من العقيدة إلى الثورة جـ ٤ ص ٨٥ .

أن العكس هو الصحيح فلا فرع بدون أصل والأصل لا يشترط أن يكون له فرع، فوجود الأعراض دليل على وجود الجواهر لأن الأعراض لا تقوم بنفسها .

يقول ابن تيمية: (١) «ولهذا كان الليل إما مساويا للمدلول عليه وإما أخص منه، لا يكون أعم من المدلول ولهذا لم يكن للأمور المعتادة دلالة على ما هو أخص كطلوع الشمس والقمر والكواكب لا يدل على صدق أحد ولا كذبه لا مدعى النبوة ولا غيرها، فإنها توجد مع كذب الكاذب كما توجد مع صدق الصادق ولكن تدل على ما هو أعم منها وهو وجود الرب وقدرته ومشيئته وحكمته، فإن وجود ذاته وصفاته ثابت سواء كانت هذه المخلوقات موجودة أو لم تكن فيلزم من وجود المخلوق وجود خالقه ولا يلزم من عدمه عدم خالقه» .

ثم إن المعجزات قد توجه إلى الجواهر أيضا على ما استقصيناه في مبحث المعجزة والسحر .

جـ - إنكار الدلالة بدعوى عدم مناسبة الدليل للمطلوب :

فلدايفيد هيوم: «الفيلسوف الإنجليزى» رأي في المعجزات، ينكرها أولا ثم يذهب إلى أنها على فرض ثبوتها لا تصلح للدلالة على مقاصد أصحابها .

وخلاصة رأي هيوم: أن طريقة المعجزة غير طريقة البرهان وأن الحاسب إذا عرف - مثلا - أن مجموع اثنين واثنين أربعة لا تختلف حسبته لأنه يشهد بعد ذلك خارقة من الخوارق .

فالبرهان العلمى أو البرهان المنطقى هو عند دايفيد هيوم البرهان لا سواه الصالح وحده للإثبات وللنفى، والتصديق والتكذيب (٢) .

ولكن كلام هيوم هذا فيه مغالطة لأن إتيان مدعى النبوة بما هو خارق حقيقى لسنن الكون المطردة يدل على أنه مؤيد من الله تعالى - ومن يؤيده الله لا يكذب عليه .

---

(١) ابن تيمية : النبوات ص ١٧٥ .

(٢) انظر العقاد : ساعات بين الكتب ص ٢٤ ، ٢٥ . و ابن رشد ص ٦٦ .

وابن رشد قد سبق هيوم وقال نفس كلامه إلا أنه لم يطعن في دلالة المعجزة الحسية، وكذلك الرازى .

يقول ابن رشد: (١) «إن دلالة القرآن على نبوته ﷺ - ليست هي مثل دلالة انقلاب العصا حية على نبوة موسى عليه السلام ولا إحياء الموتى على نبوة عيسى وإبراء الأكمه والأبرص، فإن تلك وإن كانت أفعالاً لا تظهر إلا على أيدى الأنبياء، وهي مقنعة عند الجمهور فليست تدل دلالة قطعية إذا انفردت، إذ كانت ليست فعلا من أفعال الصفة التى بها سمى النبى نبيا، وأما القرآن فدلالته على هذه الصفة هي مثل دلالة الإبراء على الطب، ومثال ذلك لو أن شخصين ادعيا الطب، فقال أحدهما الدليل على أني طبيب أني أسير على الماء(وقال الآخر الدليل أنى)أبرئ هذه المرضى لكان تصديقنا بوجود الطب للذى أبرأ المرضى ببرهان، وتصديقنا بوجود الطب للذى مشى على الماء مقنعا، ومن طريق الأولى والأحرى، ووجه الظن الذى يعرض للجمهور فى ذلك، أن من قدر على المشى على الماء الذى ليس من صنع البشر، فهو أحرى أن يقدر على الإبراء الذى هو من صنع البشر. . .» .

ويقول: (٢) «وما يقع في النفس هو أن من أقدره الله على هذا الفعل الغريب وخصه به من سائر أهل وقته، فليس يبعد عليه ما يدعيه من أنه قد آثره الله بوحيه»

ويقول: (٣) «وليس في قوة العقل العجيب الخارق للعوائد الذى يرى الجميع أنه إلهى أن يدل على وجود الرسالة دلالة قاطعة إلا من جهة ما يعتقد أن من ظهرت عليه أمثال هذه الأشياء فهو فاضل، والفاضل لا يكذب، بل إنما يدل على أن هذا رسول إذا سلم أن الرسالة أمر موجود، وأنه ليس يظهر هذا الخارق على يدي أحد من الفاضلين إلا على يدى رسول، وإنما كان المعجز ليس يدل على الرسالة لأنه ليس يدرك العقل ارتباطا بينهما إلا أن يعترف أن المعجز فعل من أفعال الرسالة كالإبراء الذى فعل من أفعال الطب » .

ويقول: (٤) «إن المعجز في العلم والعمل هو الدلالة القطعية على صفة النبوة وأما المعجز في غير ذلك من الأفعال فشاهد لها ومقو» .

---

(١) ابن رشد : الكشف عن مناهج الأدلة ص ١١٩ .

(٢) السابق ص ١٢٠ . (٣) السابق ص ١١٢ . (٤) السابق ص ١١٦ .

ويقول الرازي: (1) «إن التمسك بطريق المعجزات من باب الاستدلال بالأثر على المؤثر على سبيل الإجمال فإنا نعرف بظهور المعجز عليه ـ عليه السلام ـ كونه مشرفا عند الله على سبيل الإجمال من غير أن نعرف كيفية ذلك الشرف» .

وعلى هذا فابن رشد والرازى وغيرهما، وان اتفق معهم هيوم في عدم مناسبة دلالة المعجزة الحسية للمطلوب إلا أنه اختلف معهم فى إنكار دلالتها، فهى عندهم وإن لم تناسب المطلوب مباشرة إلا أنها تدل على الصدق من حيث :

«إن من ظهرت عليه أمثال هذه الأشياء فهو فاضل والفاضل لا يكذب» وهو«مشرف عند الله» وبالطبع من يشرفه الله لا يكذب عليه ـ وذلك لأن« من أقدره الله على هذا الفعل الغريب وخصه به من سائر أهل وقته فليس يبعد عليه ما يدعيه من أنه قد آثره الله بوحيه» .

فالمعجزات الحسية وإن لم تدل دلالة قطعية إلا أنها «شاهد. . . ومقو» على الصدق وأما الدلالة القطعية ففي حال الداعية وقيمة الدعوة. أو على حد تعبير ابن رشد «في العلم والعمل» .

وبالتالي فكلام ابن رشد هنا لا يتعارض مع الشرع كما قد يتوهم بعض الباحثين، وخاصة أنه لم ينكر دلالة المعجزة الحسية على الصدق، وإن فضل عليها دلالة المعجزة المعنوية، وقد قلنا من قبل إن دلالة المعجزة نسبية .

د ـ إنكار الدلالة نظرا لاحتمال كون المعجزة ابتداء أو تكرير لعادة متباعدة:

يقول المنكرون: إنه لا شك أن هذه الحوادث المعتادة: منتهية إلى أول وإلا لزم القول بحدوث حوادث لا أول لها، وذلك يوجب قدم العالم، وقدم العالم يقدح فى إثبات الفاعل المختار، والقدح في الفاعل المختار يمنع من القول بصحة النبوة، فثبت أنه لابد من الاعتراف بوجوب انتهاء هذه الحوادث المعتادة إلى أول ومبدإ .

وحدوث كل واحد منها في المرة الأولى يكون على خلاف العادة، ثم إنه

(1) الرازي : النبوات ص ١٨٤ .

تعالى جعل ذلك دائما مستمرا فيما بعد ذلك، لأن الثابت من الأزل إلى ذلك الوقت الأول هو العدم المستمر .

وإذا ثبت هذا فنقول: لعل هذا الذى حدث الآن: ابتداء عادة مستمرة بعد ذلك ولا يقال إنا لما شاهدنا أن هذا الخارق لم يحدث بعد ذلك، علمنا أن حدوثه ليس لأجل أنه ابتداء عادة فلعل المعجز إنما كان لأجل أنه ابتداء أو تكرير لعادة متباعدة .

لأن العادات قد تكون متكررة فى أزمنة متقاربة وقد تكون متكررة في أزمنة متباعدة[١]، مثل أن العادة جارية بحدوث الصيف في كل سنة مرة واحدة وأن الكواكب الثابتة تنتهى إلى أول برج الحمل في كل ستة وثلاثين ألف سنة مرة واحدة، فلعل هذا الحادث الذى حدث، إنما حدث لأنه ابتداء أو تكرير لعادة متطاولة متباعدة .

والجواب عن ذلك :

أن نقول: لو قال نبي آيتى أن يقلب الله عادة معتادة ويطرد نقيضها لكان ذلك أحق المعجزات بالدلالة على النبوءات (٢) وسيأتي مزيد جواب عن ذلك في نهاية هذا الباب.

هـ- إنكار الدلالة نظرا لإحتمال كون المعجزة لنبى آخر:

يقول المنكرون لعل المعجز «إنما حدث معجزة لنبى آخر أو كرامة لولى آخر في طرف آخر من أطراف العالم فاتفق كلام هذا الكاذب ودعواه في ذلك الوقت، فحدث هذا المعجز على وفق دعواه لهذا السبب»(٣) .

---

(١) وبهذا المنطق حاول سبينوزا نفي المعجزات مستشهدا على ذلك بما ورد في سفر الجامعة :«ما كان فهو ما يكون والذي صنع فهو الذى يصنع فليس تحت الشمس جديد إن وجد شيء يقال عنه انظر هذا جديد فهو منذ زمان كان في الدهور التي كانت قبلنا ليس ذكر للأولين . والآخرون أيضا الذين سيكونون لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم الجامعة ١ / ٩ ـ ١١ ، وانظر سبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ص ٢٣٨ .

(٢) انظر الجويني : الإرشاد ص ٢٦٣ .

الرازي : النبوات ص ١٢٠ ، ١٢٨ . و الأربعين جـ ٢ ص ١٠٢ .

(٣) الرازي : النبوات ص ١٢١ .

والجواب عن ذلك :

أنا نطرح تساؤلاً وهو: كيف يريد الله تعالى تصديق الصادق وفي نفس اللحظة تصديق الكاذب في الجانب الآخر من الأرض ؟ فإن ذلك يتعارض مع حكمته تعالى .

على أن هذا الادعاء يكاد ألا ينطبق إلا على هذه المعجزة السماوية التى يراها نصف سكان الأرض في آن واحد، كانشقاق القمر. ولا ينطبق على المعجزات الأخرى، وحتى السماوية منها كإنزال المطر مثلا لأنها لا تكون إلا في مكان محدود يمكن للمتحدين بها أن يتبينوا حقيقة ما إذا كان ذلك المعجز لهذا المدعى أم لمدع آخر .

كما أن انشقاق القمر كان بإشارة منه - ﷺ - بناء على طلبهم - هم - أن يريهم آية (١) .

و- إنكار الدلالة نظرا للطعن في طريق معرفة الرسول أنه رسول :

يقول المنكرون: لم نجد وجها من قبله يصح تلقى الرسالة عن الخالق، جل ذكره، وذلك أنه ليس ممن يدرك بالأبصار ويشاهد بالحواس فيتولى مخاطبة الرسول بنفسه وإنما يدعى الرسول العلم بالرسالة من جهة صوت يسمعه أو كتاب يقع إليه أو سماع شخص ماثل بين يديه يذكر أنه بعض ملائكة ربه فما يدريه لعل صاحب ذلك الصوت ومكلمه بعض الجن أو مستتر عنه من الإنس أو بعض السحرة والمخيلين (٢) .

والجواب عن ذلك من وجوه :

منها أنه تعالى قد يخلق اليقين فى نفس النبى

- وقد يكون ذلك عن طريق المعجزة المعنوية أي مجموعة قرائن الصدق التى تعود إلى طريقة التبليغ(٣) وإلى موضوع الدعوة وغير ذلك. وهو ما استدل به ورقة

---

(١) انظر البخاري: فى صحيحه فى باب (١) من تفسير سورة القمر وفى باب (٢٧) من كتاب المناقب. - ومسلم فى صحيحه رقم (٤٦) من كتاب المنافقين وأحمد جـ ٣ ص ٢٠٧ . ٢٢٠ .

(٢) انظر الباقلاني : التمهيد ص ٩٩ .

(٣) ولذلك كما يقول ابن عربي كان كلام الله تعالى لموسى من الشجرة من جانب الطور الأيمن له لأنه =

بن نوفل على نبوة رسولنا - ﷺ - صحيح أنه في أول نزول الوحى إنما نزل عليه - ﷺ - بضع آيات قلائل لكنها كانت كافية في التعبير عن موضوع الدعوة .

ويروى أن ورقة بن نوفل قال لخديجة رضى الله عنها :اذهبى إلى المكان الذي رأى فيه ما رأى فإذا رآه فتحسرى فإن يكن من عند الله لا يراه، فلما تحسرت تغيب جبريل فلم يره، فرجعت فأخبرت ورقة فقال إنه ليأتيه الناموس الأكبر (١) .

لأن الملك لا يرى الرأس المكشوف من المرأة بخلاف الجنى. .

- وقال بعض العلماء إن معرفة الرسول كونه رسولاً مؤسسة على نفس معجزته الحسية التى يعرف بها قومه نبوته (٢) ومن ذلك ما ورد فى سفر القضاة على لسان جدعون: «فاصنع لى علامة أنك أنت تكلمنى» (٣) .

وأرى أن المعجزة الحسية أليق بالعوام وعليها تأسيس إيمانهم ولا يؤسس الخواص إيمانهم عليها بل هي بالنسبة لهم تزيده وتزكيه ولا تؤسسه والرسل خواص وليسوا بعوام .

فإبراهيم عليه السلام يقول ﴿ربى أرنى كيف تحى الموتى﴾ ويقول ﴿ليطمئن قلبى﴾ وكان جوابه عندما قال الله تعالى له ﴿أو لم تؤمن .قال بلى﴾ (٤) فإيمانه سبق طلبه المعجزة .

وموسى عليه السلام عندما سمع خطاب الله تعالى الذى ليس كمثله شيء لم يكن في حاجة إلى معجزة حسية لتأسيس إيمانه بل كانت حاجته لزيادة إيمانه .

ورسولنا - ﷺ - فيما رواه الإمام أحمد عن أنس: قال :جاء جبريل إلى رسول الله - ﷺ - ذات يوم وهو جالس حزين، قد خضب بالدماء من ضرب بعض أهل مكة، قال فقال له: مالك؟ فقال: فعل بى هؤلاء وفعلوا قال: فقال له جبريل: أتحب أن أريك آية؟قال: فقال: نعم قال: فنظر إلى شجرة من وراء الوادى فقال: ادع تلك الشجرة فدعاها. قال: فجاءت تمشى حتى قامت بين يديه. فقال مرها فلترجع، فأمرها فرجعت إلى مكانها . فقال رسول الله - ﷺ - حسبى»(٥) .

= لو كلمه من الأيسر الذى هو جهة قلبه ربما التبس عليه بكلام نفسه فجاءه الكلام من الجانب الذى لم تجر العادة أن تكلمه نفسه منه - انظر الفتوحات جـ ٢ ص ٣٧٥ .

(١) انظر الحلبى : إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون جـ ١ ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٢) انظر الباقلانى : التمهيد ص ١٠١ . و:الماوردى : أعلام النبوة ص ٣٠ . (٣) سفر القضاة: ٦ :١٧

(٤) البقرة : ٢٦٠ . (٥) رواه أحمد:في مسنده جـ٣ص١١٣ ،وابن ماجه فى سننه في الباب(٢٣) من كتاب الفتن،والدارمي فى سننه فى الباب (٤) من المقدمة .

فإيمانه - ﷺ - لم يؤسس على المعجزة الحسية لأن المعجزة الحسية للخواص تزيد إيمانهم - والإيمان يزيد - ولا تؤسسه كما هو شأن العوام .

ونفس الشيء يقال عن الإسراء والمعراج لا سيما المعراج فهى معجزة حسية خاصة به - ﷺ - ولم يرها أحد من البشر فكأن هدفها طمأنته - ﷺ - وتقوية إيمانه بالله تعالى .

وأما قوله - ﷺ - بعد فعله بعض من معجزاته «أشهد أنى رسول الله» فهو من هذا الباب أيضا لأنه كان قد آمن من قبل ذلك بوقت طويل كما توضح ذلك كتب السير .

- وقد تكون معرفة الرسول كونه رسولا بأن يخاطبة تعالى بلا واسطة «وكلام الله سبحانه ليس من جنس كلام الآدميين ولا مشبها لكلام المخلوقين. . . . وإذا كان ذلك كذلك علم من تولى الله خطابه أن المتكلم له بما سمعه هو القديم الذى ليس كمثله شيء (١) .

كما حدث مع آدم عليه السلام. وكما حدث مع موسى عليه السلام - وإن أكد ذلك سبحانه ببغض المعجزات الحسية كحل العقدة من لسانه عليه السلام واليد البيضاء، وقلب العصا حية.

- ومن هذه الطرق التي بها يعرف النبى أنه نبى أن تصح نبوة بعض الأنبياء بأحد هذه الطرق ثم يقول ذلك النبى لآخر إن الله قد أرسلك إلى قوم بأعيانهم، فيعلم أنه رسول الله بقول رسول آخر ومثاله رسالة لوط إلى قومه على لسان إبراهيم وكذا رسالة هارون مع موسى - عليهم السلام .

وقد يمهد للنبى بنبوته عن طريق الإرهاصات .

فقد روى الشعبى وداود بن عامر أن الله تعالى قرن إسرافيل بنبوة رسوله - ﷺ - ثلاث سنين يسمع حسه ولا يرى شخصه ويعلمه الشيء بعد الشيء ولا ينزل عليه بالقرآن، فكان في هذه المدة مبشرا بالنبوة وغير مبعوث إلى الأمة (٢) .

---

(١) الباقلاني : التمهيد ص ١٠٠ .

(٢) الماوردي: أعلام النبوة ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

ومن الإرهاصات الرؤيا المنامية المتكررة حتى يستبعد بطلانها وخاصة أن الأنبياء ممن تصدق رؤياهم كما يصدق حديثهم .

قال - ﷺ «أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا »(١) .

وقال - ﷺ - «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة»(٢) .

ويقال إن ذلك لأنه - ﷺ - كانت مدة دعوته ثلاثه وعشرون عاما وكانت مسبوقة بستة أشهر من الرؤيا الصالحة .

وروى البخاري في صحيحه «أنه أول ما بدئ به - ﷺ - من الوحى الرؤيا الصالحة» (٣) .

وعن علقمة بن قيس «أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام»أي ما يكون في المنام حتى تهدأ قلوبهم ثم ينزل عليهم الوحى (٤) .

ز- إنكار الدلالة نظرا للطعن في قياس الغائب على الشاهد :

لقد ضرب المتكلمون مثلا في كيفية دلالة المعجزة على الصدق بأن قالوا: «إذا ادعى الرجل بمشهد الجم الغفير أني رسول هذا الملك إليكم، ثم قال للملك إن كنت صادقا فخالف عادتك، وقم من الموضع المعتاد لك من السرير، واقعد بمكان لا تعتاده، ففعل: كان ذلك نازلا منزلة التصديق بصريح مقاله، ولم يشك أحد في صدقه» (٥) .

فإن قيل: فبم تردون الغائب إلى الشاهد، مع العلم بأنه لابد من جامع بينهما .

وفي الشاهد قد نكون عارفين بأحوال ذلك الملك وبأخلاقه ومناهج أفعاله،

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٦) من كتاب الرؤيا،والترمذي فى سننه فى الباب الأول والعاشر من كتاب الرؤيا .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه جـ ٩ ص ٣٩ .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه جـ ١ ص٣ ،ص ٣٧ .

(٤) الحلبى : إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون جـ ١ ص ٢٥٦ .

(٥) الإيجي : المواقف ص ٣٤١ ، ٣٤٢ .

فلا جرم يمكننا أن نعرف أنه إنما فعل ذلك الفعل لأجل ذلك الغرض .

وأما أنواع حكم الله تعالى فليس لأحد سبيل إلى معرفتها، ولا قدرة لأحد على الاطلاع عليها .

وجواب ذلك :

أنه ليس المقصود من ذكر المثال في الشاهد هو الاستدلال به والقياس عليه ولكن المقصود هو التقريب والإيضاح فإن هذا الأمر من قبيل الضروريات التى لا يستدل عليها ولكن تضرب فيها الأمثال (١) .

ويضيف ابن رشد مطعنا آخر في مثال الملك السابق فيقول: (٢) ويظهر في الشاهد أنه إذا قام الرجل في حضرة الملك فقال: أيها الناس إني رسول الملك إليكم وظهرت عليه علامة من علامات الملك يجب أن يعترف بأن دعوى ذلك الرسول صحيحة، وقالوا هذه العلامة ظهور المعجزة على يدى الرسول، وهذه الطريقة هي مقنعة وهى لائقة بالجمهور بوجه ما لكن إذا تتبعت ظهر فيها بعض اختلال وذلك أنه ليس يصح تصديقنا للذى ادعى الرسالة عن الملك إلا متى علمنا [أن] تلك العلامة التى ظهرت عليه هي علامة الملك للرسل، وذلك إما يقول الملك لأهل طاعته ان من رأيتم عليه علاماتى المختصة بى فهو رسول من عندى، أو بأن يعرف من عادة الملك أن لا تظهر تلك العلامات إلاعلى رسله. وإذا كان هذا هكذا فلقائل أن يقول: من أين يظهر أن ظهور المعجزات على أيدى بعض الناس هى العلامات الخاصة بالرسل، فإنه لا يمكن أن يدرك هذا بالشرع، لأن الشرع لم يثبت بعد، والعقل أيضا لا يمكنه أن يحكم أن هذه العلامة هي خاصة بالرسل، إلا أن يكون قد إدرك وجودها مرات كثيرة للقوم الذين يعترف برسالتهم ولم تظهر على أيدى سواهم » .

(١) انظر الرازي : الأربعين جـ٢ص١٠٧ ، ١٠٨ .   والإيجي : المواقف ص ٣٤١ .
والجويني : الإرشاد ص ٢٧٦ .

(٢) ابن رشد : الكشف عن مناهج الأدلة ص ١٠٩ .

إلا أن كلام ابن رشـد هذا وإن كان يمثل طعنا في مثـال الملك السابق إلا أنه لا يمثل طعنا في دلالة المعجـزة على الصدق فابن رشـد هو القائل:[1] «وليس في قوة العقل العجيب الخـارق للعوائد الذى يرى الجميع أنه إلهى أن يدل على وجود الرسالة دلالة قاطعة إلا من جـهة ما يعتقد أن من ظهرت عليه أمـثال هذه الأشياء فـهـو فاضل و الـفاضل لا يكـذب، بل إنما يدل على أن هذا رسـول إذا سلم أن الرسالة أمر مـوجود وأنه ليس يظهر هذا الخارق على يدى أحـد من الفاضلين إلا على يدى رسول، وإنما كـان المعجز ليس يدل على الرسـالة لأنه ليس يدرك العقل ارتباطا بينهمـا، إلا أن يعترف أن المعجز فعل من أفعـال الرسالة كالإبراء الذى هو فعل من أفعال الطب» .

حـ - إنكار الدلالة نظرا لأن الدوران لا يدل على العلية :

يقول المنكرون: إن الفعل الخارق للعـادة يدل على الصدق عند حصول شرط زائد، وهو كون ذلك المعجز دائرا مع تلك الدعوى وجودا وعدما، إلا أنا نقول: إن العقلاء أطبقوا على أن الدوران مع الشيء لا يفيـد العلية إفادة قطعية واختلفوا في أنه هل يدل على حصول العلية دلالة ظنية أم لا ؟ [2].

وسيأتي جواب ذلك في نهاية هذا الباب .

ط - إنكار الدلالة نظرا لإحتمال علم المدعى المسبق بالخارق :

يقـول المنكرون: «لعل هذا النبى كـان قد علم إمـا بواسطة علم النجـوم، أو بواسطة علم الرمل أو بواسـطة تعبـير الرؤيا: أن الحـادث الفـلانى الخارق للعـادة سيحـدث في اليوم الفلانى، والناس كانوا غـافلين عنه، ثم إنه فى ذلك اليوم: ادعى حدوث ذلك الحادث المعجز، فلمـا حدث على وفق دعواه، ظن الناس أنه إنما عرفه بإلهام الله تعالى وإخباره»[3].

وسيأتى الجواب عن ذلك في نهاية هذا الباب .

---

(١) ابن رشد : الكشف عن مناهج الأدلة ص ١١٢ . (٢) انظر الرازي : النبوات ص ١٢٨ .

(٣) الرازي: النبوات ص ١٢١ . وانظر كذلك الأربعين جـ١ ص ١٠٠ .

ى - إنكار الدلالة بدعوى أن دلالة المعجزة ظنية تحتمل التأويل :

يقول المنكرون: «إن أقصى ما في الباب: أنكم تقولون إن المعجز قائم مقام التصديق بالقول، فنقول: هب أنه كذلك [. . . و] أن الرجل قال: فلان رسولي إليكم، فهذا كلام يحتمل التأويل ويمكن صرفه عن ظاهره بالدليل، وإذا كان كذلك، لم تكن دلالة هذا القول على ثبوت هذا المعنى دلالة قطعية، بل كانت دلالة ظنية، فثبت: أن دلالة هذا اللفظ على حصول النبوة دلالة ظنية، وثبت: أن أقصى مراتب المعجزات أن تكون قائمة مقام هذا اللفظ على حصول النبوة، فبأن تكون دلالة المعجز على التصديق دلالة ظنية كان أولى»[1].

وسيأتي الجواب عن ذلك أيضا في نهاية هذا الباب .

ك - إنكار الدلالة نظرا للطعن في اشتراط عدم المعارضة :

يرى المنكرون أن: دلالة المعجز على الصدق لو حصلت لكانت إما أن تكون مشروطة بعدم المعارضة، أولا تكون مشروطة به، والقسمان باطلان، فبطل القول بدلالة المعجز على الصدق .

وإنما قلنا: إنه لا يمكن أن تكون هذه الدلالة مشروطة بعدم المعارضة، لوجوه:

الأول: أنه إما أن يكفي في كون المعجز معجزا: عدم المعارضة في الحال، أو المعتبر عدم المعارضة أبداً أو المعتبر عدم المعارضة في مرتبة بين المرتبتين المذكورتين، والأقسام الثلاثة باطلة .

أما عدم المعارضة في الحال فإنه لا يكفى في كون الفعل معجزا فكم من إنسان يأتي بعمل فلا يقدر الحاضرون في الحال على معارضته مع أنه لا يكون ذلك العمل معجزا بالاتفاق .

وأما القسم الثانى : وهو أن يكون الشرط في كونه معجزا عدم المعارضة أبدا فهذا الشرط مجهول، فمن الذي يمكنه أن يعلم أن أحدا من الواردين بعده إلى قيام القيامة لا يمكنه الاتيان بهذه المعارضة ؟وإذا صار هذا الشرط مجهولاً صار

(١) الرازي : النبوات ص ١٢٨ .

المشروط أيضا مجهولاً فوجب أن تصير المعجزات بأسرها مجهولة .

أما القسم الثالث: وهو المرتبة المتوسطة بين المرتبتين المذكورتين، فنقول: إن تلك المراتب المتوسطة كثيرة متفاوتة، وليس اعتبار بعضها أولى من اعتبار البواقى، فكان اشتراط واحدة وإلغاء البواقى محض التحكم، وهو باطل .

فثبت أن اشتراط عدم المعارضة ينقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة، وثبت أنها بأسرها أقسام باطلة، فكان القول باعتبار عدم المعارضة باطلا .

والوجه الثانى في فساد هذا القسم: ان المعتبر عدم المعارضة من الحاضرين فقط أو من جميع أهل الدنيا، أو المعتبر مرتبة متوسطة وإبطال هذه الثلاثة بمثل الكلام الذى ذكرناه في الوجه المتقدم معلوم .

والوجه الثالث أن العدم نفى محض، فيمتنع أن يكون امتيازا عن غيره بوجه من الوجوه وإذا لم يحصل فيه الامتياز، امتنع كونه دليلا، ولا جزء دليل، لأن أقرب مراتب الدليل المخصوصة امتيازه عما سواه .

وأما القسم الثانى: وهو أن يقال: إن دلالة المعجز على الصدق غير مشروطة بعدم المعارضة، فهذا القسم ظاهر الفساد والبطلان، فثبت بما ذكرنا: فساد القسمين، وثبت بفسادهما: أن المعجز لا يمكن أن يكون دالاً على الصدق(١) .

وسيأتى الجواب عن ذلك في نهاية هذا الباب .

ل - إنكار الدلالة نظرا للقول باشتراك أجسام هذا العالم العنصرى في الهيولى القابلة لجميع الصور:

فيرى المنكرون: أنه إذا كانت أجسام هذا العالم العنصرى مشتركة في الهيولى، وتلك الهيولى قابلة لجميع الصور، فاختصاص كل واحد من هذه الأجسام بصفته المعينة وصورته المعينة إما أنا يكون لأجل أن ذلك الجسم كان أولى بقبول تلك الصفة والصورة من سائر الأجسام، أو لا يكون كذلك، والثانى باطل، ولزم منه أن يكون اختصاص ذلك الجسم بتلك الصفة مع كونه مساويا لسائر الأجسام في

(١) انظر السابق ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

القبول وفي عدم الأولوية يكون رجحانا لأحد طرفى الممكن على الآخر لا لمرجح وهو محال ولما بطل هذا التقسيم ثبت أن القسم الأول حق، ومن ثم فاختصاص ذلك الجسم بذلك الاستعداد الخاص لابد وأن يكون لأجل استعداد آخر إلى غير نهاية، فتلك الاستعدادات إن حصلت دفعة واحدة، لزم حصول أسباب ومسببات لا نهاية لها دفعة واحدة وهو محال، وإن حصلت على سبيل التعاقب وهو أن يكون كل استعداد سابق علة لحصول الاستعداد اللاحق، فحينئذ يكون حصول هذا المعجز المعين ـ الذى هو خارق للعادة ـ من لوازم الأحوال السالفة التى لا أول لها وحينئذ تخرج المعجزات عن كونها دالة على الصدق .

أي أنه إذا كان ذلك الجسم مساويا لسائر الأجسام وكان ذلك الوقت مساويا لسائر الأوقات، في قبول ذلك الحادث المعين، فحينئذ قد ترجح الممكن لا لمرجح، وإذا جاز هذا، فلم لا يجوز حدوث المعجز لا لغرض أصلا ؟ وذلك يبطل القول بدلالة المعجز على الصدق .

وأيضا: إما أن يتوقف حدوث ذلك الحادث على كون ذلك الجسم موصوفا بذلك الاستعداد الخاص، فحينئذ يكون حدوث هذا المعجز من لوازم الأحوال السالفة، وعلى هذا التقدير فإنه يخرج عن كونه دليلا على صدق المدعى [(١)] .

وجواب ذلك: أن إرادة الله تعالى وحكمته هي المرجح لأحد طرفي الممكن على الآخر .

وسيأتى مزيد جواب عن ذلك في نهاية الباب .

م ـ إنكار الدلالة نظرا لمذهب المتكلمين في التنزيه وفي الأغراض والمقاصد الإلهية:

فكثير «من المتكلمين يقولون: لابد أن تتقدم المعرفة أولا بثبوت الرب وصفاته التى يعلم بها أنه هو، ويظهر المعجزة وإلا تعذر الاستدلال بها على صدق الرسول فضلا عن وجود الرب »[(٢)] .

وقالوا إن الفعل إما أن يتوقف على الدواعى أو لا يتوقف فإن توقف الفعل

---

(١) انظر السابق ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٢) ابن تيمية : مجموع الفتاوى جـ ١١ ص ٣٧٨ .

على الدواعى فهي كثيرة ولا نحيط بها علما، فقد تكون المعجزة امتحانا لعقول المكلفين مثلا، وليست دليلا على الصدق، وتوقف الفعل على الدواعى يلزمنا القول بالجبر فصدور الفعل منا يتوقف على حصول الدواعى لنا، وحدوث الدواعى يكون من الأسباب العالية، وحينئذ تكون جميع القبائح الصادرة من العباد معلولة وموجبة عن فعل الله تعالى لأنه هو الذى فعل القدرة والداعية وفاعل السبب فاعل للمسبب، فحينئذ يكون فاعل جميع القبائح هو الله تعالى وتقدس، وإذا ثبت هذا فحينئذ لا يمتنع من الله تعالى إظهار المعجز على يد الكاذب لأن فعل ما يفضى إلى الجهل ليس بأعظم من فعل الجهل وعلى هذا التقدير فإنه لا يبقى المعجز دليلا على الصدق على القسم الأول .

وأما القسم الثانى: وهو أن صدور الفعل عن القادر لا يتوقف على اضمام الدواعى إليه، فنقول: فعلى هذا التقدير لا يمتنع أن يقال: إنه تعالى خلق هذا المعجز لا لشيء من الدواعى والأغراض أصلا، وإذا كان هذا الاحتمال قائما امتنع القطع بأنه تعالى ما خلق هذا المعجز إلا لغرض تصديق المدعى [1].

وقبل الإجابة عن ذلك أشير إلى أن :

- قضية «الجبر» قضية خلافية ولا يتسع المقام هنا لبحثها، فلنعتبرها مسلمة، ولن ينبنى عليها الطعن المزعوم في دلالة المعجزة، كما سيتضح فيما بعد .

- إن «الأمة قد أجمعت على أن الله لا يفعل القبيح ولا يترك الواجب، فالأشاعرة من جهة أنه لا قبيح منه ولا واجب عليه، وأما المعتزلة فمن جهة أن ما هو قبيح منه يتركه، وما يجب عليه يفعله» [2].

إلا أن المشكلة ما زالت قائمة، فهناك من الأشياء ما يُحكم عليه بالقبح كالمعجزة مثلا إذا خلقت على يد الكاذب، بصرف النظر عما إذا كان ذلك القبح غير معتبر لأنه لحكمة - وإن لم نعرفها - كما قال المعتزلة لأن الله لا يخلق القبيح أو كان هذا القبح غير معتبر لأن الله تعالى لا يقبح منه شئ ولا يجب عليه شيء كما قال الأشعرية .

---

(١) انظر الرازي : النبوات ص ١١٨ . وانظر كذلك الأربعين جـ ٢ ص ١٠١ .
(٢) الإيجى : الموقف ص ٣٢٨ .

تفصيل الجواب عن كل ما سبق .

١ ـ إنه لا يقبح منه تعالى إظهار الخوارق غير الحقيقية على يدى الكاذب وإن أوهم ذلك تصديقه، لأن إلقاء الشبهات غير قبيح، فله من الحكم ما يغيب عن كثير من الناس، كأن يكون ذلك مثلا اختبارا من الله تعالى لعبادة، ولو جزم المكلف أن الغرض من هذه الشبهات هو تصديق مدعى النبوة لكان التقصير منه لا من الله حيث جزم لا في موضع الجزم .

بل إنا نشاهد أن إلقاء الشبهات سنة إلهية فهو سبحانه أبقى إبليس وجنوده وأمات الأنبياء وكان أشد الناس بلاء كما يقول الرسول ـ ﷺ ـ « الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه وإن كان في دينه رقة خفف عنه » (١) .

٢ ـ ثم إن تجويز إضلال طائفة معينة ليس هو مثل إضلال العالم كله ورفع ما يعرف به الحق من الباطل، بل مثال هذا مثل من قال إذا جاز أن يعمى الله طائفة من الناس جاز أن يعمى جميع الناس، فلا يرى أحد شيئا وإذا جاز أن يميت بعض الناس جاز أن يميتهم كلهم في ساعة واحدة وأن يقال إذا جاز أن يضل بعض الناس عن قبول بعض الحق جاز أن يضله عن قبول كل حق حتى لا يصدق أحداً في شيء، ولا يقبل شيئا مما يقال له فلا يأكل، ولا يشرب، ولا يلبس، ولا ينام، وهذا كله مما يعرف بضرورة العقل الفرق بينهما .

وآيات الأنبياء هي من هذا الباب، فلو لم يميز الله بين الصادق والكاذب لكان قد بعث أنبياء يبلغون رسالته ويأمرون بما أمر به، من أطاعهم سعد في الدنيا والآخرة، ومن كذبهم شقى في الدنيا والآخرة وآخرون كذابين يبلغون عنه ما لم يقله، ويأمرون بما نهى عنه، ومن اتبعهم شقى في الدنيا والآخرة، ولم يجعل سبيلا إلى التمييز بين هؤلاء وهؤلاء وهذا أعظم من أن يقال إنه خلق أطعمة نافعة

---

(١) رواه الترمذي فى سننه فى الباب (٥٧) من كتاب الزهد والبخاري فى صحيحه فى الباب (٣) من كتاب المرضى وابن ماجه فى سننه فى الباب (٢٣) من كتاب الفتن والدارمي فى سننه فى الباب (٦٧) من كتاب الرقاق وأحمد فى المسند جـ ١ ص ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥ جـ ٦ ص ٣٦٩ .

وسموما قاتله، ولم يميز بينهما، بل كل ما أكله الناس جاز أن يكون من هذا وهذا[1] وهذا كله معلوم بطلانه واستحالته عادة .

٣ ـ ثم إن الرسالة ابتداء نصب وتولية وتفويض و لا يتصور الكذب في التفويض، وإنما يتصور في الأخبار .

فالملك وإن نقم عليه كذب وخلف إن قال لشخص وكلتك في أمرى، فهذا توكيل وإن كان بصيغة الماضي إلا أن الغرض منه أمر والأمر لا يدخله الصدق والكذب ومن ثم فهذا موقف لا يتوقف ثبوته على نفى الكذب عن البارى تعالى[٢].

ثم إن الوعد والوعيد وإن كانا خبرين منه تعالى فإن دخلهما الكذب لم يوثق بهما، ولم يكن للبارى أمر مطاع ولا تعقل الإلهية ممن لا يتصور منه الأمر والنهى .

وقد دلت الأدلة على كونه تعالى إلـها قادرا عالما، ومن ثم يبطل احتمال دخول الكذب في وعده ووعيده تعالى أيضا (٣) .

٤ ـ والمعجزة نازلة منزلة قوله صدقت وأنت رسول فالجمع بين كونه كاذبا، وبين ما ينزل منزلة قوله أنت رسولى محال، لأن معنى كونه كاذبا أنه ما قيل له أنت رسولى ومعنى المعجزة أنه قيل له أنت رسولى (٤) .

٥ ـ وللناس طرق في دلالة المعجزة على صدق الرسول: طريق الحكمة الإلهية، وطريق القدرة، وطريق سنته تعالى وعادته التى بها يعرف أيضا ما يفعل وهو من جنس المواطأة، وطريق العدل، وطريق الرحمة، وكلها طرق صحيحة، وكلما كان الناس إلى الشىء أحوج كان الرب به أجود، وكذلك كلما كانوا إلى بعض العلم أحوج كان به أجود .

---

(١) انظر ابن تيمية : النبوات ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

(٢) انظر الجوينى : الإرشاد ص ٢٧٩ . و الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٣) انظر أبو إسحاق : الجامع : نقلا عن الإرشاد للجوينى ص ٢٨٠ .

(٤) انظر الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢٥ .

وأما قدرته تعالى على تعريف الخلق بنبيه فإنه إذا كان قادراً على أن يهدى الإنسان الذى كان علقة ومضغة إلى أنواع العلوم بأنواع من الطرق إنعاما عليه وفي ذلك من بيان قدرته وحكمته ورحمته ما فيه، فكيف لا يقدر أن يعرفه صدق من أرسله إليه، وهذا أعظم النعم عليه والإحسان إليه والتعريف بهذا دون تعريف الإنسان ما عرفه من أنواع العلوم فإنه إذا كان هداهم إلى أن يعلم بعضهم صدق رسول من أرسله إليه بشر مثله بعلامات يأتي بها الرسول وإن كان لم تتقدم مواطأة، وموافقة بين المرسل، والمرسل إليهم .

فكيف لا يقدر هو أن يرسل رسولا ويجعل معه علامات يعرف بها عباده أنه قد أرسله، وهذا كمن جعل غيره قديرا عليما حكيما فهو أولى أن يكون قديراً عليما حكيماً (١)

٦ - و يمكن تقدير كونه سبحانه منزها عن تأييد الكاذب بالمعجزات بما علم في مصنوعاته من الإحكام والإتقان أنه عالم، وبما فيها من التخصيص أنه مريد وبما فيها من النفع للخلائق أنه رحيم، وبما فيها من الغايات المحمودة، أنه حكيم ، والقرآن يبين آيات الله الدالة على قدرته ومشيئته، وآياته الدالة على إنعامه ورحمته وحكمته، وفي سورة الرحمن يقول في عقب كل آية **﴿فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾** وهو يذكر فيها ما يدل على خلقه، وعلمه وقدرته، ومشيئته، وما يدل على إنعامه، ورحمته وحكمته، وفي نفس الإنسان عبرة تامة، فإن من نظر في خلق أعضائه، وما فيها من المنافع له وما في تركيبها من الحكمة والمنفعة مثل كون ماء العين مالحاً ليحفظ شحمة العين من أن تذوب، وماء الأذن مراً ليمنع الذباب من الولوج، وماء الفم عذبا ليطيب ما يمضغ من الطعام، وأمثال ذلك علم علما ضروريا أن خالق ذلك له من الرحمة والحكمة ما يبهر العقول مع ما في ذلك من الدلالة على المشيئة والعلم فبهذا وأمثاله يعلم أنه لا يؤيد كذابا بمعجزة لا معارض لها لأن في ذلك من الفساد والضرر بالعباد ما تمنعه رحمته وفيه من سوء العاقبة ما تمنعه حكمته، وفيه من نقض سننه المعروفة، وعادته المطردة (٢) .

---

(١) انظر ابن تيمية : النبوات ص ١٦٥ .

(٢) انظر ابن تيمية : شرح العقيدة الأصفهانية ص ١٥٨ .

فكما أنه في خلقه عادل ، حكيم، رحيم، فكذلك هو في أمره وما شرعه من الدين، فإنه لا يكون إلا عدلا وحكمة ورحمة .

٧ ـ والأشعرى، والقاضى أبو بكر، وابن فورك والقاضى أبو يعلى، وغيرهم لما أرادوا إثبات معجزات الأنبياء عليهم السلام، وأن الله سبحانه لا يظهرها على يد كاذب مع تجويزهم عليه فعل كل شىء وأنه لا يفعل شيئا لشىء، فقالوا لو جاز ذلك لزم أن لا يقدر على تصديق من ادعى النبوة، وما لزم منه نفى القدرة كان ممتنعا .

والكلام مبنى على مقدمات :

ان النبوة لا تثبت إلا بما ذكروه من المعجزات، وأن الرب لا يقدر على إعلام الخلق بأن هذا نبى إلا بهذا الطريق، وأنه لا يجوز أن يعلموا ذلك ضرورة، وأن إعلام الخلق بأن هذا نبى بهذا الطريق ممكن، فلو قيل لهم لا نسلم أن هذا ممكن على قولكم فإنكم إذا جوزتم عليه فعل كل شىء وإرادة كل شىء وأنه لا يفعل شيئا لشىء ، لم يكن فرق بين أن يظهرها على يد صادق أو كاذب [(١)] .

فإن قالوا ننزهه عن فعل ممكن يستلزم عجزه كان هذا تناقضا، فإن فعل الممكن لا يستلزم العجز، بل امتناع الممكن يستلزم العجز [(٢)] .

ويرد عليهم ابن تيمية قائلا : إن«خطأكم من حيث جوزتم أن يكون شيئان متساويان من كل وجه ثم يعلم بضرورة أو نظر ثبوت أحدهما وانتفاء الآخر، فإن هذا تفريق بين المتماثلين، وهذا قدح في البدهيات. . . فلا أنتم عرفتم سنة الله المعتادة في خلقه ولا عرفتم خاصة العقل »[(٣)] .

وهذا الكلام مبناه على أنه بغير المعجزة لا نستدل على قدرته تعالى على إقامة الدلالة على صدق الدعوى فتنتفى القدرة ويلزم العجز .

وهذا استعمال لدليل ما لا دليل عليه يجب نفيه وقد ثبت بطلان هذا النوع من الأدلة، فقد يكون هناك دليل آخر لا نعلمه .

---

(١) ابن تيمية : النبوات ص ١٠١ .

(٢) انظر السابق ص ٢٣٨ .

(٣) السابق ص ٢٢٠ .

٨ ـ والمتأخرون من الأشاعرة لما عـرفوا ضعف هذا فلم يسلكوه كأبى المعالى والرازى وغيرهما وقالوا إن العلم بالصدق عند المعجز علم ضرورى .

يقول أبو المعالى الجوينى: [١] «من شهد مجلس الملـك في الصورة المفروضة علم على الضرورة تصديق الملك من يدعى الرسالة، وإن لم يخطر لمعظم الحاضرين نظر، وتفكر، في أن الملك لا يغـوى رعيـته، ولا يطغى حـاشيـته ولو كـانت دلالة المعجـزة على الصدق مـوقوفة على العـلم بأن مظهر المعجـزة لا يطغى ولا يضل لاخـتص بالعلم برسـالة الملك من نـظر هذا النظر. . . وليس الأمـر كـذلك على اضطرار، والذى يكشـف الحق في ذلك: أن الملك لو كـان ظالما غـاشـمـا لا تؤمن بوادره، فالفعل المفروض ممن هذه صفتـه تصديق لمدعى الرسالة، وجاحد ذلك منكر للبديهة» .

ويقول الغـزالى ـ عمن شهد مـجلس الملك في الصورة المفروضـة ـ «حصل للحاضرين علم ضرورى بأنه رسـول الملك قبل أن يخطر ببالهم، أن هذا الملك من عادته الإغواء أم يستحيل في حقه ذلك» [٢] .

ويقول الرازى: إن الشىء قد يكون جائز الوقوع في نفسه كأن تكون المعجزة لغرض آخر سوى التصديق فأغراضه تعالى كثيرة، ولا يحيط مخلوق بها علما، ومع ذلك فإنـا نعلم علما ضـروريا أنه غيـر واقع، ألا ترى أنا نجوز دخول شـخص في الوجود من غير أبوين، ونجوز أن يدخل في الوجود شيخ هرم من غير سبق الطفولة والشباب، والكهـولة، ثم إنا إذا أبصرنا إنساناً شيخا علمنا بالضـرورة أنه متولد من الأبوين، وأنه كان طفلا، ثم صار شابا، ثم صار شيخا [٣] .

«ومـوسى عليه السـلام لما قال: «إلـهـى أن كنت صادقـا في ادعاء الرسـالة فاجعل هذا الجبل واقفا في الهـواء، فوق رؤوسهم ثم إن القوم يشاهدون أنهم كلما آمنوا به تباعد الجـبل عنهم وكلما هموا بتكذيبه، قرب أن يسـقط عليهم، فعند هذا يعلم كل أحـد بالضرورة أن المقـصـود من هذا الإظلال تصديق المدعى في ادعـاء الرسالة» [٤] .

---

(١) الجوينى : الإرشاد ص ٢٧٥ .　　(٢) الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٣) انظر الرازى : الأربعين جـ ٢ ص ١٠٧ .

(٤) الرازى : النبوات ص ١٠١ .

«وتجويز أن يكون الغرض من إظلال ذلك الجبل شيئا آخر سوى هذا المقصود ،لا يقدح في حصول العلم الضرورى بأنه لا مقصود منه سوى ذلك»[1] .

«فالشىء إذا علم وجوده بالضرورة لم يكن تجويز نقيضه يقدح في ذلك العلم الضرورى»[2] .

ويرد ابن تيمية على هؤلاء قائلا:[3] «وهذا صحيح إذا منعت أصولهم،فإن هذه [الطريقة]تعلم إذا كان المعلم بصدق رسوله ممن يفعل شيئا لحكمة،فأما من لا يفعل شيئا لشىء،فكيف يعلم أنه خلق هذه المعجزة لتدل على صدق (النبى) لا لشىء آخر،ولم لا يجوز أن يخلقها لا لشىء على أصلهم» .

٩ ـ ويضيف الرازى أنه إذا كانت أفعال الله تعالى غير معللة بالأغراض فنحن لا ندعى أن خلق المعجز إنما كان لغرض التصديق بل نقول: خلق المعجز يعرف قيام التصديق بذات الله تعالى،وكما أن هذه الكلمات المخصوصة صارت دالة بحسب الوضع والاصطلاح على المعانى القائمة بذات المتكلم،فكذلك هذه الأفعال الخارقة للعادات إذا حصلت عقيب الدعوى،صارت دالة على قيام التصديق بذات من فعل المعجز[4] .

ويجيب ابن تيمية عن ذلك بقوله:«وإن قلتم هو وإن لم يقصد أن يفعل شيئا لحكمة،ولكن قد يفعل الشيئين المتلازمين فيستدل بأحدهما على الآخر .

قيل هذا إنما يكون بعد أن يثبت التلازم،وأن أحدهما مستلزم للآخر،وهذا معلوم فيما يدل بمجرده،فإنه يمتنع وجوده بدون لازمه،أما ما يدل بالجعل والقصد فيمكن وجوده بدون ما جعل مدلولا له،واللزوم إنما يكون بالقصد،وهو عندكم يمتنع أن يفعل شيئا لأجل شىء،فبطلت الأدلة القصدية على أصلكم،وهي أخص بالدلالة من غيرها »[5] .

ـ وحاصل الكلام هنا أنه :

إذا كان ابن تيمية يقول:[6] «إن خلق مثل تلك الخارقة على يد الكاذب، فهو

---

(١) السابق ص ١٥٩ وانظر كذلك المحصل ص ٢١٤ .

(٢) الرازى : الأربعين جـ ٢ ص ١٠٧ .

(٣) ابن تيمية : النبوات ص ١٠١ .

(٤) الرازى : الأربعين جـ ٢ ص ١٠٥ .

(٥) ابن تيمية : النبوات ص ٢٤٦ .

(٦) السابق ص ٣٦ .

ممكن والله سبحانه وتعالى قادر عليه، ولكنه لا يفعله لحكمته... والمعجز تصديق، وتصديق الكاذب هو منزه عنه» .

وإذا كان ابن تيمية أيضا يرى «أن العلم بالصدق عند المعجز علم ضروري»(١) .

وإذا كان الرازى يرى «أن الشىء قد يكون جائز الوقوع في نفسه، ومع ذلك فإنا نعلم علما ضروريا، أنه غير واقع» (٢) .

فحاصل الرأيين أنه تعالى يمكنه خلق المعجزة على يد الكاذب، ولكن لما كانت دلالة المعجزة على الصدق ضرورية آمنا من ذلك .

وإن أضاف من يثبت له تعالى الحكمة أن تصديق الكاذب يتعارض مع ذلك .

ولا يعنينا هنا تفصيل الكلام في الصفات الإلهية وقد اكتفينا فى إثباتها بمنهج القرآن الكريم «قياس الأولى، والنظر في الآيات الأنفسية، والآيات الكونية» .

و أضاف بعض من قال بتنزيهه تعالى عن الأغراض والمقاصد وجوز عليه فعل كل شىء أن المعجزة إنما تدل على الصدق لئلا يلزم العجز للبارى عن تصديق نبيه .

أو أنه تعالى وإن لم يفعل شيئا لشىء لكنه قد يفعل الشيئين المتلازمين فيستدل بأحدهما علي الآخر. ولا يخفى ما في ذلك من ضعف كما سبق بيانه .

١٠ - وأما تصور الإغواء من الله تعالى والتشكيك لسبب ذلك، فنقول: مهما علم وجه دلالة المعجزة على صدق النبى علم أن ذلك مأمون عليه .

فإذا اعتبرنا أن دلالة المعجزة «عقلية» فعلى هذا يستحيل صدروها على يد الكاذب لما يلزم من نقض الدليل العقلى بأن يوجد ولا يوجد مدلوله .

«نعم يجوز للبارى تعالى الإضلال لكن لا بالمعجزة لا ستحالة ذلك معها، كما يجوز خلق السواد في محل معين، ولكن لا مع وجود البياض والمعية في النقيضين محال، والإضلال بالدليل قلب الدليل شبهة، والعلم الحاصل عنه جهلا،

---

(١) السابق ص ١٠١ .

(٢) الرازى : الأربعين جـ ٢ ص ١٠٧ .

وذلك محال» [1] .

أما إذا اعتبرنا أن وجه دلالتها «وضعية» فعلى هذا فيستحيل صدروها أيضا على يد الكاذب لما يلزم من الخلف في خبره تعالى لأن حكم المواضعة في الفعل حكم الكلام الصريح .

والكذب يستحيل عليه تعالى لأنه :

- إذا كان الله تعالى عالما بالأشياء كلها على ما هى عليه .

- وامتنع على العالم بالشيء أن يخبر المحل الذى قام به العلم منه بالكذب، وإنما كان الكذب في خبر اللسان اللفظى فقط .

- وكان الله تعالى منزها عن الاتصاف بالألفاظ .

- وكان منزها عن التركيب حتى يقوم العلم والصدق في محل والكذب في محل آخر.

- وكان منزها عن كل صفات النقص، والكذب صفة نقص، فوجب كونه تعالى صادقا [2] .

أما إن قلنا إن دلالة المعجزة عادية بحسب القرائن فحيث حصل العلم الضرورى عنها بصدق الآتي بها، فإنه يستحيل أن يكون كاذبا، وإلا انقلب العلم الضرورى جهلا .

١١ - ويرى ابن تيمية والخطابى والقاضى أبو يعلى ومحمد بن إبراهيم الوزير وغيرهم كثيرون: أنه إذا ثبتت النبوة حصلت المعرفة بوجود الله تعالى وكمالاته، لأنه ليست هناك رسالة سامية بدون مرسل متصف بكل صفات السمو والكمال وإذا ثبت أن هناك مرسلا متصفا بصفات الكمال أغنى ذلك عن النظر والاستدلال في دلائل العقول، وإن لم يكن هناك مانع من صحة النظر وحصول المعرفة به، خلافا

---

(١) السنوسى : شرح الكبرى ص ٤٦٥ .

(٢) انظر الجويني : الإرشاد ص ٢٨٠ ، ٢٨٢ . والغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢٤ . والسنوسى : شرح الكبرى ص ٤٥٥ ، ٤٦٢ .

للأشعرية الذين اشترطوا - قبل تصديق النبى - النظر في إثبات الصانع وأنه حكيم قادر حتى يعلم أنه متى كان كذلك لم يظهر المعجزة على يد الكاذب .

وهذه الطريقة طريقة البدء بإثبات النبوة صحيحة، وذلك لأن دلائلها مأخوذة من طريق الحس لمن شاهدها، ومن طريق استفاضة الخبر لمن غاب عنها .

- ولأن المعجزة التى هى فعل خارق للعادة، تدل بنفسها على ثبوت الصانع وكمالاته كسائر الحوادث.

بل هى أخص لأن الحوادث المعتادة ليست في الدلالة كالحوادث الغريبة التى يحصل في النفوس ذلة من ذكر عظمتها ما لا يحصل للمعتاد إذ هى آيات جديدة فتعطى حقها [(١)] .

ويؤيد ما ذكرنا أن الأنبياء كافة، ما كانوا يأمرون الصبى إذا بلغ التكليف بالنظر إلى الأدلة، ولا الكافر الذى يأتي مصمما على إنكار الله وجميع الشرائع بالنظر قبل تصديق النبى في إثبات الصانع وأنه حكيم، حتى يعلم أن الله متى كان حكيما قادراً لم يظهر المعجز على الكاذب، والذى يدل على هذا أن العلم بالله من طريق الاستدلال لا يحصل لأحد إلا بعد الإتقان لأدلة المتكلمين، بل كثير من الناس يفنى عمره في درسها، وما يحصل على طائل من تحقيقها بل الأقل من العلماء هو الذى يستفيد في هذا الفن، ويتمكن من رد الشبهة، ودفع المناظرين، ولو أن العامى أتى بأدلة المتكلمين وأجوبتهم عن الفلاسفة وإن غير العبارة من غير أن يأخذ عن شيخ، ولا يدرس كتابا لكان من قبيل المعجز الخارق للعادة [(٢)] .

ومما يوضح صحة الاستدلال على إثبات الرب سبحانه وعلى صدق النبوة بالمعجز، قول الله تعالى فيما حكى عن موسى عليه السلام وفرعون. . . **﴿قال لئن اتخذت إلـهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين قال أو لو جئتك بشيء مبين، قال فأت به إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾** [(٣)] .

---

(١) انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى جـ ١١ ص ٣٧٧ ، ٣٧٩ .

(٢) انظر محمد بن إبراهيم الوزير : البرهان القاطع ص ٣٧ .

(٣) الشعراء : ٢٩ - ٣٣ .

فهنا يحتج موسى عليه السلام على نبوته وعلى وجود الرب سبحانه بالمعجزة.

ومما يدل على ذلك أيضا أن السحرة حين ألقوا عصيهم ما كانوا قد عرفوا الله تعالى، قال تعالى:[1] ﴿فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون،إنا لنحن الغالبون،فألقى موسى عصاه،فإذا هي تلقف ما يأفكون،فألقى السحرة ساجدين، قالوا آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون﴾ .

وإذا كان كثير من المتكلمين، قد ذهب إلى ضرورة تقدم المعرفة أولا بثبوت الرب وصفاته التي يعلم بها أنه هو، وإلا تعذر الاستدلال بالمعجزة على صدق الرسول، وإذا كان قد ذهب بعض آخر إلى أن معرفة الله تعالى وصفاته تثبت بثبوت النبوة كما قد تثبت بطريق العقل .

أي أن الاستدلال بالمعجزة لا يشترط تقدم المعرفة بالرب وصفاته .

فإني أرى أن هوة الخلاف بين هذين الرأيين ليست كبيرة جداً كما قد يبدو للوهلة الأولى .

وذلك إذا أخذنا في اعتبارنا أن معرفة الله تعالى أمر فطرى، وقد أخذ الله العهد على بنى آدم في عالم الذر على الإيمان به قال تعالى:[2] ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم،وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ .

ولذلك كان أسلوب القرآن في كثير من الآيات على سبيل التذكير﴿لعلهم يتذكرون﴾[3] ، ﴿إن في ذلك لذكرى﴾[4] ، ﴿إنما أنت مذكر﴾[5] ، ﴿إن هذه تذكرة﴾[6] ، ﴿فهل من مدكر﴾[7] .

فحتى وإن كان ذلك العلم بوجود الله وكماله قد شابه كثير من الغفلة، أو الجحود أو النكران فإن المعجزة التى هى آية للقدرة الإلهية قد تجلوا صدأ

---

(١) الشعراء : ٤٤ – ٤٨ .   (٢) الأعراف : ١٧٢ .

(٣) البقرة : ٢٢١ ، إبراهيم : ٢٥ ، القصص : ٤٣ ، ٤٦ ، ٥١ ، الزمر : ٢٧ .

(٤) الزمر : ٢١ .   (٥) الغاشية : ٢١.   (٦) المزمل : ١٩ ، الإنسان : ٢٩ .

(٧) القمر : ١٥ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٥١ .

الغفلة، والجحود وتذكر النفس بإيمانها الفطرى وعهدها القديم، مثلها مثل آيات خلق السموات والأرض .

فحتى على الرأي القائل بأن الاستدلال بالمعجزة لا يشترط تقدم المعرفة بالرب وصفاته، فإنه لابد من توافر شيء من المعرفة به تعالى، وإن تمثل ذلك في «الفطرة» وإن علاها الصدأ، وإن غشيتها الغفلة .

وهذا الخلاف يؤكد على ما ذهبنا إليه قبل من أن المعجزة نسبية في فهمها وإدراكها .

الفصـــل الســادس

الطعن في المعجـــزة المعنوية

يقول مصطفى صبرى:[1] «إن الصلاح والفساد كثيرا ما يختلفان باختلاف الأنظار فالحكم بصلاح الأفعال ونتائجها يتوقف على معرفة أن فاعلها مصلح حقيقي، ونبى من أنبياء الله، فلو توقفت معرفة كونه نبيا أى مصلحا حقيقيا على الصلاح فى أفعاله كان دورا. وفضلا عن هذا فإنه بعد ما بين المشروعات ونتائجها يقتضى [الأمر] في الأكثر مرور أزمنة طويلة قد يظهر في آخرها أن القائم بدعوى الإصلاح كاذب في دعواه، فيجب على الناس أن يكونوا من أول أمرهم مع مدعى النبوة الذى يتولى هدايتهم إلى الدين الحق على بينة من صدقه فيما ادعاه» .

ويذهب ابن تيمية إلى عكس ما ذهب إليه مصطفى صبرى فيرى أن المستدل إنما يستدل بما يعلمه من الحق والخير جملة على علم صاحبه وصدقه ثم يستدل بعلمه وصدقه على ما لم يعلمه تفصيلا، لأن العلم بجنس الحق والباطل والخير والشر والصدق والكذب معلوم بالفطرة، والعقل الصريح، بل إن جمل ذلك مما اتفق عليه بنو آدم، ولذلك يسمى ذلك معروفا ومنكرا .

فإذا علم أنه فيما علم الناس أنه حق و أنه خير هو أعلم منهم به، وأنصح الخلق فيه، وأصدقهم فيما يقولون علم بذلك أنه صادق عالم ناصح لا كاذب ولا جاهل ولا غاش ويؤكد ابن تيمية على بساطة هذه الطريقة وأن هذه الطريقة يسلكها كل أحد بحسبه، ولا يحتاج في هذا الطريق إلى أن يعلم أولا خواص النبوة، وحقيقتها وكيفيتها، بل أن يعلم أن النبى صادق بار فيما يخبر به، ويأمر به، ثم من خبره يعلم حقيقة النبوة والرسالة [2].

ويقول ابن تيمية كذلك :[3] «والناس يميزون بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة حتى في المدعين للصناعات والمقالات كالفلاحة والنساجة والكتابة، وعلم النحو والطب والفقة، وغير ذلك، فما من أحد يدعى العلم بصناعة أو مقالة إلا و التفريق في ذلك بين الصادق والكاذب له وجوه كثيرة، وكذلك من أظهر قصداً وعملا كمن يظهر الديانة والأمانة والنصيحة والمحبة وأمثال ذلك من الأخلاق فإنه لابد أن يتبين صدقه وكذبه من وجوه متعددة» .

---

(١) مصطفى صبري : القول الفصل ص ١٢٨ .

(٢) انظر ابن تيمية : شرح العقيدة الأصفهانية ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٣) السابق ص ٩١ .

والصحيح هو ما ذهب إليه ابن تيمية وهو نفس ما ذهب إليه الغزالى حيث يقول[1] «إن النبى - يرد مخبراً بما لا تشتغل العقول بمعرفته ولكن تستقل بفهمه إذا عرف، فإن العقل لا يرشد إلى النافع والضار من الأعمال والأقوال والأخلاق والعقائد ولا يفرق بين المشقى والمسعد كما لا يستقل بدرك خواص الأدوية والعقاقير، ولكنه إذا عرف فهم وصدق وانتفع بالسماع فيجتنب الهلاك ويقصد المسعد، كما ينتفع بقول الطبيب فى معرفة الداء والدواء، ثم كما يعرف صدق الطبيب بقرائن الأحوال وأمور أخر، فكذلك يستدل على صدق الرسول عليه السلام بمعجزات وقرائن وحالات فلا فرق» .

فإن قيل: إن إثبات العلم الضرورى الحاصل عن القرائن لا يصح في ما لم يسند إلى المشاهدة بالإجماع .

فنقول إن قرائن الصدق منها أمور مشاهدة محسوسة كثيرة تكفى لتوليد العلم الضرورى بالصدق .

فحال الداعى وكونه صادقا إنما أتى من اختباره في مواقف كثيرة أبانت صدقه وأمانته وبالطبع فقد كانت هذه المواقف مشاهدة محسوسة .

وقيمة الدعوى أيضا تظهر في كثير من المواقف المشاهدة المحسوسة، فمن ينكر أن قيمة الدعوة ظهرت مشاهدة محسوسة في تحريم وأد البنات، والخمر والزنا والظلم. . . الخ ومن ينكر أن قيمة الدعوة ظهرت مشاهدة محسوسة في أمره تعالى بالعدل والإحسان، وإيتاء ذى القربى وبر الوالدين والصدقة . . . الخ يقول تعالى:[2] **﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾** .

وإذا كان خبر التواتر قد أفاد العلم لكثرة القرائن، لأن خبر كل واحد يمثل قرينة تفيد الظن فإذا تجمعت القرائن قويت معاً حتى تفيد العلم الضرورى فكذا شأن قرائن الصدق إذا تجمعت في شخص فإنها تفيد العلم الضرورى بصدقه .

---

(١) الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢٣ .ويتطابق كلام الغزالى هنا مع كلام كثير من المفكرين الغربيين انظر على سبيل المثال
Charles H. Coates: The Red Theology in The Far East .p. 29

(٢) النحل : ٩٠ .

والمعجزة إذا كانت نسبية في درجة خارقيتها وفي فهما فمن الطبعى أن يكون مثل هذا الخلاف حول تفضيل المعجزات الحسية أو المعجزات المعنوية، ولكن ما لا خلاف على وضوح دلالته على الصدق هو مجموع المعجزات وقرائن الصدق التى تكون لنبى يقول تعالى:[1] ﴿**وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها**﴾ .

وإذا كانت المعجزات المعنوية منها ما يرجع إلى حال الداعى ومنها ما يرجع إلى قيمة الدعوة، فقد قامت الأدلة الشرعية والعقلية على إفادة هذه القرائن العلم بالصدق وبيان ذلك فيما يلى :

- أولا: قرائن الصدق التى ترجع إلى حال الداعى :

فالقرآن الكريم يصرح بإفادة قرائن الأحوال العلم بصدق المخبر متى ظهرت عليه وكثرت .

يقول تعالى:[2] ﴿**فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون**﴾ .

إذ لا فرق بالنظر إلى دليل المعجزات بين أن يكون النبى - ﷺ - لبث فيهم عمراً من قبله أو لا إذ فعل المعجز يتعذر على من لم يلبث فيهم عمراً كما يتعذر على من لبث فيهم فلما فرق الله بين الحالتين حتى أثبت الريبة في أحدهما دون الأخرى، وحتى وبخهم بقوله﴿**أفلا تعقلون**﴾ حين لم يصدقوا من لبث فيهم عمراً كثيرا لم يأت بشىء من القرآن ولا جرى على لسانه ذكر النبوة ثم جاء بذلك بعد ما مضى أكثر عمره وكان متصفا بكل صفات الصدق والأمانة والعقل والفطانة علمنا أنه تعالى احتج عليهم بالقرائن التي تفيد العلم إذ لو لم يحتج بها لما كان لها معنى، ولكان إفحام الرسول حين جاء بها ممكنا، وذلك لا يجوز .

وفي قوله ﴿**أفلا تعقلون**﴾ تنبيه على أنه لا ينكر عاقل صدق من قضت القرائن الضرورية بصدقه[3] .

فمحمد - ﷺ - عندما أعلن النبوة لم يكن صدقه موضع شك إو بحث مطلقا لدى أهل مكة، لأنهم كانوا على علم تام بحياته الكاملة بل يسجل التاريخ

---

(١) النمل : ٩٣ .   (٢) يونس : ١٦ .

(٣) انظر محمد بن إبراهيم الوزير : البرهان القاطع ص ٤٣ ، ٤٤ .

أنه لم يكن بمكة أحد عنده شيء ويخشى عليه إلا ووضعه عنده - ﷺ - لما يعلم من صدقه وأمانته .

فلا بد للنبى أن يكون معروفا لقومه معروفة صفاته التى هى في قمة الكمال الإنسانى لهم حتى يكون ثقة، وحتى يكون قدوة فيكون النظر في حاله داعيا إلى الإيمان به .

ومن هذا الصفات أن النبى لا يطمع في الدنيا ولا يطلب أجراً .

- قال تعالى على لسان نوح عليه السلام ﴿فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله﴾ [1] ، وقال ﴿**ويا قوم لا أسئلكم عليه مالاً إن أجرى إلا على الله**﴾[2]، وقال ﴿**وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين**﴾[3]، وقال تعالى على لسان هود عليه السلام ﴿**يا قوم لا أسئلكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون**﴾[4] وقال ﴿**وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين**﴾[5] ، وقال تعالى على لسان صالح عليه السلام: ﴿**وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين**﴾[6]، وقال تعالى على لسان لوط عليه السلام ﴿**وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين**﴾[7]، وقال تعالى على لسان شعيب عليه السلام﴿**وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين**﴾[8] وقال تعالى على لسان الرسول - ﷺ - ﴿**قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد**﴾[9] وقال ﴿**قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى**﴾[10] ، وقال ﴿**أم تسئلهم أجرا فهم من مغرم مثقلون**﴾[11]، وقال مؤمن يس ﴿**اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون**﴾ [12].

---

(١) يونس : ٧٢ . (٢) هود :٢٩ .
(٣) الشعراء : ١٠٩ . (٤) هود : ٥١ .
(٥) الشعراء : ١٢٧ . (٦) الشعراء : ١٤٥ .
(٧) الشعراء : ١٦٤ . (٨) الشعراء : ١٨٠ .
(٩) سبإ :٤٧ .
(١٠) الشوري : ٢٣ .
(١١) القلم : ٤٦ ، الطور : ٤٠ .
(١٢) يس : ٢١ .

بينما قال تعالى على لسان سحرة فرعون ﴿وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾[1] وقال ﴿فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين﴾ [2].

وكذلك ورد على لسان عيسى عليه السلام فى الإنجيل: «من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه. وأما من يطلب مجد الذى أرسله فهو صادق» [3].

والنبى كذلك يجب أن يكون على خلق عظيم فيقول تعالى عن نبينا الكريم ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [4].

ومعلوم أن مدعى النبوة إما أن يكون من أفضل الخلق وأكملهم وإما أن يكون من أنقصهم ولهذا قال أحد أكابر ثقيف للنبى - ﷺ - لما دعاهم إلى الإسلام والله لا أقول لك كلمة واحدة إن كنت صادقا فأنت أجل في عينى من أن أرد عليك وإن كنت كاذبا فأنت أحقر من أن أرد عليك فكيف يشتبه أفضل الخلق وأكملهم بأنقصهم وأرذلهم !

وكذلك من قرائن أحوال الأنبياء عليهم السلام التى تفيد العلم بصدقهم والتى حدثنا عنها القرآن: قوة يقينهم بمواعيد الله وتسليمهم نفوسهم لما أمرالله وإن كان في ظاهره كالجناية على النفس والإلقاء بها الى التهلكة. فهم فقراء مساكين تقتحمهم العيون وتزدريهم القلوب، أتوا أقوامهم بأعظم ما يوجب ضرب أعناقهم، و يشجعهم على قتلهم، فسبوا آلهتهم وسفهوا أحلامهم، وبالرغم من ذلك تحدوهم بأن الله يحميهم منهم حتى تكتمل الرسالة الإلهية كقول نوح عليه السلام وهو وحده لقومه مع كثرتهم وقوتهم ﴿ثم اقضوا إلي ولا تنظرون﴾[5] ونحو ذلك قال هود وكذلك نهى رسولنا - ﷺ - أصحابه عن حراسته بعد نزول قوله تعالى ﴿والله يعصمك من الناس﴾[6] ولم يقف الأمر على ذلك بل تعداه إلى قراباتهم وأرحامهم الذين جبلت الطباع على محبتهم فعادوهم إن هم عادوا الله تعالى، فهذا نوح عليه السلام ترك ابنه يغرق واستغفر من دعائه له بألا يهلك، وهذا إبراهيم - عليه السلام - يتبرأ من أبيه آذر ويعزم على ذبح ولده الذى هو قرة عينيه تنفيذاً لأمر ربه .

---

(١) الأعراف : ١١٣ .
(٢) الشعراء : ٤١ .
(٣) يوحنا ٧ : ١٨ .
(٤) القلم : ٤ .
(٥) يونس : ٧١ .
(٦) المائدة : ٦٧ .

وكذلك من قرائن أحوال الأنبياء عليهم السلام .

أنهم بقوا على طريقتهم المرضية من أول أعمارهم إلى آخرها، يقول نيتشه: «ليست قوة المشاعر العظمى هي التى تخلق العظماء ولكن مدتها » .

والكاذب يبحث عن الدنيا وإذا وجدها ولم ينتفع بها كان ساعيا إلى تضييع الدنيا والآخرة على نفسه .

ومن قرائن أحوالهم أيضا عليهم السلام: أن العاقبة في النهاية تكون لهم، فقد ثبت في البخارى من حديث ابن عباس: «الرسل تبتلى وتكون لها العاقبة» (1) .

والله تعالى أبقى في العالم الآثار الدالة على ما فعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة وما فعله بمكذبيهم من العقوبة وذلك معلوم إما بالبصر والمشاهدة لمن رآهم أو رأى آثارهم وإما بالسمع المتواتر.

قال تعالى: (2) **﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون، حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾** .

ولذلك أكثر القرآن من ذكر قصص الأنبياء لأن النظر في أحوالهم وأخبارهم يفيد العلم الضرورى بصدقهم في دعوى النبوة .

وكذلك من قرائن الصدق للأنبياء عليهم السلام:

ورود البشارى بهم ممن سبقهم من الأنبياء، يقول تعالى: (3) **﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل﴾** .

- وتصرح السنة النبوية كذلك بإفادة قرائن الأحوال العلم بصدق المخبر متى ظهرت عليه .

---

(1) رواه البخاري فى صحيحه فى الباب ١٠٢ ، ١١ من كتاب الجهاد، وفى الباب الرابع من تفسير سورة آل عمران ومسلم فى صحيحه برقم (٧٤) من كتاب الجهاد، وأحمد فى المسند جـ ١ ص ٢٦٣ .

(2) يوسف: ١٠٩، ١١١ .

(3) الشعراء: ١٩٧ .

فقـد روى البخـارى ومسلم عن أبي موسى عن الـنبى - ﷺ - أنه قال :[1] «إن مثلى ومـثل ما بعـثنى الله به كمـثل رجل أتى قومـه، فقال يـا قوم إني رأيت الجيـش بعينى وإنى أنا النذير العـريان[2] فالنجاء. فـأطاعه طائفة من قومـه فأدلجوا فانطلقـوا على مهلتهم، وكذبت طائفـة منهم فأصبحـوا مكانهم فصبحـهم الجيش فأهلكهم واجتـاحهم، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به، ومـثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق» .

فهنا شبه النبى - ﷺ - صدقه بصدق من يعلم صدقه بالقرائن الضرورية في حال لا أحوج منها إلى إيراد الدليل الواضح .

وقد روى البخـارى وأحمد والترمذى عن ابن عـباس «قال لما نزلت ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾[3] صعد النبى - ﷺ - على الصفا فـجعل ينادى يابنى فهر يا بنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر مـا هو فجاء أبو لـهب، وقريش فقـال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خـيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقا قال فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد» [4] .

فاكتفى بذكر معرفتهم لصدقه وأمانته عن الإتيان بمعجزة حسية .

وجـعل - ﷺ - علامـة كذب الدجـال أنه أعور و أنه يدعى الألوهيـة. ولله تعالى صفات الكمال والعور صفة نقص، يقول - ﷺ - : «إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور»[5].

---

(١) رواه البخاري فى صحيحه فى الباب (٢٦) من كتاب الرقاق ،والباب (٢) من كتاب الاعتصام ومسلم فى صحيحه برقم (١٦) من كتاب الفضائل .

(٢) العريان :من لا يكتم سرا ،انظر عبد السلام هارون : المعجم الوسيط جـ ٦ ص ٦١٩ .

(٣) الشعراء : ٢١٤ .

(٤) رواه البخاري فى صحيحه فى الباب الثاني من تفسير سورة الشعراء وفى تفسير سورة سبإ فى الباب الثاني وفى تفسير سورة المسد فى الباب الأول والثاني ورواه الترمذي فى سننه فى تفسير سورة المسد وكذا أحمد فى المسند جـ١ ص٢٨١، ٣٠٧ جـ٣ ص٤٧٦ جـ٥ ص٦٠ .

(٥) رواه مسلم فى صحيحه جـ١٨ ص٥٩ برقم (٢٧٤) من كتاب الإيمان ورقم(١٠٠) من كتاب الفتن والبخاري فى صحيحه فى الباب(١٧) من كتاب التوحيد والباب(٤٨) من كتاب الأنبياء والباب(٧٧) من كتاب المغازي ، وأحمد فى المسند جـ١ ص٢٤٠، ٣١٣، جـ٣ ص٧٩، ١٠٣، ١٧٣، ٢٢٨، ٢٣٣، ٢٥٠، ٢٧٦، ٢٩٠، ٢٩٢، ٣٦٧، جـ٢ ص٣٧، ١٣١، ١٣٥، جـ٥ ص٤٣٥ جـ٦ ص٧٥ .

ثم إن الدجال وإن لم يكن أعور ففى بشريته من النقص ما يدل على كذبه في دعواه الألوهية .

فعلامتا كذبه تعودان إلى قيمة الدعوة، وحال الداعى ولم يهتم - ﷺ - ببيان الفارق بين ما يأتى به الدجال من الشبهات وبين الخارق الحقيقي للعادة الذى يظهره الله على يد أنبيائه تأييداً لهم.

ويقول ابن تيمية: إن موسى بن عمران لما جاء إلى مصر فقال لهارون وغيره إن الله أرسلنى علموا صدقه، قبل أن يظهر لهم الآيات، ولما قال لهارون إن الله قد أمرك أن تؤازرنى صدقه هارون في هذا لما يعلم من حاله قديما ولما رأى من تغير حاله الدال على صدقه .

ويقول ابن تيمية كذلك: إن أبا بكر وزيد بن حارثة وغيرهما علموا صدقه ﷺ علما ضروريا لما أخبرهم بما جاء به وقرأ عليهم ما أنزل عليه وبقى القرآن الذى قرأه آية وما يعرفون من صدقه وأمانته مع غير ذلك من القرائن يوجب علما ضروريا بأنه صادق [١].

وفي ذلك يقول - ﷺ - إن الله بعثنى إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدق وواسانى بنفسه وماله .

ولما كانت السيدة خديجة - رضى الله عنها - تعلم من النبى - ﷺ - أنه الصادق البار وقال لها لما جاءه الوحى «لقد خشيت على نفسى فقالت: كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً فوالله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل[٢] وتكسب المعدوم و تقرى الضعيف وتعين على نوائب الحق»[٣].

«ولما بعث رسول الله - ﷺ - خالد بن الوليد إلى بعض أحياء العرب يدعوهم إلى الإسلام فقالوا: يا خالد صف لنا محمداً قال بإيجاز أم بإطناب، قالوا بإيجاز قال هو رسول الله، والرسول على قدر المرسل»[٤] فاستدل بحاله على نبوته - ﷺ - .

(١) انظر ابن تيمية : النبوات ص ٢٤٤ .

(٢) الكل: الضعيف، المتعب، عبد السلام هارون، وآخرون: المعجم الوسيط جـ٢ ص٨٢٧ .

(٣) رواه البخاري فى صحيحه فى تفسير سورة العلق جـ٦ ص ٢١٥ . (٤) الماوردي : أعلام النبوة ص ٢٥.

ويقول العقاد في ذلك: (١) «خلق محمد بن عبد الله ليكون رسولا مبشرا بدين وإلا فلأى شيء خلق، ولأى عمل من أعمال هذه الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوفيقات، وكل هاتيك المناقب والصفات ؟ .

لو اشتغل بالتجارة طول حياته كما اشتغل بها فترة من الزمن، لكان تاجراً أمينا ناجحا موثوقا به في سوق التجار والشراة. ولكن التجارة كانت تشغل بعض صفاته، ثم تظل صفاته العليا معطلة لا حاجة إليها في العمل مهما يتسع له المجال

ولو اشتغل زعيما بين قومه لصلح للزعامة ولكن الزعامة لا تستوفى كل ما فيه من قدرة واستعداد» .

ثانيا :قرائن الصدق التى ترجع إلى موضوع الدعوة :

فيجب أن يكون هناك تلائما بين موضوع الدعوة وبين الفطرة الإنسانية والواقع الإنساني، كما يجب أن يكون هناك انسجاما تاما بين جزئيات المذهب المكونة له، فلا تتعارض الأخلاق مثلا أو العقوبة المقررة لحمايتها مع الأصول الفكرية لهذا المذهب [٢] .

والقرآن الكريم يصرح بأن النظر في موضوع الدعوة يفيد العلم الضرورى بصدقها

- يقول تعالى: [٣] **﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾** .

- ويقول تعالى: [٤] **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أوقال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾** فتشير هذه الآية إلى أنه يستحيل مع النظر في موضوع الدعوة أن يوجد لبس في التفريق بين أصدق الصادقين وأظلم الكاذبين .

- ويقول تعالى: [٥] **﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين﴾** فتحداهم بما فيه من الهدى، وجعل الهدى علامة صدق الدعوى .

---

(١) العقاد عبقرية محمد ص ١٦، ١٧ .

(٢) يقول السير هنري جونز Sir Henry Jones في كتابه A Faith That Enquires «إن الدين كالعلم يمكن أن ينبني على أساس الفرضية وهذه الفرضية يمكن أن تختبر بالتجربة. وتجربة الفرضية هى موافقته أو عدم موافقته مع باقي الأفكار

انظر Abel,J.Jones :In Search of Truth pp.165:166

(٣) النساء : ٨٢ .　　(٤) الأنعام : ٩٣ .　　(٥) القصص : ٤٩ .

- ويقول تعالى:[١] ﴿**الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين**﴾ فنفى وجود الريبة لوجود الهدى .

- ويقول تعالى على لسان الجن[٢] ﴿**إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم**﴾ فعرفوا صدق الرسول بالنظر في موضوع الدعوة فهى دعوة إلى الهداية ولا تخرج فى إطارها العام عما جاء به موسى .

ويقول تعالى:[٣] ﴿**الذين يتبعون الرسول النبى الأمي الذى يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون**﴾ .

فجعل تعالى علامة صدق الرسول - ﷺ - فيما يدعو إليه .

وقد ورد في الكتاب المقدس على لسان المسيح عليه السلام.

«إن قال لكم أحد هو ذا المسيح هنا أو هو ذا هناك فلا تصدقوا لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة، ويعطون آيات وعجائب لكى يضلوا لو أمكن المختارين أيضا»[٤] ولكنه عليه السلام جعل الفرق في قوله«من الثمر تعرف الشجرة»[٥] وورد كذلك في الكتاب المقدس: «احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة من ثمارهم تعرفونهم هل جتنون من الشوك عنبا أو من الحسك تينا هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثماراً جيدة وأما الشجرة الردية فتصنع أثماراً ردية لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثماراً ردية ولا شجرة ردية أن تصنع أثماراً جيدة كل شجرة لا تصنع ثمراً تقطع وتلقى في النار فإذا من ثمارها تعرفونهم» [٦].

وفى إنجيل يوحنا نجد أن النظر إلى حال الداعى وقيمة الدعوى كان سببا كافيا لإيمان السامريين[٧] والقائد الملكى[٨].

---

(١) البقرة :١ : ٢ .وهو نفس ما جاء فى سفر إشعياء:«هكذا تكون كلمتى التى تخرج من فمي لا ترجع إلى فارغة بل تعمل ما سررت به وتنجح فى ما أرسلتها له» ٥٥ :١١ . (٢) الأحقاف : ٣٠ . (٣) الأعراف : ١٥٧

(٤) مرقس الأصحاح (١٣) آية ٢١ ،٢٢ . وانظر كذلك متى الأصحاح (٢٤) آية ٢٤.

(٥) متى الأصحاح (١٢) آية ٣٣ . (٦) السابق الأصحاح (٧) أية ١٥ ، ٢٠.

(٧) يوحنا ٤ : ٤٠ ـ ٤١ . (٨) السابق ٤ : ٥٠ .

ويقول تعالى:[(١)] ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون...﴾ .

والمعنى أنه لو كانت الدعوة إلى طلب الدنيا، كان ذلك الداعي أفاكا أثيما، والذين يعينونه هم الشياطين وأما أنا فأدعوا إلى الله وإلى الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة، ولا يكون هذا بإعانة الشياطين بل بإعانة الله تعالى فاستدل بكون دعوته إلى الله تعالى وإلى الحق على كونه نبيا صادقا لا ساحراً خبيثا ولا شاعراً أيضا لأن﴿الشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون﴾ فالشاعر إنما يدعو إلى الطمع في الدنيا وإلى الترغيب في اللذات والشهوات أما أنا فأدعوا إلى الله تعالى، وإلى الدار الآخرة، فامتنع أن يكون الناصر هنا : هو الشيطان فظهر الفرق .

وقال تعالى عن المنافقين:[(٢)] ﴿فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول﴾ «وقيل ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه»[(٣)] .

ومن تأمل ما جاء به الرسل عليهم السلام من الشرائع والعقائد علم علما ضروريا أن مثل هذا يمتنع صدوره عن كاذب متعمد أو مخطئ ضال يظن أن الله أرسله وهو لم يرسله .

وفي قوله تعالى:[(٤)] ﴿قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فسئلوهم إن كانوا ينطقون فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون.قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾ .

فهو لم يدعوهم إلا إلى ما شهدت به فطرتهم واعترفوا به في قرارة أنفسهم ومنعهم العناد من التصريح به ﴿فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون﴾ وهو لم يدعوهم إلا إلى ما تشهد به عقولهم ﴿ أفلا تعقلون﴾ .

ويقول تعالى على لسان هود عليه السلام:[(٥)] ﴿ياقوم لا أسألكم عليه أجرا

---

(١) الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٦.
(٢) محمد : ٣٠ .
(٣) ابن تيمية: شرح العقيدة الأصفهانية ص٩٢ .
(٤) الأنبياء : ٦٢ ، ٦٧ .
(٥) هود : ٥١ .

إن أجـرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعـقلون﴾ فهو يتعـجب من عدم إيمانهم فما يدعوهم إليـه يدركه من له أدنى عقل ﴿أفلا تعـقلون﴾ فهو أمر فطرى مـركوز في النفس .

ويقول تعـالى على لسان مـؤمن يس :[1] ﴿**وجـاء من أقـصى المدينة رجل يسعى قال يقوم اتبـعوا المرسلين اتبعوا من لا يسئلكم أجراً وهو مـهتدون،ومالى لا أعبـد الذى فطرنى وإليه ترجـعون،ءأتخـذ من دونه آلهة إن يردن الرحـمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون إنى إذاً لفى ضلال مبين**﴾ .

فاستدل مؤمن يس على صدق الأنبياء عليهم السلام بالنظر إلى حالهم، فهم لا يسألون الأجر، وهم مـهتدون وبالنظر إلى حال دعوتهم فـهى دعوة إلى الهداية وإلى الفطرة التى تشهد بوجود الله تعالى وتنزهة عن كل النقائص .

ففى قوله تعالى ﴿**ومالى لا أعـبد الذى فطرنى**﴾ إشـارة إلى أن الفطرة هى التى تنادى بعبادة الفـاطر تعالى ومن ثم العجب حقا ممن لا يستـجيب لهذا النداء الفطرى﴿**ومالى لا أعبد الذى فطرنى!**﴾ فما يدعو إليه الأنبياء ليس إلا ما تنادى به الفطرة .

ثم إنه من ﴿**الضلال المبين**﴾ أن يخالف الإنسان فطرته وعقله ويعبد من دونه تعالى مالا ينفع ولا يضر .

ويقول تعالى على لسـان قوم نوح عليه السلام:[2] ﴿**فقال الملأ الذين كفروا من قـومه ما نراك إلا بـشرا مثـلنا وما نراك اتبـعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين**﴾ .

فهم قد«تنقصوا من اتبعه ورأوهم أراذلهم وقد قيل إنهم من أفناء الناس وهم ضعـفاؤهم كما قـال هرقل: «وهم اتباع الرسل»ومـا ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق وقـولهم" «بادى الرأى»[قيل]: أي بمجرد مـا دعوتهم استـجابوا لك من غـير نظر ولا روية وهذا الذى رمـوهم به هو عين مـا يمدحون بسـببـه رضى الله عنهم. فـإن الحق الظاهر لا يحـتاج إلى روية ولا فكر ولا نـظر، بل يجب اتباعـه والانقياد له متى ظهر، ولهذا قـال رسول ـ الله ﷺ ـ ما دحا الصديق: «ما دعوت

---

(١) يس :٢٠ ، ٢٤ .
(٢) هود : ٢٧ .

أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر فإنه لم يتلعثم»[1] .

ويقول تعالى:[2] ﴿كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إنى لكم رسول أمين،فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون﴾ .

فاستدل على نبوته بحاله وبقيمة دعوته فهو أمين ولا يسأل الأجر ولا يدعو إلا إلى ما تشهد به الفطرة ولذلك جاءت العبارة في صيغة التعجب فما يفعلونه أمر معلوم بطلانه بالفطرة ﴿أتأتون الذكران من العالمين! وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم !﴾ .

ويقول تعالى:[3] ﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين.أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين﴾ .

فاستدل على نبوته بحاله وبقيمة دعوته فهو رسول أمين ولا يسأل أجراً ولا يدعو إلا إلى العدل وعدم الفساد في الأرض وتقوى الله وكل ما هو معلوم بالفطرة أنه حق وأنه خير .

ويقول تعالى:[4]﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾ وهذا في شأن الداعى وتستمر الآيات،فيقول تعالى: ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ وهذا في شأن الدعوة .

ولذلك يقول تعالى على لسان الرسل:[5]﴿قالت رسلهم أفى الله شك فاطر

---

(١) ابن كثير : قصص الأنبياء ص ٧٣ .

(٢) الشعراء : ١٦٠ ، ١٦٦ .

(٣) الشعراء : ١٧٦ ، ١٨٤ .

(٤) العنكبوت : ٤٨ .

(٥) إبراهيم : ١٠ .

السموات والأرض﴾ فهو حقا أمر يدعو إلى العجب أن يشك الناس فى الله وهو فاطر السموات والأرض، وكل ما حولنا يدل عليه وعلى وجوده وبالتالى على صدق الأنبياء الذين لم يدعوا إلا إلى ما دلت عليه الآيات من حولنا .

ويقول تعالى: [1] **﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾** فالبرهان الحقيقي هو ذلك النور المبين .

ويقول تعالى[2] **﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد، قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شىء شهيد قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى إنه سميع قريب﴾** .

فهو هنا يستدل على نبوته بحاله: وهو أنه لا يطلب الأجر وبحال دعوته وهى انها دعوة إلى الحق وأن مثل هذا الحق لا يمكن أن يقول به من كان به جنة وضعف في عقله .

وروى البخارى ما يفيد بأن النظر في حال صاحب الدعوة وقيمتها يولد العلم بالصدق حيث يروى في صحيحه[3] «عن عبد الله بن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام في المدة التى كان رسول الله - ﷺ - مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهم بإيلياء فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم ودعا ترجمانه، فقال أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟فقال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم نسبا فقال أدنوه منى وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ثم قال لترجمانه قل لهم إنى سائل هذا عن الرجل فإن كذبنى فكذبوه فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علىّ كذبا لكذبت عنه، ثم كان أولّ ما سألنى عنه أن قال كيف نسبه فيكم؟ قلت هو فينا ذو نسب، قال فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟قلت لا قال فهل كان من آبائه

---

(١) النساء : ١٧٤ .

(٢) سبإ : ٤٦ : ٥٠ .

(٣) رواه البخاري فى صحيحه جـ١ ، ص٥ ،٦ .

من ملك؟ قلت لا قال فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟فقلت بل ضعفاؤهم، قال أيزيدون أم ينقصون؟قلت بل يزيدون قال فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟قلت لا قال فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت لا قال فهل يغدر؟قلت لا و نحن منه في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها قال [أبو سفيان] ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة قال فهل قاتلتموه؟ قلت نعم، قال فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه [(١)] قال ماذا يأمركم؟ قلت يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والعفاف والصلة .

فقال للترجمان قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسى بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟فذكرت أن لا قلت فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه وهم اتباع الرسل وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟فذكرت أن لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب[(٢)] وسألتك هل يغدر؟فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر وسألتك بما يأمركم؟فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والعفاف فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه .» .

---

(١) فإن سنة الله فى الأنبياء والمؤمنين أن يبتليهم بالسراء والضراء لينالوا درجتا الشكر والصبر .

(٢) فإن الكذب والباطل لابد أن ينكشف فى آخر الأمر فيرجع عنه أصحابه ويمتنع عنه من لم يدخل فيه ولهذا أخبرت الأنبياء المتقدمون أن المتنبي الكذاب لا يدوم إلا مدة يسيرة،

[ابن تيمية : شرح العقيدة الأصفهانية ص ٩٥ ، ٩٦] .

وروى عن بعض الأعراب أنه قال وقد سئل بم عرفت أنه رسول الله؟ فقال: ما أمر بشيء فقال العقل: ليته ينهى عنه، ولا نهى عن شيء فقال ليته أمر به.

وهو ما استدل به جعفر بن أبى طالب أيضا في حديثة مع النجاشى حين قال عن الإسلام «جاءنا به رجل من أنفسنا قد عرفنا وجهه ونسبه بعثه الله إلينا كما بعث الرسل إلى من قبلنا فأمرنا بالبر والصدقة والوفاء وأداء الأمانة ونهانا أن نعبد الأوثان وأمرنا بعبادة الله وحده لا شريك له فصدقناه»[١].

وروى أنه لما ظهر النبي - ﷺ - بمكة ودعا إلى الإسلام: بعث أكثم بن صيفى ابنه «حبيشا» فأتاه بخبره فجمع بنى تميم وقال لهم فيما قال: إن ابنى شافه هذا الرجل مشافهة وأتانى بخبره وكتابه يأمر بالمعروف وينهى فيه عن المنكر ويأخذ بمحاسن الأخلاق ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان وترك الحلف بالنيران وقد عرف ذوو الرأي منكم: أن الفضل فيم يدعو إليه وأن الرأي ترك ما ينهى عنه.

ثم يقول: إن الذى يدعو إليه محمد لو لم يكن دينا لكان في أخلاق الناس حسنا.

وفي عصرنا الحديث نلاحظ أن جل من يعلنون إسلامهم: أن ما كان وراء إسلامهم هو بساطة الإسلام ومنطقيته وقابليته للتطبيق وموازنته بين الروح والمادة وشمول تشريعه، وعظمته وموازنته بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة وعالمية رسالته وإنسانيتها وصلاحيتها لكل زمان ومكان ونقاؤه من التحريف والتبديل الخ[٢].

وفي ذلك يقول ابن تيمية:[٣] «الدين الصحيح أوجب لطاعة النفوس وحصول الرياسة من الخارق المجرد كما هو واقع فإنه لا نسبة لطاعة من أطيع لدينه إلى طاعة من أطيع لتأثيره إذ طاعة الأول أعم وأكثر والمطيع بها خيار بنى آدم عقلاودينا وأما الثانية فلا تدوم، ولا تكثر ولا يدخل فيها إلا جهال الناس كأصحاب مسيلمة الكذاب، وطليحة الأسدى ونحوهم، وأهل البوادى والجبال

(١) ابن كثير: البداية والنهاية جـ٣ ص٧١.

(٢) انظر عبد اللطيف الجوهري: رجل من أمة التوحيد أسلم على يده (٤٠٠٠).

(٣) ابن تيمية: قاعدة شريفة ص ٣٣.

ونحوهم ممن لا عقل له ولا دين» .

ومما قد يؤكد صحة أن النظر في حال الداعى وقيمة الدعوة يؤدى إلى العلم الضرورى بالصدق أن أصل جميع البشر وهو آدم عليه السلام ربما كان أول من ادعى هذه الدعوة وسلك هذا السبيل ولا حاجة له إلى الكذب والتزوير إذ لا أحد معه فيحتال عليه ويخدعه ليأخذ ماله إلا من هو طوعه وفرعه ومسعده ومتبعه(١) .

وعلى ذلك فالعالم ما زال فيه نبوة من آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد - ﷺ - .

فقد روى الزمخشرى عن ابن عباس أن الخلق كانوا أمه واحدة على الحق لا اختلاف بينهم عشرة قرون من بعد آدم عليه السلام إلى وقت نوح عليه السلام(٢) ذكره في تفسيره قوله تعالى: (٣)﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين﴾ ويقول تعالى: (٤)﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ .

ومن ثم فقد علم جنس ما يدعوا إليه الرسل وجنس أحوالهم .

يقول تعالى: (٥)﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ .

ومما يؤكد صحة ذلك أننا إذا نظرنا فيما يدعو إليه الأنبياء جميعا نلاحظ عدم اختلافهم مع أن الذى أخبروا به أمر غير مشاهد، بل أمر تحيرت فيه العقول وخبطت خبط عشواء وطلبت تحقيقه فلم ترجع بطائل فالفلاسفة اختلفوا أشد الاختلاف والأنبياء عليهم السلام ما كانو من أهل المنطق والفلسفة والجدل وإنما كانوا سالكين مسلك المتعبدين، ثم أتى كل واحد منهم بعقائد وشرائع إليها مرجع ومنتهى كل ناظر .

ثم إن القرآن والتوراة يتفقان في عامة المقاصد الكلية من العقائد والشرائع .

ومن ثم كان قول النجاشى: إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، وقول ورقة بن نوفل: إن هذا هو الناموس الذى كان يأتي موسى (٦) .

ويقول تعالى في ذلك :

---

(١) انظر محمد بن إبراهيم الوزير: البرهان القاطع ص ١٦ .

(٢) انظر الزمخشري :الكشاف جـ١ص ٣٥٥ .   (٣) البقرة : ٢١٣ .

(٤) فاطر : ٢٤ .   (٥) البقرة :١٤٦ .   (٦) انظر ابن تيمية: شرح العقيدة الأصفهانية ص ١٥٢ .

- ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به،وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾[1].

- ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾[2].

- ﴿قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم،ومن عنده علم الكتاب﴾ [3].

وصدق الله العظيم

وها هو موسى بن ميمون اليهودى يفرق بين الصادق والكاذب بالنظر إلى حال الداعية وقيمة الدعوة فيقول :[4] «إذا ما وجدت شريعة. . . لا يكون فيها تعريج بوجه على أمور نظرية،ولا التفات لتكميل القوة الناطقة،ولا يبالى فيها عن الآراء كانت صحيحة أو سقيمة،بل القصد كله انتظام أحوال الناس كلهم بعضهم مع بعض بأي وجه كان،وأن ينالوا سعادة ما مظنونة بحسب رأي ذلك الرئيس، فتعلم أن تلك الشريعة ناموسية. . .

وإذا وجدت شريعة جميع تدبيراتها تنظر فيما تقدم من صلاح الأحوال البدنية،وفي صلاح الاعتقاد أيضا،وتجعل وكدها إعطاء آراء صحيحة في الله تعالى أولا وفي الملائكة،وتروم تحكيم الإنسان وتفهيمه وتنبيهه حتى يعلم الوجود كله على صورة الحق،فاعلم أن ذلك التدبير من قبله تعالى وأن تلك الشريعة إلـهية .

وبقى أن تعلم هل مدعى ذلك هو الكامل الذى أوحى إليه بها أو هو شخص ادعى تلك الأقاويل وانتحلها؟وجه امتحان ذلك هو اعتبار كمال ذلك الشخص وتعقب أفعاله،وتأمل سيرته،وأكبر علاماتك اطراح اللذات البدنية (و) التهاون بها.

*****

وبعد هذه الدراسة للمعجزة المعنوية يتبين لنا بوضوح أن اهتمام علم الكلام بالمعجزة الحسية على حساب المعجزة المعنوية لظنة أنها أقوى دلالة على الصدق كان خطئا كبيرا .

---

(١) الأحقاف : ١٠ .   (٢) يونس : ٩٤ .

(٣) الرعد : ٤٣ .   (٤) ابن ميمون : دلالة الحائرين ص ٤١٧ .

الخاتمـــة

بعد هذه الدراسة التى أوضحنا فيها ماهية المعجزة وأثبتنا فيها برهانيتها، تصديقا لقوله تعالى ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[1] وقوله ﴿وقل الحمد لله سيريكم آياتة فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون﴾[2] وقوله ﴿خلق الإنسان من عجل،سأريكم آياتى فلا تستعجلون﴾[3] نعرض لأهم النتائج التى توصلنا إليها من خلال البحث آملين بذلك أن نكون قد وفقنا في مرادنا،وأن يتقبل الله منا هذا العمل على ما به من نقص،وقصور مازلت استشعره كلما عاودت القراءة .

ولولا قول العماد الأصفهانى:«إنى رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده:لو غير هذا لكان أحسن،ولو زيد هذا لكان يستحسن،ولو قدم هذا لكان أفضل،ولو ترك هذا لكان أجمل،وهذا من أعظم العبر. وهو دليل استيلاء النقص على كافة البشر» .

ما كنت حاولت نشر هذا العمل ولما أطلعت عليه أحداً،طلبا للكمال والكمال لا يكون إلا لله وحده .

- أهم نتائج الدراسة :

- إننا لا نرى بأسا بتعدد الإطلاقات على ما يحدث على أيدى الأنبياء من خوارق حقيقية .

- إن التعريف الصحيح للمعجزة في الاصطلاح هي أنها أمر خارق لعادة عامة الخلق أجمعين يجريه الله على يد مدعى النبوة،تصديقا له .

- إن المعجزة كما تدل على صدق الأنبياء ومن ثم على وجود النبوة،تدل أيضا على وجود الله تعالى وتعرفنا كمالاته،وتتضمن الكثير من الحكم والإشارات الرمزية الدقيقة .

- إن بحث مسألة المعجزات يثبت نبوة النبي محمد - ﷺ - ويثبت ناسخية الرسالة المحمدية لكل ما سبقها من الشرائع السماوية بأن كل ما جاء قبلها من الشرائع السماوية يفتقد الآن دليل النبوة المعجز الحسي والهدائى لفقدان شرط صحة التواتر،ولما أصاب هذه الشرائع من التحريف ويؤكد على خاتمية الرسالة المحمدية بأن كل ما جاء بعدها من دعاوى للنبوة دعاوى باطلة لا فتقادها دليل النبوة المعجز

---

(١) فصلت : ٥٣ . (٢) النمل : ٩٣ . (٣) الأنبياء : ٣٧ .

سواء كان حسيا أو هدائيا كما هو الحال عند القاديانية والبهائية والبابية وغيرهم .

ـ إن هناك ما لا يحصى من الفروق بين الخوارق غير الحقيقية والخوارق الحقيقية، وبيانها يحمى العامة المنبهرين بالخوارق آياً كانت حقيقية أو غير حقيقية غير مفرقين بين النوعين من اتخاذ هذه الخوارق غير الحقيقية دليلا على التأييد الإآهى، كما هو مشاهد عند ادعياء النبوة، والتصوف، والرهبنة .

ـ إن للكرامة وجودا، وإن إثباتها لا يطعن في المعجزة.

ـ إن المعجزة إنما تدل على نبوة صاحبها لا على ألوهيته .

ـ يقسم العلماء المعجزة أقساماً متعددة لاعتبارات مختلفة، منها الصحيح، ومنها غير ذلك، ولعل أهم هذه الأقسام تقسيم المعجزة من حيث كونها حسية أو معنوية .

ـ إن دلالة المعجزة المعنوية على الصدق أقوى من دلالة المعجزة الحسية وإن كان لكل منهما مخاطبوها.

ـ إن المعجزة ممكنة، وإنها من الله تعالى، وإن كانت بقدرة الملائكة، فالله تعالى هو الخالق للأسباب و المسببات .

ـ إن التواتر موجب للعلم الضرورى، ولا وجه للطعن فيه .

ـ إنا نقبل التأويل الرمزى للمعجزة بشروط .

ـ أما التأويل الطبعى فنرفضه لأنه يجعل من المعجزة وهى أمر خارق للعادة، أمرا غير خارق للعادة .

ـ إن المعجزات نسبية في دلالتها وفي درجة خارقيتها إلا أنها متساوية الأحكام في ثبوت الإعجاز، وتصديق مظهرها على ما ادعاه من النبوة .

ـ إن محصلة دلائل صدق النبوة لكل نبى قطعية الدلالة .

وختاما، أرجو الله العلي القدير أن أكون قد وفقت

جمال الحسينى أبو فرحة

الملاحق

ملحق رقم (١) حول معجزتى الإسراء والمعراج

ملحق رقم (٢) فى حقيقة سحر الرسول ﷺ

ملحق رقم (٣) في عصمة الملائكة

ملحق رقم (١)

حول معجزتي الإسراء والمعراج [١]

فمن معجزات رسولنا - ﷺ - الإسراء والمعراج والإسراء والمعراج قد تم بالروح والجسد ولا تعلق لمن ادعى أنه إنما تم بالروح فقط بقوله تعالى **﴿وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس﴾** [٢] .

لأن الرؤيا لا تستخدم كما زعموا إلا لما يرى في المنام فقط وأما ما يرى في اليقظة فإننا نقول عنه(رؤية) لأنا إذا عدنا للغة العربية قبل أن ينزل القرآن.. نجد أن كلمة (الرؤيا) وردت أيضا للبصر. .وذكرت كذلك في كثير من قصائد الشعر لفحول الشعراء العرب. .والفرق الوحيد أنهم كانوا يستخدموا كلمة (الرؤيا) في البصر. .عندما يتحدثون عن الأشياء الغريبة التى تشبه الحلم [٣] .

وفي نفس هذه الآية التى استشهدوا بها ما يناقض قولهم، لأن الإسراء والمعراج، كيف يكون فتنة إذا كان أمراً منامياً، ولم يحدث بالروح والجسد .

فما يحدث في المنام لا يخضع لنقاش العقل، ولا يخضع لمنطق الأحداث. . وفي قصة يوسف عليه السلام رأى الملك **﴿سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف﴾** [٤] والبقر لا يأكل بعضه والعجاف لا يأكلن السمان، ولم يناقشة أحد في ذلك معترضا .

ويرى بعض العلماء أن قوله تعالى **﴿سبحان الذى أسرى بعبده﴾** دلالة على أن الإسراء كان بالروح والجسد لأن«كلمة عبد لا تطلق إلا عند التقاء الروح والجسد» [٥] .

وأرى أن العبودية متحققة دائما أبداً في جميع الصور، بدليل قوله تعالى: **﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا﴾** [٦] سواء كان روحا أو

---

(١) وهذا المبحث هو محاولة للتطبيق العملي لشروط المعجزة التي اشترطناها فى بداية هذه الدراسة على معجزتي الإسراء والمعراج وكان اختياري لهاتين المعجزتين بالذات لما تتمتعان به من سمات خاصة تثري الفهم عند التطبيق وستبدو هذه السمات جلية عند التحليل .

(٢) الإسراء : ٦٠ . (٣) انظر الشعراوي : المعجزة الكبرى ص ٤٧ ، ٤٩ .

(٤) يوسف : ٤٣ . (٥) الشعراوي : السابق ص ٣٦ ، ٣٧ . (٦) مريم : ٩٣ .

روحا وجسدا. إنساً أم جناً أم حيواناً أم نباتاً أم جماداً أم غير ذلك .

ونحن لا ننكر أن يكون الإسـراء قد حدث منامـا أولاً ثم حدث واقعـا بعد ذلك، بل هذا هو الأقرب للصواب ولما ورد من روايات من أن حادثة الإسراء بدأت عندما كان رسول الله ـ ﷺ ـ نائما.. في الكعبـة.. وقيل في بيته.. وقيل في بيت أم هانئ.. وكل الروايات صحيحه.. لأن رؤيا الأنبياء صادقة.. وتثبيت الأنبياء قبل المعجزات يأتى من الله سبحانه وتعالى حتى لا يفاجأ الرسول بالمعجزة فمثلا موسى عليه السلام، ،أراد الله سبحانه وتعـالى أن يرسله إلى فرعون.. والله تبارك وتعالى يعلم أن موسى سيواجه سحـرة فرعون.. لذلك أراد الحق جل جلاله قبل أن يلقى موسى عصاه.. فتتحول إلى حية تلقف حبال السحرة أن يدرب موسى عليه السلام على هذه التـجـربة حـتـى إذا واجـه السـحـرة لا ينزعج، ولا تأخـذه المفـاجـأة فيخاف.. ولكن الله أراد لموسى أن يكون ثابتـا وقت المعجزة قال تعالى ﴿**وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصاى**﴾ [1] والسؤال هنا إنما يهدف إلى أن يتأكد موسى يقينا أن ما في يمينه هى العصا.. حتى إذا تغيرت صورتها إلى هيئة أخرى.. لا يهزه الحدث.. بل يتأكد من أن هذه معجزة من الله.. وإذا رآها تحدث أمامه مرة ثبت في المرة الثانية ولذلـك قال له الحق جل جلاه: ﴿**ألقها يـا موسى فألقاها فـإذا هي حية تسعى**﴾[2] ولقد خاف موسى أثـناء التجربة فثبته الحـق سبحانه و﴿**قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى**﴾[3] بل إن التجربة أخذت أكـثر من شكل.. يقول تعالى ﴿**وأن ألق عصاك فلما رءاها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين**﴾ [4] . [5].

فالإسراء والمعراج قد تم بالروح والجسد .

والإسراء والمعراج هو معـجزة بدليل قوله تعالى: [6] ﴿**سبحان الذى أسرى بعبده**﴾ وكلمـه سبحـان في القرآن الـكريم لا ترد إلا عند ذكر الأشـياء العـجيـبة المعجزة لأنها تنزيه لله. بأن الفعل الذى تم لا يقدر على فعله إلا الله جل جلاله .

إلا أنه قد يقال أيضا إنه ليس بمعجز حسى لنا وذلك لأن الله تعالى قد اختار

---

(١) طه : ١٧، ١٨ . (٢) طه : ١٩ ، ٢٠ . (٣) طه : ٢١ . (٤) القـصص : ٣١ .

(٥) انظر الشعراوي : المعجزة الكبرى ص ٤٤ ، ٤٦ . (٦) الإسراء : ١ . وانظر سفر دانيال ٧ :١٢ ـ ١٤ وسفر ملاخي ٣ :١ ورسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس ١٢ :١ـ٤ فهناك إشارات إلى معجزة الإسراء والمعراج .

لها أن تتم ليلا دون أن يراها أحد، بعكس معجزة موسى: ﴿**موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى**﴾ [(١)] وبعكس معجزة إبراهيم - عليه السلام ﴿**فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون**﴾ [(٢)] وهنا ﴿**سبحان الذى أسرى بعبده ليلا**﴾ .

ثم إنه في قوله تعالى ﴿**لنريه من آياتنا**﴾ [(٣)] نجد أنه تعالى قد حدد مهمة الإسراء والمعراج في أن يرى الرسول - ﷺ - من آيات ربه .

إذن فهدف الإسراء والمعراج . . هو أن يرى الله جل جلاه رسوله - ﷺ - من الآيات ما يذهب عنه الضيق والحزن . . الذى أصابه . . عليه الصلاة والسلام من جحود أهل الأرض، وإيذائهم، وعنادهم . . ويؤكد له أن السماء بملكوتها الواسع وآياتها العجيبة تحتفى به .

وهذا هو الذى كان من خصائصه ﷺ أما مجرد قطع تلك المسافة، فهذا يكون لمن تحمله الجن، وقد قال العفريت لسليمان ﴿**أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك**﴾[(٤)]، وقال الذى عنده علم من الكتاب ﴿**أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك**﴾ [(٥)]، ومحمد - ﷺ - أفضل من الذى عنده علم الكتاب ومن سليمان فكأن الذى خصه الله به أفضل من ذلك، وهو أنه أسرى به في ليلة ليريه من آياته[(٦)] .

وعلى ذلك يكون الإسراء والمعراج عبارة عن ثلاثة أشياء: إسراء، ومعراج، ورؤية للآيات فأما الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فقد يقال إنه ليس بمعجز حسى لنا لأنه قد تم ليلا، ولم يره أحد. أما ما أخبر به الرسول - ﷺ - من وصف دقيق لبيت المقدس، وهو لم يره قط أو من ذكر لأحوال القوافل التى كانت في الطريق فيدخله احتمال إخبار الجن له بذلك بل ربما حملته الجن فعلا إلى هناك .

وكذا المعراج فهو وإن كان خارقا لعادة الإنس والجن إلا أنه لم يره أحد، ولا استدل الرسول - ﷺ - على حدوثه بأي دليل سوى أنه صادق والصادق لا يكذب فهو ليس بمعجز حسى لنا .

وأما ما رآه - ﷺ - من الآيات الكبرى فهذا يمكن اعتباره معجزة تكريم له -

---

(١) طه : ٥٩ .　(٢) الأنبياء : ٦١ .　(٣) الإسراء : ١ .

(٤) النمل : ٣٩ .　(٥) النمل : ٤٠ .　(٦) انظر ابن تيمية : النبوات ص ١١٧ .

ﷺ - أو معجزة هدائية لنا باعتبار أن الصلاة مثلا شرعت في ليلة الإسراء والمعراج، وأن ما حكاه - ﷺ - عن هذه الحادثة من التخويف بالنار والتبشير بالجنة كان له أثر هدائي للخلق (١) .

ويقول ابن تيمية: إن الرسول - ﷺ - «لم يحتج بالمسرى على نبوته بل جعله مما يؤمن به فأخبرهم به ليؤمنوا به، والمقصود إيمانهم بما أخبرهم من الغيب الذى رآه تلك الليلة» (٢) .

ويقول: (٣) «فكان ذلك ابتلاء ومحنة للناس كما قال تعالى ﴿**وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس**﴾ (٤) أي محنة وابتلاء للناس ليتميز المؤمن عن الكافر، وكان فيما أخبرهم به أنه رأى الجنة والنار، وهذا مما يخوفهم به» ويبشرهم، فيتحقق الترهيب والترغيب .

إلا إنى أرى أن الإسراء لا مانع من عده من المعجزات الحسية أيضا .

لأنه وإن تم ليلا ودون أن يراه أحد، فلعل لذلك حكمة من الحكم، ولعل هناك من الأدلة التى قد يعرفها قوم دون قوم ما يثبته لهم، إن كان ما سبق أن ذكرناه من الأدلة لا يثبته أو يمكن الشغب فيه كإخباره عليه السلام بما رآه في طريق الرحلة، ووصفه للمسجد الأقصى بدقة متناهية وهو لم يره قط(٥) ونحن فيما سبق لم نشترط العلانية للمعجزة وإنما كان الشرط الأساسى لها كونها خارقا حقيقيا، وهذه المعجزة بالنسبة للبشر خارق حقيقي إلا أنهم قد يجوزون حمل الجن له -ﷺ- والإسراء به، إلا أن من البشر من قد ينتفى عنده ذلك الاحتمال لسبب من الأسباب إما لفهمه الفارق بين الإسراء وما يكون بحمل الجن وإما لجهله بقدرة الجن على مثل ذلك، وإما لاقتدائه بمن يعرف الفارق وإما ثقة في صاحب الخارق .

والإسراء بالنسبة للجن قد يكون معجزا بالنسبة لهم فهم قد يكونون شاهدوه - وهم من أمة الدعوى كما أخبر القرآن بذلك في سورة الجن - وقد علموا أنه ليس بحملهم له - ﷺ - فزالت هذه الشبهة عنهم .

---

(١) انظر فى ذلك الأثر الهدائى:الدكتور عبد الحليم محمود:دلائل النبوة ومعجزات الرسول ص ٢٨٣، ٣٣٩.
(٢) ابن تيمية : النبوات ص ٦ . (٣) السابق: ص ١١٧ . (٤) الإسراء : ٦٠ .
(٥) انظر ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ٣ ص ١٣ ، ١٥ .

وقد يكون ذلك الإسراء خارقا لعادتهم بفارق لا نعلمه .

وإن لم يكن خارقا لعادتهم في أنفسهم فهو خارق لعادتهم وعادة الإنس في الإنس .

لأن مفهوم الخارق للعادة كما سبق أن قلت هو الخارق لعادة القبيل المتحدى (الإنس والجن) في نفسه أو في غيره .

ومن ثم يمكن القول بأن الإسراء معجزة حسية وإن لم يفهم ذلك كثير ممن يشملهم الخطاب بالمعجزة وذلك لأن الخارق الحقيقى نسبى في درجة خارقيته وفى دلالته .

والمعراج وإن لم يره جنى ولم يره إنسى إلا الرسول - ﷺ - فإن ذلك لا يطعن فيه كمعجزة حسية طالما كان خارقا حقيقيا للعادة ورآه بشر وهو النبى - ﷺ - وكأنه معجز خاص به وحده - ﷺ - وفي مبحث نسبية الدلالة[1] قلنا إن المعجزة لا يشترط فيها أن تخاطب جميع المكلفين وليس هناك حد عقلى أو شرعى للقلة أو الكثرة في عدد المكلفين الواجب تواجدهم لرؤية المعجزة ومن ثم يكفي فيه الواحد، وذلك لا يضر النبى - ﷺ - من حيث الدلالة على نبوته لأن نبوته - ﷺ - قامت وثبتت قبل الإسراء والمعراج بكثير من المعجزات الأخرى .

(١) انظر مبحث نسبية الدلالة فى الفصل الخامس من الباب الرابع .

ملحق رقم (٢)

عن حقيقة « سحر الرسول » - ﷺ - [(١)]

روى البخاري: «حدثنى عبد الله بن محمد قال: سمعت ابن عيينة يقول: أول من حدثنا به ابن جريج يقول حدثنى آل عروة عن عروة. فسألت هشاما عنه فحدثنا عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها، قال: كان رسول الله - ﷺ - سحر. حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر، إذ كان كذا، فقال يا عائشة أعلمت أن الله أفتانى فيما استفتيته فيه؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى، والآخر عند رجلى، فقال الذى عند رأسى للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم رجل من بنى زريق حليف ليهود كان منافقا. قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاطة، قال وأين؟ قال: في جف طلعة ذكر، تحت راعوفة في بئر ذَرْوَان، قالت: فأتى النبى - ﷺ - البئر حتى استخرجه، فقال هذه البئر التى أريتها وكأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن نخلها رءوس الشياطين قال: فاستخرج، قالت: فقلت: أفلا؟ أي تنشرت فقال: أما والله فقد شفانى، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً»[(٢)].

واعترض عامة المعتزلة، وأبو إسحق الاسترابادى من أصحاب الشافعى، وأبو بكر الرازى الجصاص من علماء الحنفية وابن حزم الظاهرى، وطائفة من أهل العلم وكذلك بعض العلماء المحدثين منهم محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وسيد قطب وغيرهم على صحة الحديث .

---

(١) وتأتي أهمية هذا الملحق في التأكيد على حقيقة وجود السحر وتأثيره وفى التأكيد على أن مفهوم كلمة «سحر» ليس كما يرى ابن خلدون من أنها تعني «التأثير فى عالم العناصر بالهمة من غير آلة ولا معين» [انظر المقدمة ص ٤٩٦ ، ٥٠١] . ولكن السحر جنس يدخل تحته أنواع عدة، وليس هذا الخلاف بالأمر الهين لأن الخلاف كما قلنا من قبل حول تعريف السحر مرتبط بالخلاف حول وجوده ومدى تأثيره ومن ثم الخلاف حول الفرق بينه وبين المعجزة .

وترجع أهمية هذا الملحق أيضا فى التأكيد على بطلان ما ادعاه ابن خلدون من فرق بين السحر والمعجزة من أن «السحر لا يثبت مع اسم الله وذكره» [انظر المقدمة ص ٥٠٢] لأنه - ﷺ - سحر وأثر السحر فيه وهو - ﷺ - لم يترك الذكر قط .

(٢) صحيح البخاري : بشرح فتح الباري جـ ١٢ ص ٣٤٥ ، ٣٤٧ .

وهو حديث صحيح لرواية البخارى له من أكثر من طريق وكذلك مسلم وغيرهما كثيرين.

وأما الاعتراضات التى وجهت للحديث فتتلخص فيما يلى :

١ ـ إن الحديث آحاد، وهو لا يفيد إلا الظن، والظن لا يصلح لقيام العقيدة.

٢ ـ إن روايات الحديث متناقضة .

٣ ـ لا علاقة بين أسباب نزول المعوذتين والحديث لأنهما مكيتان وهومدنى .

٤ ـ في الحديث أن الساحر رجل وقوله تعالى **﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾**[١] ينافي ذلك ، فلا علاقة بين الحديث والسورتين .

٥ ـ إن القول بأن الرسول ـ ﷺ ـ سحر، يصدق قول الكفار الذى نفاه القرآن: **﴿إن تتبعون إلا رجلا مسحورا﴾** .

٦ ـ ان الحديث يتنافى مع العصمة الواردة في قوله تعالى **﴿والله يعصمك من الناس﴾**[٢]، ولو جاز تأثره ـ ﷺ ـ بالسحر لجوزنا الشك في كل ما أتى به من عند الله، فلعله من أثر السحر .

وجواب ذلك :

١ ـ أما قولهم إن الحديث آحاد«وأحاديث الآحاد لا يؤخذ بها في أمر العقيدة»[٣].

فجوابه: أن القول بأنه ـ ﷺ ـ سحر لا يتنافى مع العقيدة، طالما أنه لا يتنافى مع العصمة، وهو لا يتنافى مع العصمة، وسيأتى بيان ذلك في موضعه .

٢ ـ وأما ادعاؤهم أن روايات الحديث متناقضة، فدعوى باطلة .

ففي رواية سفيان ابن عيينة: «فأتى النبى ـ ﷺ ـ البئر حتى استخرجه . . فاستخرج، قالت فقلت أفلا ـ أي تنشرت؟ فقال أما والله فقد شفانى وأكره أن أثير على أحد من الناس شرا »[٤].

---

(١) الفلق : ٤ . (٢) المائدة : ٦٧ .

(٣) سيد قطب : فى ظلال القرآن جـ ٦ ص ٤٠٠٨ .

(٤) صحيح البخاري بشرح فتح الباري جـ ١٢ ص ٣٤٥ ، ٣٤٧ .

وفى رواية أبى أسامة: «قلت يا رسول الله أفأخرجته؟قال لا، أما أنا فقد عافانى الله وشفانى وخشيت أن أثور على الناس شراً، وأمر بها فدفنت» (١).

وفي رواية عيسى بن يونس: «قلت يا رسول الله، أفلا استخرجته، قال عافانى الله فكرهت أن أثير على الناس فيه شراً، فأمر بها فدفنت» (٢).

ـ قال ابن بطال: (٣)«ما محصله إن الاستخراج المنفى في رواية أبى أسامة غير الاستخراج المثبت في رواية سفيان. فالمثبت هو استخراج الجف، والمنفى استخراج ما حواه، قال: وكأن السر في ذلك أن لا يراه الناس فيتعلمه من أراد استعمال السحر».

ثم إن الرواية التى رواها أبو أسامة وفيها نفى صراحة استخراج السحر، جاء في آخر هذه الرواية عبارة (وأمر بها فدفنت) فإن كان لم يستخرج السحر فما الذى دفنه، وأمر بدفنه إذن؟ولعله أيضا يكون الاستخراج الذى سألت عائشة عنه، هو الاستخراج العام ليراه جمهور الناس أما الاستخراج الخاص فقد حدث بالفعل أي أنه ـ ﷺ ـ رآه، ومن معه من النفر القليل من أصحابه (٤).

ووقع عند مسلم عن أبي كريب عن أبي أسامة «أفلا أحرقته؟» وقال النووى: كلا الروايتين صحيح كأنها طلبت أن يخرجه ثم يحرقه، وأغرب القرطبى فجعل الضمير في أحرقته للبيد بين أعصم (٥).

وعلى جميع الاحتمالات فدعوى التناقض باطلة ولا أساس لها.

٣ ـ وأما ادعاؤهم بأن لا علاقة بين أسباب نزول المعوذتين والحديث لأنهما مكيتان وهو مدنى، فغير مسلم به، لأن المعوذتين من السور المختلف في مكيتها ومدنيتها، فهى«مكية في قول الحسن، وعطاء، وعكرمة وجابر، ورواية كريب عن ابن عباس.. ومدنية في قول ابن عباس، وفي رواية أبى صالح وقتادة وجماعة وهو الصحيح» (٦).

---

(١) السابق جـ١٢ ص ٣٤٩،٣٤٧. (٢) السابق جـ ١٢ ص٣٣٦،٣٤٣.

(٣) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري جـ ١٢ ص ٣٤٦.

(٤) انظر عبد السلام السكري: السحر بين الحقيقة والوهم ص ٧٧.

(٥) انظر بن حجر العسقلاني:فتح الباري جـ١٢ ص ٣٤٧. (٦) الألوسي:روح المعاني جـ٣٠ص٢٧٨.

وبفرض مكية السورتين فليس هناك ما يمنع من استخدامهما علاجا للسحر عامة، ولسحر الرسول خاصة[1] وقد قال تعالى:[2] ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين**﴾ ثم إن من القرآن ما يتعدد نزوله [3] وقد تكون المعوذتان من ذلك فتكونا قد نزلتا مرة في مكة ومرة في المدينة .

وعلى أية حال فبفرض مكية المعوذتين وبفرض عدم وجود علاقة بين أسباب نزول السورتين وبين حديث سحر الرسول، فذلك لا يطعن في الحديث، وتبقى المعوذتين دليلا على وجود السحر بوجه عام، كما يبقى الحديث دليلا على وجوده.

٤ ـ وأما ادعاؤهم، أن الحديث نص على أن الساحر رجل هو لبيد بن الأعصم، وذلك ينافى ما ورد في قوله تعالى ﴿**ومن شر النفاثات في العقد**﴾ من الاستعاذة من النساء وأن ذلك يؤكد عدم وجود علاقة بين السورتين وبين الحديث، فيجيب عن ذلك الألوسى، بقوله: (ومن شر النفاثات في العقد): «أى ومن شر النفوس اللاتى يعقدن عقداً في خيوط، وينفثن عليها، فالنفاثات صفة للنفوس وقدر بعضهم النساء موصوفا، والأول أولى ليشمل الرجال ويتضمن الإشارة السابقة ويطابق سبب النزول فإن الذى سحره ـ ﷺ ـ كان رجلا على المشهور... وقيل أعانه بعض النساء، ولكون مثل ذلك من عمل النساء، وكيدهن غلب المؤنث على المذكر، وهو جائز» [4].

٥ ـ وأما ادعاؤهم أن القول بأن الرسول ـ ﷺ ـ سحر يصدق قول الكفار الذى نفاه القرآن: ﴿**إن تتبعون إلا رجلا مسحورا**﴾ [5] ويصدق قول فرعون لموسى ﴿**إنى لأظنك يا موسى مسحورا**﴾[6]، وكذلك قوم صالح حين قالوا له﴿**إنما أنت من المسحَّرين**﴾[7]، وكذلك قول قوم شعيب له ﴿**إنما أنت من المسحَّرين**﴾ [8].

ـ فجواب ذلك: أن كلمة «مسحور» تأتى على معانى كثيرة .

---

(١) انظر عبد السلام السكري : السحر بين الحقيقة والوهم ص ١٠٠ .

(٢) الإسراء : ٨٢ .

(٣) انظر الزركشي :البرهان فى علوم القرآن جـ ١ ص٢٩ .

(٤) الألوسي : روح المعاني جـ ٣٠ ص ٢٨٢ .

(٥) الإسراء : ٤٧ . ، الفرقان : ٨ . (٦) الإسراء : ١٠١ .

(٧) الشعراء : ١٥٣ . (٨) الشعراء : ١٨٥ .

أ ـ فقد تأتي على معنى ساحر قال قتاده: وكانت نجواهم قولهم إنه مجنون وإنه ساحر وإنه يأتي بأساطير الأولين .

ب ـ وقد تأتي على معنى مخدوع، قال مجاهد «مسحورا» أي مخدوعا، مثل قوله ﴿**فأنى تسحرون**﴾(١) أي من أين تخدعون .

جـ ـ وقال أبو عبيدة: «مسحورا» معناه أن له سحرا، أي رئة، فهو لا يستغنى عن الطعام والشراب، فهو مثلكم، وليس بملك، وتقول العرب، لكل من أكل من آدمي وغيره أو شرب «مسحور ومسحر» قال لبيد :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا.. عصافير من هذا الأنام المسحَّر .

وقال امرؤ القيس :

أرانا موضعين(٢) لأمر غيب.. ونسحر بالطعام وبالشراب .

أي نغذى، ونعلل، وفي الحديث عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت:(٣) «مات رسول الله ـ ﷺ ـ في بيتي ويومي بين سحرى ونحرى»(٤).

ويؤكد ذلك المعنى الأخير السياق في قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿**وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق،لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا،أو يلقى إليه كنز،أو تكون له جنة يأكل منها،وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا**﴾ (٥) .

وكذلك قوله في سورة الشعراء ﴿**قالوا إنما أنت من المسحّرين ما أنت إلا بشر مثلنا**﴾(٦).

٦ ـ أما ادعاؤهم أن الحديث يتنافى مع العصمة الواردة في قوله تعالى ﴿**والله يعصمك من الناس**﴾(٧) وأنه لو جوزنا تأثره ـ ﷺ ـ بالسحر لجوزنا الشك في كل ما أتى به من عند الله، فلعله نسى، أو أتى بشيء من عنده .

---

(١) المؤمنون : ٨٩ . (٢) أوضع الرجل في السير إذا أسرع .

(٣) رواه البخاري في صحيحه في باب (٩٦) من كتاب الجنائز والباب(٨٣) من كتاب المغازي، والباب(١٠٤) من كتاب النكاح ومسلم في صحيحه :برقم (٨٥) من كتاب فضائل الصحابه وأحمد في المسند جـ٦ص٤٨، ١٢١، ٢٠٠، ٢٧٤ . (٤) انظر القرطبي :الجامع لأحكام القرآن جـ٥ص٣٨٨٨.

(٥) الفرقان : ٧ ، ٨ . (٦) الشعراء : ١٥٣ ، ١٥٤ . (٧) المائدة : ٦٧ .

فجواب ذلك :

- أنه قد ثبت صدق النبى - ﷺ - وثبتت عصمته فيما يبلغه عن رب العالمين ومن ثم فتجويز ما قام الدليل على خلافه باطل .

وأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التى لم يبعث لأجلها، ولا كانت الرسالة من أجلها، فهو في ذلك عرضة لما يعترض البشر، فغير بعيد أن يخيل إليه في أمر من أمور الدنيا ما لا حقيقة له مع عصمته عن مثل ذلك في أمور الدين لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس**﴾[1] ، فهذا السياق يفصل فصلا تاما ويعزل عزلا مطلقا منطقة من شخصية النبى، وتكوينه يعتبرها مناطا للعصمة التى لا يمكن النيل منها وهى التى تتعلق بالرسالة.

أما مالا تعلق له بالرسالة، وتبليغها، فالرسول في ذلك بشر يناله ما ينال البشر من الأذى والمرض، وقد روى أنه - ﷺ - كسرت رباعيته[2] وشج يوم أحد[3]، وابتلى - ﷺ - بكثير من المحن هو والأنبياء جميعا، وفي الصحيح عن النبى ﷺ «أكثر الناس بلاء الأنبياء فالأمثل فالأمثل»[4] «والرسل تبتلى وتكون لها العاقبة»[5] «ويبتلى الرجل على حسب دينه» [6].

---

(١) المائدة :٦٧ . (٢) رواه البخاري فى صحيحه فى باب(٢٧) من كتاب الطب،ومسلم برقم(١٠١،١٠٣) من كتاب الجهاد،والترمذي فى باب(١٠،١١) من تفسير سورة آل عمران وابن ماجة فى الباب(١٥) من كتاب الطب وأحمد فى المسند جـ١ ص ٣١ ، ٣٣ جـ٣ص٩٩،١٧٩،٢٠١،٢٠٦،٢٥٣، ٢٨٨ . (٣) انظر البخاري فى صحيحه فى باب(٢١) من كتاب المغازي،ومسلم فى صحيحه برقم(١٠٣) من كتاب الجهاد،والترمذي فى الباب(١٠،١١) من تفسير آل عمران،وابن ماجة فى سننه فى الباب(٢٣) من كتاب الفتن وأحمد فى المسند جـ٣ص٩٩،١٧٨،٢٠١،٢٠٦،٢٥٣،٢٨٨.

(٤) رواه البخاري فى صحيحه فى الباب(٣) من كتاب المرضى،والترمذي فى سننه فى الباب(٥٧) من كتاب الزهد، وابن ماجة فى سننه فى الباب(٢٣) من كتاب الفتن،والدارمي فى الباب(٦٧) من كتاب الرقاق، وأحمد فى المسند جـ١ ص١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، جـ٦ ص ٣٦٩ .

(٥) رواه البخاري فى صحيحه فى الباب(١٠٢،١١) من كتاب الجهاد والباب(٤) من تفسير سورة آل عمران،ومسلم فى صحيحه برقم(٧٤) من كتاب الجهاد،وأحمد فى المسند جـ١ ص٢٦٣.

(٦) رواه الترمذي فى سننه فى باب(٥٧) من كتاب الزهد،وابن ماجة فى سننه فى الباب(٢٣) من كتاب الفتن،والدارمي فى سننة في الباب(٦٧)من كتاب الرقاق،وأحمد فى المسندجـ١ ص١٧٢،١٧٤،١٨٠،١٨٥.

فالرسل يبتلون ليستوجبوا كمال كرامته تعالى وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم، وخلفائهم إذا أوذوا من الناس، وليتأسى بهم .

«قال المازرى. . واستدل ابن القصار على أن الذى أصابه كان من جنس المرض بقوله في آخر الحديث«أما أنا فقد شفانى الله». . وفي رواية عمر عن عائشة عند البيهقى في الدلائل «فكان يدور ولا يدرى ما وجعه»وفي حديث ابن عباس عند ابن سعد«مرض النبى - ﷺ - وأخذ عن النساء والطعام والشراب، فهبط عليه ملكان» الحديث»[1] .

ويرى القرطبى: أن المراد بالعصمة هنا: هى عصمته - ﷺ - من القتل. فقد كان له - ﷺ - حراس يحرسونه بالليل وبالنهار - حتى نزلت هذه الآية، فقال لهم لا حاجة لى الآن إلى الحراسة، فقد عصمنى الله»[2] .

وأما قوله تعالى﴿**ويقتلون النبيين**﴾[3] «فإن قيل: كيف جاز أن يخلى بين الكافرين وقتل الأنبياء؟قيل: ذلك كرامة لهم، وزيادة فى منازلهم، كمثل من يقتل في سبيل الله من المؤمنين، وليس ذلك بخذلان»[4] .

وما أراه هو أن العصمة من القتل إنما تكون إلى أن ينتهى الرسول من تبليغ دعوته فقط لأن موته قبل إتمام دعوته يتنافى مع ما سبق بيانه من أن العصمة تتعلق بأمور الرسالة والتبليغ، أما بعد إتمام البلاغ، فموته مثل قتله جائزان لعدم تعلق التبليغ بهما، بدليل قوله تعالى: ﴿**أفإن مات أو قتل**﴾[5] وبدليل قوله - ﷺ - «ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلت بخيبر»[6] وكان ذلك من أسباب موته - ﷺ - وبدليل قوله تعالى﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس**﴾[7] أي إلى أن تبلغ .

وصون النبى - ﷺ - من الشياطين لم يمنع إرادتهم كيده، ففى الصحيح أن

---

(١) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري جـ١٢ص٣٣٨ .

(٢) القرطبي:الجامع لأحكام القرآن جـ٣ص٢٢٤٠ ، ٢٢٤١ .

(٣) البقرة :٦١ ،آل عمران : ٢١.

(٤) القرطبي:الجامع لأحكام القرآن جـ١ ص٣٦٨.

(٥) آل عمران : ١٤٤.

(٦) رواه البخاري فى صحيحه فى الباب (٨٣) من كتاب المغازي.

(٧) المائدة : ٦٧ .

شيطانا أراد أن يفسد عليه ـ ﷺ ـ صلاته، فأمكنه الله منه، فقد أخرج البخارى بسنده إلى أبى هريرة عن النبى ـ ﷺ ـ قال «إن عفريتا من الجن تفلت على البارحة، أو كلمة نحوها ليقطع على الصلاة، فأمكننى الله منه فقدعته[1] وأردت أن أربطه إلى جنب سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا، فتنظروا إليه كلكم أجمعون قال فذكرت دعوة أخي سليمان ﴿**رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى**﴾[2] قال فرده خاسئا»[3].

«وفي قوله تعالى عن أيوب عليه السلام: ﴿**أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب**﴾[4] قال أبو عبيدة وغيره: النُّصب الشر والبلاء، والنَّصب: التعب والإعياء، وقد قيل في معنى ﴿**أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب**﴾ أي ما يلحقة من وسوسته لا غير»[5].

وكل ذلك يدل على أن الأنبياء يخضعون لما يخضع له البشر من التعرض للأذى والمرض، بل والقتل ومحاولة كيد الشياطين. على أن ذلك لا يمس منطقة الرسالة، والتبليغ .

«قال المازرى. . قال بعض الناس: إن المراد بالحديث أنه كان ـ ﷺ ـ يخيل إليه أنه وطئ زوجاته، ولم يكن وطئهن، وهذا كثيرا ما يقع تخيله للإنسان في المنام فلا يبعد أن يخيل إليه في اليقظة .

وهذا قد ورد صريحا في رواية ابن عيينة. . ولفظه «حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن» وفي رواية الحميدى «أنه يأتى أهله ولا يأتيهم». .

وفي مرسل يحى بن يعمر عند عبد الرازق: «سحر النبى ـ ﷺ ـ . . . . حتى أنكر بصره» وعنده في مرسل سعيد بن المسيب «حتى كاد ينكر بصره» قال

---

(١) القدَع: هو عوج فى المفاصل كأنها قد زالت عن موضعها وأكثر ما يكون فى الأرساغ . الفيروزأبادي : القاموس المحيط جـ٣ ص٦١ .
(٢) سورة ص : ٣٥ .
(٣) رواه البخاري فى صحيحه فى باب(٧٥) من كتاب الصلاة، والباب(٤٠) من كتاب الأنبياء والباب(٢) من تفسير سورة (ص) وأحمد فى مسنده جـ٢ ص٢٩٨ .
(٤) سورة ص : ٤١ .
(٥) القرطبي :الجامع لأحكام القرآن جـ٧ ص٥٦٥١، ٥٦٥٢ .

عياض: فظهر بهذا أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه لا على تمييزه ومعتقده»(١) .

فمـا حدث له - ﷺ - لم يتـعد التخـيل البصرى كـما حدث لمـوسى عليه السلام. قال تعالى: (٢)﴿**يخيل إليه من سحرهم أنها تسـعى،فأوجس في نفسه خيفة موسى**﴾، ومع أن التخيل حدث فـعلا وخاف موسى مما رأى، إلا أن ذلك لم يكن مانعا من تلقى الوحى وفـهمه، وتنفيذه في نفس الوقت لأن الميدان كـان لا يحتمل التأخـير، فلو كان السحـر يؤثر على مناطق الوحى في الرسل والأنبيـاء لما استطاع موسى أن يتلقاه ويـفهمه في الحال، وذلك واضح من قـوله تعالى في نفس الآيات المتابعة حينئذ﴿**وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعـوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى**﴾(٣) . (٤) .

ووقع في مرسل عبد الرحمن بن كعب عن ابن سـعد«فقالت أخت لبيد بن الأعصم: إن يكن نبيا فـسيخبر، وإلا فسيذهله هذا السحـر حتى يذهب عقله»فوقع الشق الأول كما في هذا الحديث الصحـيح. وقد قال بعض العلماء: لا يلزم من أنه كان يظن أنه فعل الشيء ولم يكن فـعله أن يجزم بفعله ذلك، وإنما يكون ذلك من جنس الخاطر يخطر ولا يثبت، فلا يبقى على هذا حجة لمنكر .

وقال عياض: يحتمل أن يكون المراد بالتـخيل المذكور أنه يظهر له من نشاطه ما ألفه من سـابق عاداته من الاقتدار على الوطء فـإذا دنا من المرأة فتر عن ذلك، كمـا هو شأن المعقود، ويكون قـوله في الرواية الأخرى«حتى كـاد ينكر بصره» أي صار كالذى أنكر بصره، بحيث أنه إذا رأى الشيء يخيل إليـه على غير صفته، فإذا تأمله عرف حقيقته، ويؤيد جمـيع ما تقدم أنه لم ينقل عنه في خبر من الأخبار أنه قال قولا فكان بخلاف ما أخبر به (٥) .

ونخلص من كل ذلك بالآتى :

---

(١) ابن حجر العسقلاني :فتح الباري جـ ١٢ ص ٣٣٧،٣٣٨. (٢) طه : ٦٦ ، ٦٧ .

(٣) طه : ٦٩ . (٤) انظر عبد السلام السكري : السحر بين الحقيقة والوهم ص ٨٨ ، ٨٩ .

(٥) انظر ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ـ كتاب الطب باب السحر جـ١٢ ص ٣٣٨ .

. إن الأنبياء مثلهم كمثل سائر البشر، يخضعون لما يخضع له غيرهم ما لم يمس ذلك الرسالة، وتبليغها فهم معرضون للأذى والمرض، ومحاولة كيد الشيطان لهم، بل والقتل إلا أن القتل لا يكون إلا بعد إتمام تبليغ الرسالة - فكل ذلك لا يتعارض مع العصمة في تبليغ الرسالة كاملة صحيحة، ومن ثم فلا تعارض بين الحديث وبين العصمة. وبالتالى فمسألة كون الرسول - ﷺ - قد سحر مسألة ممكنة أكد الحديث وقوعها، وبالتالى أكد أن للسحر حقيقة ووجودا وتأثيرا في العالم .

ملحق رقم (٣)

(في عصمة الملائكة)[١]

اعترض قوم على القول بعصمة الملائكة، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إنى أعلم ما لا تعلمون﴾[٢]. فقالوا إن في ذلك من وجوه المعصية كثير :

١ ـ إذ فيه غيبة لمن يجعله الله خليفة بذكر مثالبه .

٢ ـ وفيه العجب وتزكية النفس .

٣ ـ وفيه أنهم قالوا ما قالوه رجما بالظن واتباع الظن في مثله غير جائز.

٤ ـ وفيه إنكار على الله فيما يفعله، وهو من أعظم المعاصى .

والجواب عن ذلك :

إنه ليس فى ذلك غيبة، ولكنه استفسار عن الحكمة والغيبة إظهار مثالب المغتاب وذلك إنما يتصور لمن لا يعلمه وكذلك التزكية[٣].

ثم إن مدح المرء لنفسه ينقسم قسمين أحدهما: ما قصد به المرء الافتخار بغيا وانتقاصا لغيره، فهذه هي التزكية وهومذموم جداً، والآخر: ما خرج مخرج الإخبار بالحق كقول رسول الله ﷺ «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[٤] وفي رواية «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة . . »[٥] «وفضلت على الأنبياء بست»[٦] وكقول يوسف عليه السلام.

---

(١) وتأتي أهمية هذا الملحق من أن الملائكة هم الواسطة التي جعلها الله تعالى غالبا بينه وبين رسله وقد جعلهم الله تعالى أسبابا فى كثير من المعجزات التي أيد بها رسله عليهم السلام. ومن ثم فإن الطعن فى عصمتهم طعن فى الوحي والنبوة والمعجزة .

(٢) البقرة :٣٠ .   (٣) انظر الإيجي :المواقف ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

(٤) رواه الترمذي:فى سننه فى الباب(١٨) من تفسير سورة الإسراء،وفى الباب الأول من كتاب المناقب ـ وابن ماجة فى سننه فى الباب(٣٧) من كتاب الزهد،وأحمد فى مسنده جـ١ ص٥، ٢٨١ ، ٢٩٥، جـ٣ ص٢،١٤٤ جـ٥ص١٣٧ ، ١٣٨ ، ٢٩٣ وحسنه السيوطي فى الجامع الصغير جـ١ ص ١٨٥ .

(٥) رواه مسلم فى صحيحه ،وأبو داود فى سننه عن أبي هريرة .

(٦) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٥) من كتاب المساجد،والترمذى فى سننه فى الباب الخامس من كتاب السير وأحمد فى مسنده جـ ٢ ص ٤١٢ .

﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾[1] وكقولنا نحن المسلمون ونحن خير أمة أخرجت للناس وكقول الحواريين﴿نحن أنصار الله﴾[2] ولا يسمى هذا تزكية، ومن هذا الباب قول الملائكة ها هنا .

ولو كان قولهم مذموما لأنكره الله عز وجل عليهم.

ثم إن كلام الملائكة ليس مبناه الظن المنهى عنه لأنهم «أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون. . أو أنهم قاسوهم على من سبق»[3].

«أو فهموا من الخليفة أنه الذى يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويرد عنهم من المحارم والمآثم»[4].

كما أن «قول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبنى آدم كما يتوهمه بعض المفسرين، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول أي لا يسألونه شيئا لم يأذن لهم فيه وها هنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقا قال قتادة: وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها فقالوا﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ إنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك»[5] .

واستدل المنكرون للعصمة أيضا بقصة هاروت وماروت وبما رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه سمع نبى الله - ﷺ - يقول: «إن آدم - عليه السلام - لما أهبطة الله تعالى إلى الأرض قالت الملائكة أى رب﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك

---

(١) يوسف : ٥٥ .

(٢) آل عمران : ٥٢ .

(٣) ابن كثير تفسير القرآن العظيم جـ١ ص ٦٩ .

(٤) انظر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن جـ ١ ص ٢٣٥ .
وانظر ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ١ ص ٦٩ .

(٥) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ١ ص ٦٩ .

ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ قالوا ربنا نحن أطوع لك من بنى آدم، قال الله تعالى للملائكة هلموا ملكين من الملائكة حتى نهبطهما إلى الأرض فننظر كيف يعملان، قالوا ربنا هاروت وماروت، فأهبطا إلى الأرض ومثلت لهما الزهرة إمرأة من أحسن البشر فجاءتهما فسألاها نفسها فقالت لا والله حتى تكلما بهذه الكلمة من الإشراك فقالا والله لا نشرك بالله أبدا، فذهبت عنهما ثم رجعت بصبى تحمله فسألاها نفسها قالت لا والله حتى تقتلا هذا الصبى فقالا لا والله لا نقتله أبداً، فذهبت ثم رجعت بقدح خمر فسألاها نفسها قالت لا والله حتى تشربا هذا الخمر، فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا الصبى، لما أفاقا قالت المرأة والله ما تركتما شيئا أبيتماه علي إلا قد فعلتماه حين سكرتما فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا»[1] .

ويقول ابن حجر العسقلاني في فتح البارى :[2] «وقصة هاروت وماروت جاءت بسند حسن من حديث ابن عمر في مسند أحمد، وأطنب الطبرى في إيراد طرقها بحيث يقضي بمجموعها على أن للقصة أصلا خلافا لمن زعم بطلانها كعياض ومن تبعه .

ومحصلها أن الله ركب الشهوة في ملكين من الملائكة اختبارا لهما وأمرهما أن يحكما في الأرض فنزلا على صورة البشر وحكما بالعدل مدة ثم افتتنا بإمرأة جميلة فعوقبا بسبب ذلك بأن حبسا في بئر ببابل منكسين، وابتليا بالنطق بعلم السحر، فصار يقصدهما من يطلب ذلك ليتعلم منهما ذلك وهما قد عرفا ذلك فلا ينطقان بحضرة أحد حتى يحذراه وينهياه، فإذا أصر تكلما بذلك فيتعلم منهما ما قضى الله عنهما» .

ويقول ابن كثير:[3] «وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء وأنهما أنزلا إلى الأرض فكان من أمرهما ما كان » .

ويقول:[4] «وقد روى قصه هاروت وماروت جماعة من التابعين كمجاهد

---

(١) رواه أحمد : فى مسنده جـ ٢ ص ١٣٤ .

(٢) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري كتاب الطب باب السحر جـ ١٢ ص ٣٣٥ .

(٣) ابن كثير :تفسير القرآن العظيم جـ ١ ص ١٣٧ .

(٤) السابق : جـ ١ ص ١٤١ .

والسُدّى والحسن البصرى، وقتادة وأبى العالية والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بنى إسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب» .

وأرى أنه بصرف النظر عن صحة القصة أو عدم صحتها فحتى بفرض صحتها فلا يقدح ذلك في المعجزة .

وقد أبنا ذلك وأوضحناه في حديثنا عن دلالة المعجزة وكذلك عند الحديث عن كيفية معرفة الرسول أنه رسول .

وأضيف هنا أن الجمع بين صحة هذه القصة وبين ما ورد من الدلائل على عصمة الملائكة كقوله تعالى﴿**لا يعصمون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾[1] وغير ذلك من الأدلة ممكن باعتبار أن هذين الملكين «سبق في علم الله لهما هذا فيكون تخصيصا لهما، فلا تعارض حينئذ كما سبق في علمه من أمر إبليس ما سبق وفي قول إنه كان من الملائكة. لقوله تعالى ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى**﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك»[3].

يقول الأشعرى:[4] «واختلف الناس هل إبليس من الملائكة أم لا؟ فقال قائلون: هو منهم، ولكنه أخرج عن جملتهم لما استكبر على الله عز وجل، وقال قائلون ليس هو من الملائكة .

فإذا كان منهم فإن ذلك يقوى صحة هذه القصة وخاصة ان شأن هاروت وماروت على ما ذكر أخف مما وقع من إبليس لعنه الله تعالى

وإذا لم يكن منهم لم يطعن ذلك في إمكان هذه القصة .

---

(١) التحريم : ٦ .

(٢) البقرة : ٣٤ .

(٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ ١ ص ١٣٧ .

(٤) الأشعري : مقالات الإسلاميين ص ١٢٨ .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر والمراجع العربية

ثانيا : المصادر والمراجع الأجنبية

أهم المصادر والمراجع العربية

نظمت المراجع والمصادر فيما يلى حسب الترتيب الألفبائي للاسم الذى اشتهر به المؤلف مع صرف النظر عن (ابن ، أبو ، ال)

* - القرآن الكريم

* - الكتاب المقدس. إصدار جمعية الكتاب المقدس فى الشرق الأدنى بيروت . لبنان ١٩٦٢ .

(كتب التفاسير) و (علوم القرآن)

* الألوسى (أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى)

- روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ط إدارة الطباعة المنيرية دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان .

* البيضاوى (ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازى)

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل ط ٢ مصطفى البابى الحلبى ،القاهرة ١٣٧٥هـ، ١٩٥٥م .

* الجمل (سليمان بن عمر العجيلى الشافعى)

- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ط. عيسى البابى الحلبى ،القاهرة .

* الرازى (فخر الدين الرازى ،أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشى)

- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ط المطبعة البهية المصرية .

* الزركشى (بدر الدين محمد بن عبد الله)

- البرهان في علوم القرآن - تحقيق :محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢ عيسى البابى الحلبى، القاهرة ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢م .

* الزمخشرى (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى)
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ط مصطفى البابى الحلبى . بمصر ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م.
* سيد قطب
- في ظلال القرآن ط دار الشروق ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.
* الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير)
- جامع البيان عن تأويل القرآن - تحقيق وتعليق : محمود محمد شاكر، مراجعة وتخريج أحمد محمد شاكر ط- دار المعارف مصر ١٣٧٤ هـ .
* القرطبى (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى)
- الجامع لأحكام القرآن - ط دار الشعب .
* ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى)
- تفسير القرآن العظيم ،ط دار إحياء الكتب العربية،عيسى البابى الحلبى . بمصر .
* النسفى (أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود)
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل ،ط محمد علي صبيح وأولاده بمصر ١٣٤٤ هـ .

(كتب السنة النبوية)

* البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَزدِزبَه البخارى الجُعفى)
- صحيح البخارى ،مطابع الشعب، القاهرة .
* الترمذى (أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة)

- سنن الترمذى ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، ط مصطفى البابى الحلبى ط ٢ ، القاهرة ١٩٧٨ م.

* ابن حجر (شهاب الدين أبو الفضل العسقلانى)

- فتح البارى بشرح البخارى . ط مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ١٩٥٩ هـ - ١٣٧٨ هـ .

* ابن حنبل (أحمد)

- مسند أحمد بن حنبل ط المكتب الإسلامى للطباعة والنشر ، دار صادر بيروت .

* الدارمى (أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن)

- سنن الدارمى - تخريج وتحقيق وتعليق : السيد عبد الله هاشم يمانى المدنى . ط حديث أكاديمى نشاط آباد ، فيصل آباد باكستان ، ١٩٨٤ م .

* أبو داود (سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدى السجستانى)

- سنن أبى داود ، تعليق: أحمد سعد علي ط ١، ط مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ١٩٥٢م .

* ابن رجب الحنبلى (زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن أحمد)

- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم ط٤ . عيسى البابى الحلبي وأولاده بمصر ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.

* السيوطى (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن)

- الجامع الصغير، شرح محمد عبد الرءوف المناوى تحقيق مصطفى محمد عماره ط١ عيسى البابى وشركاه - مصر ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م .

* ابن ماجة (أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى)

- سنن ابن ماجة، تحقيق وتعليق محمد فؤاد عبد الباقى ، ط عيسى الحلبى، القاهره .

* مالك بن أنس

ـ الموطأ ، رواية أبى القاسم، وتـلخيص القابسى تحقيق وتعليق: محـمد بن علوى بن عباس المالكى ط١ ،ط دار الشروق ، جدة ، ١٩٨٥ م

* مسلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى)

ـ صحيح مسلم ،بشرح النووى ،ط مصطفى البابى الحلبي ،القاهرة

* النسائي (أبو عبد الرحمن بن شعيب بن علي)

ـ سنن النسائي ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة . ط٢ بيروت ، لبنان ١٩٨٦م

(مصادر ومراجع فلسفية وكلامية وتاريخية وغيرها)

* إبراهيم سعيد

ـ لماذا أؤمن ، دار الثقافة ط ٥

* إخوان الصفا وخلان الوفاء

ـ الرسائل ـ ط دار صادر بيروت ١٣١٧ هـ - ١٩٥٧م

* الأشعرى :(أبو الحسين علي بن إسماعيل)

ـ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ،القاهرة مكتبة النهضة المصرية ط٢ ص ١٩٦٩

* أنيس منصور

ـ القوى الخفية ط٧ . ط المكتب المصرى الحديث القاهرة ١٩٨٨م

* الإيجي (عضد الله والدين القاضى عبد الرحمن بن أحمد)

ـ المواقف ،مكتبة المتنبى ـ القاهرة

* الباقلانى (أبو بكر محمد بن الطيب بن الباقلانى)

ـ البيـان عن الفرق بـين المعجزات والكـرامات والحيل والـكهانة،والسـحر والنارنجـات،عنى بتصـحـيحـه ونشره الأب:ريتـشرد يـوسف مكارثى اليسـوعى منشـورات جـامـعـة الحكمـة في بغـداد سلسله عـلم الكلام مـسلسل٢ المكتـبـة

المشرقية. بيروت.

- التمهيد في الرد على المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة، ضبطه وقدم له وعلق عليه: محمود محمد الخضرى، ومحمد عبد الهادي أبو ريدة، ط دار الفكر العربى - القاهرة .

* بسليوس (بولس عطية)

- الطوائف المسيحية في التاريخ والعقيدة واللاهوت المقارن الكلية الاكليريكية بدير المحرق ،دراسات في علم اللاهوت رقم(١) ط ١، ١٩٩٥ م .

* البغدادى (أبومنصور عبد القاهر بن طاهر التميمى البغدادى)

- أصول الدين ، لجنة تحقيق التراث العربى ،دار الآفاق الجديدة ط ١ بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

* تولستوى (ليو)

- حكم النبى محمد - ﷺ - شرح وتحقيق محمود محمد نصار ، ترجمة سليم قبعين مكتبة ابن سينا ١٩٩٠ م.

* توندريو (ج) و(ب .رئال)

- اليوغا سيطرة على النفس والجسد، ترجمة :سليم أيوب ،مكتبة المعارف - بيروت ١٩٨٨

* ابن تيمية (تقى الدين أبو العباس أحمد)

- جامع الرسائل - تحقيق محمد رشاد سالم

- درء تعارض العقل والنقل ،إعداد ودراسة محمد السيد الجليند، إشراف ومراجعة د. عبد الصبور شاهين سلسة تقريب التراث مسلسل٤ط ١ مؤسسة الأهرام، القاهرة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨ م.

- شرح العقيدة الأصفهانية - قدم له وعرف به: حسنين محمد مخلوف ، دار الكتب الإسلامية ١٩٦٦ م - ١٣٨٦ هـ .

- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

- قاعدة شريفة في المعجزات والكرامات . تحقيق : شريف محمد فؤاد هزاع، مكتبة الربانيين والفتح الإسلامى ، بشبين الكوم، مصر ١٩٩٠ م .

- مجموعة الرسائل الكبرى - رسالة الفرقان بين الحق والباطل ، رسالة معارج الوصول ، دار إحياء التراث العربى، بيروت ، لبنان ط٢، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

- مجموع الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمى النجدى الحنبلى وساعده ابنه محمد جـ ١١، بعنوان(التصوف) طبع بأمر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود .

- النبوات ، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٦ هـ

* الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)

- (حجج النبوة) ضمن مجموعة الرسائل، تحقيق عبد السلام هارون ط١ دار الجيل، بيروت ١٤١١هـ - ١٩٩١ م .

* الجوهرى (عبد اللطيف)

- رجل من أمة التوحيد أسلم على يده(٤٠٠٠) من الأجانب دار الصحوة - ١٩٩١م

* الجوينى (إمام الحرمين أبو المعالى عبد الملك)

- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد تحقيق أسعد تميم ط١ مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ١٩٨٥ م

* ابن حجر (شهاب الدين أبو الفضل العسقلانى)

- الزهر النضر في نبأ الخضر تحقيق وتعليق: مجدى السيد إبراهيم مكتبة القرآن، القاهرة ١٩٨٧م ، ١٤٠٧ هـ .

* ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد)

- الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر، عبد الرحمن

عميرة، دار الجيل ، بيروت، لبنان .

* الحفنى (عبد المنعم)

- موسوعه فلاسفة ومتصوفة اليهودية ،مكتبة مدبولى ١٩٩٤

* الحلبى (علي بن برهان الدين)

- إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون المعروفة بالسيرة الحلبية ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م.

* حنفى (حسن)

- من العقيدة إلى الثورة جـ٤ بعنوان (النبوات) مكتبة مدبولي ١٩٨٨

* ابن خلدون(عبد الرحمن بن محمد)

- المقدمة ط٦ ،دار القلم ،بيروت ،لبنان ١٩٨٦

* دراز (محمد عبد الله)

- النبأ العظيم ،نظرات جديدة في القرآن ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.

* الرازى(فخر الدين الرازى أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشى)

- الأربعين في أصول الدين ،تقديم وتحقيق وتعليق أحمد حجازى السقا، مكتبة الكليات الأزهرية .

- محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين راجعه وقدم له: طه عبد الرءوف سعد، وبذيله تلخيص المحصل، للعلامة نصير الدين الطوسى، مكتبة الكليات الأزهرية .

- النبوات وما يتعلق بها، تحقيق وتقديم أحمد حجازى السقا ، مكتبة الكليات الأزهرية .

* رؤوف عبيد

- مفصل الإنسان روح لا جسد ط٤ ،دار الفكر العربى ١٩٧٤

* رحمه الله الهندى :

ـ إظهار الحق . دار الجيل ، بيروت ط ١ ١٩٨٨

* ابن رشد (أبو الوليد محمد)

ـ تهافت التهافت ، تحقيق سليمان دنيا ، دار المعارف ١٩٦٥

ـ الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ، ضمن فلسفة ابن رشد ، ط١ تحقيق : لجنة إحياء التراث العربى بدار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ١٩٨٢ م

* رشيد رضا (محمد)

ـ الوحى المحمدى ، الزهراء للإعلام الإسلامى ١٩٨٨ ،

* زيعور (على)

ـ الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم ، دار الأندلس ، بيروت ، لبنان ط٢ ١٩٨٤م .

* سبينوزا

ـ رسالة في اللاهوت والسياسة ، ترجمة : حسن حنفى مراجعة : فؤاد زكريا ، مكتبة الأنجلوا المصرية ط ٣ ١٩٩١ .

* السقا (د . أحمد حجازى)

ـ مقدمة لكتاب النبوات وما يتعلق بها لفخر الدين الرازى ، مكتبة الكليات الأزهرية

* السكرى (عبد السلام عبد الرحيم)

ـ السحر بين الحقيقة والوهم في التصور الإسلامى ، مطبعة دار الكتب الجامعية الحديثة ، طنطا - ١٩٨٧ م - ١٤٠٧ هـ .

* السنوسى (أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسى الحسنى)

ـ شرح عقيدة أهل التوحيد الكبرى وبهامشه حواش للأستاذ إسماعيل بن موسى بن عثمان الحامدى ط١ مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ، ١٣٥٤هـ - ١٩٣٦ م

* سوافر (هانن)

- قصتى العظمى، تقديم وعرض د. رؤوف عبيد، دار الفكر العربى ١٩٧٢م

* ابن سيرين(محمد)

- منتخب الكلام في تفسير الأحلام مكتبة زهران، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه القاهره .

* ابن سينا (أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا البخارى)

- الإشارات والتنبيهات، وبهامشه، شرح الطوسى تحقيق سليمان دنيا، من سلسلة ذخائر العرب مسلسل(٢٢) ط دار المعارف القاهره ١٩٦٠

- رسالة أضحوية في أمر المعاد، تحقيق سليمان دنيا. ط١ . القاهره دار الفكر العربى ١٩٤٩ م .

- رسالة في الفعل والانفعال وأقسامهما ط دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ط١ ١٣٥٣ هـ

- النجاة: نقحه وقدم له: ماجد فخرى، ط١ منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٥

* السيوطى (الحافظ جلال الدين)

- لقط المرجان في أحكام الجان، دراسة وتحقيق، مصطفى عاشور، مكتبة القرآن القاهره، ١٩٨٨م .

* سيد عبد التواب عبد الهادى

- توضيح أصول الدين ط١ ١٩٨٥

* شاربنتيه (إتيان) وآخرون

- المعجزات في الإنجيل، ترجمة الآب صبحى حموى اليسوعى، ط٢ دار المشرق بيروت

* الشاعر (أحمد الحسين)

- أسرار الفنجان سلسة أسرار العدد(١) دار الشاعر للصحافة والطباعة والنشر

١٩٩٢ م.
* الشبلى (بدر الدين بن عبد الله)
- غرائب وعجائب الجن كما يصورها القرآن والسنة، تحقيق وتعليق: إبراهيم محمد الجمل، مكتبة القرآن ، القاهره ١٩٨٣ م .
* الشعراوى (محمد متولى)
- معجزات الرسول ، مكتبة الشعراوى الإسلامية، مؤسسة أخبار اليوم
- المعجزة الكبرى: الإسراء والمعراج، مكتبة الشعراوى الإسلامة مؤسسة أخبار اليوم .
* الشهاوى (مجدى محمد)
- قراءة النجوم والحظ والطالع بين الحقيقة والخرافة، مكتبة القرآن، مكتبة السباعى، الرياض جدة ١٩٨٩ م .
* الشوكانى (محمد بن علي بن محمد)
- نيل الأوطار، شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، ط٢ إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٤ هـ .
* الصايم (محمد)
- قيمة العقل في الإسلام ، مكتبة الزهراء ١٩٨٨ م.
* صدر الدين علي بن محمد بن أبى العز الحنفى
- شرح الطحاوية في العقيدة السلفية، حققها وراجعها جماعة من العلماء خرج أحاديثها: محمد ناصر الدين الألبانى. ط٨ المكتب الإسلامى ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤م.
* الطوسى (نصير الدين)
- شرح الطوسى: على الإشارات والتنبيهات لابن سينا، تحقيق سليمان دنيا من سلسلة ذخائر العرب مسلسل (٢٢) دار المعارف ١٩٦٠ م .

- تلخيص محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين، لفخر الدين الرازى مراجعة وتقديم طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، [على هامش المحصل] .

* عبد الجبار(أبو الحسين عبد الجبار بن أحمد بن الخليل بن عبد الله الهمذاني الأسد أبادى)

- شرح الأصول الخمسة، تعليق الإمام، أحمد بن الحسين بن أبي هاشم، تحقيق وتقديم: عبد الكريم عثمان، ط٢ ، مكتبة وهبة ١٩٨٨ .

- المغنى في أبواب التوحيد والعدل - تحقيق. محمود الخضرى و. محمود قاسم، مراجعة إبراهيم مدكور، إشراف طه حسين ط عيسى البابى الحلبى ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .

* عبد الحليم محمود

- دلائل النبوة ومعجزات الرسول - ﷺ - من سلسلة تجديد السيرة مسلسل (١) ط دار الإنسان للتأليف والترجمة والنشر ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

* ابن عربى (أبو عبد الله محمد الحاتمى الطائى)

- الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من أسرار ، مكتبة عالم الفكر

- الفتوحات المكية ، دار الفكر

- فصوص الحكم - دار الفكر العربى

* عفيفي (أبو العلا)

- التعليقات على فصوص الحكم لابن عربى ، دار الفكر العربى

* العقاد (عباس محمود)

- التفكير فريضة إسلامية ،دار النهضة المصرية

- ابن رشد سلسلة نوابغ الفكر العربى ط دار المعارف ١٩٥٧ م

- ساعات بين الكتب ط دار الكتاب العربى ط٢ ،بيروت ، لبنان ١٩٦٩م

- عبقرية محمد ، نهضة مصر
- مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية ،كتاب الهلال ،دار الهلال ١٩٦٨م
* على مبروك
- النبوة من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ، دار التنوير للطباعة والنشر ط ١ ، ١٩٩٣ ، بيروت ، لبنان .
* الغزالى (أبو حامد محمد بن محمد بن محمد)
- إحياء علوم الدين ، المكتبة التجارية الكبرى
- الاقتصاد في الاعتقاد ط١ ،دار الكتب العلمية ،بيروت، لبنان ١٩٨٣
- إلجام العوام عن علم الكلام ،إدارة الطباعة المنيرية ١٣٥١ هـ
- تهافت الفلاسفة ،تحقيق سليمان دنيا، دار إحياء الكتب العربية ١٩٤٧م - ١٣٦٦هـ
- كمياء السعادة، تحقيق: محمد مصطفى أبو العلا، محمد محمد جابر، مكتبة الجندى ١٩٧٣ م
- المنقذ من الضلال: تحقيق محمد مصطفى أبو العلا، محمد محمد جابر ،مكتبة الجندى ١٩٧٣ .
* الفاوى (عبد الفتاح)
- العقيدة دراسة مقارنة(اليهودية المسيحية الإسلام) ط٢ ،١٤١٢هـ - ١٩٩٢م
* الفوى (عبد الكريم حسن)
- عقائد التوحيد عن تحفة المريد على الجوهرة ،مطبعة التوفيق بدمنهور ط١ ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.
* الفيومى (سعديا)
- الأمانات والاعتقادات، تحقيق د. س. لانداور ،ليدن ١٩٨٠ م
* القاسمى (محمد جمال الدين القاسمى الدمشقى)
- دلائل التوحيد، تقديم ومراجعة محمد حجازي ط١، الناشر مكتبة الثقافة

الدينية سنة ١٩٨٦م.
* القرطبى (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى)
- الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، وإثبات نبوة سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - ، تحقيق أحمد حجازى السقا، دار التراث العربى القاهرة .
* القونى (محمد أنور)
- جمعية تحضير الأرواح ، ط مطبعة السلام
* ابن القيم (أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب بن قيم الجوزية)
- الروح، ط محمد علي صبيح ١٩٨٣ م
* الكاندهلوى (محمد يوسف)
- حياة الصحابة ، تقديم السيد أبو الحسن علي الحسينى الندوى ، تحقيق نايف العباس، محمد علي دولة ط دار القلم ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩ م.
* ابن كثير (أبو الفداء ابن كثير الدمشقى)
- البداية والنهاية ، تحقيق أحمد أبو ملحم، علي نجيب عطوى، وآخرون، ط٢ دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ١٩٨٨ م.
- قصص الأنبياء (وهو جزء من كتاب البداية والنهاية) دار الحديث - ١٤٠١هـ - ١٩٨١ م .
* الكرمانى (أحمد حميد الدين)
- راحة العقل ، تحقيق وتقديم د. مصطفى غالب، ط٢، دار الأندلس، بيروت ١٩٨٣ م.
* ابن كمال باشا (شمس الدين أحمد بن سليمان)
- (رسالة في حقيقة المعجزة ودلالتها على صدق من ادعى النبوة) الرسالة السادسة عشر، ضمن مجموعة الرسائل، والناشر أحمد جودت، طبع في مطبعة إقدام بدار الخلافة العلية سنة ١٣١٦ هـ .

* الماوردى (أبو الحسن علي بن محمد الماوردى الشافعى)

- أعلام النبوة ، ط١ دار الكتب العلمية بيروت لبنان سنه ١٩٨٦ م.

* مايكل هارت

- الخالدون مائة أعظمهم محـمد - ﷺ - ترجمة :أنيس منصور ط٧ الزهراء للإعلام العربى القاهرة ١٩٨٦ م.

* محمد بن إبراهيم الوزير ، اليمنى الصنعانى

- البرهان القـاطع في إثبات الصـانع وجميع مـاجاءت به الشرائع ،المطبـعة السلفية ١٣٤٩ هـ

* محمد عبده

- رسـالة التـوحيـد، تقـديم : حسن يوسف الغـزال ط٦ دار إحيـاء العلوم ،بيروت،لبنان ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م.

* مصطفى صبرى

- القول الفـصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذيـن لا يؤمنون [مختـصر : موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين] ،دار السلام للطباعة والنشر والترجمة ،مكتبة النور ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦ م.

* ابن ميمون (موسى بن ميمون القرطبى الأندلسى)

- دلالة الحائرين، تحقيق حسين آتاى ،القاهرة ،مكتبة الثقافة الدينية

* النابلسى (عبد الغنى)

- تعطير الأنام في تفسـير الأحلام مكتبة زهران،مطبعة عـيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر

* نخبة من علماء النصارى

- علم اللاهوت النظامى، القاهره،دار الثقافة المسيحية سنة ١٩٧١ .

* النقشبندى (جوده محمد أبو يزيد المهدى)

- النفحات الجودية في مآثر وأوراد الطريقة النقشبندية،ومناقب مولانا الشيخ

جوده إبراهيم ط١ دار الطباعة المحمدية ١٩٨٩ م.

* نوسترادا موس

- تنبؤات نوسترادا موس ، مكتبة مدبولى ١٩٩١ م.

* نوفل (عبد الرازق)

- عالم الجن والملائكة . دار الشعب

* هيكل (محمد حسين)

- حياة محمد ،ط٢ ، دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٥م .

* وديعة بدر

- عجائب المسيح ، المركز اللوثرى ، للخدمات الدينية في الشرق الأوسط ،بيروت ،لبنان.

(الرسائل الجامعية)

* أحمد عبده حسين عبد الموجود

- معجزات خاتم النبيين في ضوء القرآن والسنة رسالة ماجستير ، كلية أصول الدين جامعة الأزهر بأسيوط ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م.

* العسال (محمد محمد إبراهيم)

- الشيعة الاثنا عشرية ومنهجهم في تفسير القرآن الكريم ،رسالة دكتوراه ، كليه أصول الدين جامعة الأزهر ، القاهرة ، ١٤٠١ هـ .

* الفاوى (عبد الفتاح أحمد)

- (النبوة بين الفلسفة والتصوف) رسالة دكتوراه كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠ م.

* محمد ولى الله عبد الرحمن

- إزالة اللثام عما تنبأ به سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام رسالة ماجستير ، كلية أصول الدين ، جامعة الأزهر القاهرة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨م.

(المعاجم)

* الجرجانى (علي بن محمد السيد الشريف)

ـ التعريفات ـ تحقيق د. عبد المنعم الحفنى ط دار الرشاد ١٩٩١م .

* الحفنى (عبد المنعم)

ـ المعجم الفلسفى ـ ط الدار الشرقية ١٤٠١ هـ ـ ١٩٩٠ م.

* الرازى (محمد بن أبى بكر بن عبد القادر)

ـ مختار الصحاح ،ترتيب: محمود خاطر ط المطبعة الأميرية ١٣٤٠ هـ ـ ١٩٢٢ م .

* صليبا (جميل)

ـ المعجم الفلسفى. ط دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ،لبنان ١٩٨٢ م.

* عبد السلام هارون وآخرون

ـ المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية ط٣ ،القاهره ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م.

* الفيروزابادى (مجد الدين)

ـ القاموس المحيط، ط المكتبة التجارية الكبرى مصر ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٣ م .

(الصحف)

* جريدة أخبار الحوادث

٩ / ٦ / ١٩٩٤ م

* جريدة الأهرام المصرية الأعداد

١١ / ١٢ / ١٩٧٩ م

٢٣ / ٤ / ١٩٨٠ م

٢١ / ٨ / ١٩٩١ م

٢٠ / ٥ / ١٩٩٣ م

٧ / ٦ / ١٩٩٣ م

٩ / ٣ / ١٩٩٤ م

* جريدة المقطم المصرية الأعداد

٢١ / ١٢ / ١٩٣٣ م

/ ٥ / ١٩٣٥ م

المصادر والمراجع الأجنبية

* Abel.J.Jones :

- In Search of Truth,Thomas Nelson and Sons Ltd.London,1945

* Buttler,Joseph

- The Analogy of Religion,London and Glasgow William Collins, Sons & Co.

* Patrick,David -William Geddie :

- Chambers's Encyclopaedia .The Waverley Book Company, Limited, London.by arrangment with W.&R.Chambers,Limited,London and Edinburgh 1926

* Charles H. Coates

- The Red Theology in The Far East,London Chas. J.Thynne & Jarvis , Ltd .

* Dunne, Desmond :

-Yoga for Everyone. London. New English Library 1970 .

* Eliade,Mircea :

-The Encyclopedia of Religion,Macmillan Library Reference, NewYork

* Flew, Antony :

- A Dictionary of Philosophy .3 rd edition .London. Pan Books in association with The Macmillan Press 1981 .

* Gibb, H.A.R - J.H.Kramers :

- Shorter Encyclopaedia of Islam, Leiden E,J Brill London Luzac 1953 .

* Holt, P. M. - Ann K.S. Lambton - Bernard Lewis :

- The Cambridge History of Islam . Cambridge at the University Press 1970 .

* Hughes, Thomas Patrick

- A Dictionary of Islam . London . W.H. Allen&Co. 1885.

* Hutchison's : Clinical Methods.18 th edition . Great Britain. En - glish Language Book Sosiety, Bailliere Tindall . 1986 .

* Lewis , John :

- The Religions of The World, New York.Mad Simple Books. Doubleday & Company , INC . 1968.

* Rashdall, Hastings :

-Philosophy and Religion . London 1931 .

* Ramacharaka, Yogi .

- Hatha Yoga . Yogi Publication Society . Chicago 1904 .

* Roxburg , :

- Common Skin Disease, reversed by Peter Borrie. fourteenth edition. Great Britain. English Language Booke Sosiety & H .K . Lennis & Co.Ltd 1975 .

* Sneddon. T.B. - R.E. Church :

- Practical Dermatology, 3rd edition.Great Brittain. English Language Book Society and Edward Arnold (Publisher) Ltd. 1976 .

* The Encyclopaedia Americana ,Grolier Incorporated U.S.A.1993

* The Encyclopaedia Britannica , U.S.A.1960 .

الفهرست

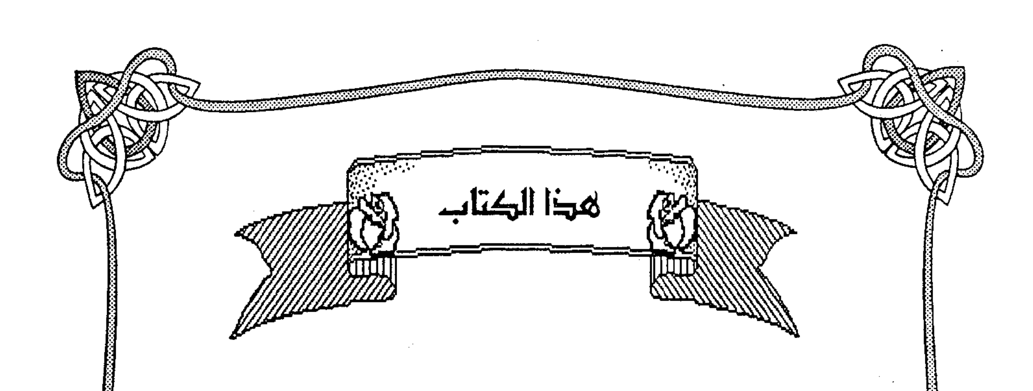
الموضوع | الصفحة

الباب الثالث

أقسام المعجزات ١٧٦ ـ ٢١٣

الباب الرابع

المعجزة بين الإقرار والإنكار ٢١٤ ـ ٣٥١



هو محاولة لإيجاد ميزان عقلي والتأصيل له ما أمكن من القرآن والسنة والكتاب المقدس . تمكن مراعاته الخاصة والعامة من التمييز بين مدعي النبوة الصادق والمدعي الكاذب .

وهذه الدراسة أحسبها أول دراسة في اللغة العربية تتناول موضوع المعجزة وحجيتها بدراسة مستقلة مستفيضه بل تزعم «موسوعة الدين» أن دراسة كهذه غير مسبوقة في تاريخ الأديان العام .